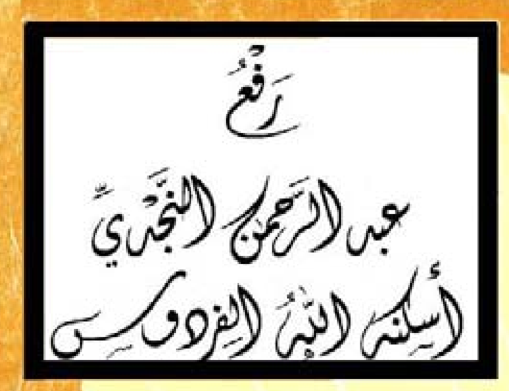


سلسلة وثائق الإسلام - ٤

الوثائق السياسية والإدارية

للعهود
الفاطمية والأتابكية والأيوبية
دراسة ونصوص

تأليف
محمد ماهر حمادة
دكتور في علم المكتبات
أستاذ في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مؤسسة الرسالة

سلسلة وثائق الإسلام - ٤

الوثائق السياسية والإدارية

للعهود
الفاطمية والأتابكية والأيوبية
دراسة ونصوص

تأليف
محمد ماهر حمادة
دكتور في علم المكتبات
أستاذ في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مؤسسة الرسالة

رفع

عبد الرحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس

الطبعة الثانية

١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م



مؤسسة الرسالة بيروت – شارع سوريا – بناية صمدي وصالحة

هاتف: ٢٩٥٥٠١ – ٢٤١٦٩٢ ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على محمد طه الأمين وبعد :

يسرنا ان نقدم الى قرائنا والى ابناء الناطقين بالضاد كتابنا هذا الموسوم باسم: الوثائق السياسية والإدارية في العهود الفاطمية والاتابكية والايوبية : دراسة ونصوص . وقد سرنا في تأليفه وجمع مادته وعرضها ودراسة العصور المختلفة على نفس النسق الذي سرنا عليه في كتبنا السابقة من نفس السلسلة ، وهدفنا لنفس الهدف ، وهي ان نجمع ألوف الوثائق الاسلامية المنتشرة في بطون كتب التراث وندرسها ونرتبها ونقدمها للدارسين والباحثين والمهتمين بالموضوع ، وذلك من لدن بداية الدولة الاموية حتى الاحتلال العثماني لسورية ومصر .

واذا كان للمؤلف ما يقوله في هذا الشأن فهو توجهه بالشكر العميق لله سبحانه الذي امده بالعمر والصحة والقوة والنشاط حتى استطاع ان ينجز ما انجزه ، ويرجوه تعالى ان يمنّ عليه بالصحة والعافية حتى يتمكن من انجاز ما تبقى من هذا الموضوع الهام .

وختاماً يشكر المؤلف جميع القـــراء الذين قرأوا كتبه السابقة والذين سيقرأون هذا الكتاب ويرجو ان يجدوا فيه متعة وفائدة ، كما وأنه يشكر كل من أمده بالمساعدة او أسداه نصيحة او وجه اليه نقداً. وفي الختام نرجوه تعالى ان يجعل اعمالنا خالصة لوجهه الكريم ، والله الموفق للصواب والسداد .

٢٣ صفر الخير ١٣٩٧ هـ
١١ شباط ١٩٧٧ م

محمد ماهر حمادة

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

فصل تمهيدي

مدخل
إلى دراسة وثائق العهود الفاطمية والأتابكية والأيوبية

ان الهدف من هذه الدراسة إلقاء بعض الاضواء على الوثائق السياسية والادارية في العصور الفاطمية والاتابكية والأيوبية . وهي فترة من اخطر فترات التاريخ الاسلامي واحفلها بالتطورت الهامة جداً في التاريخ الاسلامي في عصوره الزاهية .

ذلك ان العصر الفاطمي عاصر عهود الضعف والتجزؤ في الدولة العباسية . واستفاد من الظروف التي كانت آنذاك سائدة ، وتمكن الفاطميون أن يؤسسوا دولتهم القائمة على المذهب الشيعي في شمالي افريقيا اولاً ثم في مصر ، وتمكنوا خلال فترة ليست بالطويلة ان يوسعوا حدود البلاد الخاضعة لحكمهم لتشمل بلاد الشام كلها ومصر وقسماً مهماً من شمالي افريقيا ؛ بل أنهم هددوا الخلافة العباسية نفسها في عاصمتها بغداد حيث خُطب للمستنصر بالله الفاطمي هناك لمدة تقارب السنة ، وكان ذلك في اواسط القرن الخامس الهجري ورافق احتلال السلاجقة بغداد سنة ٤٤٧ هـ . ولكن اعقب هذا المد جزر سريع ، اذ ظهر السلاجقة الاتراك الذين ما لبثوا ان اعتنقوا الاسلام

على المذهب السني فأعادوا تفـوق السنة على الشيعة ، واحتلوا القسم الشرقي من الامبراطورية الاسلامية ودخلوا بغداد سنة ٤٤٧هـ. بقيادة طغرلبك ، ولم يلبثوا ان اصبحوا القوة الرئيسية في دنيا الاسلام ، وانتزعوا سورية من يـــد الخلافة الفاطمية وهددوا الخلافة الفاطمية في عقر دارها ، ثم حدثت تطورات سريعة وكثيرة اضعفت من قـــوة الاندفاع السلجوقي ومكنت الخلافة الفاطمية من ان تسترد انفاسها. واقتصرت هذه الخلافة على مصر وحدها ، مع جزء من فلسطين الحالية بعض الاحيان . وضعف الخلفاء وسيطر عليهم وزراؤهم العظـــام من امثال بدر الجمالي وابنه الملك الافضل . وظـــل هذا الوضع سائداً حتى نهاية التاريخ الفاطمي .

كذلك شاهدت هذه الفترة بداية الحملات الصليبية على بلاد الاسلام بقصد احتلال هذه البلاد وابادة سكانها واقتلاع الاسلام منها كدين وحضارة. ونحن وان كنا لا نعتقد ان الحروب الصليبية بدأت ضد الاسلام آنذاك ، اذ انها بدأت أبكر من ذلك بكثير ، الا أن طبيعة الحوادث تجعلنا نطلق على هذه الحملات التي بدأت سنة ١٠٩٥ م. وانتهت سنة ١١٩٢م. اسم الحروب الصليبية كشيء متميز عن الحروب السابقة التي شنت على الاسلام . وكشيء متميز عن الحروب اللاحقة التي شنت ولا تزال تشن على الاسلام . ذلك ان لها طبيعة خاصة وصفة مميزة : وهي ان اوربا كلها حشدت كل إمكاناتها وطاقاتهـــا الروحية والعسكرية والبشرية والاقتصادية لاقتلاع الاسلام من جذوره الاساسية . على حـــين ان الحملات السابقة كانت مشاركة اوربا فيها اقل . كما وان دوافع اخرى — اقتصادية وقومية وسياسية واستراتيجية — شابت الهـــدف الاوربي الصليبي والحملات الصليبية التي هاجمت العالم الاسلامي فيما بعد ولا تزال .

ولما كانت الحروب الصليبية — بمعناها الاصطلاحي الضيق المتخصص — حدثاً

هاماً جداً في دنيا الاسلام ، واحدثت هزة عنيفة كل العنف في العالم الاسلامي ، وكان لهـــا نتائج واسعة جداً ، لذلك فقـد رأينا ان نخصص لها حيزاً خاصاً منفصلاً ، ولا سيما وان الوثائق والنصوص المتعلقة بها مهمة كل الاهمية وغزيرة كل الغزارة ، بجانب ان هذه الحروب عاصرت اربعة عهود اسلامية هي : العهود الفاطمية – السلجوقية والاتابكية والايوبية والمملوكية . ولذلك فلن يكون في امكاننا هنا الاتيان بشيء له علاقة بهذا الموضوع الهام .

اما الدولة الاتابكية ، وهي الدولة التى اسسها زنكي عماد الدين في شمال العراق ، وبلغت ذروتها في عهد ابنه نور الدين ، فهي مهمة جداً ولها آثار رائعة في التاريخ الاسلامي . ذلك انها سجلت بداية تجمع القوى الاسلامية ووقوفها ضد الصليبيين ، وهي التي وضعت الاساس لانتصارات صلاح الدين والظاهر بيبرس وقلاوون ضد الصليبيين . كذلك افتتحت عهد التوحيد والوحدة في العـــالم الاسلامي ، ذلك العهد الذي كان من ابرز نتائجه اندماج سورية ومصر في دولة واحدة استمرت عدة قرون ، والقضاء على الدولة الفاطمية واعادة مصر الى احضان أهل السنة والجماعة . وان عهد نور الدين مهم جداً في هذه الناحية ، لانه وضع الاسس التي سار عليها صلاح الدين بحيث يمكن القول بسهولة ان عظمة صلاح الدين وانجازاته وضع اساسها وغرس بذورها نور الدين .

ولقد تابعت الدولة الايوبية التي اسسها صلاح الدين الخط الذي رسمه نور الدين . فقد تمكن صلاح الدين ان يحوز ميراث نور الدين بكامله وتمكن ان يعيد للإسلام شبابه وحيويته في معاركه المظفرة ضد الصليبيين ، وان يتوج ذلك بتحرير القدس . كذلك استطـاع ان يقف بوجه رد فعل اوربا العسكري البالغ العنف ضد الاسلام المتمثل بما يسمى بالحملة الصليبية الثالثة ، وان يحطم اغلب هذه الحملات ويحتفظ بقسم مهم من الاراضي المحررة . كذلك ناصر صلاح

الدين مذهب اهل السنة وحارب المذهب الشيعي وتابع خلفاؤه هذا الخط المزدوج طوال تاريخهم حتى اواسط القرن السابع الهجري عندما زالت اغلب دويلاتهم، وحلت محلها دولة المماليك البحرية .

ولقد شاهد العـــالم الاسلامي ، ولا سيما القسم الشرقي منه ، الغزو المغولي المريع الذي كان اكبر كارثة اصابت العالم الاسلامي عبر تاريخه الطويل ، ولقد تعاصر هذا الغزو المغولي مع الحروب الصليبية واستمر بعدهـا . ولقد استمر الزحف المغولي المدمر يجتاح بلاد الاسلام حتى تمكن السلطان قطز رحمه الله من ايقـــاف هذا السيل الجارف المدمر اثر انتصاره العظيم عليهم في معركة عين جالوت في فلسطين سنة ٦٥٨ هـ. وتمكن بذلك ان يدفع شرهم عن مصر وان يستنقذ بلاد الشام من براثنهم . على حين ظل العراق ومن ورائه إيران ومـا وراء النهر تحت الاحتلال المغولي . ولقد تكررت غزوات المغول لبلاد الشام فيما بعد ، وردهم ملوك المماليك مـــرة بعد مرة حتى اعتنق ملوكهم الاسلام في اواسط القرن الثامن الهجري فخفت حدة العداء ، ولكن لم تنقطع الحروب . وآخر هذه الغزوات المغولية المدمرة غزوة تيمورلنك الذي فعل الافاعيل في كل مكان حل به. ولن يكون بامكاننا هنا ان نأتي بوثائق تتعلق بالمغول وغزواتهم، وذلك لغزارة المادة واهمية الموضوع وضيق المجال هنا؛ ولذلك سنخصص حيزاً مناسباً لهذا الموضوع عند بحثنا الوثائق المتعلقة بالغزو الصليبي للعالم الاسلامي.

اهمية الموضوع :

ولقد اثبت الواقع – واقع البحث – ان الوثائق مهمة جداً . بل لا نغالي إذا قلنا انها العمود الفقري لكل بحث رصين اصيل . اذ لا يمكن القيام بالابحاث الاصيلة الرصينة دون وجود وثائق يمكن الرجوع اليها . وهذا الشيء صحيح في

جميع الموضوعات ، سواء أكانت تاريخية ام علمية ام ادبية ...

ولسوء الحظ فإن الوثائق في العالم العربي قليلة كل القلة ، وقسم كبير منها دمره الجهل والاهمال وسوء الاستعمال ، ولاسيا في العصور الغابرة حيث لم يكن القوم يدركون اهمية مثل هذه المواد فاهملوها اهمالاً ادى الى تلفها تلفاً كلياً . ولم يبدأ الاهتمام بالوثائق وجمعها ودراستها الا في العصور الحديثة . واول من اهتم بجمع وثائقنا وتراثنا بشكل عام هم الاوربيون الذين اغاروا ، منذ اواخر القرن الثامن عشر ، على العالم العربي الاسلامي الغارق في سبات دونه سبات اهل الكهف ، وبدأوا التنقيب والجمع والدراسة والشحن الى اوربا . واذا قدر لاحدنا ان يزور احد متاحف اوربا او احدى مكتباتها او احدى دور محفوظاتها، فإنه سيجد ان الوثائق المأخوذة من العالم العربي سواء أكانت لوحات فخارية ام اوراق بردى ام مخطوطات تملأ تلك المؤسسات الثقافية ، وتشكل اوفى واجمل واثمن مجموعة مما تمتلكه تلك المعاهد من وثائق ، على حين ان معاهدنا ومؤسساتنا الثقافية خلو أو تكاد تكون خلوة من مثل هذه النفائس. فالمتحف البريطاني في لندن يمتلك اثمن واضخم واكمل مجموعة من اللوحات الفخارية المستخرجة من بلاد الرافدين بخاصة . كذلك تمتلك مكتبته مجموعة رائعة من اوراق البردى المكتشفة في ارض النيل . وهي تمتلك مجموعة رائعة جداً وثمينة جداً ونادرة كل الندرة من المخطوطات العربية والفارسية والتركية وحتى الصينية . والشيء نفسه صحيح لبقية المؤسسات العلمية الاوربية والامريكية كالمكتبة الاهلية في باريس وكالمكتبة الاهلية في ڤيينا وبقية مكتبات العالم الاوربي .

وهذا الوضع طبيعي بالنسبة للعالم العربي الاسلامي . ذلك ان هذا العالم غرق في جهل وظلام وفساد وتفسخ وتقسم وضعف سياسي واقتصادي وفكري

فترة طويلة من الزمن ، ولم يستيقظ من غفلتـه الا مؤخراً . ولذلك لم يكن هذا العالم في وضع يمكنه من اكتشاف تراثه والحفاظ عليه . وكان الاوربيون آنذاك متعلمين واقوياء ومهتمين بمثل هذه الموضوعات ، وكانوا بدأوا الاغـارة على الشرق لاحتلاله واستعباد شعوبه واستثمار خيراته . ولذلك فمن البدهي ان يبـدأ القوم بدراسة الشرق واستكشافه ومعرفة كنوزه حتى يتمكنوا من معرفة مواطن الضعف فيزيدوهـا ضعفاً ، وحتى يتمكنوا من معرفة مواطن القوة فيضعفوهـا . وهكذا فقد استكشف القوم الشرق واستغلوه ودرسوه افضل دراسة ممكنة وجمعوا ما وصلت ايديهم اليه من تراثه ونقلوه الى بلادهم . وكان موقفهم في هذا المجال موقف من يمتلك بقرة حلوباً اهتم بها لا لمصلحتهـا بل لمصلحته الخاصة به .

– وعلى الرغم من ان الوضع ، بالنسبة لسرقة التراث والوثائق ، قد تغير الآن عمـا كان عليه في السابق ، الا ان الصورة لم تتغير كثيراً في بلاد العرب . ذلك ان الجهل لا زال مسيطراً على نسبة كبيرة من ابناء هذا الشعب العربي ، كما وان عدم الاستقرار السياسي والنضال ضد الاستعمار ، وتخصيص موازنات ضخمة للدفاع ضد العدو الاسرائيلي ، وعدم انتباه كثير من الحكام والمثقفين الى اهمية الوثائق وحفظها والعناية بهـا ، ادى ولا زال مؤدياً الى عدم اعطاء موضوع الوثائق والعناية بها حقه من الرعاية والعناية والاهتمام التي تتناسب مع اهميتها الفائقة .

صعوبة الموضوع :

ولذلك ، وفي ضوء ما تقدم ، يستطيع القـارىء ان يدرك الصعوبات التي تكتنف مثل هذه الموضوعات . ذلـك ان الوثائق الاصلية مفقودة كلياً ، ولا

سيما بالنسبة للفترة التي نقوم بدراستها هنا . واذا وجد بعض الوثائق الاصلية ، فهي محفوظة في دور المحفوظات والوثائق الاوربية ، ولذلك اضطررنا الى الاعتماد على ما ورد في كتب التراث من شذرات هنا وهناك ، فجمعناها ورتبناها ونسقناها وقدمناها للدارسين والباحثين حتى تكون تحت تصرفهم يستطيعون درسها ونقدها وردها او الاعتراف بها وبصحتها وغير ذلك ، مما يخرج عن حيز ونطاق هذه الدراسة .

– وطبعاً لا يمكن اعتبار هذه الوثائق اصلية . ولكن ، عند فقدان الوثائق الاصلية ، فإن الباحثين مضطرون الى الاعتماد على صور عن هذه الوثائق . وبعد دراستها وتسليط انوار النقد التاريخي المنهجي عليها ، وبعد النقد الداخلي لمحتوياتها يمكن القطع بصحتها واصالتها ، او اطراحها واهمالها .

– ولكن حسبنا ان نقوم بهذا العمل لنسد ثغرة من الثغرات الكبيرة الموجودة في حقل الوثائق التاريخية الاسلامية ودراستها .

مصادر الوثائق :

ان ما سبق يقودنا الى الكلام ، بشكل منطقي ، عن مصادر هذه الوثائق . ذلك اننا حصلنا على صور عن هذه الوثائق من كتب التراث التاريخي .

والواقع ان التراث التاريخي الاسلامي ضخم جداً وغزير جداً ومتنوع كل التنوع . ولكن الملاحظ ان قسماً كبيراً من هذا التراث ، لعله القسم الاكبر ، يهتم وبالدرجة الاولى بالحياة السياسية بمعناها الضيق ، اي يهتم بالاحداث الجارية في منطقته ومنطقة اهتمامه ، ويغفل اغفالاً كبيراً ما يدور في الاماكن البعيدة عن منطقته ، ففي تلك الفترة نجد ان اهتمام المؤرخين المسلمين الذين تركزوا في

سورية ومصر ، قد تمركزوا في هذه المنطقة من العالم الاسلامي ، وأولوا أهمية ادنى لما يجري في اماكن اخرى من العالم الاسلامي . كما وان محدثهم ينقل عن قديمهم . وتدخلت المذاهب السياسية وخاصة المذهبية والعقدية في كتـــابة التاريخ وصبغتها بصبغتها . هذا الى ان الوثائق في تلك المؤلفـــات ترد عرضاً وليست هدفاً في حد ذاتها . هذا القول صحيح مع استثناء واحــد ضخم هو كتاب **صبح الأعشى في صناعة الانشا** للقلقشندي الذي يحوي مئات الوثائق والتي جمعها المؤلف وعرضها لغاية تربوية تعليمية ومهنية هي ان يضرب المثـل للكتــاب المبتدئين وان يعلمهم كيف يكتبون الوثائق والعهود والمعاهدات وما شاكل ذلك .

– ولا بد ان نذكر ان القلقشندي يعتبر اول واضع لعلم دراسة الوثائـــق بمعناها الحديث . فهو قد صنفها حسب الشخص المرسل والشخص المرسل له ، وحسب الرتبة والمكانة وحسب المحتويات والمضمون وحسب الموضوعـــات وحسب العصور ... وبكلمة اوضح دشن افتتاح دراسة الوثائق دراسة علمية في العالم الاسلامي ، ولسوء الحظ لم يأت بعد القلقشندي من اكمل طريقته وتابعها حتى العصور الحديثة .

– ولذلك اقتصر اعتمادنا على كتب التراث الاسلامي التاريخي وما تحويه من اخبار ووثائق ؛ ولكننا اهملنا المخطوطات وذلك لصعوبة الوصول اليها وصعوبة قراءتها ، وان معرفة محتوياتها والاطلاع على ما تحويه من معلومــات تفتقر الى عنصرين رئيسيين أساسيين هما الوقت والارتحال ، وكلا العنصرين غير متوفر لدى المؤلف .

– هذا وان كتب التراث تنقسم الى اقسام ثلاثة :

فهناك اولاً كتب التاريخ العــام التي تبحث التاريخ الاسلامي ككل مثل

كتب ابن الأثير وابن كثير وابن خلدون ... وهذه تكمل المصادر الاخـــرى وتصححها وتتناغم معها .

وهناك ثانياً كتب التاريخ الخاص . ذلك انه شاع في هذا العصر الذي ندرسه ان يكتب احد المؤرخين تاريخاً لقطر معين او لدولة بذاتها ، او لحاكم بنفسه .

ولحسن الحظ حفل العصر بعدد من المؤلفين الممتازين الذين طرقوا مثل هذه الموضوعات .

والذي يجب ملاحظته ان من ألف كتاباً عن مصر مثلاً يذكر جميع الدول التي نبعت فيها سواء اكانت شيعية كدولة الفواطم ام كانت سنية كالدولة الايوبية . ولذلك فقد استوعبت مثل هذه الكتب استيعاباً جيداً . على حين ان الكتب التي خصصت لبحث دولة معينة اقتصرت على تلك الدولة وكانت مفيدة كل الفائدة في هذا المجال .

وهنـــاك أخيراً كتب التراجم العامة والخاصة والتي كانت معيناً لا ينضب للاخبار والوثائق عن عهدنا هذا ايضاً .

ولا بد ان نذكر كتاباً واحداً يقف شامخاً عملاقاً يشكل كيانـــاً مستقلاً بذاته هو كتاب **صبح الأعشى** للقلقشندي الذي مر ذكره آنفاً .

ان مـــا سبق ذكره اعلاه لمحة موجزة لكتب التراث ، وسنفصل فيما يلي مصادر كل دولة من الدول التي سنبحثها هنا .

ولا بد لنا من ان نذكر ان ميول المؤلف السياسية وعقـــائده السياسية والمذهبية كانت ولا تزال تلون نظرته للأمور ، وان معالجته لامور عصره تخضع بالتالي لهذه الاعتبارات ولاعتبارات اخرى شخصية ، من حب او كره ورغبة او رهبة ، او طمع ... ولذلك وجب علينـــا ان ندخل كل هذه الامور في

حسابنا ، وبالتالي لا نعجب لعدم ورود وثائق فاطمية كثيرة ، تمثل وجهـة نظر الفواطم او افكارهم او مذهبهم ، في تاريخ ألفه شخص سني مثلاً ؛ او الف في عصور كان اهل السنة هم المسيطرين ، او في بلد معادٍ لمذهبهم .

كذلك من الملاحظ ان الوثائق خاصة تغزر وتكثر وتصبح اكثر دقـة ودلالة كلما تقدمنا نحو زمن المؤلف، حتى يصل الامر ذروته في العصر المملوكي. فالوثائق العائدة للعهد الاموي نادرة في **صبح الاعشى** مثلاً ، فاذا اتينـا الى العصر العباسي الاول وجدنا الوثائق تغزر وتزداد اهمية وتنوعـاً ، حتى اذا وصلنا الى العصر المملوكي وجدنا هذه الوثائق تغطي جميع نواحي الحياة السياسية والادارية وحتى الاقتصادية لذلـك العصر . والشيء نفسه صحيح ، حسب نسب متفاوتة ، عند بقية المؤرخين .

فاذا اتينا الى العصر الفاطمي الذي امتد اكثر من قرنين ونصف لا نجد الا النزر اليسير جداً من الكتب الشيعية التي تبحث تاريخ الفاطميين ، كما ونجد ان الخلاف المذهبي والعقدي والعداء السياسي ذهب بقسم كبير من وثائقهم ، ومـا تبقى منها تبعثر في بطون الكتب ، وهي تمثل وجهة نظر خـاصة في الموضوع .

ولم يشذ عن هذه القاعدة الا المقريزي العظيم في كتابه الشهير **اتعاظ الحنفا باخبار الائمة الفاطميين الخلفا** . وهو كتـاب جليل خصصه مؤلفه لتأريخ الدولة الفاطمية منذ تأسيسها حتى إلغائها على يد نور الدين الشهيد ، وحاول ان يكون منصفاً وتمكن ان يعرض تاريخ القوم بحياد وباشراق وبروح علمية . كما وان كتابه حوى نصوصاً غاية في الاهمية لوثائق فاطمية لا تجدها في مكان آخر، وان كان بعضها ناقصاً مبتوراً . ويزيد من قيمة الكتاب التحقيق العلمي الذي بدأه الشيال وأتمه حلمي .

ولا بد من ذكر كتاب آخر يؤرخ لفرع من فروع الشيعة كان الاصل الذي نبع عنه الفاطميون ثم دخلوا معه في صراع رهيب واعني بذلك القرامطة . والكتاب اسمه **تاريخ اخبار القرامطة** . وهو بحالته الحاضرة لا يقدم شيئاً ذا غناء في حقل الوثائق الفاطمية ، لان ما اكتشف منه هو قسم ضئيل جداً ولا يقص الا نبذة من تاريخ القرامطة في صراعهم في سورية والعراق مع العباسيين، ويبدو ان مؤلفه لم يكن شيعياً .

اما بقية معلوماتنا ووثائقنا عن الفاطميين فنستمدها من مؤلفـــات اخرى متأخرة عن عصرهم . فمثلاً كتاب **الخطط المقريزية** يمدنا بمعلومات وبنصوص ثمينة جداً عن الفاطميين وتنظيماتهم المالية خاصة . وبشكل عام يعتبر كتاب **الخطط المقريزية** انفس كتاب عن خطط مصر من الفتح الاسلامي حتى عهد المؤلف (حدود ٨٤٠ هـ) . والمؤلف ، الذي امتاز بالحيـــاد العلمي والدقة والوضوح والنظرة الشاملة الرحبة ، استطاع في هذا الكتاب الذي هو كنز لا ينضب من المعلومات عن مصر من جميع النواحي ، ان يجمع من النصوص والوثائق التي لها علاقة بالدولة الفاطمية ما يكمل ما جمعه في كتابه السابق **اتعاظ الحنفا** ويتناغم معها ويجعل الاثنين كلاً غير منفصل .

كذلك توجد في كتاب **صبح الاعشى للقلقشندي** مجموعة من النصوص العائدة للعصر الفاطمي تلقي اضواء كاشفة على كثير من جوانب التاريخ الفاطمي ، ولا سيما في عهوده الاخيرة وعلاقاتهم الخارجية ، مع اوربا ، ومع الخلافة العباسية وممثليها القويين نور الدين وصلاح الدين ، ومع الصليبيين . هذا مع العلم ان هناك اخطاء تاريخية في نصوص القلقشندي نبهنا عليها وصححنا بعضها كلما كان ذلك ممكناً . وهذا لا يقدح ولا يطعن في القلقشندي ولا ينتقص من قيمته او وزنه كمصدر اساسي رئيسي من مصادر الوثائق الاسلامية ، ذلـك ان غزارة المادة

واتساع المجال الذي عالجه وقصور مصادر المؤلف واخطاء معاونيه ، كل ذلك ، مع عوامل اخرى ، ادت الى مثل هذه الهنات الهينات .

ولا بد من ان نذكر ان عدداً من الكتب الباحثة في تاريخ مصر مثل كتاب **النجوم الزاهرة ...** لابن تغري بردي ، **وحسن المحاضرة ...** للسيوطي ، **والسلوك في معرفة دول الملوك** للمقريزي قد أوردت عدداً من الوثائق الفاطمية تأتي هنا وهناك مبعثرة ، وفيها اخطاء تاريخية ، وتنظر الى التاريخ الفاطمي من زاوية معينة .

ونفس الشيء يقال عن كتب التاريخ العــام ككتاب **المنتظم ...** لابن الجوزي ، **والكامل في التاريخ** لابن الأثــير ، **والبداية والنهاية** لابن كثير ، **وتاريخ ابن الفرات** ، وان يكن تاريخ ابن الفرات يحوي مجموعة ثمينة من الوثائق الفاطمية تؤيد وتدعم ما سبق وجوده ، وبعضها فريد في بابه .

لكن قسماً من الوثائق الفاطمية اتى من كتب لم تخصص لدراسة الفواطم وانما خصصت لدراسة خصومهم ، وأعني بذلك الكتب الباحثة والدارسة لسير الاتابكة والايوبيين ، وأخص بالذكر كتابين اساسيين الأول : **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية** لأبي شامة ، والثاني : **مفرج الكروب في أخبار بني ايوب** . فقد حوى هذان المؤلفان ، وبخاصة الاول نصوص وثائق فاطمية غاية في الاهمية . ذلك ان المؤلفين ، وخاصة ابو شامة ، كانا في مركزين رسميين حكوميين مكناهما من الاطلاع المباشر على الوثائق الحكومية ، ومن الاطلاع على الأخبار واستمدادها من مصادرها الأصلية ، بل والمشاركة في صنع بعض هذه الاحداث . ولذلك لا غرو إن أصبح هذان الكتابان العمدة في دراسة الايوبيين ونور الدين الشهيد والعصر الفاطمي الاخير والفترة التي عاصراها من الحروب الصليبية . هــذا الى جانب النظرة الاشراقية الاستشفافية التتبعية الدؤوبة التي تميز ابا شامة بخاصة .

وهناك كتابان آخران حويا بعض النصوص الفـــاطمية ، ولكن ليس على نفس المستوى السابق ، وهمـــا : **الاشارة الى من نال الوزارة** لابن منجب الصيرفي ، والثاني: **مضمار الحقائق...** لمحمد بن عمر شاهنشاه الايوبي. فقد حوى الاول بعض النصوص المتعلقة بعدد من وزراء الفاطميين . امـــا الثاني الذي خصص كلياً للتاريخ الايوبي المحلي ، فقد ذكر نبذاً من وثائق فاطمية اثنـــاء حديثه عن الايوبيين .

ولا بد من التنويه ان المرحوم الدكتور الشيال جمع في كتابه : **مجموعـــة الوثائق الفاطمية ...** عدداً من الوثائق الفاطمية استمدها من هنـــا وهناك . ولذلك لم أشأ ان اعيد في كتابي هـــذا نصوص هذه الوثائق ، وانما اكتفيت باعطائها رقماً متسلسلاً مع تسلسل باقي الوثائق وذكرت اسمها وعنوانها واحلت القارىء الى رقم الصفحة الموجودة فيه في مجموعة الشيال آنفة الذكر ، وذكرت المصادر التي استقى منها معلوماته ونصوصه . واضفت اليها مصادر اخرى في حال ورودها في اماكن اخرى .

اما العصر الاتابكي والعصر الزنكي كما يسمى احياناً ، فهو من العصور الزاهية في التاريخ الاسلامي ، ولكن يبدو ان قصر عهده وقدوم صلاح الدين في اعقابه في بلاد الشام جعلت الانوار اقل تسلطاً عليه . ولا بد من الذكر ان ابا شامة في كتابه الذي ذكرناه آنفاً كتاب **الروضتين** قد خصص حيزاً محترماً لنور الدين الشهيد وابنه الملك الصالح ، واغنى مجموعاتنـــا الوثقية بعدد من اثمن الوثائق وانفسها عن عهد نور الدين . وهنا لا بد من ذكر مؤرخ نشأ في كنف الدولة الاتابكية وغذي بنعمتها ووقف نفسه لخدمتها والدفاع عنها واعني بذلك ابن الاثير المؤرخ المشهور صاحب كتابي **الكامل في التـــاريخ والتاريخ الباهر في تاريخ اتابكة الموصل**. نشأ ابن الاثير في الجزيرة الفراتية وولد في مدينة جزيرة

ابن عمرو وتربى في الموصل ودخل ابوه في خدمة عز الدين زنكي مؤسس السلالة ثم في خدمة اولاده من بعده . ولذلك نجـد في تواريخ ابن الاثير تعصباً لهم .
ويعتبر ابن الاثير ، الى حد ما ، مؤرخاً معاصراً للاحداث طالما انه توفي في حدود سنة ٦٣٠ هـ . وكتابه **الكامل** ... كتاب حولي يعكس افكار واهتمامات العصر ونظرته الى التاريخ ، وهو مهم جداً من اجل حدثين هامين جـــداً في حياة المسلمين آنذاك ، واعني بذلك الغزو المغولي والحروب الصليبية ، وهو نفسه عاصر هذين الحدثين الهامين وأرخ لهما . وعلى الرغم من انه موثوق كمؤرخ نزيه وله نظرات صائبة ، وهو ذو نزعة اخلاقية واضحة ، الا ان اهتمامـــه بالوثائق يأتي عرضاً ، ولا نجد عنده الغزارة من الوثائق التي نجدهـــا عند ابي شامة مثلاً . ولا يتميز ابن الاثير في كتابه **التاريخ الباهر** الذي خصصه لبحث الدولة الاتابكية وتاريخها بشيء ذي غناء ؛ فهو يعيد هنا اغلب مـــا ذكره في تاريخه العام ، او ان العكس هو الصحيح ، ولا يوازن تأريخه لنور الدين وبحثه لمنجزاته بما فعله ابو شامة في كتابه الروضتين عن نفس الموضوع ، ولا نجد فيه عدداً مهماً من الوثائق .

ومن الكتب المهمة جداً لتأريخ هذه الفترة كتاب ابن القلانسي **ذيل تاريخ دمشق** . وابن القلانسي مؤرخ معاصر توفي بعيد انضمام دمشق لحكم نور الدين ، ولذلك فمعلوماته اساسية لدراسة هذه الفترة . وهو مؤلف قدير ومنصف الى حد كبير ويأتي في كتابه بعدد كبير من الوثائق الاساسية لدراسة عصر نور الدين وعلاقته مع حكام دمشق ، ومن ثم مع اهالي دمشق وسياسته المالية والداخلية .

كذلك لا بد من ذكر كتابين محليين خصصا ، ككتاب **ذيل تاريخ دمشق** لابن القلانسي ، لبحث التاريخ المحلي لبلاد الشام أو لاقسام منها ، الاول كتاب **الاعلاق الخطيرة في ذكر امـــراء الشام والجزيرة** لابن شداد ، والثاني **زبدة**

الحلب في تاريخ حلب لابن العديم . وعلى الرغم من ان الكتابين يتناولان تاريخ المنطقة ككل ، الا انهما يخصصان حيزاً اكبر للدولة الاتابكية لانهما كانا قريبين من عهدها ، ولاهميتها في تاريخ الاسلام ، ولما قام به نور الدين رحمه الله بشكل خاص ، في سبيل توحيد البلاد ومحاربة الفرنج ، وهما معتبران من المصادر الاصلية في دراسة المنطقة وقريبان من الفترة الزمنيـــة التي يقصان حوادثها ويحويان عدداً من الوثائق المهمة .

واما في العصر الايوبي ، فقـد اصبحت الصورة اكمل واوضح ، ذلك ان هذا العصر شاهد عدداً من المؤرخين المـــعاصرين الذين تخصصوا في تأريخه ، واغلبهم موثوق به وذو نظرة شاملة رحبة ، ولذلك نجد الدراسات هنا وافية غزيرة ، والوثائق كثيرة متنوعة وموثوقة ، لانها تعتبر اصليـة او بكلمة ادق منسوخة عن الوثائق الاصلية . ولا ننسى ان اعمـــال صلاح الدين العظيمة في توحيـد البلاد الاسلاميـــة ، وقضاءه ، مع نور الدين الشهيد ، على الدولة الفـــاطمية ، ونصره لمذهب السنة ، وحروبه المتواصلة المتلاحقة ضد الفرنج الصليبيين وانتصاراته العظيمة عليهم ، وتحريره لبيت المقدس منهم ، كل ذلك كانت عوامل وبواعث دعت الى غزارة التأليف في هذا المجال .

ووثائقنا عن العصر الايوبي تأتينـــا من ثلاثة مصادر : الاول ، المصادر الاولية المتخصصة ، والثاني ، المصادر الثانوية المتخصصة ، والثالث ، المصادر العامة غير متخصصة سواء اكانت اولية ام ثانوية .

ونقصد بالمصادر الاولية المصادر والكتب المعاصرة للدولة الايوبيـة والفت في عهدها ، اما المصادر الثانوية فهي التي الفت في العصر المملوكي .

ويأتي على رأس المصادر الاولية المتخصصة كتاب ابي شامة كتاب الروضتين

في اخبـــار **الدولتين النورية والصلاحية** ، وكتاب ابن واصل : **مفرج الكروب في اخبار بني ايوب** ، وكتـــاب محمد بن تقي الدين عمر الايوبي : **مضمار الحقائق** ... وكتـــاب ابن شداد : **النوادر السلطانية** ... وكتـاب العماد الاصفهاني **الفتح القسي في الفتح القدسي** .

لقد سبق ان ذكرنا كتاب ابي شامة كتـاب **الروضتين** ... وذكرنا انه خصصه لبحث حياة كل من نور الدين الشهيد وصلاح الدين الايوبي . والكتاب، الى جانب ميزاته الكثيرة ، يحوي عـــدداً كبيراً جـداً من الوثائق التي تلقي ضوءً ساطعاً على حياة واعمال البطلين الخالدين . وهذا يعزز الرأي القائل ان أبا شامة كان على اطلاع تام على اعمال الدواوين وسجلاتها وانه احسن استخدامها كل الاحسان . ولسوء الحظ ليس هناك طبعة محققة منقحة للكتـاب جميعه ، وانما بين ايدينا طبعة بولاق كاملة . وقد بدأ بعض الافـاضل في مصر تحقيق هذا الكتاب واصدروا قسماً منه محققاً تحقيقاً جيداً ، ولا زال الامل معقوداً في ان يصدر الباقي من الكتاب محققاً .

كذلك يعتبر ابن واصل من المؤرخين المعاصرين او القريبين كل القرب من مسرح الحوادث . وكتابه مخصص كلياً لسرد تاريخ آل ايوب من اول امـرهم حتى ايام المؤلف اواسط القرن السابع هجـــري . وابن واصل مؤرخ دؤوب ومنصف وذو نظرات صائبة ، وان يكن اعتماده على الوثائق، وايراده نصوصها اقل بكثير من أبي شامة ، وكان احد مصادر المقريزي الاساسية في كتـــابه **السلوك** ... الذي ارّخ فيه لآل ايوب في مصر والشام .

امـــا محمد بن تقي الدين عمر الايوبي فهذا امير من امراء آل ايوب ومن معاصري صلاح الدين واخيه العادل . ولذلك اتى كتـابه تحفة فنية فيما يتعلق

بظهور آل ايوب وحكم صلاح الدين واخيه العادل واولادهما . كذلك يخصص المؤلف اهمية قصوى لابيه الذي كان ابن اخي صلاح الدين ومن كبار مساعديه، وقلده صلاح الدين عـــدداً من الممالك ، ولذلك نرى المؤلف يورد كثيراً من الوثائق التي لا نجدها في غيره . وهو بهذا يكون قد ساهم مساهمـة جيدة في اغناء معلوماتنا التاريخية ووثائقنا عن تلك الفترة .

ولقد كان ابن شداد قاضيـــاً زمن صلاح الدين ويوصف بانه قاضي صلاح الدين اي انه كان قاضياً في دمشق نفسها ويقضي بين يدي السلطان ، ولذلك اتى كتابه **النوادر السلطانية**... وصفاً حياً لاحداث عاشها المؤلف الى جانب السلطان وسجلها بامانة واخلاص ودقة وحيـاد . وهو في كتـابه يعطي اهمية خاصة لصلاح الدين الأب ولصلاح الدين الانسان ، ويورد بعض الوثـــائق التي تلقي بعض الضوء على ملامح ذلك البطل العظيم . ولكن المرء كان يتوقع من مثل هذا المؤلف الذي كان على اتصال مباشر بالمصادر الاوليـة ان يزودنا بمزيد من الوثائق المهمة في هذا الباب، وهذا ما لم يفعله ابن شداد، اذ وثائقه محدودة.

ولعل كتاب **الفتح القسي في الفتح القدسي** الذي الفه العماد الاصفهاني الكتاب الوحيد الذي الف للتحدث عن القدس واسترجاعهـا من يد الفرنج . والغاية منه اظهار البلاغة الكلامية في وصف الاحداث التي ادت الى هذا العمل العظيم . وهو كتـــاب يلتزم فيه مؤلفه السجع ويتفنن في ابراز بلاغتـــه وفصاحته ويورد كثيراً من الوثائق التي لها علاقة بالموضوع، وذلك بحكم مركزه ووظيفته التي شغلها في بلاط صلاح الدين . ولما كان موضوع الكتاب متعلقـــاً بالحروب الصليبية اكثر من تعلقـه بالنواحي الأخرى ، ولذلك كانت الوثائق المستلة منه قليلة العدد ، وان تكن مهمة .

وأما المصادر الثانوية المتخصصة فقد سبق ان ذكرنا اغلبها **كصبح الاعشى**

للقلقشندي ، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي ، وحسن المحاضرة للسيوطي ، وكتاب السلوك ... وكتاب الخطط ... للمقريزي ، وكتـــاب تاريخ ابن الفرات وكتاب زبدة الحلب... لابن العديم وغيرها من الكتب . فهذه الكتب متخصصة في تاريخ منطقة من المناطق (مصر وبـلاد الشام) والفت في العصر المملوكي ولكنها حوت الكثير من الوثائق الهامة التي لها علاقة بالعصر الأيوبي .

والمصادر العامة كثيرة جـداً ، وهي تقص سير التاريخ الاسلامي بشكل عام كما فعل ابن الاثير في كتابه الكامل الذي يعتبر مصدراً اولياً لعصرنا هذا ، ولكنه عام . وكذلك يعتبر كتاب ابن كثير البداية والنهاية مصدراً عامـــاً للتاريخ الاسلامي ، ولكنه ثانوي لانه الف في العصر المملوكي . وكذلك كتاب نهاية الارب ... للنويري ، وكتاب ذيل مرآة الزمان ... لليافعي ، وكتاب الكواكب الدرية ... لابن قاضي شهبة ، وكتـــاب تاريخ الخلفاء للسيوطي ، وتاريخ الذهبي وتاريخ العبر ... لابن خلدون ، وكتاب المختصر في اخبـار البشر لابي الفداء ، وكتاب مختصر تاريخ الدول ... لابن العبدي .

ويدخل في هـــذا الباب ايضاً كتب التراجم العامة كوفيات الاعيان ... لابن خلكان ، وفوات الوفيات ... لابن شاكر الكتبي ، وشذرات الذهب ... لابن العماد الحنبلي . وهي كتب حوت بعض الوثائق المهمة التي لها علاقة وثقى بأحداث العصر الذي نبحثه ؛ ووجد في بعضها بعض الوثائق المهمة المفردة ، والتي لا وجود لها الا في تلك الكتب ، وبشكل خاص وفيات الاعيان ... فقد حـوت بعض الوثائق التي – وان كانت قليلة – الا انها معبرة ومهمة .

بعد هـذا العرض السريـع الذي قمنا به لمصادر بحثنا ووثائقنا ، لا بد لنا من ان نعيد ونؤكد هنا مـــا سبق ان ذكرناه في كتبنا السابقة ، وهي اننا

نعرض الوثائق هنـــا كما وجدناها في كتب المصادر ، وانا لسنا مسؤولين عن محتوياتها ، ونحن لا نتبنى أياً منها ، ولا نجزم بصحة او زيف اي منها ، وانما هذه مهمة الدارسين . كذلك لا يعني جمعنا لهذه الوثائق ان مضمونها يعبر عن آرائنا أو معتقداتنا أو أي شيء من هذا القبيل ، وانمـــا نحن نجمعها ونعرضها بهدف تسهيل عملية البحث وتسهيل عمل الباحثين . والمجال واسع ومفتوح امام كل باحث ليطرق هذا الموضوع ويقوم بالدراسة حول هذه الوثائق .

والآن ، وبعد ان انتهينا من هذه المقدمة التمهيدية الضرورية نقوم بعرض سريع شامل مباشر لكل عهد من عهود الدول الثلاث التي تشملها دراستنا ، وهي العصور الفاطمية والاتابكية والايوبية كما تتراءى لنا من خلال وثائقها .

الدولة الفاطمية

يعتبر تأسيس الدولة الفاطمية في شمالي افريقيا سنة ٢٩٦ هـ على يد المهدي العلوي وداعيته ابي عبد الله الشيعي انتصاراً حقيقياً للشيعة وتتويجاً لجهودهـا ومساعيها في استلام الخلافة في العالم الاسلامي او في قسم منه . وعلى الرغم من أنه تأسست قبلهـــا دولة علوية في المغرب الاقصى على يد ادريس الاول الذي هرب من معركة فخ زمن الهادي العباسي ، الا انها لم تستقطب آمال الشيعة ولم تعبر عن اهتماماتهم ، ولم يكن لهـــا ذلك الوزن الذي اصبح للدولة الفاطمية فيما بعد .

ولقد سعى الشيعة ، الذين هم انصار علي واولاده ، ان يحصلوا على الخلافـة طوال العصر الاموي ، وتحالفوا من اجـــل ذلك مع العباسيين ، وثاروا عدة مرات محاولين تحقيق حلمهم هـذا ، ولكنهم خذلوا وعجزوا عن تحقيق ذلك الحـــلم وقتلوا وشردوا ، حتى تمكن العباسيون ان يقضوا على الامويين ويحلوا

محلهم في حكم العـالم الاسلامي . وقد جعلوا شعارهم اثناء كفاحهم ضد الامويين المناداة بشعار المبايعة : للرضا من آل محمد . وهي جملة مطاطة تحتمل كثيراً من الشد والجذب والتأويل . ولكن مـا ان انتصر العباسيون واستلموا الحكم حتى انهار التحالف بينهم وبين ابناء عمهم آل علي وشيعته . وسرعـان ما ادرك اوائل الشيعة انهم استبدلوا سيداً بسيد ؛ ولذلك بدأ عهد من الصراع المرير بين الطرفين . وكان الصراع هنـا حربياً ومذهبياً وعلنياً وسرياً . ذلك اذا كان العلويون والعباسيون متفقين بأحقيتهم في الخلافة ، الا انهم اختلفوا حول احقية احد الطرفين . وقد ثار الجدل النظري بجانب الخصام السياسي والحربي . وقد بطش المنصور بخاصـة بالعلويين ، ولم تكن معركة باخمرا اقل هولاً من كربلاء. ولكن ذلك لم يقنع العلويين فعادوا للثورة زمن الهادي فعاود التنكيل والبطش بهم ، وخاصة في معركة فخ التي كان لها نتائج بعيدة المدى في التاريخ الاسلامي، اذ تمكن احـد العلويين ، وهو ادريس ، من الهرب من المعركة واستقر في شمالي افريقيا في المغرب الاقصى ، واستطاع ان يؤسس دولة شيعية هناك قدر لها ان تعيش اكثر من قرنين .

وعلى الرغم من ان محـاولات العلويين وثوراتهم استمرت زمن الرشيد والمأمون ومن بعدهما ، الا انها لم توفق، ولذلك لجأ الشيعة الى الاسلوب السري. وهو نفس الاسلوب الذي اتبعه العبـاسيون من قبلهم ؛ وظلوا يخططون وينظمون ويبثون الدعاة حتى تمكنوا من تأسيس دولتهم هذه في تونس ، تلك الدولة التي قدر لها ان تحتل مصر وان تجعلها مركزاً لهـا ، وتوسعت في سورية وبلاد العرب حتى اوشكت ان تقضي على الخلافة العبـاسية لولا ظهور الاتراك السلاجقة الذين اعتنقوا الاسلام على المذهب السني فأمدوا الخلافة العباسية بدماء جديدة تمكنت من ايقاف الزحف الشيعي باتجاه الشرق ، ونصروا مذهب اهل

السنة ضد المذهب الشيعي واسترجعوا منها القسم الاكبر من بلاد الشام . ولقد ظلت الدولة الفاطمية بعد ذلك موجودة في الحيـاة ومتمركزة في حدود مصر وجزء صغير من جنوبي بلاد الشام حتى نهاية تاريخها .

يقسم تاريخ الدولة الفاطمية الى قسمين كبيرين : العهد المغربي ويمتـد من تأسيس الدولة في تونس على يد المهدي سنة ٢٩٦ هـ حتى انتقال المعز لدين الله الى القاهرة في حدود سنة ٣٥٨ هـ . والعهد المصري ويبدأ من انتقـال المعز الى القاهرة ويستمر حـتى نهاية الدولة الفاطمية . ولم يكن العهد المغربي ذا تأثير كبير في التاريخ الاسلامي ، انمـا المهم العهد المصري الذي عاصر احداثاً مهمة جداً في تاريخنا السياسي والحضاري والمذهبي . ولقد تميز العهـد المصري بأنه افتتح بعدد من الخلفـاء الاقوياء يمثلون الذروة التي وصلت اليهـا الدولة الفاطمية امثال المعز والعزيز اللذين توسعا في بلاد الشام وبلاد العرب . ويعتبر عهد المستنصر بالله عهد انتقال من عصر القوة والمنعة الى عصر التوقف وبدايـة التأخر . وكذلك امتاز اواخر عصره وعصر من اتى بعده من الخلفاء بوجود عدد من الوزراء العظام امثال بدر الجمـالي وابنه الملك الافضل الذين استبدوا بالخليفة وحجبوه وصرفوا الامور كما يشاءون . امـا العهد الاخير من عهود الدولة الفـاطمية في مصر فامتاز بالصراع بين الوزراء على السلطة الى جانب صراعهم مع الخلفـاء ، ودسائس اهل القصر واسرة الخلافـة ، والصراع مع الصليبيين واستمر ذلك الى آخر ايامهم وتاريخهم .

سبق ان قلنا ان الصراع بين بني العباس وشيعة علي كان صراعـاً متعدد الجوانب . وقد حاول العباسيون ابان ضعفهم ، أن يشككوا في صحة انتساب الفاطميين الى علي بن ابي طالب ، وعملوا في ذلك عدداً من محـاضر الطعن في

نسبهم ووقع عليهـــا الاشراف والقضاة والاعيان وعدد من الطالبيين المقيمين تحت ظل الدولة العباسية . ولقد حفظت لنـــا كتب المصادر التاريخية سجلاً كاملاً لأحد هذه المحاضر الذي صدر سنة ٤٠٢ هـ . وكله طعن في الفاطميين وفي نسبهم واتهامهم بالكفر والزندقة وانهم ادعياء خوارج لا نسب لهم في ولد علي ابن ابي طالب – رضي الله عنه – وان مـــا ادعوه من الانتساب اليه زور وباطل ...[1] وان هذا الناجم بمصر (الحاكم بأمر الله) – هو وسلفه – كفار فساق زنادقة ملحدون معطلون ...[2] .

ولكن السؤال الذي يعرض الآن : هل صحيح ان الفاطميين لا ينتسبون الى علي بن ابي طالب وانهم ادعياء ؟ ثم مـــا هي الفائدة العملية من مثل هـــذا المحضر ؟

ان مشكلة نسب الفاطميين هي مشكلة تاريخية ولا يمكن ان تحل . فكما ان بامكان كل عدوان يشك ويشكك في نسبهم ، فكذلك بامكان كل مؤيد ومحبذ ان يؤكد انتسابهم الى علي بن ابي طالب . وهـــذا لا يغير من الوضع القـــائم شيئاً، وستبقى هذه المشكلة قائمة لأن المصادر تختلف كل الاختلاف حسب ميولها وميول مؤلفيها . وهذا شيء طبيعي ومنطقي ان يحدث ولا يؤخر ولا يقدم في الامر شيئاً . ويخيل الينا ان العباسيين استفادوا من الشذوذ والاضطراب وسوء التصرف الذي اوجده الحاكم بأمر الله الفاطمي، وهو الخليفة المضطرب التفكير المتقلب الاهواء المتردد المهزوز الشخصية ، فاصدروا هذا المحضر ضده لينفروا الناس من سلوكه . ويبدو لنا أيضاً ان العباسيين – في محضرهم هـــذا – كانوا

---

(١) المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي . اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا . تحقيق جمال الدين الشيال . القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٤٨ م. جـ١، ص ٥٨ – ٦٠ .

(٢) نفس المصدر .

مدافعين عن انفسهم اكثر منهم مهاجمين ، ذلك انه هالهم انتشار الحركة العلوية واسراع الناس للانضواء تحت لوائهـا حتى في بغداد نفسها ، فلجأوا فيما لجأوا اليه ، الى تشكيك الناس في نسب الفاطميين وفي دينهم وسلوكهم . وهذا هو المبرر الوحيد – في رأينـا – لاصدار مثل هذه المحـاضر ، وهذه هي فائدتها المتوخاة .

المهدي العلوي:

ويبدو أن اعداء الفاطميين ، واعداء الشيعة بشكل عام ، قد اعتادوا على وصفهم بالكفر والزندقة والالحاد حتى قبل ان تقوم دولة الفواطم ، ونجد ذلك واضحاً في الرسالة التي وجهها المهدي العلوي الى ابي طاهر الجنابي القرمطي لما قتل الحاج ودخل البيت الحرام وقلع الحجر الاسود واخـذه الى البحرين سنة ٣١٧ هـ : سجلت علينا في التاريخ نقطة سوداء لا تمحوها الليـالي والايام . قد حققت على دولتنا وشيعتنا ودعاتنـــا اسم الكفر والزندقة والإلحاد بفعالك الشنيعة هذه ...[١]

القائم العلوي :

وما ان استقرت قدم الفواطم في شمالي افريقيا حتى بدأوا يحاولون التوسع نحو الشرق واحتلال مصر ، كما فعل المهدي وخلفـاؤه من بعده حتى تكللت جهودهم بالنجاح على يد المعز لدين الله ، وبنفس الوقت بدأوا يدعون الآخرين للانضمام الى صفوفهم . فقد ارسل القائم بأمر الله ابن المهدي وخليفته رسالة الى

---

(١) ثابت بن سنان . تاريخ أخبار القرامطة ، تأليف ثابت بن سنان وابن العديم. تحقيق سهيل زكار . بيروت ، مؤسسة الرساله ، ١٩٧١ م. ص ١٤ .

اهل مكة يدعوهم الى الانضمام الى صفوف الفاطميين ويقول : نحن اهل بيت الرسول ومن احق بهذا الامر منا ؟ وضمن الرسالة ابياتاً من الشعر فيها تعنيف لأهل مكة المكرمة لانهم اتبعوا العباسيين غير الشرعيين–في رأي الخليفة القائم– وتركوه هو، وهو الخليفة الشرعي القائم بأمر الله حقيقة[1]. وقد ارسل أهل مكة الرسالة الى الخليفة العباسي– اما المقتدر او الراضي–الذي امر كاتبه الصولي فرد على القائم اسوأ رد واتهمه انه كاذب وانه دعي وأنه مهدي السفاهة والخنا[2] ولا بد من التنويه هنا ان ابن الابار راوي القصة يذكر ان الخليفة العباسي هو المقتدر العباسي . ولكن ذلك غير ممكن لان المقتدر توفي سنة ٣٢٠ هـ على حين تولى القائم الفاطمي الخلافة سنة ٣٢٢ هـ . واذن هناك خطأ في احد هذين الاسمين . فإما ان يكون الخليفة الفاطمي هو المهدي الذي كان معاصراً للمقتدر ، ويرد اسمه في الشعر : مهدي السفاهة والخنا ؛ أو ان الخليفة العباسي المقصود هو الراضي بالله الذي حكم بين سنتي ٣٢٢ – ٣٢٩ هـ ، وكان الصولي كاتبه .

المعز لدين الله الفاطمي :

واذا وصلنا الى المعز لدين الله نكون قد وصلنا الى شخصية قوية من الخلفاء الفاطميين ، وهو مفتتح دور القوة والعظمة في الدولة الفاطمية .

ولقد حقق المعز احلام اسلافه في احتلال مصر وجعلها مقراً للخلافة الفاطمية . وقد استفاد المعز كل الفائدة من الضعف الذي آلت اليه الخلافة العباسية في المشرق وسيطرة الاتراك على مقدرات الامور في بغداد وانقسام

---

(١) ابن الأبار . الحلة السيراء ، تحقيق حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٦٣ م. جـ٢ ، الجزء الأول – ٢٨٧ .

(٢) نفس المصدر .

الخلافة العبـــاسية الى عدد كبير من الدويلات المتناحرة ، كما وانه استفاد من ضعف مصر وحكم كافور لها ، وخلو البلد من شخصية تستطيع جمع شمل القوى تحت قيادة حازمة فتمكن من احتلال مصر على يد مولاه جوهر الذي احتل البلاد وشرع في بناء القاهرة ، والتي قدر لها ان تصبح منذ ذلك الزمن احدى امهات المدن الرئيسية في دنيا الاسلام والعروبة حتى الوقت الحاضر .

وتدل وصية المعز ليوسف بن زيري الصنهاجي الذي عهد اليه بحكم المغرب نيابة عنه لمـا قرر الارتحـــال عن المغرب والاستقرار في مصر على فهم عميق لطبيعة واخلاق البربر بخاصة ، ذلك انه اوصاه الا يرفع الجباية عن اهـــل البادية ، والا يرفع السيف عن البربر ، والا يول احـــداً من اخوته وابناء عمه لانهم يرون انفسهم احق منه بالولاية وان يحسن لسكان المدن[1] .

كذلك يدل الامان الذي منحه جوهر باسم مولاه المعز لاهل مصر لمـــا احتلها على حنكة سياسية ونزعة عمليـــة نحو تطمين سكان مصر ان الامور ستسير كما يحبون ، وانه لن يكون هناك تغيير قهري . وهو يذكر ان مولاه طلب منه احتلال مصر لانقاذ المصريين مما اصابهم من فساد واضطراب ، وأن ما حل بأهل المشرق عامة قد ابكى عينه وارمضه وامضه ، وان المعز طلب الى جوهر ان يستنقذ من اصبح منهم في ذل مقيم ، وان يؤمن من اصابـــه الخوف ويفرخ روع من لم يزل في خوف ووجل[2] . كذلك حوى الأمان ، بناء على طلب خاص من اهل مصر ، ان يسمح لهم بالاقامة على مذهبهم ، وان يتركوا على ما كانوا عليه من اداء الفروض ، وان يجري الأذان وصيام شهر رمضان

(١) المقريزي ، المصدر المذكور آنفاً ج ١ ، ص ١٤٢ – ١٤٥ .
(٢) نفس المصدر. ج١، ص ١٤٨–١٥٣ .

والصلاة وقيام رمضان والزكاة والحج والجهاد على امر الله في كتابه وعلى سنة نبيه ﷺ ، وان يجري اهل الذمة على ما كانوا عليه .

ونحن نلتمس عذراً لأهل مصر في تأكيد هذه الامـــور ، لأن مذهب الفاطميين يخالف في كثير من هذه المسائل المذهب السني الذي عليه اهل مصر ، ولذلك اصر القوم عليها ، ويذكر جوهر انه يذكرها بناء على رغبتهم وتطميناً لهم ، والا فلم يكن لذكرها معنى ولا في نشرها فائدة ، اذ كان الاسلام سنة واحدة وشريعة واحدة[١] .

والملاحظ في هذا الامان ، وفي اغلب العهود والمواثيق الفاطمية ، انه كلما مر ذكر الخليفة يتبعه بجملة – صلوات الله عليه – وفي احيان كثيرة يقول : صلوات الله عليـــه وعلى آبائه الطاهرين وابنائه الأكرمين[٢] وهذا شيء غير معروف عند اهل السنة . اذ جملة – صلى الله عليه – لا تقال الا بعد ذكر اسم الرسول الكريم صلى الله عليه .

كذلك برهن المعز مرة ثانية على فهمه للنفس البشرية ، وبشكل خاص لانماط معينة منها ، عندما حذر مولاه جوهراً من الاستنامة الى حد من آل حمدان الذين لجأوا الى جوهر وعرضوا خدماتهم عليه : فبنو حمدان يتظاهرون بثلاثة اشياء عليها مدار العالم وليس لهم فيها نصيب . يتظاهرون بالدين وليس لهم فيه نصيب ، ويتظاهرون بالكرم وليس لواحد منهم كرم في الله ، ويتظاهرون بالشجاعة وشجاعتهم للدنيا لا للآخرة [٣] .

---

(١) نفس المصدر .

(٢) نفس المصدر .

(٣) المقريزي ، تقي الدين احمد بن علي . الخطط المقريزية . الشياح ، لبنان ، مكتبة احياء العلوم . ج ٣ ج ٢ ، ٢ – ١٥٧ .

وتؤكد جميع النصوص الفاطمية الواصلة إلينا من ذلك العهد على احقية الفاطميين سلالة الرسول الكريم بالخلافة ، وان ذلك امر بدهي ومفروغ منه ولا مناقشة فيه ، وان الله سبحانه انقذ البشر بخلافتهم الى غير ذلك من المفاهيم [١] .

ومن الحوادث الكبرى في تاريخ المعز ، ومن الأخطار الجسيمة التي تعرض له البناء الفخم الذي أقامه في مصر ، هو هجوم القرامطة بزعامة الحسن الاعصم على مصر ، قبل قدوم المعز اليها ، وبعيد ذلك ، وهزيمتهم لجوهر قائده ومولاه هزائم متواليات منكرات . وقد ادرك المعز خطر القرامطة ، وادرك في الوقت نفسه عجزه عن دفعهم ، فلجأ الى طريقين متوازيين للتغلب على ذلك الخطر. الاول كسب الوقت بالتراسل مع الحسن الاعصم ، ولعله ظن ان ذلك قد يؤثر في القرمطي ، والثاني عمله على شق جبهة التحالف المعقود بين القرمطي وبين حسان بن الجراح امير العرب .

وقد حفظ لنا المقريزي في اتعاظ الحنفا قسماً مهماً من الخطاب الذي وجهه المعز الى الحسن الاعصم ، ولا ندري لماذا لم يأت به كاملاً ، ولعل ذلك عائد الى النساخ لا الى المؤلف نفسه . واسلوب هذا الكتاب عجيب في بابه ، فريد من نوعه . فعلى الرغم من انه موجه الى الحسن الاعصم الا ان مفتتحه وكأنه خطبة موجهة الى جميع الناس : اما بعد ايها الناس فانا نحمد الله بجميع محامده ...[٢] ثم يبدأ فيعدد الآيات والبراهين المقدمات التي دلت على قدومه

---

(١) ابن الجوزي ، علي بن عبد الرحمن . المنتظم في تاريخ الملوك والامم . حيدر آباد الدكن، دائرة المعارف العثمانية ، ١٣٥٩هـ. جـ٧ ، ص٥٧ — ٥٨ .

(٢) المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي . اتعاظ الحنفا ... تحقيق جمال الدين الشيال . القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٤٨م. الجزء الأول. جـ١، ص ٢٥١ — ٢٦٥.

[اي المعز] وعلى ظهوره ، وان من واجب جميع البشر طاعته ، وان طاعته طاعة الله وان الله تعالى سبق في علمه قدوم المعز ، وان الاسلام لا يقوم الا به والاعتراف به ، وان اصله إلهي ؛ ثم بعد ذلك ينتقل الى خطاب حسن الاعصم ويصفه بالغادر والخائن والناكث والبائن عن هدي آبائه واجداده ، وهو يقرعه ويعدد عليه مـا فعله في جيوش المعز في بلاد الشام وقتله انصاره واجناده ، ثم يعرض عليه خصالاً ثلاثاً ، فان اباها كلها فهو لعين وهو رجيم[1] والكتاب كله مليء بالآيات القرآنية التي حشدت هنـا وهناك للبرهنة على عقيدة المعز ، وهو بالحقيقة كتب لكسب الوقت وليكون معرضاً للدعاية للمذهب الفاطمي وبيان الرأي الرسمي في مذهب الدولة الفاطمية الرسمي .

ولكن الطامة الكبرى ان الحسن الاعصم لم يتأثر بما اورده المعز ادنى تأثر ، بـل ادرك ان كل ذلك كلام لا معنى له ، وان غاية المعز معروفة لديه فأجـابه جوابـاً لا اعتقد ان هنـاك جواباً آخر اكثر دلالة على الاستخفاف والازدراء واكثر بلاغة وايجازاً ودلالة من جواب الحسن الاعصم للمعز... ذلك ان خطاب المعز يشغل صفحات كثيرة وفيه استشهادات كثيرة ، واسلوبـه اختلف من الاسلوب الخطابي الى الاسلوب الشخصي التهديدي العنيف ، على حين ان جواب الحسن الاعصم جواب مختصر بليغ كل البلاغـة معبر كل التعبير ، وفيه من الاهانة للمعز . والاستخفاف بكل اقواله ما يعجب معه المـرء كيف تحمل المعز مثل هذه الاهانة : وصل كتابك الذي قل تحصيله وكثر تفصيله ، ونحن سائرون اليك على اثره ، والسلام[2] .

واما التدبير الثاني الذي لجأ اليه المعز وافلح بواسطته ان يرد عادية القرمطي

---

(١) نفس المصدر .

(٢) ابن الأثير ، عز الدين ، الكامل في التاريخ . تحقيق عبد الوهاب نجار. القاهرة ، المطبعة المنيرية ، ١٣٤٨ هـ. جـ ٨ ، ص ٦٣٨ ،

عنه بواسطته ، فهو اتصاله بأمير العرب حسان بن الجراح واغراؤه بالمال حتى وافق ان يتخلى عن حليفه وقت المعركة : ابعث اليّ بما التزمت وتعال بمن معك ، فاذا التقينا انهزمت بمن معي فلا يبقى للقرمطي قوة فتأخذه كيف شئت [1] .

العزيز بالله :

ولقد استمر القرامطة خطراً يهددون الدولة الفاطمية زمن ابن المعز العزيز بالله ، ولكن ليس على نفس المستوى السابق ، وعلى الرغم من تحالف القرامطة مع افتكين التركي وغيره من الثوار ، الا ان العزيز خرج بنفسه للقائهم وانزل بهم هزيمة قوية وارسل البشائر بذلك الى مصر والى نائبه فيها يبشره بهذا الانتصار . والكتاب قطعة بلاغية مطولة كلها تمجد العزيز بالله وتؤكد حقه الالهي في الخلافة وان الله تعالى اختاره لإعلاء دينه وقمع كل مارق عنه . ثم ينتقل الى ذكر الحرب التي دارت بينه وبين افتكين وحلفائه القرامطة ، وكيف ان الله تعالى ساعد العزيز ضدهم حتى هزم الجميع واسر افتكين قبضاً بأليد بدون عهد او عقد[2] .

والواقع ان افتكين هذا الذي مر ذكره اصبح خطراً ماحقاً هدد العزيز في ملكه ، بعد ان كان من قواده ، وصب الهزائم المهينة على رأس قائده جوهر حتى انه لم يسمح لجوهر ان يخرج من عسقلان هو وعسكره الا من تحت سيفه

---

(١) ابن كثير ، اسماعيل . البداية والنهاية في التاريخ. القاهرة ، المطبعة السلفية، ١٩٣٢م. ج١١، ص ٢٧٦ .

(٢) القلقشندي ، أبو العباس أحمد . صبح الأعشى في صناعة الإنشا . القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩١٣ م. ١٤ ج ٦ ص٤٣٣ — ٤٣٩ .

الذي علقه على الباب مبالغة في اذلاله[1] .

ولقد اضطر العزيز ان يخرج بنفسه الى حرب افتكين ، ولكنه رغب قبل المعركة مباشرة ان يستميله اليه ، فأرسل اليه يعرض عليه الامان ويعد العفو وان يعيده قائد جيشه : فلك عهد الله وميثاقه اني أؤمنك وأصطفيك ونوأه باسمك واجعلك اسفهسلّار عسكري واهب لك الشام بأسره واتركه في يدك [2] .

ولقد واجه العزيز تحدياً آخر لخلافته وادعاءاته في شخص خلفاء قرطبة الامويين، ذلك ان عبد الرحمن الناصر ادعى الخلافة في الاندلس وتلقب بالقابها سنة ٣١٦ هـ وحارب الفاطميين في المغرب الاقصى . وتابع ابنه وخليفته الحكم المستنصر بالله (٣٥٠ – ٣٦٦ هـ) سياسة والده وتمكن ان يقضي على نفوذ الفاطميين في المغرب الاقصى وان يقضي على دولة الادارسة هناك . ولما لم يكن بامكان العزيز ارسال قوات لاستعادة ما فقده هناك ، فقد حنق على الحكم الاموي ، ولذلك ارسل رسالة الى الحكم الاموي كلها هجاء وثلب فأجابه الحكم بما يلي : عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لهجوناك وأجبناك والسلام[3] .

الحاكم بأمر الله :

يُعرف الحاكم لدى الباحثين والمؤرخين انه شخص مضطرب التفكير كثير

---

(١) المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي . اتعاظ الحنفا ... تحقيق جمال الدين الشيال ومحمد حلمي محمد أحمد ، القاهرة ، لجنة إحياء التراث الإسلامي ، ١٩٦٧ م. ٤جـ، جـ ١ ص ٢٤١ .

(٢) ابن القلانسي ، أبو يعلى حمزة . ذيل تاريخ دمشق تحقيق أمدروز. بيروت ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، ١٩٠٨ م. اعادت مكتبة المثنى في بغداد طبعه بالأوفست ، ص ١٨ .

(٣) ابن العماد الحنبلي . شذرات الذهب في أخبار من ذهب . القاهرة ، مكتبة القدسي ، ١٣٥١ هـ. جـ٣ ، ص ١٢١ .

التردد عاطفي النزعة قاسٍ مغرور ، وان حكمه كان كارثة على الحكم الفاطمي بالذات وانتهى بفاجعة اودت بحياته بشكل غامض .

والواقع حدثت بعض الامور جعلت الحاكم ينحو هـــذا النحو . فهو قد استلم الخلافة حدثاً ، وقد ترك له ابوه امبراطورية واسعة متماسكة – في الظاهر على الاقل – وقد التف حول الحاكم فريق من الدعـاة والمؤيدين الذين لم يبالوا بكبح جماح شذوذه ، بل شجعوه وصعدوا ذلك لديه حتى انتهى به الامر الى ادعاء الالوهية . اضف الى ذلك ان اعداء بني العبـاس ، وحتى بعض المتغلبين على الاطراف ممن يدين بالولاء المهزوز للخلافة العباسية ، مثل قرواش بن المقلد حاكم الموصل ، كانوا يخطبون للفاطميين كلما ارادوا مضايقة العباسيين او دخلوا في نزاع معهم . فقد خطب قرواش هـذا في بلده للحاكم بأمر الله ، لما نشب خلاف بينه وبين الخليفة العباسي ، فوصفه بأوصاف لا يوصف بأعلى منها حتى الانبياء : اللهم واجعل نوامي صلواتك وزواكي بركاتك على سيدنا ومولانا امام الزمان وحصن الايمـــان وصاحب الدعوة العلوية والملة النبوية ، عبدك ووليك المنصور ابي علي الحاكم بأمر الله امير المؤمنين [1] ...

ويدل مرسومه الذي قلد بموجبه الحسين بن علي بن النعمان القضاء في مصر واجناد الشام وبلاد المغرب وغير ذلك من الامور على ذهن متفتح ورغبة في احقاق الحق واعلاء منار الشرع وافراغ الهيبة على الحكم وتنزيه القاضي ومنصبه عن السفاسف والصغائر . كما وانه يطلب منه ان يأخـذ بأحكام اباء واسلاف الحاكم في الاحكام ويجعلها قبلة له [2] .

---

(١) ابن تغري بردي. النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة . القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٢٩ م. جـ٤، ص٢٢٥–٢٢٧ .

(٢) القلقشندي . المصدر المذكور آنفاً. جـ١٠، ص٣٨٥–٣٨٩ .

ولكن الذي يكشف شخصية الحاكم وتناقضه هو موقفه من الجند المغاربة والاتراك واهل مصر والعبيد السود . ذلك ان الحـــاكم غضب كل الغضب من اهل القاهرة الذين اسمعوه كل مكروه ، فـــاراد ان ينتقم منهم ، ولكن لا كما يفعل الحاكم العاقل الذي يؤدب رعاياه ويضبط الامن في بلده ، بل بحسب عقله المضطرب هو ، فحرض العبيد السود والاتراك على احراق القـــاهرة ، ولكن اهل القاهرة دافعوا عن بلدهم ودار قتـــال عنيف بين الطرفين ، ثم تمكن اهل القاهرة ان يجذبوا الجند الاتراك والمغاربة الى طرفهم واصبح الجميع ضد العبيد وارسلوا الى الحاكم يسألونه هل ما فعله العبيد بإذنه وعن امره ، ام ان مـــا فعلوه ويفعلونه مخالف لرأيه؟ فإن كان ذلك من رأي الحاكم فليسمح لهم باخراج عيالهم واموالهم من القاهرة وان لم يكن ذلك من رأيه فليطلق يدهم في حرب السودان . ولكن الحاكم اعلن للاتراك انهم على صواب وسمح لهم بنصر المصريين والايقاع بالسودان، وفي نفس الوقت ارسل الى السودان سراً رسالة يقول لهم: كونوا على امركم . ولما وصلت انباء هذه الرسالة الى مسامع الاتراك والمغاربة ثاروا ثورة عـــارمة ضده وارسلوا له يقولون بأنهم عرفوا غرضه وهو تدمير القاهرة وهلاك اهلها وهلاك الاتراك والمغاربة ، ولكنهم انذروه انه لن يسلموا انفسهم واهليهم واموالهم ، وانذروا باحراق القـــاهرة ان لم يكفّ عبيده عنهم[1] .

والواقع ان هذا التفكير المضطرم المضطرب والشخصية المتقلبة القلقة ادت الى خراب جسيم اصاب مصر والقاهرة وكل البلاد الفاطمية، ولم يكن مناص من ان تزول شخصية الحاكم هذه فزالت وكان زوالها على يد اقرب الناس اليه: اخته.

---

(١) ابن تغري بردي . المصدر المذكور آنفاً . جـ٤ ، ص ١٨١ – ١٨٢ .

المستنصر بالله الفاطمي :

نصل الآن الى خليفة هو اطول الخلفاء المسلمين حكماً اذ امتد حكمه فترة تنوف على ستين سنة هجرية (٤٢٧ – ٤٨٧ ﻫ) وهي فترة امتازت بحدوث حوادث كثيرة جداً ومهمة جداً اثرت بعمق في سير التاريخ الاسلامي ككل .

فقد بلغت الدولة الفاطمية في اوائل عهده اوج مجدهـا ، ومن ثم بدأت في الانهيـار ، كما وان عهد الخليفة هذا شاهد تضاؤل سلطة الخليفة الزمنيـة كل التضاؤل ، اذ دشن بدر الجمالي عهد الوزراء العظام الذين حجبوا الخليفة الفاطمي وحكموا باسمه وسلبوه كل سلطـة . كما وان الامبراطورية الفاطمية خسرت في اواسط القرن الخامس بلاد الشام كلها التي احتلهـا الاتراك السلاجقة بعد ان احتلوا بغداد سنة ٤٤٧ ﻫ واندفعوا غرباً نحو بلاد الشام وغربـاً بشمال نحو الاناضول ، وغربـاً بجنوب نحو مصر . كما وان مصر تعرضت في عهده لأسوأ مجاعة اصابتها في تاريخها الاسلامي حتى هجر الناس البلاد ومات البشر بالالوف وأكِلتْ الجيف . وظل الناس في هذه الازمة الخانقة ما يقارب السبع سنوات وسميت هذه المجاعة باسم الشدة العظمى ، واخيراً حضر بدر الجمالي حاكم عكا الى مصر واستلم الحكم فيها ونظم الامور وانفرجت الأزمة وسيطر على الخليفة واعاد الهدوء والاستقرار . ولقد سعى بدر الجمالي ان يزوج ابنته الى الخليفة الفاطمي حتى اذا رزقت بولد منه امكنه ان يرث زعامة الدنيا والدين . وهذا ما حدث ، ولكن ذلك ادى الى اضعاف الخلافة الفـاطمية وحدوث انشقاق رهيب في صفوف دعاتها كما سنذكر بعد .

ومما يدل على هيبة الدولة الفاطمية في اوائل حكم المستنصر ان احد قواده انوشتكين شق عصا الطاعة وأعلن عصيانه على الدولة في حلب ، فلم يرسل له

المستنصر جيشاً وانما ارسل له كتاباً يهدده وينذره ويوبخه ويعدد اياديه واياديي الدولة الفاطمية عليه ويقول له : وانما بقي لك الايام القلائل ويكثر لك الندم وتحل بك النقم[1]» والكتاب كله قطعة فنية ادبية بلاغية يكثر فيها الاستشهاد بالقرآن الكريم وتكثر فيها الصور البيانية والبلاغية مما يترك في النفوس انطباعاً جيداً . وهذا مـــا حدث لانوشتكين ، فقد أثر ذلك في اعصابه وارسل الى الخليفة يعتذر ويتنصل ويعلن عبوديته وولاءه ويقول : ... ولكنه بعد توصله واعترافه بجرائره وذنوبه وتنصله يرجو قبول توبته وتمهيد عذره في انابته [2] .

ومن الحوادث الهامة في تاريخ المستنصر ثورة البساسيري في العراق واقامته الخطبة في قلب بغداد للخليفة الفاطمي وخروج الخليفة العبـــاسي من بغداد ولجوؤه الى احد الامراء المحليين حتى تمكن طغرلبك زعيم السلاجقة ، بعد ان قضى على ثورة اخيه ابراهيم ينـــال ، ان يقضي على حركة البساسيري ويعيد الخليفة العباسي الى مقر ملكه ويقضي على البساسيري نفسه . ولا ندري ماذا كان من الممكن ان يحدث لو ان الخليفـــة المستنصر كان في وضع يمكنه من استغلال هذه الثورة ومساعدة القائمين بها ، ولكن الذي حدث والذي نعرفه ان احد اسباب خذلان ثورة البساسيري عدم مساعدة الخليفة المستنصر الفاطمي للقائمين بهذه الثورة .

كذلك كان قطع المعز بن باديس خطبة العلويين في المغرب ، وذكره اسماء الخلفاء العباسيين في الخطبة من الحوادث الهـــامة في عهد المستنصر . ذلك ان الخلفاء الفاطميين ، من عهد المعز ومن بعده ، ادركوا انهم بارتحالهم الى مصر

---

(١) ابن القلانسي . المصدر المذكور آنفاً ص ٧٦ — ٧٨ .

(٢) نفس المصدر .

قد اضاعوا المغرب ، ولكن كان هناك ذلك الرباط الواهي بين الطرفين المتمثل في ذكر اسماء الخلفاء الفاطميين على منابر المغرب . ولكن المعز بن باديس قطع هذه الصلة الواهية فجرح بذلك كبرياء الفاطميين ؛ ولم يكن بامكان الخليفة ارسال جيش لمحاربة المعز ، ولكنه ، عملاً باشارة وزيره اليازوري ، ارسل له القبائل العربية التي خرجت من الجزيرة العربية في عهد مبكر وقدمت الى مصر تعيث فيها فساداً ، ولذلك وجهت هذه القبائل ، التي هي قبائل بني سليم وهلال الى المغرب ، وكان ذلك سبباً رئيسياً لخراب المغرب وتأخره الحضاري . ولقد ارسل الوزير اليازوري الى المعز رسالة تهكمية يخبره بتوجه العربان نحو بلاده ، فقد ارسلنا اليكم خيولاً فحولاً وحملنا عليها رجالاً كهولاً ليقضي الله امراً كان مفعولاً [1] .

ولكن ظهور السلاجقة والشدة العظمى وتصارع السودان والاتراك – وهما العنصران الاساسيان في الجيش الفاطمي ، حطم كيان الدولة الفاطمية وتحيفها كل التحيف وكاد يأتي عليها . فقد احتل السلاجقة بلاد الشام وضموها الى امبراطوريتهم ، وانهكت الشدة العظمى قوى مصر كل الانهاك ، وتحالفت مع صراع الجيش في اذلال الخليفة ، وافسحت المجال امام بدر الجمالي ليحضر الى مصر ويسيطر على شؤون الخلافة ويحجب الخليفة ويتحكم به . ومنذ ذلك الوقت زال سلطان الخلفاء الفاطميين الدنيوي وبدأ عهد الوزراء العظام الذين تلقبوا بالملوك وبالسيد الاجل" . كذلك شاهد المستنصر في اواخر ايامه **انقسام الحزب الفاطمي** قسمين رئيسيين: النزارية والمستعلية . وتنسب النزارية الى نزار ولد الخليفة الاكبر ، والمستعلية نسبة الى المستعلي ولد الخليفة الاصغر من بنت

(١) ابن الأثير . المصدر المذكور آنفاً . ج ٩ ، ص ٥٦٦ .

بدر الجمالي . وعلى الرغم انه لا يجوز ان يحوز المستعلي الامــامة في المذهب الفاطمي ، الا ان نفوذ بدر الجمالي ومن بعده ابنه الملك الافضل جعلت المستعلي يصبح خليفة وهرب نزار من البلاد وانقسم الفـاطميون الى قسمين وجرى بين الطرفين نزاع حربي وجدل مذهبي ، نجد ذلك واضحـاً في الرسالة التي اذيعت لتبرير حق المستعلي في الخلافة ودحض دعوى اخيه نزار[١] .

الآمر بأحكام الله :

هذا وان اشهر الوزراء العظـام الذين حكموا مصر وابرزهم اثراً هو الملك الافضل ابن بدر الجمالي . وقد جرى على عادة والده في الاستبداد بالخلفــاء الفاطميين . ولمـــا اغتيل الملك الافضل اتهم كثير من المؤرخين الخليفة الآمر بتدبير اغتياله ، ولكن الآمر ، ربما لكي يبعد التهمة عنه ، وربما لسبب آخر ، اصدر كتاباً ينعي فيه وزيره ويكيل له الثناء ويظهر عليه التأسف والتفجع . وكذلك خاف الخليفة ، في نفس الوقت ، من ردة ضده ، ولا سيما ان للأفضل انصاراً اقوياء . فأعلن اهتمامه بمصالح الجمهور وتسكينه لامورهم ، ويعدهم : ان لا يشغله عن مصالح الكافة شاغـــل ، وان باب رحمتــه مفتوح لمن قصده ، واحسانه عميم شامل ، وله الى تأمل احوال الصغير والكبير منكم عين ناظرة ، وفي احسان سياستكم عزيمة حاضرة وافعال ظاهرة[٢] .

وقد ظن الآمر انه استرد سلطانه واصبح حراً في حكمه ، ولكنه كان

---

(١) الشيال ، جمال الدين . مجموعة الوثائق الفاطمية ... القاهرة ، دار المعارف . ١٩٦٥ م. ص ٢٠٥ — ٢٣٠ .

(٢) ابن منجب الصيرفي ، أبو القاسم عـــلي . الإشارة الى من نال الوزارة . تحقيق عبد الله مخلص . المعهد الفرنسي ، أعادت مكتبة المثنى في بغداد طبعه بالأوفست . ص ٦٢ .

واهماً فانه استبدل سيداً بسيد في شخص المأمون البطائحي الذي عينه هو نفسه وزيراً ولقبه بـ : الأجل المأمون عز الاسلام فخر الانام نظام الدين خالصة امير المؤمنين ...[1]

وقد تميز عهد الآمر بمحاولات قام بها وزراؤه من اجل تصحيح زمن الخراج وتنظيم دفعه وازالة الفروق بين السنة الهلالية التي عدد ايامها ٣٥٥ يوماً، والسنة الخراجية التي عدد ايامها ٣٦٥ يوماً وربع اليوم . فقد اصدر الافضل مرسوماً سنة ٥٠١ هـ لأجل هذا التصحيح . كذلك حاول المأمون البطائحي ان يوجد له قاعدة شعبية فأصدر عدداً من المراسيم كلهـــا تهدف ، من جهة ، الى تنظيم ادارة جباية الاموال ، ومن جهة ثانية الى التخفيف عن صغار الكسبة شيئاً من الاعباء المالية المفروضة عليهم. فقد اصدر مرسوماً بمسامحة اهل الخراج بما تبقى عليهم الى آخر سنة ٥١٠ هـ ، وذلك للفرق بين السنتين الهلاليـة والخراجيـة . كذلك حمى الوزيرُ الضامنَ من الزيادة التي يمكن ان تزاد على ضمانه اثنـــاء فترة عقده لضمان شيء من اراضي الدولة او املاكها ، كما كانت العادة آنذاك. وكان المأمون كريماً متسامحاً في حقوق بيت المال تجـــاه من يجب عليهم دفع الخراج عن سنوات عدة . فقد اعتاد كثير من المكلفين ولاسيما الاقوياء منهم ، أن يماطلوا في دفع الخراج سنوياً وبانتظام ممـــا جعله يتراكم لعدد من السنين فأصدر الآمر مرسوماً باعفاء امثـــال هؤلاء من المتراكم عليهم . ولكي يجعل الوزير الناس يحبونه ، ولاسيما الفقراء ، فقد اصدر باسم الخليفة مرسوماً يعفي مستأجري العقارات العائدة للدولة من دفع ايجار شهر رمضان كل عام تخفيفاً عليهم ورغبة منه في الأجر وفي ان يدعوا له .

---

(١) المقريزي . المصدر المذكور آنفاً. جـ٣، ص ٦٨ - ٦٩ .

الحافظ لأمر الله :

واذا وصلنا الى خلافة الحافظ نكون قد وصلنا الى عصر الانهيار في كيان الدولة الفاطمية . فقد امتاز هذا العصر بالصراع بين افراد الاسرة الحاكمة ، كما امتاز بصراع الخلفاء مع الوزراء ومع قواد الجيش ، وبصراع الوزراء ومؤامراتهم ، وكثرت استعانتهم بالفرنج الصليبيين وبنور الدين الشهيد ، وطمع الفرنج كل الطمع في مصر وحاولوا احتلالها اكثر من مرة ، واضطر حكامها ان يدفعوا لهم جزية ضخمة ليكفوا عاديتهم عنها ، واخيراً أتتها الضربة القاضية على يد نور الدين وقائد جيشه صلاح الدين عندما الغيا الخلافة الفاطمية زمن العاضد بالله آخر الخلفاء الفاطميين .

ونحن نعلم ان الخلفاء الفاطميين قبل الحافظ ، وبشكل خاص العزيز بالله ، تسامحوا مع اهل الذمة كل التسامح حتى ان منهم من جعل احد افراد اهل الذمة وزيراً له . ولكن لم يحدث ان استلم منصب الوزارة عند الفاطميين شخص ذمي ارمني . ونحب ان نذكر هنا ان الوزير عند الفاطميين ، من لدن بدر الجمالي كان قائداً للجيش كما كان رئيس الجهاز الاداري ، اي انه حامل خطتي السيف والقلم ، وهذا يجعله صاحب السلطة الحقيقية . ولقد استلم بهرام الارمني السلطة زمن الحافظ واستقطب حوله ابناء جنسه واساء السيرة حتى حدثت ثورة ضده بقيادة رضوان بن ولخشي فاضطر للهرب الى بلاد الشام ، ومن هناك بدأ يحيك الدسائس ويحاول العودة الى مصر لاستلام الوزارة مجدداً ، فأرسل الى الحافظ رسالة يعلن ولاءه ويجس نبضه لمعرفة ما اذا كان لا زال على العهود والمواثيق التي قطعها له ، ويطلب منه ان يرسل له ابناء طائفته اليه ويذكر رغبته في الاعتزال في دير من الاديرة والانقطاع الى العبادة .

ويدل جواب الحافظ له على تيقظ وانتباه لمكايد انسان عرفه سابقاً وخبره

قديماً ويعرف خداعه ونزواته ، وهو يخبره انه لا زال على العهد القديم : ولكن المسلمين في البعد والقرب غضبوا للمتهم وامتعضوا مما لم تجر به عادة في شريعتهم ونفرت نفوسهم ممــا يعتقدون ان الصبر عليه قــادح في دينهم ومضاعف لآلامهم ... حتى ان اهل المشرق اخذوا في ذلك واعطوا وعزموا على مــا اتفقوا عليه مما صرفه الله وكفى مؤونته والاشتغال به[1] .

ويرد طلبه في ارسال اهل ملته له بأنه : أمر لا يسوغ ولا يمكن فعله . ولو جاز ان يؤمر به لمنع المسلمون منه فلم يفسحوا فيه[2] . ثم يقول له : والآن فلن يخلو حالك من احد قسمين : إما ان تكون متعلقاً بأمور الدنيــا ... فأمير المؤمنين يخيرك في ولاية احد ثلاثة مواضع : اما قوص او اخميم او اسيوط ... واما ان تكون على القضية التي ما زلت تذكر رغبتك فيها وايثارك لهــا : من التخلي عن الدنيا ولزوم احد الاديرة والانقطاع الى العبادة ، فإن كنت مقيماً على ذلك فتخير ضيعة من اي الضياع شئت يكون فيهــا دير تقيم فيه وتنقطع اليه ، فتعين الضيعة ليجعلها امير المؤمنين تسويفاً لك مؤبداً[3] .

ثم ينذره بحرب شاملة مقدسة يشنهــا عليه جميع المسلمين وكل من يقول بالشهادتين من قاصٍ ودانٍ وقريب وبعيد حتى يستأصلوا شأفته ان هو رفض العرضين السالفين[4].

ومن الحوادث الهــامة التي وقعت زمن الحافظ العلاقات الحسنة التي قامت

---

(١) القلقشندي . المصدر المذكور آنفاً . جـ٨، ص ٢٦٠ – ٢٦٢.
(٢) نفس المصدر .
(٣) نفس المصدر .
(٤) نفس المصدر .

بين روجر الثاني ملك صقلية النورماندي وبين الخلافة الفاطمية . ذلك ان علاقات روجر الثاني العدائية مع دول شمالي افريقيا المسلمة ورغبته في ضمان حياد مصر في هذا الصراع ، ورغبته في فكاك الاسرى النورمانديين الموجودين في مصر ، ورغبته في فتح ابواب التجارة بين بلاده ومصر ، كل ذلك عوامل ساعدت على تدشين هذا العهد ، ولم يكن لدى الحافظ وحكومته مانع من مثل هذه العلاقات الطيبة . ولقد حوت الرسالة الجوابية التي ارسلها الحافظ الى ملك صقلية رداً مفصلاً على كل فقرة من فقرات الملك بحيث نستطيع معرفة مضمون رسالة الملك من رد الحافظ عليها. وقد عرض الملك في رسالته صداقته وطلب تحقيق عدد من المطالب يرجو الخليفة ان يحققها له .

ويبدو ان ملك صقلية افتتح رسالته على الطريقة الاسلامية ، بحمد الله تعالى وشكره على نعمه وعلى ما اولاه الملك روجر الثاني ملك صقلية من نعم ومواهب . وهذا يدل على مدى تأثر النورمانديين بالحضارة الاسلامية حتى فيما يتعلق بطرق التخاطب ، كما يدل على فهم الملك لعادات وتقاليد مجاوريه من الملوك والامم فخاطبهم حسب عاداتهم ، وينتهز الحافظ هذه الفرصة ليؤكد للملك ان الله تعالى اعطاه واعطى آباءه من قبله الدنيا والآخرة : اذ كان افردهم دون الخليقة بأن اعطاهم الدنيا ثم اعطاهم الآخرة[1] .

كذلك يبدو ان ملك صقلية اراد ان يبرر امام الحافظ احتلاله لجزيرة جربة ، وهي جزيرة قرب تونس وهي بلد اسلامي ، ولا يجوز لحاكم مسلم السكوت والرضا عن احتلال غير المسلمين لارض اسلامية ، وخاف روجر الثاني من ردة فعل من الخلافة الفاطمية فبرر احتلال الجزيرة بعدوان اهلها وعدوهم

(١) نفس المصدر . ج٦، ص ٤٥٨ - ٤٦٣ .

عن طرق الخيرات وسبلها ، واجترائهم في الطغيان على اسباب لا يجوز التغافل عنها . ولقد كان جواب الحافظ متفقاً مع عجز الدولة الفاطمية عن القيام بأي عمل ، فأقر الملك على فعله : فإن من كانت هذه حالته حقيق أن تكون الرحمة عنه نائية ، وخليق ان يأخذه الله من مأمنه اخذة رابية[1] .

ولقد مهد ملك صقلية ، الذكي الاريب ، لطلباته ، باطلاق سراح مركب من مراكب الخليفة اسمه المركب العروس كان احد قباطنة سفنه الحربية اعتقله في مياه البحر الابيض المتوسط . فلما علم الملك انه يخص الحافظ اعاد الاشياء المصادرة ، وامر باعادة المركب سالماً مخفوراً الى الموانىء المصرية . وقد ذكر الملك ذلك في رسالته وجعله سبباً يمتّ به الى الحافظ لأطلاق سراح عدد من الاسرى النورمانديين الموجودين في سجون مصر ، ويخبره الحافظ انه اطلق سراحهم وامر بتسييرهم اليه . ثم يحدث الملك عن قضية بهرام وما فعله وما اقترفه من جرائم ضد الخلافة ثم كيف خلع وهرب . ويختم رسالته بالاعتراف باستلامه الهدايا التي ارسلها الملك مع رسوله الى الخليفة والى رجال دولته واجناده ، وثم يخبره انه ، اي الحافظ مسير من قبله رسولاً الى الملك مع رسالة والطاف وهدايا اجود وافضل واغزر مما اهدى اليه[2] .

العاضد بالله :

ولقد امتاز عهد العاضد بالفوضى المتناهية التي شملت كل مرافق الحياة تقريباً ، وبالعجز المطلق للخلافة الفاطمية ، وبالصراع الرهيب الذي دار بين الخليفة من جهة ، وبين وزرائه من جهة ثانية ، ثم بين الوزراء بعضهم بعضاً ،

---

(١) نفس المصدر .

(٢) نفس المصدر .

ولقد دخل الصليبيون ، بعد هنيهة ، طرفاً ثالثاً في هذا الصراع وهددوا مصر تهديداً خطيراً كل الخطورة حتى اضطر العاضد ووزراؤه الى الاستعانة بنور الدين وجيوشه ثلاث دفعات . ولكن نور الدين وقائـد جيشه أسد الدين شيركوه لم يكونا ينظران الى الامر على انه مجرد استعانة ، وانما وضعا امام اعينهما هدفاً محدداً ثابتاً هو انقاذ مصر من الخطر الصليبي الماحق الذي يهددها. وهذا لا يتم الا باكمال عملية التوحيد التي بدأها عماد الدين زنكي وسار فيها شوطاً بعيداً ابنه نور الدين واكملها من بعده صلاح الدين .

ولكن ذلك لا يمكن ان يتم مع وجود ثلاث قوى تمنع من ذلك : القـــوة الاولى الصليبيون ، والقوة الثانية قوة الوزراء الفاطميين المتمثلة خاصة بشاور وولده واخيراً الخلافة الفاطمية نفسها .

اما الصليبيون فقد تمكن اسد الدين شيركوه ومن بعده صلاح الدين من رد عاديتهم عن مصر .

واما الوزراء الفـاطميون فقد دخلوا في صراع مرير رهيب مع اسد الدين وصلاح الدين . واخيراً تمكن صلاح الدين من التحالف مع العـاضد والقضاء على شاور وابنه ، واصبح شيركوه اسد الدين وزيراً للعاضد ، وبعد وفاته حل محله في هذا المنصب ابن اخيه يوسف بن ايوب المعروف بلقبه صلاح الدين .

ولقد ظن شاور ان اسد الدين شيركوه مثل غيره من الرجـال وانه يمكنه اللعب به ، ولذلك بعد أن حضر شيركوه الى مصر نجدة لشاور ضد الصليبيين وهرب هؤلاء اهمله شاور كل الاهمال ولم يلتفت اليه ، فأرسل اليـه شيركوه يستنجزه وعوده ويقول له : قد طال مقامنا في الخيام ، وقـد ضجر العسكر من الحر والغبار ، فاسل اليه شاور ثلاثين الف دينار وقـال له خذها وانصرف

بأمان الله . ولكن شيركوه كان له رأي آخر في الموضوع : كان يحلم في البقاء بمصر وبحكمها ولذلك رفض ذلك متذرعاً ان سيده نور الدين امره ان يبقى في مصر بعد عودة شاور الى الوزارة وان يقسم واردات مصر ثلاثة اقسام : قسم لشيركوه وعسكره ، وقسم لشاور وعسكره وقسم للخليفة العاضد . ولكن شاور انكر ان يكون مثل هذا الاتفاق تم بينه وبين نور الدين ، ورفض شيركوه الرجوع الى بلاد الشام والعودة الى نور الدين[1] . وتعقدت القضية حتى تدخل نور الدين وطلب الى شيركوه العودة الى بلاد الشام ، فعاد . ولكن بعد برهة رجع الى مصر اثر تهديد صليبي لها ، ولكنه في هذه المرة اقام وخلع شاور عن الوزارة وحل محله في دستها ، ولما توفي بعد فترة اصبح صلاح الدين وزيراً للخليفة . واخيراً صدر امر نور الدين الحازم الذي لا رجعة فيه بإلغاء الخلافة الفاطمية الى صلاح الدين . وصدف ان مات العاضد وبعد موته بأسبوع واحد ألغيت الخلافة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ وعادت مصر الى احضان السنة .

والملاحظ ان إلغاء الخلافة الفاطمية تم بمنتهى الهدوء ولم يثر اي اضطراب او رد فعل من جراء هذا العمل في مصر بخاصة ، اذ هي مركز الحكم الفاطمي . بل لعل الغاء هـا قوبل من سواد الشعب المصري بالارتياح ، ولم يقم بشيء من اعمال الشغب والعنف الا بعض المنتفعين من المرتزقة والجنود الذين تضرروا مادياً من الغاء الخلافة الفاطمية وخسروا مناجعهم ومراكزهم ومـا كانت تدره عليهم ، فأرادوا اعادة الخلافة الفاطمية ، ولكنهم سرعان ما حطموا وحطمت مؤامرتهم كما تحطم قطعة من الزجـاج . وهذا ان دل على شيء فانما يدل على

---

(١) أبو شامة ، شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل . كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية . تحقيق محمد حلمي محمد أحمد . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٦ م ، ج ١ – ج ١ ، ق ١ ، ص ٤٢٠ – ٤٢١ .

تأصل وتعمق المذهب السني في نفوس اهل مصر ، ورفضهم كل مـا يخالف هذا المذهب من عقائد وبدع .

واذا أردنا أن نضع الدولة الفاطمية في مكانهـا الصحيح في اطار التاريخ الاسلامي قلنا ان المبدأ الذي نبعت منه هذه الخلافة منبع لا يمتّ الى الاسلام الحقيقي بصلة . ذلك ان مبادىء الفاطميين الداعية والقـائلة بتقديس الخليفة واعتباره معصوماً وتكفير كل من خالفه وما شابه ذلك من تعاليم تخالف روح الاسلام وتعاليمه . وهذا يفسر سرعة زوال كل اثر لهذه الدولة ولمـا بثته من تعاليم وعقائد .

ولكن من جهة اخرى فقد كان للفـاطميين الاوائل جهد مشكور في رد الروم عن بلاد الشام ، كما كان لهم بعض الاثر في الصراع ضد الفرنج في بـلاد الشام ، وان كانت مبادئهم وظروف اخرى كثيرة ، حالت دون تكوين حلف اسلامي يقف في وجه الصليبيين . كما وان صراعهم العسكري مع السلاجقـة اضعف الطرفين وكان احد العوامل الرئيسية في نجاح الصليبيين واحتلالهم ساحل بلاد الشام . ولقد كانت الدولة الـفاطمية دولة متسامحة مع اهل الذمة حتى اصبح عدد من الذميين وزراء في عهود عدد من الخلفاء ، كما وانها شجعت العلوم والآداب والفنون والمكتبات خاصة كما فعل العزيز بالله والحاكم بأمر الله . ولقد كان اوائل الخلفاء متحمسين لنشر مذهبهم ولذلك كان تسامحهم مع مخالفيهم من اهل السنة اقل بكثير من تسامحهم مع اهل الذمة . ولكن متأخري خلفائهم لم يعودوا يهتمون الا بالمنصب واصبحت الدعاية للمذهب الفاطمي عملاً تقليدياً . كذلك حفظت الدولة الفاطمية علاقات خارجية جيدة مع جيرانها من الدول المسيحية فكان ذلك احد عوامل ازدهار التجارة . وان وجود بعض الوزراء الاقوياء في العصور الاخيرة مثل الافضل والمأمون البطائحي جلب شيئـاً من

الرخاء الى سكان مصر ، على حين كان صراع الوزراء المتأخرين سبباً في جلب الكوارث والخراب للدولة التي تلقت الضربة القاتلة النهائية من يد نور الدين الشهيد سنة ٥٦٧ هـ .

الدولة الأتابكية

وتسمى أحياناً الدولة الزنكية نسبة الى مؤسسها زنكي بن آق سنقر . واما الاتابكية فنسبة الى اتابك وهو لقب كان يلقب به مربو الملوك السلاجقة وهو مؤلف من مقطعين اعجميين الاول أتا بمعنى أب او والد ، والثاني بك بمعنى امير ، وكلمة اتابك تعني الامير الوالد . وكما قلنا كان يعهد بالامير السلجوقي او الملك الحدث الى أحد الامراء المجربين حتى يعلمه ويدربه، ولقبه اتابك، ثم صار لقب شرف يمنحه السلاطين للمقربين من الامراء وغيرهم . وزنكي مؤسس الدولة منحه احد ملوك السلاجقة هذا اللقب فانسحب اللقب على السلالة التي اسسها وعلى الدولة التي اوجدها. ولقد تأسست هذه الدولة في شمالي العراق في الموصل على يد عز الدين زنكي الذي ما لبث ان توسع غرباً فاحتل حلب ، ثم اتى ابنه نور الدين محمود فتوسع في بلاد الشام حتى ضم دمشق وبقية بلاد الشام باستثناء التي تقع تحت الاحتلال الصليبي ، ثم توج عمله بالقضاء على دولة الفواطم وتأسيس دولة قوية في بلاد الشام ومصر . ولقد قدر لدولة نور الدين الشهيد ان تضعف كل الضعف بعد وفاته ، ذلك انه توفي ولم يخلف سوى ولد ذكر قاصر ، ولم يحسن الامراء حوله السياسة ودخلوا في صراع مع صلاح الدين وخيم على البلاد شبح الحرب الاهلية . ثم فر الامراء حول الملك الصالح بن نور الدين بالملك الى حلب ، وهناك استمر الملك الصالح حاكماً فيها حتى وفاته في سن السابعة عشرة ، ثم تمكن صلاح الدين من اعادة توحيد بلاد الشام ومصر تحت حكمه .

وهكذا زال الفرع النوري من الدولة الاتابكية من الوجود في سورية ومصر ، على حين ظل فرع الموصل من الدولة الاتابكية في الحكم في الموصل ، بشكل او بآخر ، حتى الغزو المغولي للمنطقة .

عماد الدين زنكي :

وتدل اخبار عماد الدين على انه شخصية قوية طموحة ذكية . وقد كان مدركاً تمام الادراك لمخاطر الغزو الصليبي للعالم الاسلامي ، وكان على علم تام ان العلاج الوحيد والسبب الاقوى للوقوف في وجه الصليبيين هو الوحدة . ولما كان عارفاً بطبيعة عصره وان الوحدة لا يمكن ان تتم الا بالقوة ، فقد اخذ بأسباب القوة ، وافتتح دورين أساسيين في التاريخ الاسلامي : دور توازن القوى في الحروب الصليبية ، ودور التوحيد للقوى والاراضي الاسلامية. وعلى الرغم من ان عماد الدين اشتغل اول امره مع سلاطين السلاجقة وانغمس في مشاكلهم ومنازعاتهم وحروبهم التي تمركزت حول شرقي الامبراطورية الاسلامية . الا انه لم يلبث ان تخلص من تلك المشاكل والتفت الى انجازيه العظيمين. فهو الذي دق اول مسمار في نعش الوجود الصليبي في البلاد الاسلامية وذلك عند احتلاله مدينة الرها وتحريرها واسترجاعها من الصليبيين . وكان احتلاله اياها بداية النهاية في الحروب الصليبية وفاتحة عهد الاسترجاع الكبرى التي استمرت زهاء قرن ونصف بعد ذلك .

كذلك سعى زنكي حتى ضم بالقوة جميع مدن الجزيرة الى مملكته . وتدل اعماله على شجاعة وذكاء ودهاء ، فقد تمكن بدهائه وحيلته ان يجعل اهل نصيبين ييأسون من دعم حاكمها لهم وان يستسلموا لعماد الدين ذلك ان عماد الدين حاصر نصيبين ولم يكن اميرها موجوداً فيها وانما كان عند ابن عمه حاكم ماردين ، فأرسل على اجنحة الطير رسالة الى اهل نصيبين يطلب اليهم ان

يصمدوا خمسة ايام فقط لانه سيكون عندهم عند انقضاء هذه المدة بجيش قوي مع ابن عمه ؛ ولكن الرسالة وقعت بيد عماد الدين قبل وصولها لاهل نصيبين ، فما كان منه الا ان غير فيها بعض الارقام فجعل الايام الخمسة عشرين يوماً ، فأدى ذلك الى ان فُتّ في عضد اهل البلدة واستسلموا لعز الدين[1] كذلك حرص عماد الدين ان يجعل علاقاته طيبة مع السلطان السلجوقي والخليفة العباسي اللذين حاولا استدراجه للانغماس في مشاكلهما ، ولكنه لم يتخل عن هدفه المزدوج ، وان يكن حاول ارضاء الطرفين ، ولقد حاول عدة مرات احتلال دمشق ، ولكنه لم ينجح .

كذلك لعماد الدين يد طولى في صد غزوات وهجمات الروم عن شمالي بلاد الشام وخاصة لما حاصروا شيزر سنة ٥٣٢ هـ . فقد تمكن بدهـــائه ان يجعل الاعداء ينسحبون من شمـــالي سورية على الرغم من ضعف موارده العسكرية بالنسبة لهم .

واخيراً لقي مصرعه وهو يحاصر قلعة جعبر فأكمل عمله ابنه الثاني نور الدين محمود الشهيد .

نور الدين :

نجد في نور الدين وشخصيته قبسات من ملامح وشخصية الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم. فقد كان ملكاً مجاهداً بكل ما في الكلمة من معنى . وكان يخاف الله تعالى في نفسه، ولكنه كان يخاف الله تعالى اكثر ما يكون في الرعية. وكان عنده شعور عظيم بالمسؤولية ويخاف من تحمل المسؤولية او بالاحرى من

---

(١) ابن الأثير . المصدر المذكور آنفاً . ١٠حـ ، ص٦٤٦ .

التقصير في حملهـــا . وقد ظل طوال عمره عاملاً على نصرة الاسلام والمذهب السني ، جاعلاً موئله الاساسي اوامر الله تعـــالى ونواهيه ، سواء اكان ذلك في حياته الشخصية ام في حياته العامة. كذلك ورث عن ابيه مهمة تحقيق الوحدة التي بدأها ابوه . وقد شاء الله ان تتوحد على يديه بلاد الشام ومصر ، وكانت هذهالوحدة الاساس الذي استندت اليه عملية تطهير الاراضي الشامية من رجس الوجود الصليبي ، كما كان يعمــل جاهداً في سبيل تطهير بلاد الشام من الوجود الصليبي ويتطلع الى اليوم الذي سيستعيد فيه القدس الشريف ويعيـــده الى احضان الاسلام والمسلمين . واذا تمكن صلاح الدين ان يحقق احلام نور الدين في استرجاع القدس الشريف وفي كسر حدة الصليبيين وفلّ حدهم ، فإن الفضل الاول في ذلك لنور الدين واعماله وجهوده في هذا السبيل .

كذلك لا ننسى عدل نور الدين الذي يضرب به المثـــل حتى لقب بالملك العادل ، ولا ننسى اعماله العمرانية والثقافية وجهوده في سبيل النهوض بشعبه الى اعلى المستويات . فقد بنى المدارس والمشافي ودار العدل واصلح الطرقـات ، وفعل كل ما يجب ان يفعله الحـــاكم الصالح لشعبه . ولا تزال المدرسة النورية والمارستان النوري في دمشق شاهدين حيين بصحة ما نقول . وفي الوقت نفسه لا زالا شاهدين عدلين على عظمة فن العمارة الاسلامي وما بلغه هــذا الفن من رقي زمن نور الدين رحمه الله .

ايام نور الدين الاولى :

وان ما ذكرناه ينطبق على نور الدين من اول ايامه في الحكم ، عندمـا كان حاكماً صغيراً ، الى آخر ايامه عندمـا اصبح ملكاً على بلاد الشام ومصر . كما وانه ذو فكرة نيرة جداً عن احتياجات الجهاد والحرب والاعداد الذي يجب ان يُعَدّ من اجلها . وهو مثل أعلى للمسلم الذي يستغل حتى اوقـات اللعب

للاستعداد للجهاد ومجاهدة الاعداء . فقد كان نور الدين يدمن اللعب بالكرة ، وكان هناك رجل صالح في الجزيرة بينه وبين نور الدين مودة وأنس ، وظن ان لعب نور الدين للعب وتمضية الوقت فقط فكتب اليه يقول : ما كنت اظنك تلهو وتلعب وتعذب الخيل دون فائدة دينية . ولكن الواقع اثبت ان نور الدين في وادٍ ، والرجل الصالح في وادٍ آخر ، ذلك ان نور الدين كان يقصد بالادمان على لعب الكرة تدريب الخيل والرجال على الكر والفر واذهاب جمام الخيل : ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جماماً لا قدرة لها على ادمان السير في الطلب ، ولا معرفة لها بسرعة الانعطاف في الكر والفر في المعركة . فنحن نركبها ونروضها بهذا اللعب فيذهب جمامها وتتعود سرعة الانعطاف والطاعة لراكبها في الحرب فهذا والله الذي بعثني على اللعب بالكرة[1] .

كذلك يظهر تمسكه التام بحدود الله تعالى واعتقاده بكفايتها من اجل اقامة نظام الكون وتحقيق العدالة في رسالته الجوابية الى الشيخ عمر الملا . وذلك ان نور الدين ولى شحنة الموصل الى كمشتكين وطلب اليه ان لا يخرج عن امر الشيخ عمر الملا . ويبدو أن حكم كمشتكين لم يكن حازماً فطلب الى الملا ان يكتب الى نور الدين ان يسمح لهم باستعمال الشدة من قتل وصلب مع العصاة . وارسل الشيخ الى نور الدين رسالة يطلب منه ذلك . ولكن نور الدين العالم بحدود الله تعالى وكفايتها ، والمتمسك بها اجاب الشيخ بما يلي : ان الله تعالى خلق الخلق وهو اعلم بما يصلحهم ، وان مصلحتهم تحصل فيما شرعه على وجه الكمال فيها ، ولو علم ان على الشريعة زيادة في المصلحة لشرعه ، فما لنا حاجة الى زيادة على ما شرعه الله تعالى[2] .

كذلك يدل حرصه على ما يرضي الله تعالى وعلى راحة رعيته والمسلمين

---

(١) أبو شامة . المصدر المذكور آنفاً . جـ١ ، ق١، ص١٢–١٣ .
(٢) نفس المصدر . جـ١ ، ق١، ص ٣٢ .

وصيتُه لاجناده وقد مرض ذات مرة مرضاً يئس فيه من الشفاء وظن ان ايامه اوشكت على الانقضاء ، فعدل بوصيته بالحكم بعده – ولم يكن رزق بولده الملك الصالح بعد – عن اخيه نصرة الدين لما يعرف من اخلاقه وسوء افعاله الى اخيه الآخر قطب الدين مودود لما يرجع اليه من عقل وسداد ودين وصحة اعتقاد[1]. ثم منّ الله تعالى عليه بالشفاء ولم يعد هناك حاجة للوصية .

علاقة نور الدين بالدولة الفاطمية :

يبدو ان فكرة الغاء الخلافة الفاطمية تبلورت عند نور الدين بالتدريج ، ولم تكن تلك الفكرة جاهزة في ذهنه عندما بدأ اتصاله الاول بالفاطميين . وهذا وضع طبيعي ، فقد كان يجهل الكثير عن قوة الدولة الفاطمية ، وكان لا يعرف مدى استعداد الشعب المصري لإلغائها ، كما وكان هناك الفرنج الصليبيون الذين كانوا حلفاء طبيعيين للفاطميين ضد نور الدين . واخيراً خاف من طموح قائد جيشه أسد الدين شيركوه ان يستقل بحكم مصر ، وهو يريد مصر قوة لدولته لأجل التغلب على الصليبيين . ولذلك لما تخاصم شيركوه مع شاور من اجل البقاء في مصر او الارتحال عنها ، امر نور الدين شيركوه بالرجوع الى بلاد الشام، فسر بذلك شاور كل السرور وارسل الى نور الدين يشكره ويمدحه ويقول: ورد كتاب استدعى شكري وحمدي واستخلص من الصفاء ما عندي واستفرغ في الثناء على مرسله جهدي[2] . ولكن هذا الود الشاوري كان خداعاً، وادرك نور الدين خداعه وضعف مصر المتناهي وعدم وجود سند شعبي للخلافة الفاطمية فيها ؛ فأرسل شيركوه ، ومعه ابن اخيه صلاح الدين ، للمرة الثالثة

---

(١) ابن القلانسي . المصدر المذكور آنفاً . ص ٣٥٥ .

(٢) ابن الفرات ، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم . تاريخ ابن الفرات . تحقيق حسن محمد الشماع . البصرة ، مطبعة حداد ، ١٩٦٧ م. الجزءان الرابع والخامس . ج٤ – ٥ – ٦ .

الى مصر . وهناك تمكنت الحملة من ابعاد الخطر الصليبي ، ثم تمكنت من ابعاد شاور وقتله واصبح اسد الدين شيركوه وزيراً للخليفة الفاطمي ، فأثار بذلك مخاوف نور الدين ان يستبد شيركوه بحكم مصر ، ولذلك نراه يحاول ارجاعه الى بلاد الشام . ولكنه في رسائله الموجهة الى الخليفة الفاطمي يعرض بحاجته اليه ، ولم يذكر رغبته في عودته الا تلميحاً مثل قوله ... وقد افتقر العبد الى بعثته واعوز عسكره يمن نقيبته ، واشتد حزب الضلال على المسلمين لغيبته [١]..

ولقد توفي اسد الدين شيركوه بعد ان حقق شيئاً أساسياً في هذا المجال ، وهو ادراكه ان اهل مصر يرحبون بالغاء الخلافة الفاطمية وعودة مصر الى احضان السنة . فقد قال في وصيته عند وفاته : الحمد لله الذي بلغنا من هذه البلاد ما اردنا ، وصار اهلها راضين عنا[٢] ...

ولقد خلفه في قيادة الجيش وفي الوزارة للخليفة الفاطمي ابن اخيه يوسف ابن أيوب الملقب بصلاح الدين فحقق جميع مطامح وافكار نور الدين واولها الغاء الخلافة الفاطمية .

ولقد ادرك نور الدين ان الوقت قد حان لتنفيذ امنية من اعز اماني الخلافة العباسية وهي الغاء الخلافة الفاطمية ، ولاسيما وان الخليفة العباسي المستنجد بالله ارسل الى نور الدين يحثه على ذلك . ويبدو ان صلاح الدين خاف سوء العاقبة فتمهل في مثل هذا الامر الخطير . ولكن نور الدين ألزمه الزاماً لا مندوحة منه وارسل اليه يقول : وهذا امر تجب المبادرة اليه لتحظى بهذه الفضيلة الجليلة والمنقبة النبيلة قبل هجوم الموت وحضور الفوت ، ولاسيما وامام

---

(١) نفس المصدر . ج٤، ص ٤٨ .

(٢) ابن خلدون ، عبد الرحمن . كتاب العبر ... بيروت ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، ١٩٧١ م. ٦ج، ج٥، ص ٦٢٢ .

الوقت متطلع الى ذلك بكليته وهو عنده من اهم امنيته[١] .

وعندئذٍ أقدم صلاح الدين على الغاء الخلافة الفاطمية وعلى اقامة الخطبة في مصر للخليفة العباسي المستضيء بنور الله . وكان ذلك في اوائل المحرم من سنة ٥٦٧ هـ . ولم يثر الغاؤهـا الا رد فعل بسيطاً من بعض المتنفعين الذين ساءهم حرمانهم من مناصبهم ومراكز قوتهم ، فحاولوا القيام بمحاولة مخذولة لاعادة الخلافة الفاطمية، ولكنهم ضبطوا وسجنوا وقتل رؤساؤهم كما سنرى بعد حين.

ونستطيع ان نتصور الاثر النفسي العظيم الذي احدثه الغاء الخلافة الفاطمية في نفوس الحكام والشعب آنذاك . فقد اعتبر ذلك اعظم انجازات نور الدين وصلاح الدين ، وصدرت الكتب عن نور الدين وصلاح الدين الى الخليفة العباسي تبشره بهذا العمل، واصدر نور الدين بشارة الى عموم المسلمين بالغاء الخلافة الفاطمية وقيلت بهذه المناسبة الاشعار ودبجت المقالات ... فقد ارسل صلاح الدين الى الخليفة يبشره بهذا الحدث الجلل ويقول : لم يبق بتلك البلاد منبر الا وقداجتمعت عليه الخطبة لمولانا الامام المستضيء بأمر الله امير المؤمنين وتمهدت جوامع الجمع وتهدمت صوامع البدع[٢] كما يقول من رسالة ثانية حول نفس الموضوع : واستفتح بلبس السواد الأعظم الذي جمع الله عليه السواد الاعظم [٣] .

ويقول نور الدين في احدى رسائله الى المستضيء :

---

(١) أبو شامة . المصدر المذكور آنفاً . ١جـ ، ق٢ – ص٤٦٦ .

(٢) السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن . تاريخ الخلفاء ... تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . الطبعة الرابعة . القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى ، ١٩٦٩ م. ص ٤٤٦ .

(٣) أبو شامة . المصدر المذكور آنفاً . جـ١ ، ق٢، ص ٤٩٦ – ٤٩٧ .

قد خطبنا للمستضيء بمصر نائب المصطفى امام العصر

ولدينا تضاعفت نعم الله وجلت عن كل عد وحصر[1]

ويقول نور الدين في بشارته لجميع المسلمين بالغاء الخلافة الفاطمية : وهو ما اعتمدنا من اقامة الدعوة الهادية العباسية بجميع المدن والبلاد والاقطار والامصار المصرية والاسكندرية ومصر والقاهرة وسائر الاطراف القاصية والدانية ... ولم يبق بتلك البلاد منبر الا وقد اقيمت عليه الخطبة لمولانا وسيدنا الامام المستضيء بنور الله امير المؤمنين..[2] ولقد اعتبر نور الدين عمله هذا عملاً دينياً عظيماً لا يقل عن حرب الفرنج والصليبيين . وانتصاره في الغاء الخلافة الفاطمية انتصار كبير لا يقل عن الانتصار على الفرنج ... واجتمع داءان : الكفر والبدعة وكلاهما شديد الروعة مديد اللوعة ، فأنهضنا اليها من عساكرنا المنصورة كل ناهض... وملكنا الله ملك البلاد ومكن لنا في الارض، واقدرنا على ما كنا نؤمله من إزالة الإلحاد والرفض من اقامة الفرض[3] .

ولكن ذلك لم يكن خاتمة المطاف مع انصار الخلافة الفاطمية في مصر ، فقد سكتوا على مضض، وبدأوا يعملون في الظلام ويوحدون صفوفهم واستعانوا بفرنج الشام حتى يتمكنوا ان يستعيدوا عزهم ونفوذهم السالفين ولكن صلاح الدين ، وهو الحاكم الذكي اليقظ ، كان متنبهاً لهم كل التنبه ، ومدّ لهم في حبل الرجاء ، حتى اذا نضجت المؤامرة وجه لها وللمتآمرين ضربة قاصمة اجتثت اصولهم واطاحت بفروعهم . ولقد فصل كل ذلك في رسالته التي وجهها الى

---

(١) ابن تغري بردي . المصدر المذكور آنفاً . جـ٥، ص٣٥٦ .

(٢) ابن الفرات . المصدر المذكور آنفاً . جـ٤، ص١٧٤ - ١٧٧ .

(٣) نفس المصدر .

نور الدين حول ذلك الموضوع . تقرأ الرسالة فتشعر بعظمة صلاح الدين اذ انه توقع ذلك من انصار الفاطميين واجنادهم منذ اللحظة الاولى ، ولذلك وضعهم تحت المراقبة الخفية الذكيـة ، ومدّ لهم في فسحة الامـل . وهو يذكر انه اعتقلهم اول مرة ، ولما لم يثبت عليهم شيء اطلق سراحهم . وما اجمل قول صلاح الدين مخاطباً نور الدين :

والمولى عالم ان عادة اوليائه المستفادة من ادبه الا يبسطوا عقاباً مؤلماً ولا يعذبوا عذاباً محكماً ، واذا طال لهم الاعتقال ولم ينجع السؤال اطلق سراحهم وخلي سبيلهم ، فلا يزيدهم العفو الا ضراوة ولا الرقة عليهـم الا قساوة[1] ثم اتصل القوم بملك القدس الصليبي الذي ارسل رسوله « جرج » ظاهراً ليفاوض صلاح الدين ببعض الامور التفصيلية ، وباطنـاً ليتصل بالمتآمرين ويضع معهم خطة العمل . كما وانهم اتصلوا بسنان زعيم الحشيشية وطلبوا اليـه العمل على اغتيال صلاح الدين . ووضعوا خطة للعمل وقرروا تنفيذها عندمـا يكون صلاح الدين مشغولاً بحرب الصليبيين وعينوا خليفة فاطمياً ووزراء. فلما نضجت المؤامرة وتجمعت خيوطها في يد صلاح الدين بطش بالمتآمرين بعد ان افتاه الفقهاء بضرورة قتل المتآمرين ، فقتل رؤوس المؤامرة وشرد جند السودان الى اقصى الصعيد ووضعت حول القصر الفاطمي الحوطة وفرضت الرقابة الصارمة عليهم اجمعين[2] .

علاقة نور الدين بالخلافة العباسية :

ولقد كانت علاقة نور الدين ، منذ ايامه الاولى ، بالخلافة العبـاسية علاقة

---

(١) أبو شامة . المصدر المذكور آنفاً . جـ١ ، ق٢، ص ٥٦٣ – ٥٦٦ .

(٢) نفس المصدر .

ود وإكبار، فكان ينظر الى الخليفة على انه خليفة الرسول ونائبه وامام العصر. كذلك بادلته الخلافة العباسية وداً بود وحباً بحب حتى تمكن ان يقدم لها اكبر خدمة أداها انسان لها وهي الغاء الخلافة المنافسة للعباسيين والتي ظلت فترة طويلة وهي شجىء في حلوقهم وقذى في عيونهم . ولكن لم يكن باستطاعة الخلافة العباسية ان تمد نور الدين وجميع المؤيدين بأكثر من التأييد المعنوي والتقليد والخلعة ، وهم بدورهم كانوا يخطبون للخليفة العباسي في بلادهم ، فبادلوهم روحانيات بروحانيات . كذلك كان نور الدين ، بين الفينة والفينة ، يحيط الخليفة علماً بما يجد لديه من حوادث ، فإن كانت كوارث ومصائب ، كما في حال الزلازل الرهيبة التي ضربت بلاد الشام في اواسط القرن السادس للهجرة عرض بذكر المساعدة : ... وان بالثغور الاسلامية شدة افتقار الى تحصينها ، واعادة بناء حصونها ، واعادة بناء حصونها قبل ان يستفحل الداء ويتفرغ لشغلها الاعداء . والحال مفتقر لعمارة الثغور وضبط الامور ... الى ذخائر اموال تبذل وتدال، ولا غنى عن مساعدة ومساعفة بنفقات يستمان بها على سد الثلمة ودفع الملمة وتجديد العمارة الزائلة ، وتسديد حال الزلزلة الهائلة [1] .

علاقة نور الدين بصلاح الدين :

وصلنا الآن الى نقطة شائكة حساسة ، وهي علاقة صلاح الدين بنور الدين. وقد اتهم كثير من الباحثين صلاح الدين بقلة الوفاء وانه عض اليد التي احسنت اليه. ونحن لا ننكر على صلاح الدين طموحه ، وانه كان يسعى لايجاد ملك له. ولكن الذي يبدو لنا ان هذه الفكرة لم تنبت في ذهنه الا بعد وفاة عمه اسد

---

(١) ابن الفرات . المصدر المذكور آنفاً . جـ٤ ، ص٩٦-٩٧ .

الدين شيركوه واستقلاله في امـــر مصر . ذلك ان شخصية اسد الدين كانت طاغية وطموحه معروف ، ولكن مـــا ان ثبتت قـدم صلاح الدين في مصر واستدعى اهله اليه حتى ظهر ذلك الطموح واضحاً . فقد بدأ يخاطب الخليفة العباسي مباشرة . كذلك بدأ يفكر حتى بمقاومة نور الدين ان فكر في مهاجمة مصر واخراجه منها ، كما تدل على ذلك محاورته مع ابيه وخاله وبقية قواده . ولقد علمه ابوه درساً في الكتمان وكيف ان على المرء ان يستعين بالكتمان في قضاء حوائجه[1] ولا نعتقد ان نور الدين كان خافياً عليه طموحهم ، ولكنه اراد ، في رأينا ، ان يستفيد من الامكانات الممتازة المتوفرة لدى آل ايوب ، وفي نفس الوقت يحقق لهم من هذا الطموح ما لا يضر بالمصلحة العامة ولا يؤثر على مركز نور الدين . وهذا ما يفسر تغاضي نور الدين عن صلاح الدين وعدم قصده بالعداء . ذلك لأن مطامح صلاح الدين في مصر اصبحت واضحـة كل الوضوح . ولكن رغبة نور الدين في حقن دم المسلمين ، ورغبته في توجيه جميع القوى نحو الفرنج جعلته يتمهل ولا يعجل . كذلك فاننا نعتقد ان صلاح الدين، على الرغم من طموحه ورغبته في ملك مصر ، لم يكن ذلك الرجل الذي يحارب سيده ويشق عصا المسلمين ويفرق وحدتهم من اجـــل هذا الطموح ، اذ ان الرجلين كانا مثالين نادرين للاخلاص لله تعالى ونصرة الاسلام والمسلمين وقضاياهم. وتدل الرسائل التي ارسلها صلاح الدين الى نور الدين في السنة التي سبقت وفاته على رغبة صادقة في ارضائه ولهجة موثوقة بالطاعة والاخلاص والولاء . فقد بلغت صلاح الدين اشاعة وهو في مصر ، اطلقهـــا فرنج الشام ، ان نور الدين توفي ، فأرسل له رسالة مستفسراً عن صحته وعن مدى صحة هذه الاشاعة . وهو في رسالته هذه يحض من حول ابن نور الدين على الاتحـــاد وعدم تفرق

(١) ابن الأثير . المصدر المذكور آنفاً . جـ١١ ، ص ٣٧٢ - ٣٧٣ .

الكلمة : ... فالله الله ان تختلف القلوب والايدي فتبلغ الاعداء مرادها ... فكونوا يداً واحدة واعضاداً متساندة[1] ... ثم يقول للامراء والجميع : ولهذا البيت منا ناصر لا نخذله وقائم لا نسلمه . وقد كانت وصيته الينا سبقت ، ورسالته عندنا تحققت بأن ولده القائم بالأمر وسعد الدين كمشتكين الاتابك بين يديه ، فإن كانت الوصية ظهرت وقبلت ، والطاعة في الغيبة والحضور اديت وفعلت ، والا فنحن لهذا الولد يد على من ناواه وسيف على من عاداه[2] ثم يختم رسالته هذه بقوله : وان اسفر الخبر عن معافاة فهو الغرض المطلوب والنذر الذي يحل على الايدي والقلوب[3] .

يمكننا ان نسمي هذه الرسالة اعلان الولاء يقدمه صلاح الدين لنور الدين ولولده من بعده . ولقد ادرك ذلك كله نور الدين فلم يتعرض لصلاح الدين طوال حياته . ولما انتقل الى جوار ربه حدثت احداث كثيرة غيرت سير الامور جذرياً وقذفت بصلاح الدين الى الذروة وتقهقر البيت الاتابكي الى الخلف .

سياسة نور الدين الخارجية « باستثناء الصليبيين » :

كان هدف نور الدين الاول – بعد استلامه حكم حلب اثر وفاة والده – احتلال دمشق وضمها الى ملكه ، وكانت مملكة دمشق قد ضعفت كل الضعف وتوفي حاكمها معين الدين أنر وبدأت تجمع الجزية للفرنج ، فأتاها نور الدين يريد احتلالها ، ولكنه استعمل الدهاء حتى لا يلقي حاكمها مجير الدين نفسه في

---

(١) أبو شامة . المصدر المذكور آنفاً . جـ١ ، ٢ق، ص ٥٨٧ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) نفس المصدر .

احضان الفرنج ، فأرسل يخبره انه لم يأت محارباً وانما أتى ليحارب الفرنج ويطلب منه المعاونة على هذا الغرض النبيل . ولكن مجير الدين اجابه بوقاحة : ليس بيننا وبينك الا السيف وسيوافينا من الفرنج ما يعيننا على دفعك ان قصدتنا ونزلت الينا[1] . فاضطر الى ترك المدينة واجل احتلالها الى فرصة مواتية، وقد واتت الفرصة بعد فترة وتمكن من احتلالها وجعلها عاصمة ملكه. كذلك كان هناك علاقات خارجية سياسية بين نور الدين وكل من سنان شيخ الحشيشية وقليج ارسلان ملك سلاجقة الروم وايلدكز صاحب اذربيجان .

فقد ساءت العلاقات بين نور الدين وسنان فأرسل اليه نور الدين يتهدده ، فأجابه سنان شعراً يسخر منه ويقول :

بنا نلت هذا الملك حتى تأثلت بيوتك فيها واشمخر عمودها

فأصبحت ترمينا بنبل بنا استوى مغارسها منا ، وفينا حديدها

كذلك حارب نور الدين قليج ارسلان ملك سلاجقة الروم وهزمه فاضطر لطلب الصلح ، وهنا يظهر اتجاه نور الدين الاسلامي السني واضحاً كل الوضوح، فهو لم يطلب منفعة ولا مالاً وانما طلب من الملك ان يجدد اسلامه على يدي رسول نور الدين اليه لانه يعرف ان قليج ارسلان يعتقد اعتقاد الفلاسفة ، ولا يحل لنور الدين تركه ملكاً على بلاد اسلامية . كذلك طلب منه ان يمده بعسكر من عنده عندما يريد ان يحارب الفرنج[2] .

---

(١) ابن خلكان ، شمس الدين أحمد بن محمد . وفيات الأعيان ... تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٨ م. ٦ج ، ج٤، ص٢٧٤ .

(٢) ابن الأثير ، عز الدين . التاريخ الباهر في تاريخ أتابكة الموصل ص ١٦٠ - ١٦١ .

واخيراً منع نور الدين ايلدكز صاحب اذربيجان من التدخل في شؤون الاسرة المالكة في الموصل عندما نشب خلاف بين ابناء اخي نور الدين حكام الموصل ، فأراد صاحب اذربيجان ان يتدخل بين الاخوين ، ولكن نور الدين منعه من ذلك وارسل يقول له : انا اصلح لاولاد اخي منك فلا تدخل بيننا[1] .

شؤون المال والضرائب والمكوس زمن نور الدين :

قلنا سابقاً ان نور الدين كان يضع الشرع واحكامه أمام عينيه ويسير حسب احكامه واوامره . وقد تمثل ذلك اكثر ما تمثل في شؤون المال . فقد كانت صدقاته ومباره للفقراء والصوفية كثيرة . ولما احتاج الى مال ذات مرة لتجهيز الجيش لحرب الاعداء ، اقترح عليه نوابه الاستعانة بمخصصات الفقراء والصوفية فرفض كل الرفض[2] . كما وانه يكره السعاة ويعاقبهم ولو كانوا يحملون له الاموال الغزيرة في سعايتهم كما فعل مع شخص اخبره ان تاجراً موسراً خلف ولداً قاصراً عند موته ويغريه بأخذ المال فأجابه : اما الميت فرحمه الله ، واما الولد فأنشاه الله ، واما المال فثمره الله ، واما الساعي فلعنه الله[3] . ولقد سار نور الدين على سياسة الغاء المكوس واطلاق المظالم ورد الاموال المغتصبة الى اصحابها كلما وجد الى ذلك سبيلاً كما فعل في كل من دمشق وحلب وحمص

---

(١) ابن العديم ، كمال الدين عمر بن أحمد . زبدة الحلب من تاريخ حلب .. تحقيق سامي الدهان . دمشق ، المعهد الفرنسي للدراسات الشرقية ، ١٩٥١ - ١٩٦٨ م. ج ٣ ج٢، ص ٣٣٢ .

(٢) ابن العماد الحنبلي . المصدر المذكور آنفاً . ج٤، ص١٨١ .

(٣) ابن قاضي شهبة ، بدر الدين . الكواكب الدرية في النورية . تحقيق محمود زايد . بيروت ، دار الكتاب الجديد ، ١٩٧١ م. ص ٢٦ .

وحران وغيرها من البلاد . وهو يفعل ذلك تقرباً الى الله تعالى ورأفة بالمسلمين وشكراً لله على ما اولاه من النصر على الفرنج[١] .

كذلك حركته نفس الروح الدينية النبيلة وروح الحاكم الصالح الذي يحب رعاياه ويحنو عليهم ويرأف بهم لإلغاء المكوس جملة واحدة من مصر سنة ٥٦٧هـ. وقد تلا مرسوم الاسقاط صلاح الدين بأمر من نور الدين . وهنا نجد نفس الدوافع السابقة التي حركته لالغاء المكوس ورد المظالم في بلاد الشام هي التي حركته لابطال المكوس في مصر[٢] . ولقد تتبع نور الدين جميع الضرائب غير الشرعية فأسقطها عن شعبه كما فعل لما اسقط ضريبة الاتبان في دمشق وضواحيها سنة ٥٦٨ هـ[٣] . واخيراً ختم رحمه الله حياته باصدار مرسوم عامل يبطل المكوس في جميع البلاد الخاضعة لحكمه[٤] .

الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين الشهيد :

اطلت الفتنة العارمة برأسها اثر وفاة نور الدين الشهيد ، وحدثت مشاكل كبيرة ودارت حروب مريرة ذلك انه خلّف ولداً صغيراً قاصراً اسمه اسماعيل تلقب بالملك الصالح . ولقد التف حوله عدد من الامراء المختلفين المتنابذين المتحاسدين ففرطوا وضيعوا . كذلك كان هناك فرع الموصل الاتابكي يتحفز

---

(١) أبو شامة . المصدر المذكور آنفاً . جـ١ ، ق١، ص٣٨–٤١ .

(٢) نفس المصدر ، جـ١ ق ٢ ، ص٥٢٢ – ٥٢٣ .

(٣) نفس المصدر ، جـ١ ق٢، ص ٥٥٠ – ٥٥١ .

(٤) ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم . مفرج الكروب في اخبار بني ايوب . تحقيق جمال الدين الشيال ومحمد حلمي محمد احمد. القاهرة، وزارة الثقافة والارشاد القومي . ٤جـ جـ١، ص٢٧١– ٢٧٩ .

لاحتلال شمالي بلاد الشام كلما سنحت له الفرصة ، وقد سنحت له الفرصة بوفاة نور الدين وتولي ابنه القاصر . كذلك كان هناك الفرنج المستعدون للتحرك كلما سنحت الفرصة ، حتى بدا للعيان واضحاً أن البناء الذي شيده نور الدين سيتعرض للانهيار ان لم يتدارك الله تعالى الامة بمنقذ ، وقد تداركها بصلاح الدين . وعلى الرغم من ان البعض يعتقد ان تدخل صلاح الدين كان عقوقاً بحق مولاه وابن مولاه ، الا ان مسائل الدول لا ينظر اليها من هذا المنظار ، وانما ينظر اليها بمنظار المصلحة العامة ، فقد فرط الامراء حول الملك الصالح وضيعوا فأتى صلاح الدين فحفظ واكمل البناء .

ولقد بدا للوهلة الأولى ان العلاقات حسنة بين صلاح الدين والملك الصالح ، فقد ارسل الملك الصالح الى صلاح الدين يخبره بوفاة والده ويطلب اليه ان يستمر في الخطبة له كما كان يخطب لوالده[1] وقد ارسل له صلاح الدين خطاب تعزية ويذكر له انه اقام له الخطبة باسمه في الديار المصرية[2] .

ولما احس صلاح الدين ان الوضع بدأ يضطرب حول الملك الصالح بسبب خلاف الامراء حوله وتحاسدهم وبسبب قصورهم عن رد كيدسيف الدين صاحب الموصل الذي احتل الجزيرة ، ارسل الى الامراء رسالة يقرعهم ويهددهم بأنه سيزحف على بلاد الشام وسيجازيهم على تهاونهم ويصحح الاوضاع ويعيد للبيت الاتابكي مجده وسمعته[3] .

ولما لم يصغ الأمراء لصلاح الدين لم يكن مندوحة عن تدخله . وعلى الرغم

---

(١) نفس المصدر . ج ٢، ص ٢ – ٣.

(٢) ابو شامة . المصدر المذكور آنفاً . ج ١، ق ٢ – ٥٨٨ .

(٣) ابن الاثير . المصدر المذكور آنفاً . ص ١٦٣ .

من ذلك ظل الامراء يتنازعون ، ولم يكونوا اهلاً للوقوف في وجه صلاح الدين، ولذلك لجأوا الى اثارة عواطفه وتذكيره بايادي البيت الاتابكي عليه ، ولكن صلاح الدين لم يسمح لمثل هذه الاعتبارات ان تصرفه عن غايته ، بل بالعكس يدل جوابه على رغبة حقيقية بالوفاء لنور الدين ولولده وتخليصه ممن حوله[1] .

ولقد اضطر الامراء ومعهم الملك الصالح الى الارتحال عن دمشق الى حلب. ولقد حاول صلاح الدين احتلال حلب ، ولكنه لم يتمكن من ذلك لفرط محبة اهل حلب للملك الصالح ودفاعهم البطولي ضد صلاح الدين حتى اضطر لتركها. واخيراً اتت نهاية الملك الصالح المؤلمة وهو في سن السابعة عشرة . ولم يكن له وارث ، ففتح موته الباب على مصراعيه امام صراع مسلح حول ارثه، وبخاصة حلب ، حتى تمكن صلاح الدين ، بعد حروب كثيرة ، من ضمها الى ملكه .

لا يمكن الحكم على شخصية الملك الصالح لصغر سنه ولأنه لم يكن له رأي ولا تدبير في الامور التي جرت ، وانما نقول ان حكمه ونهايته يثيران الألم والعطف ، وان تكن هي النهاية الطبيعية للاحداث التي رافقتها .

الدّولة الأيوبيّة

امتد حكم الدولة الايوبية على القسم الاكبر من بلاد الشام ومصر فترة تقرب من التسعين عاماً هي من أخطر فترات التاريخ الاسلامي ، وتعاقب على حكمها ملوك عظام . فقد اسسها صلاح الدين واستقل بحكمها بعد وفاة نور الدين سنة ٥٦٩ هـ واستمرت في مصر حتى قبيل سقوط بغداد بيد المغول ، اما في سورية فقد زالت بعيد سقوط بغداد بيد المغول ، وان يكن استمر احد فروعها يحكم

(١) ابو شامة . المصدر المذكور آنفاً ، جـ١ ق٢، ص ٥٩٧ — ٥٩٨ .

في حماة فترة تناهز السبعين عامـــاً بعد ذلك التاريخ ، وذلك ضمن اطار دولة المماليك ، وان من اشهر ملوكها في هذه الفترة ابا الفداء المؤرخ والجغرافي الشهير.

ولقد حاربت هذه الدولة الصليبيين حرباً لا هوادة فيها ، وهي التي حررت بيت المقدس من ايديهم ، كذلك حررت قسماً مهماً من بلاد الشام من ايديهم. وفي ايامهم تعرضت مصر مرتين للغزو الصليبي . وتعتبر هاتان المحاولتان من اخطر واقسى ما مر بمصر والمسلمين من ازمات ومحن، ولكن الله سلم وخرجت مصر والبيت الايوبي منتصرين من هاتين المحنتين . كذلك اهتمت هذه الدولة بالآداب والعلوم والتعليم وتابعت الخط الحضاري الذي سار عليه اسلافها . فهي بالحقيقة حلقة متصلة من حلقات الحضارة الاسلامية ، وبشكل خــاص تعتبر امتداداً لدولة نور الدين في جميع النواحي السياسية والاقتصادية والثقافية . ولا غرو فقد تتلمذ مؤسسها رحمه الله على يد نور الدين الشهيد وتأثر به كل التـأثر وتأدب بأدبه ، كما وان من اتى بعد صلاح الدين تتلمذوا على يديه كأخيـه العادل ، وهكذا .

صلاح الدين :

والواقع ان شخصية صلاح الدين شخصية خصبة متعددة الجوانب ، واستفاد من جميع الامكانات والظروف . فقد كان ، بجـانب روحه الاسلامية المشرقة وشخصيته المثالية ، شخصاً عملياً يفرق بين الممكن وغير الممكن ويستفيد من كل الفرص المتاحة له لتحقيق اهدافه السامية . وهو الذي اسس الدولة الايوبية وحفظ على سورية ومصر وحدتها وتمكن ان يجعل من هذه الوحـــدة نقطة الانطلاق من اجل تحرير القدس الشريف وباقي الاراضي الاسلامية ، وان يحقق للاسلام والمسلمين امنية من اغلى أمانيهم ، وان يجعل من هذه الوحدة الصخرة التي تحطمت عليها جميع غزوات الصليبيين ومن بعدهم المغول .

والذي ساعد صلاح الدين في تحقيق اهدافه واهداف المسلمين هو ايمانه القوي الذي استطاع ان يجعل الآخرين يتأثرون بهذا الايمان ويتفاعلون معه . والايمان خلاق كما يقولون ، ولذلك حقق حلماً داعب خيال المسلمين فترة طويلة، كما وانه استفاد كل الفائدة من جهود واعمال نور الدين وسار على منواله واكمل البناء الذي وضع قواعده نور الدين . وكما قلنا ، كان شخصاً عملياً فلم يتوقع مساعدة من الخلافة العباسية سوى النواحي المعنوية كالتقليد وغيره . ولم تأته مساعدة تذكر الا من بعض الامراء المحليين كملك الموصل الذي ساعده على مضض . وكذلك لم يجن ثمرة من استنجاده بملك الموحدين ، ولذلك كان اعتماده على موارد بلاد الشام ومصر المحلية .

كذلك امتاز عصره بنهضة تعليمية وانتشار المدارس في ارجاء كثيرة من بلاد الشام ومصر وخاصة دمشق والقاهرة . وكان كاتبه ووزيره القاضي الفاضل راعي هذه النهضة الادبية الثقافية التعليمية . والواقع ان القاضي الفاضل من أساطين النثر العربي في عصوره المتتابعة ، وتدل رسائله على تمكن تام من علوم العربية وعلى رشاقة في الاسلوب ومتانة في التعبير ، وان يكن التزم السجع كما هي عادة ذلك الزمن ، ولكن سجعه ليس من النوع الثقيل الممجوج بل من النوع المحبب الذي تقبله النفس وترتاح اليه الاذن . والواقع لقد تجاوز القاضي الفاضل دور الكاتب لدى صلاح الدين ، وانما كان دوره دور الوزير والمستشار، بجانب دور الكاتب . وقد ناب عن السلطان مرات عديدة . وكان مدلاً بشخصيته وله رأيه في الحوادث ، كما في حال الرسالة المغربية التي سنبحثها فيما بعد . وحتى في حالات كثيرة كان يمارض حملة السيوف بآرائه ويدل عليهم مدعياً ان اثار الاقلام ابقى واخلد من آثار السيوف . ولقد طال به العمر بعد وفاة صلاح الدين وحاول ان يلعب دوراً في توحيد ابناء صلاح الدين وازالة خلافاتهم ، ولكنه عجز عن ذلك فانسحب من الحياة العامة وظل على ذلك

حتى مـات . هذا ولا بد من القول انه كان غنياً كل الغنى ومحباً للكتب وجماعاً لها وبنى مدرسته الفاضلية في القاهرة وخصصها لدراسة المذهب الشافعي .

كذلك يقرن بالقـاضي الفاضل عماد الدين الاصفهاني وهو كاتب آخر من كتاب العصر يدخل في خدمة صلاح الدين ، ولكنه لم يبلغ منزلة القـاضي الفاضل ، وكان مغالياً في السجع والتزامه اكثر من القاضي الفاضل . والف عدداً من الكتب من بينها **الفتح القسي في الفتح القدسي** في تمجيد استرجـاع بيت المقدس من الفرنج .

وبالجملة تطل شخصية صلاح الدين علينا عملاقة تملأ فراغـاً كبيراً جداً في التاريخ الاسلامي ، وقلائل يستطيعون مضارعتها ، وهذا يعود الى ما حققه من انجازات : ففيه تقمصت وتجسدت شخصية الحـاكم المسلم العاقل المستنير الانساني النزعة الاداري المحنك والقائد العسكري الفذ البطل ، وقد تنـاغمت فيه كل هذه الصفات وتكاملت بحيث شكلت منه الحاكم العـادل والقائد العسكري والسياسي البارع وهكذا . وستظل ذكرى صلاح الدين عطرة لدى شعوب العالم الاسلامي ولا يزيدها كر السنين الا تألقاً وعبقاً .

علاقة صلاح الدين بخلفاء بغداد :

من الملاحظ ان علاقة الايوبيين بالخلفاء العباسيين بشكل عـام كانت جيدة كل الجودة . فقـد كان الايوبيون سنّة ً وحاربوا بقية المذاهب كالباطنية والحشيشية وغيرهمـا من المذاهب المنحرفة . كما وان الخلفاء العباسيين امدوا أمراء آل ايوب بالقاعدة الشرعية لحكمهم . وفيما يتعلق بصلاح الدين فقد كانت علاقته جيدة بالخلفاء العباسيين ، فقد حقق ، مع نور الدين الشهيد ، حلماً طالما راود الخلافة العباسية في القضاء على الخلافة الفاطمية وهي التي نافستها في زعامة

العالم الاسلامي . كذلك حـــارب الفرنج في بلاد الشام ومصر وضم اليمن الى ملكه وكذلك الحرمين الشريفين وبـــلاد النوبة وبرقة . وكان يخطب للخليفة العباسي في تلك الامـــاكن . وقد حرص صلاح الدين ان يخبر الخليفة في كل خطوة يخطوها ويطلب منه ، بالمقابل ، التأييد الشرعي لحقوقه وحقوق اولاده من بعده . كما وان الخلافة العبـــاسية ، التي فقدت منذ زمن طويل كل نفوذ سياسي لهـــا خارج العراق ، قنعت بهذه الرابطة التي تقضي بمنح الولاء مقابل الاعتراف بالسيادة الاسمية ، على الرغم من علم الطرفين ان هذه الرابطة لا تنتج عنها التزامات مادية محددة .

وقد اعتاد صلاح الدين ، في أغلب رسائله الى الخلفاء العباسيين – ذلك أنه عاصر خليفتين هما المستضيء والناصر – أن يعدد أياديه ومآثره في خدمة الخلافة العباسية ، بل بلغ به الأمر أنه غمط نور الدين حقه ونسب لنفسه اشياء فعلهـا هو عندما كان تابعا لنور الدين ونائباً عنه وبأمره ، كما في حال الغـــاء الخلافة الفاطمية . وفي احدى رسائله الى المستضيء يبرر زحفه على بلاد الشام بعد وفاة نور الدين من اجل ابن نور الدين وكفالته وتخليصه من قوم يأكلون الدنيـا باسمه ويبالغون في ظلمه [1] . ثم طلب من الخليفة تقليداً جامعاً بمصر واليمن والمغرب والشام وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية [2] . ولكن رد الخليفة ، الذي هو قطعة أدبية فاخرة ، كان مثلاً أعلى للوفاء والاعتراف بالجميل لنور الدين بعـد موته : فقد قلد الخليفة صلاح الدين كل البلاد التي طلبها باستثناء حلب التي كان حاكمها آنذاك الملك الصالح بن نور الدين الشهيد : ... وأضاف اليهـــا بلاد الشام وماتحتوي عليه من المدن الممدنة والمراكز المحصنة، مستثنياً منها ما هو بيد

---

(١) ابن واصل ، المصدر المذكور آنفاً جـ ٢ ، ص ٢٦ – ٢٩ .

(٢) نفس المصدر .

نور الدين اسماعيل بن نور الدين محمود رحمه الله ، وهو حلب واعمالها . فقد مضى أبوه عن آثار في الاسلام ترفع ذكره في الدارين ، وتخلفه في عقبه من الغابرين ... فليكن له منه جار يدنو منه وداداً كما دنا ارضاً ، وتصبح وهو له كالبنيان يشد بعضه بعضاً [1] . هذا وان التقليد الذي ارسله الخليفة المستضيء الى صلاح الدين مليء بالعظات والنصائح الجليلة في حق النفس والجار والرعايا . ولكن أكثر ما اكد عليه العهد هو قمع البدع المخالفة لعقيدة الاسلام الاساسية ومتابعة الجهاد ضد الفرنج حتى تتحرر بلاد الشام والبيت المقدس .

ولا تختلف بقية العهود عن هذا العهد في معناها ومبناها ، وان اختلفت الفاظها وجملها وكلها تزخر بآيات الذكر الحكيم استشهاداً ودعماً للرأي والنصيحة التي يبديها الخليفة . كذلك لجأ صلاح الدين الى الخليفة المستضيء يطلب اليه ان يعمل على ايقاف صاحب الموصل عن احتلال حلب لما توفي الملك الصالح . ذلك ان الملك الصالح توفي دون عقب ، فاغتنم ابن عمه صاحب الموصل الفرصة وزحف على حلب واحتلها ، وبدأ الصراع بين صلاح الدين وصاحب الموصل حول حلب . ويبدو ان صاحب الموصل بذل للخليفة وعوداً كثيرة ان هو أمده بتأيده ، ذلك ان صلاح الدين يقول في رسالته للخليفة : وان كان القوم قد بذلوا للدار العزيزة بذولاً معارة ، فقد اسلف الخادم خدمات ليست بعوار ، فانهم لو بذلوا جلادهم كلها ما وفت بفتح مصر ... فإن اقتضت الاوامر الشريفة ان يوعز للمذكور بحلب بتقليد ، فالاولى ان يقلد الكل ، فلا رغبة فيما لا يؤمن معه شر الشريك [2] . ويبدو ان الخليفة ، بعد هذه الرسالة ، غيّر موقفه وحاول ان يلعب دور الوسيط بين الطرفين . ويلاحظ ان صلاح الدين يلجأ الى التاريخ

---

(١) السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن . حسن المحاضرة في اخبار ملوك مصر والقاهرة . تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم . القاهرة ٢ جـ ج ٢ ، ص ٧ – ١٥ .

(٢) ابن واصل . المصدر المذكور آنفاً . جـ٢ ، ص١١٠ – ١١٢ .

ليثبت سلامة موقفه ونبل خدماته الخالصة من الغرض للخلافة العباسية ؛ ذلك ان له في الدولة العباسية آثاراً : لا يعد مثلها أولاً لابي مسلم لانـــه اقدم ثم خامر ووالى ثم ولى، ولا آخراً لطغرلبك فانه نصر ونصب ثم حجر وحجب[1]. هذا الى جانب تعداد أياديه الكثيرة .

ولقد بلي صلاح الدين، في شخص الخليفة الناصر، بخليفة قوي الشخصية يغار على المظاهر والألقاب اكثر من اي شيء آخر، ذلك انه على الرغم من أن الناصر ارسل ، عندما اصبح خليفة ، تقليداً جامعاً لصلاح الدين ، الا انه بعد برهة ارسل له رسالة عن طريق وزيره يعاتبه على امور بلغته عنه : منها انـــه تلقب بالملك الناصر وهو لقب الخليفة ، وهذا عند الخليفة، من الكبائر التي لا تغتفر . كذلك يعاتبه لأنه يسمح لأعداء الخليفة باللجوء الى بلاد الشام ، ومنها حادث الشغب الذي حدث ايام الحج في المشاعر المقدسة وكان اخو صلاح الدين احد مسببيه الرئيسيين وتأثر بـــه الحاج العراقي[2]. ولقــد كان جواب صلاح الدين غاية في الادب والايجاز : الحرب كانت شغلته عن التروي في كثير من الامور . واما لقبه الناصر فهو من ايام الخليفة المستضيء ، ومع هـــذا فمها لقبني امير المؤمنين فــلا اعدل عنه [3] . كذلك واصل رسائله الى الخليفة حــول هجوم المواصلة على حلب ونقضهم العهود ، ويطلب ان يصدر الخليفة له ، ليس فقــط تقليداً جامعاً في حلب واعمالها ، فهذه له بطبيعة الحال ، وانمـــا امراً خلافياً الى جميع مـــلوك الاطراف بضرورة مساعدته ضدهم وضد جميع المشركين

---

(١) نفس المصدر .

(٢) ابو شامة . كتاب الروضتين في اخبار الدولتين ... القـــاهرة ، مطبعة وادي النيل ، ١٢٨٧ ﻫ . جـ٢، ص ١٢٢ – ١٢٣ .

(٣) ابن كثير . المصدر المذكور آنفاً . جـ١٢، ص – ٢٨ .

والكفار[1] . وعلى عادة صلاح الدين في مراسلة خلفاء بني العباس كان يكـــثر الحديث عن خدماته لهم وما له من الايادي ومـــا حققه لهم من اعمال فائقة . ويظهر ان ذلك اغاظ الخليفة الناصر ذا الشخصية القوية فـأرسل اليه يقول : يمنون عليك ان اسلموا ، قل لا تمنوا على اسلامكم بل الله يمن عليكم ان هـــداكم للايمان ان كنتم صادقين[2] .

علاقة صلاح الدين بأفراد اسرته :

اصبح صلاح الدين رأس أسرته بعد وفاة ابيه . وقد ذهب اخوه الى اليمن فملكها وكانت علاقته به حسنة ، وكان يرسل له الرسائـــل مبشراً بالفتوح كما فعل لمـا ارسل له يبشره بفتح ميافارقين سنة ٥٨١ هـ . ولكنه استعان ، اكثر ما تكون الاستعانة، بأخيه الملك العـادل. والواقع ان الملك العادل تربى على يدي صلاح الدين ، هو وابن اخيه تقي الدين عمر ، وقد تطبعا بطباعه . وهو ، وأن كان سبب ظهورهما ، الا انهما قدمـــا له خدمات جلى . فقد كانت عادة صلاح الدين ان يجعل اخاه العادل نائباً عنه في حكم مصر كلما غاب عنهـــا في حروبه بالشام . وكانت لهما مطامع واسعة لا تعرف الحدود والقيود . ويبدو ان ذلك وضح للقاضي الفاضل كل الوضوح حتى اضطر ان يرسل الى السلطـان رسالة يخبره برغبتهما ان يتملكا طرفاً من الاطراف : الملك العادل والملك المظفر المذكوران ما هما اخ وابن اخ بل هما ولدان لا يعرفان الا المولى والداً ومنعماً. .

---

(١) ابو شامة . كتاب الروضتين ... تحقيق محمد حلمي احمد . القـــاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٦ جـ١ ق٢، ص ٦٤٨-٦٤٩ .

(٢) النويري ، شهاب الدين احمد . نهاية الارب في فنون الادب . الطبعة الثانية . القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٢٩م جـ٧، ص ٣٠ . وهذه الآية هي الآية ١٧ من سورة الحجرات .

فلا يقنع كل واحد منهما الا طرف يملكه واقليم يتفرد به ؛ فيدبر مولانا في ذلك بما يقتضيه صدره الواسع وجوده الذي ما نظر مثله الناظر ولا سمع السامع[1] .

ويبدو ان اعتماد صلاح الدين على اخيه العادل كان اكبر من اعتماده على ابن اخيه تقي الدين ، وكذلك كانت ثقته به . فقد جعله نائباً عنه عدداً كبيراً من المرات ، ثم ولاه حكم حلب ، ثم حكم مصر واقطعه الاقطاعات الجزيلة في سورية والجزيرة ومصر ، وكان يرسل له الرسائل يبشره بالفتوح الكبار والحوادث المهمة . ويبدو ان كل ذلك اغاظ ابن اخيه تقي الدين عمر ، ولاسيما عندما ولى صلاح الدين ابنه العزيز مصر والعادل مديرية الشرقية ولم يوله شيئاً ، وذلك في اواخر ايامه فغضب وقرر ترك البلاد وارسل يطلب الاذن له بالسفر لفتح المغرب او غيره. ولكن السلطان اجابه برسالة هي توبيخ وتقريع بأسلوب بليغ وتذكير له بالايام الخالية : بالامس ما كان لكم من الدنيا الا البلغة. واليوم قد وهب الله هذه النعمة[2] .

سياسة صلاح الدين الخارجية « باستثناء الحروب الصليبية »

بعد ان ثبت صلاح الدين اقدامه نهائياً في حكم بلاد الشام والجزيرة ومصر اصبح مجاوراً لعدد من الدول ، واصبح له ، بالضرورة ، علاقات خارجية معها فلم ينس امراء الموصل مطامعهم في حلب بخاصة ، وحاولوا اكثر من مرة اخذها ولكنهم عجزوا عن ذلك ، ثم عقد بين الطرفين حلف كانت فيه لصلاح الدين اليد الطولى . كذلك جاور صلاح الدين بلاد الروم وكان له معهم علاقات

---

(١) ابو شامة . كتاب الروضتين ... القاهرة ، مطبعة وادي النيل ، ١٢٨٧ هـ . جـ٢ جـ٢، ص ٧١ .

(٢) نفس المصدر . جـ٢، ص ٧٠ .

خارجية . ونفس الشيء يقال عن سلاجقة الروم وملك قبرص . امـــا الدولة الوحيدة التي سعى صلاح الدين لخطب ودها وطلب مساعدتهـا ، ولم تكن بينه وبينها حدود مشتركة بالمعنى الصحيح فهي دولة الموحدين زمن الخليفة المنصور ، فقد اتصل بها صلاح الدين طالباً نصرتها وامدادها للوقوف بوجه الصليبيين الذين هاجموا سورية ومصر باعداد غفيرة وقوى كبيرة بعيد استرجـاع صلاح الدين لبيت المقدس من الصليبيين ، ولكن دون جدوى .

ولقد حارب ملوك الموصل صلاح الدين أكثر من مرة ، وهزمهم هو مرة بعد مرة . حتى اضطروا في الأخير الى الاعتراف بتفوقه وسيادته عليهم . وقد حدث ، في احدى هـــذه الحروب ، ان انهزم ملك الموصل سيف الدين هزيمة نكراء امام صلاح الدين وخلف جيشه واثقـاله وخيامه غنيمة لصلاح الدين ، فوجد صلاح الدين في خيمة سيف الدين اقفـــاصاً فيها طيور جميلة من بلابل وقماري وغيرهـا ، فاعادها صلاح الدين اليه مع هذه الرسالة التهكمية : عد الى اللعب بهذه الطيور ، فانها الذ من مقاساة الحروب[1] .

كما وان علاقته مع خليفـــة سيف الدين وهو عز الدين ارتفعت صعوداً وهبوطاً . فقد شكره ذات مرة لانه ارسل له كمية جيدة من السلاح هي رماح وتراس وغيرهـــا . ولكنه في مرة اخرى ارسل له رسالة قاسية كل القسوة وذلك بسبب تصرف عز الدين الاخرق . ذلك انه حدث اثناء المعارك الطاحنة ضد الصليبيين حول عكا ، وهي من اقسى ما عرفه صلاح الدين والمسلمون في تاريخ نضالهـــم ضد الفرنج ، ان أتى عز الدين لنجدة صلاح الدين بفئة من عسكره ، ولكنه بعد فترة وقد طال به المطال ، طلب من السلطان الاذن

---

(١) ابو شامة . كتاب الروضتين ... تحقيق محمد حلمي محمد احمد . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٦ — جـ١ جـ١ ، ق٢ ص ٦٥٢ .

له بالسفر فرفض صلاح الدين ، فما كان منه الا ان غادر المعسكر الاسلامي دون اذن السلطان ، فارسل له السلطان رسالة مع نجاب يقول فيها : انك انت قصدت الانتماء الي ... وارجعتني في ذلك مراراً ... فقبلتك وآويتك ونصرتك ... فاتفق وقوع هذه الواقعة للاسلام فدعوناك فأتيت بعسكر قد عرفته وعرفه الناس واقمت هذه المديدة وقلقت هذا القلق وانصرفت عن غير طيب نفس وغير فصل حال مع العدو ، فانظر لنفسك وابصر من تنتمي اليه غيري واحفظ نفسك ممن يقصدك فما بقي لي الى جانبك التفات[1] .

هذا وان سوء معاملة الفرنج لفلاحي وسكان الدولة البيزنطية ادت الى ان يتقارب حكامها مع صلاح الدين في سبيل العدو المشترك . فقد ثبت وجود علاقات طيبة بين الطرفين ، وتبادل الطرفان الرسل . وفي احدى رسائله يعتب امبراطور بيزنطة على صلاح الدين اغفاله الرد على رسائله ويشرح له ما قام به من صد الألمان عن بلاده وكيف انه حطم قوتهم « بحيث انهم لا يصلون الى بلادك ، وان وصلوا كانوا ضعافاً بعد شدة كثيرة ، لا يقدرون ينفعون جنسهم ولا يضرون نسبتك »[2] ... كذلك يطلب اليه الا يصدق الاشاعات المغرضة عن موقفه منه ويذكره بأياديه الماضية عليه ويطلب منه ارسال رسول من قبله ليشرح له موقفه منه [اي موقف صلاح الدين من امبراطور بيزنطة] وما جرى وجدّ من الامور [3] .

ونجد نفس الدافع الذي دفع ملك الروم لالتماس صداقة صلاح الدين ، عند

---

(١) ابن شداد ، ابو عبدالله محمد بن علي . كتاب سيرة صلاح الدين الايوبي المسماة النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية . تحقيق جمال الدين الشيال . القاهرة ص١٤٥–١٤٦ .

(٢) نفس المصدر . ص ١٣٢ – ١٣٣ .

(٣) نفس المصدر .

ملك قبرص الذي تألم وغضب لاحتلال ملك انكلترا لبلده قبرص ، فأرسل الى صلاح الدين خطاباً يبذل فيه ولاءه ومودته ويعلن اتحاده مع صلاح الدين ضد ملك انكلتيرة [١] . واللطيف في هذه الرسالة التي ارسلها القاضي الفاضل الى السلطان يخبره باتصال ملك قبرص به ان القاضي الفاضل يبدي اراءً سياسية صائبة غاية في الطرافة فيقول عن ملك الروم : ووالله ما افلح ملك الروم قط ولا نفع ان يكون صديقاً ، ولا حق ان يكون عدواً [٢] .

اما علاقة صلاح الدين بملك الموحدين الخليفة المنصور فهذه من المسائل التاريخية المعقدة ، وقد اختلفت فيها الاراء . ذلك ان سمعة المنصور الموحدي ارتفعت ارتفاعاً هائلاً في العالم الاسلامي اثر انتصاره على نصارى الاسبان في معركة الأرك المشهورة . وكان صلاح الدين آنذاك يعاني الأمرين والشدائد في حرب الفرنج الذين اتوا الى بلاد الشام بأعداد غفيرة وقوى هائلة تحدوهم رغبة عارمة في استعادة البيت المقدس من صلاح الدين ، ودارت بين الطرفين معارك طاحنة حول عكا بخاصة . وقد اعوز صلاح الدين المدد من الرجال والذخيرة والاسلحة والميرة والمال ، وبشكل خاص الاساطيل البحرية التي تستطيع ان تقطع طرق تموين الجيوش الصليبية واتصالها بأوربا ، ويؤدي ذلك بالتالي الى اضعافها وشل حركتها . ففكر وفكر اتباعه بالاستنجاد بالخليفة الموحدي المنصور ، ووجه صلاح الدين اليه كتاباً صحبة رسول هو احد امراء الدولة المشهورين مع هدية مناسبة ، وطلب من الخليفة ان ينجد المسلمين المتضايقين كل المضايقة في حروبهم المستمرة مع الفرنج . وكان اهم ما ركز عليه

---

(١) ابو شامة . كتاب الروضتين ... القاهرة ، مطبعة وادي النيل ، ١٢٨٧ هـ. جـ٢ جـ٢، ص١٧٨ .

(٢) نفس المصدر .

صلاح الدين في رسالته الاساطيل البحرية ، اولاً : لانها لديه قليلة ، وثانياً : لانها تقطع المدد عن العدو وتقطع عنه الميرة مما يجعل من السهل جداً الوقوف في وجهه ، ومن ثم التغلب عليه. ويلاحظ على الرسالة انها مجدت سلطان الموحدين تمجيداً لاحد له . فقد ذكر عن نفسه صلاح الدين انه الفقير الى رحمة ربه يوسف بن ايوب[1] . ولما خاطب سلطان الموحدين وصفه بأوصاف كالتالي : دار الملك ومدار النسك وجل الجلالة واصل الاصالة ... وقائم الدين وقيمه ومقدم الاسلام ومقدمه ... ومعلي الموحدين على الملحدين[2] . ويستمر في هذا النسق، ثم يذكر بعد ذلك انه كاتبه لأمرين : الاول شوق قديم والثاني مرام عظيم . ثم يستمر في سرد ما حدث في بلاد الشام من استرداد بيت المقدس وزحف الصليبيين من ديار الغرب الى بلاد الشام لاسترجاع القدس ، والمعارك التي خاضها صلاح الدين ضدهم وقلة الموارد ثم يقول له : ولما كان حضرة سلطان الاسلام وقائد المجاهدين الى دار السلام اولى من توجه اليه الاسلام بشكواه وبثه واستعان به على حماية نسله وحرثه ... كان المتوقع من تلك الدولة العالية والعزمة الغادية ... ان يمد غربُ الاسلام بأكثر مما امد به غرب الكفار الكافرين فيملأها عليهم جواري كالاعلام ومدناً في اللجج سوائر كأنها الليالي[3] ... ثم يذكر انه اوفد اليه رسوله ابا الحزم عبد الرحمن بن منقذ بهذه الرسالة ويستطيع ان يستوضح منه عن كل ما يريده ويختم رسالته بالتحيات الطيبات لسلطان الموحدين[4] .

هذا ولا بد ان نذكر ان القلقشندي في كتابه **صبح الاعشى** اورد نصاً

---

(١) نفس المصدر . ج٢، ص١٧١ – ١٧٣ .
(٢) نفس المصدر .
(٣) نفس المصدر .
(٤) نفس المصدر .

آخر لهذه الرسالة ذكر انهـــا من انشاء القاضي الفاضل ، ولكن محرر صبح الاعشى يذكر انه لم يعثر عليها في مجموعة رسائل القاضي الفاضل المحفوظة صورة فوتوغرافية عنها في دار الكتب المصرية . والخلاف الرئيسي بين نص ابي شامة ونص القلقشندي هو ان صلاح الدين في نص القلقشندي يلقب المنصور بلقب امير المؤمنين[1] . وهذا وهم كبير ارتكبه القلقشندي سنعود لمنـــاقشته بعد قليل .

ولقد وجه صلاح الدين رسالة الى الامير عبد الرحمن بن منقذ يعهد اليـــه بمهمة السفارة الى المغرب لدى السلطان المنصور الموحدي وزوده بتعليماته وكيف ان عليه ان يستقصي احوال القوم وعـاداتهم حتى يعاملهم بمقتضاهــــا ، ولا يخاطب السلطان الا بما يسره ، ثم يطلب منه ان يشرح للسلطان مـــا قام به صلاح الدين من غزوات وما خاض من معارك حتى تمكن من استرجاع البيت المقدس واهمية ذلك . ثم يذكر له ما قام به الغرب المسيحي من انجاد اخوانهم في بلاد الشام والمعارك الرهيبة التي خاضها ويخوضها المسلمون ضدهم ، والموقف حول عكا وحاجة المسلمين بشكل خاص الى الاساطيل : فإن كانت الاساطيل بالجانب المغربي ميسرة ، والعدة منها متوفرة ، والرجال في اللقـــاء فارهة ، وللقاء غير كارهة فالبدار البدار ... وان كانت دون الاسطول موانع : امـا من قلة عدة او من شغل هناك بمهمة او بمباشرة عدو ... فالمعونة مـــا طريقها واحدة ... تكون تارة بالرجال وتارة بالمال[2] ... ثم يطلب اليه ان يبرر لديه هجوم المملوكين بوزيا وقراقوس على اطراف المغرب من طرف ليبيا ، في حال سؤاله واعتراضه على ذلك ، بأن هذين المملوكين ليسا من الامراء المعدودين ، وان ما فعلاه كان لحسابهما الخاص ولم يكن بأمر او علم او رضا صلاح الدين .

---

(١) القلقشندي. المصدر المذكور آنفاً . ج٦، ص ٥٢٧ – ٥٣٠.

(٢) ابو شامة. المصدر المذكور آنفاً . ج٢، ص ١٧٠ – ١٧١ .

ثم يذكر له انه ارسل هدية سيرد تفصيلها في الكتاب الوارد مع الامير حامل الهدية[1] .

ولكن طلب صلاح الدين واستغاثته لم تجد اذناً مصغية لدى الخليفة الموحدي . بل ان السلطان الموحدي لم يجد صلاح الدين اهلاً حتى لأن يرد التحية بتحية مثلها . وكان موقفه هذا خالياً من اللباقة السياسية او الأخوة الاسلامية.

وهناك اسباب كثيرة ادت الى هذا الموقف الذي وقفه الموحدون من صلاح الدين . فالملاحظ ان صلاح الدين واتباعه غالوا في قوة الموحدين واعطوهم اكثر مما يستحقون . صحيح ان المنصور انتصر على الاسبان في معركة الارك العظيمة ، ولكن تلك المعركة لم تكن حاسمة ، ولم تمنع الزحف الاسباني المسيحي او توقف حركة الاسترداد الاسبانية فترة طويلة . ذلك انه لم تمض على وفاة المنصور الا فترة بسيطة حتى نشبت معركة العقاب المشؤومة والتي خسرها الموحدون ، وكانت فاتحة ضياع حواضر الاندلس الكبرى كقرطبة واشبيلية وغيرهما . كما وان بني غانية كانوا اعلنوا ثورتهم في منطقة افريقية ، وهي منطقة حساسة بالنسبة للموحدين وعلى الرغم من ان المنصور نجح في ابعاد الثوار الا ان هناك احتمالاً قوياً في ان يعودوا من جديد لمهاجمة المنطقة[2]. كذلك كان المنصور بحاجة ملحة الى اساطيله لرد عدوان نصارى الاندلس والبرتغال وتأمين مواصلاته مع الاندلس وحماية سواحل بلاده الطويلة[3] . وطبعاً هذه كلها اسباب مقبولة ومعقولة لعدم ارسال الاساطيل . ولكن كما قال صلاح الدين في رسالته لرسوله ابن منقذ ، فإن المساعدة ليست سبيلها

---

(١) نفس المصدر .

(٢) عنان ، محمد عبد الله ، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٤ . ٢جـ جـ٢ ، ص ١٨٥ .

(٣) نفس المصدر .

واحدة . وكان بامكان المنصور ان يمد اخوانه بالمال او العتاد او الميرة او بكلمة طيبة ، فلمَ لم يفعل هذا ؟ لماذا ؟!

في الاجابة على هذا السؤال لا بد من ملاحظة ما يلي : كان اهل المغرب يتهمون اهل المشرق بالانحراف عن العقيدة الاسلامية الصحيحة ، ويتهمونهم بالبدع والضلال والانحراف والزيغ . فقد صرح في ذلك ابن جبير في رحلته في اكثر من موضع . كذلك يذكر المراكشي : فبلغني عن غير واحد انه (اي المنصور) صرح للموحدين بالرحلة الى المشرق وجعل يذكر البلاد المصرية وما فيها من المناكر والبدع ويقول : نحن ان شاء الله مطهروها ، ولم يزل هذا عزمه حتى مات[1] . كذلك يذكر ابن خلكان ان المنصور استاء من صلاح الدين لأنه لم يخاطبه بأمير المؤمنين ... فعز ذلك عليه ولم يجبه[2] . ونحن وان كنا لا نعتقد ان المنصور الموحدي لم ينجد صلاح الدين بسبب ذلك ، ولكنا نعتقد انه لم يرسل له رسالة جوابية ولم يرد على التحية بمثلها لعدة اسباب . اولها : الغرور الذي اصاب المنصور بعد معركة الارك فجعل ينظر لنفسه بمنظار اعلى مما هي عليه . ثانيها : انه كان يعتقد ان مسلمي المشرق الاسلامي ليسوا اسوياء في عقيدتهم واسلامهم ، وان واجبه ، وبالتالي واجب كل مسلم حقيقي ، احتلال بلادهم وتطهيرها من الملاحدة والبدع وحمل الكافة على القاعدة الشرعية . وأخيراً لأن صلاح الدين لم يلقبه بلقب امير المؤمنين . وعندنا وثيقة من نفس العصر هي رسالة ارسلها القاضي الفاضل الى صلاح الدين حول نفس الموضوع موضوع تلقيب صلاح الدين المنصور الموحدي بلقب امير المؤمنين. ويبدو لنا أنه ثار جدل عنيف حول هذا الموضوع بين اتباع صلاح الدين ، وان صلاح الدين

---

(١) المراكشي ، عبد الواحد . المعجب في تلخيص اخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان . القاهرة ، لجنة احياء التراث الاسلامي ، ١٩٦٣ م ص ٣٦٠ .

(٢) ابن خلكان . المصدر المذكور آنفاً . جـ ٦ – ١٢ .

مال الى هذا الرأي . ولكن لم يقف بوجه هذا الاتجاه الا القاضي الفاضل في رسالته الموجهة الى صلاح الدين حول هذا الموضوع . فهو يذكر في رسالته انه غير معترض على الرسالة المغربية، ولكن اعتراضه على اضافة لفظ امير المؤمنين، ويذكر انه خاطب المنصور بشكل فخم كل الفخامة وبشكل يفوق الوصف وبما لا يمكن مخاطبة مخلوق بأكثر منه[1] . وعلى الرغم من ان الامير نجم الدين، وهو الذي كان من المفروض ان يحمل الرسالة الى المغرب ، اعترض على عدم تلقيب المنصور بأمير المؤمنين واعترض معه آخرون من بينهم العادل اخو صلاح الدين اذ اصروا على ذلك ، الا ان القاضي الفاضل اصر على عدم اضافة اللقب له وعلل رفضه بأسباب : منها ان الصالح بن رزيك وزير خليفة مصر الفاطمي لم يخاطب ابن عبد المؤمن وولي عهده بأكثر من الامير الاصيل ، فلا يليق بصلاح الدين وعظمته ان يلقبه بهذا اللقب . ثم يذكر ان المنصور ليس على درجة من القوة كما يتصورون : وما هو إلا ان يهرب مملوكان طريدان منا فيستوليان على اطراف بلاده[2] . ثم يذكر ان بامكان الرسول ان يخاطبه بهذا اللقب ويمكن ان يجحد ذلك فيما بعد ، اما تسجيله في خطاب رسمي فشيء غير وارد لأن ذلك يعني خلع الولاء للعباسيين ومبايعة من لا ينصره الله ولا شوكة فيه ولا يحل اتباعه ، مرخصين الغالي منحطين عن العالي ، شاقين عصا المسلمين[3] ... ثم يقول القاضي الفاضل للأمير : ان وجدت للقوم شوكة ولنا زبدة فعدهم بهذه المخاطبة واجعل كل ما تأخذه ثمناً للوعد بها خاصة[4] ثم يتابع القاضي الفاضل اعتراضاته الثانوية ويشك في امكانية وصول اية نجدة قبل سنتين، وفي خلال ذلك يبدل الله الاحوال . ويقول اذا اصر صلاح الدين على تلك

---

(١) ابو شامة . المصدر المذكور آنفاً . جـ ٢ ١٧٤ — ١٧٦ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) نفس المصدر .

(٤) نفس المصدر .

اللفظة فهو يستقيل من كتابتها ويطلب الى السلطان ان يكلف غيره من الكتاب كتابتها ، وفي نفس الوقت يلوذ بالسلطان الا يسمح لمخالفي رأيه ان ينتقموا منه لأنه خالفهم ، ويختم رسالته النفسية هذه بما يلي : ولو علم المملوك ان هذا الذي استعفى منه يضره بحيث ينفع المولى - ابقاه الله - لهان عليه ، ولكنه مضرة بغير منفعة ، وتعرض لما تذم عاقبته او يبقى على الخوف منه ، وذلك مما لا يقتضيه حسن عهد المولى وفضل رأفته .

رحم الله القاضي الفاضل ، فقد كان ، بجانب اخلاصه لصلاح الدين اخلاصاً لا تشوبه شائبة ، سياسياً بارعاً ورجل دولة بعيد النظر صائب التفكير ، متزناً ، ذا مبدأ ومعتقد ، مستعداً ان يقف في وجه قوى اقوى منه في سبيل مبدئه وعقيدته . ويبدو لنا ان صلاح الدين تبنى وجهة نظره ووجهت الرسالة الى ملك المغرب ، كما نص سابقاً ، خلواً من لقب امير المؤمنين .

شؤون ادارية وخراجية زمن صلاح الدين :

من الملاحظ ان اغلب الشؤون الادارية كان يقوم بأمرها القاضي الفاضل نيابة عن السلطان وباسمه . ومن المراسيم المهمة مرسوم اصدره صلاح الدين يمنع العامة من الخوض في الحرف والصوت . وهي ، كما يبدو ، امور مغيبة من امور القرآن الكريم . ويشدد المرسوم على المتفقهين ويحذرهم اليم العقاب ان هم عادوا للخوض[1]. كذلك يثبط القاضي الفاضل صلاح الدين عن الذهاب الى الحج بعد توقيع الصلح مع الصليبيين لأن بقاءه افضل من الحج خوفاً من غدرة صليبية[2] . ولقد صحح صلاح الدين زمن الخراج وطابق بين السنتين الهلالية والخراجية في مصر[3] .

(١) السيوطي . المصدر المذكور آنفاً . جـ٢ ، ص ١٩ .
(٢) ابو شامة . المصدر المذكور آنفاً . جـ٢ ، ص ٢٠٥ .
(٣) القلقشندي . المصدر المذكور آنفاً . جـ١٣ ، ص ٧١-٧٤ .

واذا اردنا ان نختم كلامنا عن صلاح الدين قلنا انه بطل من ابطال الاسلام الذين نذروا انفسهم لخدمة ربهم ودينهم وابناء ملتهم ، وانه كان سياسياً بارعاً الى جانب كونه بطلاً عسكرياً . وقد تخرج على يديه عدد من اساطين الحرب والسياسة على رأسهم اخوه الملك العادل . وان عصره امتداد لعصر نور الدين، كما وان عصره كان الاساس الذي بنيت عليه فتوحات افراد اسرته من بعده ومن اتى بعدهم من ملوك المماليك حتى حقق الله تعالى ما كان يحلم به ويؤمله صلاح الدين من تحرير جميع بلاد الشام ومصر من طغيان الصليبيين واحتلالهم . وما احوجنا في ايامنا هذه الى احيـــاء ذكراه والى أبطال مثله ليعيدوا الى حضن الاسلام الفتوحات التي كسبها هو بحد سيفه وفرطنا نحن فيها بتقصيرنا .

أبناء صلاح الدين :

من الملاحظ ان صلاح الدين قسم اثنــاء حياته ممتلكاته بين اولاده واخيــه وخص كلاً منهم بجزء مستقل ، ولذلك مــا ان مـــات صلاح الدين حتى بدأ الخلاف بين الاخوة حول الارث ، وبينهم وبين عمهم الملك العادل . ولقد قـاد تقسيم البلاد بين الابناء واعتبارها ارثاً خاصاً كالممتلكات الشخصية ، قاد الى اوخم العواقب وافدح الكوارث في التاريخ الاسلامي ، سواء على العبـــاد ام البلاد ام الحكام انفسهم . وقد بدأ هذه العمليـــة السلاجقة وكانت من اكبر عوامل ضعفهم وضعف البلاد الاسلامية عند الغزو الصليبي لها . وعلى الرغم من الصعوبات الهائلة التي رافقت عملية توحيد البلاد على يد نور الدين وصلاح الدين ، الا انه ، واعني صلاح الدين ، لم يتعظ وقسم بلاده بين اولاده واخيــه فأدى الامر الى حدوث مآسٍ مروعة ، ولاسيما وان الابناء الثلاثة لم يكونوا متفقين ، ولم يكن بينهم من يمكن ان يوازن بالعادل دهاء وحنكة وشخصية . كما وان العادل نفسه لما صفا له الملك اعاد تقسيم بلاده بين اولاده وعادت المأساة للظهور مجدداً .

وليس بين اولاد صلاح الدين من يمكن اعتبـــاره رجل دولة بالمعنى الكلي الكاملة ، اللهم لا الملك الظاهر صاحب حلب ففيه بعض ملامح رجل الدولة . امـا الافضل الذي هو رأس اولاد صلاح الدين فقد كان شخصاً خيالياً يجري وراء اوهام ومثل غير موجودة ، كما كانت تنقصه الحنكة السياسية والدهـاء اللذان هما عنصران اساسيان لرجل الدولة . ولا يمكن الحكم على الملك العزيز صاحب مصر لانه مات مبكراً. ولو استطاع اولاد صلاح الدين توحيد صفوفهم لما تمكن عمهم من التغلب عليهم ، ولكنهم اختلفوا وتحـالفوا مع عمهم ضد بعضهم بعضاً فأدى الامر الى استظهار عمهم عليهم . ولقد نبههم القاضي الفاضل الى ضرورة الاتحاد وذلك في الرسالة التي وجهها الى الملك الظاهر يخبره بموت والده ويختم هذه الرسالة بقوله ... فانه ان وقع اتفاق فمـا عدمتم الا شخصه الكريم ، وان كان غيره فالمصائب المستقبلة أهونهـا موته وهو الهول العظيم والسلام[١] . كما وان الملك الظاهر نبه اخاه الافضل الى عدم الثقة بعمها العادل لأنه يعرف نواياه فأرسل اليه يقول : اخرج عمنا من بيننا فانه لا يجيء علينـا منه خير ، ونحن ندخل لك تحت كل ما تريد . وانا اعرف به منك ... فإنه عمي مثل ما هو عمك وانا زوج ابنته ، ولو علمت انه يريد لنـا خيراً لكنت اولى به منك[٢] ولكن الافضل رفض هذه النصيحة القيمة واجاب أخـاه بقوله : انت سيء الظن في كل احد . اي مصلحة لعمنا في ان يؤذينا[٣] .

وكانت نتيجة هذه الثقة وهذه الخفة والطيش ان فقد الافضل كل املاكه

(١) اليافعي ، ابو محمد عبد الله . مرآة الجنان وعبرة اليقظان . الطبعة الثانية . بيروت ، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ، ١٩٧٠ م ٤جـ . جـ٣ ، ص ٤٦٢ .

(٢) ابن الاثير . الكامل في التاريخ . تحقيق عبد الوهاب نجار . القاهرة ، ادارة الطبـاعة المنيرية ، ١٣٤٨ هـ . جـ١٢ ، ص ١٢٢ .

(٣) نفس المصدر .

وامضى ما بقي من حياته ملكاً على بليدة صغيرة من بلدان الجزيرة وحاز الملك العادل القسم الاكبر من ارث اخيه .

الملك العادل :

تطالعنا في الملك العادل شخصية قوية هي مزيج من القوة والدهاء ، والواقعية والنظرة الرحبة . فقد تعلم في مدرسة صلاح الدين وكانت له باع طولى في الاعمال التي انجزها صلاح الدين . وهو نفسه كان طموحاً وتواقاً الى ملك ، ولم يكن بامكانه تحقيق ذلك ما دام اخوه حياً فتعلم لجم مطامعه ؛ ولكنه بدأ في تحقيقها بعد وفاة اخيه . وقد استغل ضعف اولاد اخيه وتفرقهم ، فزادهم بدهائه وحنكته ضعفاً وتفرقة حتى تمكن ان يحقق مطامحه . وقد يبدو لنا ذلك عقوقاً من جانبه تجاه اخيه ، ولكن السياسة تقضي بذلك ، والوحدة خير من التمزق ، ومصلحة العباد والبلاد مقدمة على مصلحة الافراد . وقد دلت الاحداث على ان الملك العادل كحاكم افضل من اولاد صلاح الدين ، ولاسيا وان البلاد الاسلامية كانت مقبلة في اواخر عهده وعهد ابنه الكامل على تطورات رهيبة كانت بحاجة الى شخص من طراز خاص حتى يستطيع التعامل معها ودفعها . ولذلك نحن نعتبر ما عمله عملاً جيداً واخلاقياً وذلك للفوائد التي تحققت من اعماله هذه .

ولقد حاول الصلاحية بزعامة فارس الدين ميمون القصري ان يقفوا في وجه العادل ، ولاسيا بعد ان خلع الملك المنصور بن الملك العزيز عن عرش مصر وحل محله في عرشها . فقد حاول فارس الدين ان يقف بمفرده في وجه العادل فعجز ، فكاتب الصلاحية ليقفوا معه في وجه العادل فأجابوه جواباً يكشف عن مدى شعورهم بالامر الواقع : انا قد افتضحنا بين الناس بأنا نقيم في كل يوم ملكاً ونعزل ملكاً . ثم الى من نسلم الأمر ؟ الملك الأفضل ما فيه رجاء .

وباقي اخوانه غير الظاهر ليست لهم في النفس عظمة . والظاهر فما يمكنه ان يخلي بلاده ويصير الينا[1] .

بقايا الايوبيين :

وقع العادل في الخطأ الذي وقع فيه اخوه صلاح الدين فقسم مملكتـــه بين ابنائه . وكما هـــو متوقع اختلف الاخوة ودارت بين جميع الاطراف معارك جانبية ومحالفـــات ادت الى اضعاف الجميـع في وقت كانت الحملات الصليبية بدأت بالتوجه الى مصر . ولا نجد بعد الكامل بن العادل شخصية قوية كبيرة تستحق الاعتبار والاهتمام . والواقع لقد انحدر اواخر الايوبيين الى مستويات خطرة ومنخفضة ، فقد اصبح في بلد كالكرك ملك ايوبي ، وكذلك في اغلب البلدان ، وكل منهم يحارب الآخرين ويقتل خصومه وينكل بهم ، مما ادى ، مع اسباب اخرى كثيرة اهمها الغزو المغولي ، الى زوال الحكم الايوبي من كل من سورية ومصر ليحل محله مـــا عرف باسم العهد المملوكي الذي بدأ ، في كل من سورية ومصر ، من اواسط القرن السابع الهجري الى اوائل القرن العـــاشر الهجري (ويقابله اواسط القرن الثالث عشر ميلادي الى اوائل القرن السادس عشر حين احتل العثمانيون سورية ومصر وانهوا الحكم المملوكي في كل من سورية ومصر) . ولكن هناك استثناءً وحيداً وهو مملكة حماة التي ظل يحكمها امير ايوبي تحت اشراف المماليك وسيادتهم فترة تزيد على القرن اذا استمرت هـــذه المملكة الايوبية في الوجود الى مـــا بعد منتصف القرن الثامن الهجري ، ومن اشهر ملوكها ابو الفداء المؤرخ والجغرافي المعروف .

---

(١) ابن الفرات . المصدر المذكور آنفاً . جـ٤ ق٢ ، ص ١٩٤ — ١٩٥ .

الفاطميُّون

٢٩٦ - ٥٦٧ هـ

٩٠٩ - ١١٧١م

١ - محضر الطعن في نسب الفاطميين وعدم صحة انتسابهم الى علي بن ابي طالب كرّم الله وجهه وفاطمة الزهراء رضي الله عنها ، وقد نظمه ضدهم العباسيون في بغداد سنة ٤٠٢ هـ ووقع عليه عدد كبير من الوجهاء والزعماء بينهم عدد من الطالبيين .

هذا ما شهد به الشهود ان معدّ بن اسماعيل بن عبد الرحمن بن سعيد ينسب الى ديصان بن سعيد الذي ينسب اليه الديصانية ، وان هذا الناجم بمصر هو منصور بن نزار ، المتلقب بالحاكم - حكم الله عليه بالبوار والخزي والدمار - ابن معد بن اسماعيل بن عبد الرحمن بن سعيد - لا اسعده الله ؛ وان من تقدمه من سلفه الارجاس الانجاس - عليهم لعنة الله ولعنة اللاعنين- ادعياء خوارج لا نسب لهم في ولد علي بن ابي طالب - رضي الله عنه - وان ما ادعوه من الانتساب اليه زور وباطل ، وانهم لا يعلمون احداً من اهل بيوتات علي بن ابي طالب توقف عن اطلاق القول في انهم خوارج كذبة . وقد كان هذا الانكار لباطلهم شائعاً بالحرمين في اول امرهم بالمغرب ، منتشراً انتشاراً يمنع ان يدلس امرهم على احد ، او يذهب وهم الى تصديقهم فيما ادعوه ، وان هذا الناجم بمصر - هو وسلفه - كفار فساق زنادقة ، ملحدون معطلون ، وللإسلام جاحدون ، ولمذهب الثنوية والمجوسية معتقدون ، قد عطلوا الحدود واباحوا الفروج واحلوا الخمور وسفكوا الدماء ، وسبوا الانبياء ، ولعنوا السلف وادعوا الربوبية ...

وفي آخره :

وكتب في شهر ربيع الآخر سنة اثنتين واربعمائة[1] .

اتعاظ الحنفا للمقريزي ج ١ ٥٨ – ٦٠ .

١ – المهدي بالله ٢٩٦ – ٣٢٢ هـ / ٩٠٩ – ٩٣٤ م .

٢ – رسالة المهدي الى شيعته من اهل البحرين .

ادعى يحيى بن المهدي انه رسول المهدي الى اهل البحرين وقبائلها، فسارعوا الى طاعته ، ثم غاب عنهم مدة ورجع ومعه كتاب يزعم ان المهدي وجهه معه الى شيعته في البحرين هذا نصه :

قد عرفني رسولي يحيى بن المهدي مسارعتكم الى امري، فليدفع اليه كل منكم ستة دنانير وثلاثين .

تاريخ اخبار القرامطة لثابت بن سنان – ١٤

٣ – رسالة المهدي الى ابي طاهر الجنابي لما قتل الحاج ودخل البيت الحرام وقلع الحجر الاسود واخذه الى البحرين سنة ٣١٧ هـ .

سجلت علينا في التاريخ نقطة سوداء لا تمحوها الليالي والايام .

ويلومه ويعنفه ويقول له :

قد حققت على دولتنا وشيعتنا ودعاتنا اسم الكفر والزندقة والالحاد

---

(١) ورد نص هذا المحضر الشهير في عدد كبير من الكتب التاريخية كالبداية والنهاية لابن كثير ج١١ ، ص ٣٤٥ – ٣٤٦ ، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج٤ ، ص ٢٢٩ ، والكامل في التاريخ لابن الأثير . وهناك خلافات يسيرة في نصوصها لا تغير شيئاً من المعنى العام للنص .

بفعالك الشنيعة هذه ، وان لم ترد على اهل مكة والحجاج ما نهبته منهم ، وترد الحجر الى موضعه ، وترد كسوة الكعبة كما كانت ، والا اتيت اليـك بجنود لا قبل لك بها ، وانا بريء منك كما برئت من الشيطان الرجيم في الدنيا والآخرة ، واعوذ بالله من فعالك السوء . وان لم تفعل مـا آمرك به لا يكن بيني وبينك الا السيف ، والبراءة منك يا عدو الله والناس اجمعين[1] .

تاريخ اخبار القرامطة لثابت بن سنان ٥٤ — ٥٥ .

٤ — رسالة ابن قرهب الى المهدي من اهل صقلية .

استقل ابن قرهب في صقلية عن المهدي ، ثم بعد ذلك ثار اهل صقلية بابن قرهب وطلبوا النجدة ضده من المهدي ، وكذلك ارسل ابن قرهب رسالة الى المهدي يشرح له احوال اهل صقلية ، وكانت النتيجة ان ارسل المهدي جيشاً قوياً الى صقلية احتلها وازال رئاسة اهلها . وفيما يلي نص رسالة ابن قرهب الى المهدي .

ان اهل صقلية يكثرون الشغب على امرائهم ولا يطيعونهم وينهبون اموالهم ، ولا يزول ذلك الا بعسكر يقهرهم ويزيل الرئاسة عن رؤسائهم .

الكامل في التاريخ لابن الاثير جـ ٧ — ٧٢ .

٢ — القائم بأمر الله ٣٢٢ — ٣٣٤ هـ / ٩٣٤ — ٩٤٥ م

٥ — رسالة القائم بأمر الله الى اهـل مكة يدعوهم الى طاعته ومبـايعته ويقول :

---

(١) ذكر شاكر الكتبي في كتابه فوات الوفيات جـ١ ، ص٣٥٣ نصاً اكثر اختصاراً بكثير من نصنا أعلاه .

نحن اهل بيت الرسول ، ومن احق بهذا الامر منا ؟!

وضمن الكتاب ابياتاً منها :

أيا اهـل شرق الله زالت حلومكم
ام اصّدعتْ من قلة الفهم والادب

فويحاً لكم خالفتم الحق والهـدى
ومن حاد عن أم الهداية لم يصب

فيـا معرضاً عني وليس بمنصفي
وقد ظهر الحق المبين لمن رغب

الم ترني بعث الرفـاهة بالسرى
وقمت بأمـر الله حقـاً وقد وجب

الحلة السيراء لابن الآبار جـ ١ – ٢٨٧ .

٦ – جواب المقتدر العباسي عن هذه الرسالة :

ارسل هذه الرسالة اهل مكة الى المقتدر العباسي[١] ، فأعطاها لأبي بكر الصولي وطلب منه مجاوبة القائم بأمر الله على هذه الرسالة فكتب اليه يقول :

---

(١) هناك التباس يجب إزالته وإظهار الصواب، ذلك أن المقتدر العباسي توفي سنة ٣٢٠هـ . وتول القائم بأمر الله الفاطمي الخلافة سنة ٣٢٢ هـ، ولذلك استحال أن يكتب أحدهما للآخر . ولعل الصواب أن والد القائم – وهو المهدي – هو الذي أرسل الرسالة الى أهل مكة وأجاب عنها المقتدر لأنهما متعاصران . ولا سيما ان ذكر المهدي يرد في الشعر الذي نظمه الصولي على لسان المقتدر ، وأن الخليفة العباسي الذي أرسلت له الرسالة هو الراضي بالله الذي حكم بين سنتي ٣٢٢ – ٣٢٩ هـ ، وكان الصولي كاتبه .

عجبت وما يخلو الزمان من عجب
لقول امرىء قد جاء بالمين والكذب

وجـاء بملحون من الشعر ناقص
فسحقاً له من مدع افضل النسب

فمن انت يا مهدي السفاهة والخنـا
فقـد قمت بالدين الخبيث وبالريب

وهي طويلة : منها في ذكر الخلفاء من بني العباس :

ومعتمـد مـن بعـده وموفق
يردد من ارث الخلافـة مـا ذهب

نوازلهـم من كل فضل وسؤدد
وان لم يكن في العد منهم لمن حسب

الحلة السيراء لابن الآبار ج ١ ٢٨٧ – ٢٨٨ .

المعز لدين الله ٣٤١ – ٣٦٥هـ/٩٥٢ – ٩٧٥ م .

٣ – العهد المغربي حتى فتح مصر :

٧ – حوار بينه وبين يوسف بن زيري الصنهاجي ووصيته له لما صح عزمه على ترك المغرب والتوجه الى مصر بعد فتحها واستقرار الأمور فيها .

قال المعز ليوسف بن زيري الصنهاجي :

تأهب لخلافة المغرب .

فأكبر يوسف ذلك وقال :

يا مولانا انت وآباؤك الأئمة من ولد رسول الله ، ﷺ ، مـــا صفا لكم المغرب ، فكيف يصفو لي وانا صنهاجي ؟! قتلتني يا مولانا بلا سيف ولا رمح.

فلم يزل العزيز بيوسف حتى اجاب وقال :

يا مولانا : شريطة ان تولي القضاء والخراج لمن تراه وتختاره ، والخبر لمــن تثق به ؛ وتجعلني انا قائمـــاً بين ايديهم ، فمن استعصى عليهم امروني به حتى اعمل فيه ما يجب ، ويكون الامر لهم ، وانا خادم بين ذلك .

فحسن ذلك عند المعز ، ولما اراد ترك المغرب اوصاه بما يلي :

ان نسيت ما وصيناك به فلا تنس ثلاثة اشياء : اياك ان ترفع الجبـاية عن اهل البادية ، ولا ترفع السيف عن البربر ، ولا تولّ احـــداً من اخوتك وبني عمك فانهم يرون انهم احق بهذا الامر منك ، وافعل مع اهل الحاضر خيراً[1].

اتعاظ الحنفا للمقريزي ج ١ ١٤٢ — ١٤٥ .

٨ — نص أمان جوهر لأهل مصر لما فتحها باسم مولاه المعز .

بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من جوهر الكاتب ، عبد اميرالمؤمنين المعز لدين الله — صلوات الله عليه — لجماعة اهل مصر الساكنين بها ، من اهلها ومن غيرهم ، انه قد ورد من سألتموه الترسل والاجتماع معي وهم :

ابو جعفر مسلم الشريف — اطال الله بقاءه .

وابو اسماعيل الرسى — ايده الله .

---

(١) ورد نص وصية المعز وحدها ليوسف بن زيري الصنهاجي في كتاب شذرات الذهب لابن العماد ج٢ ، ص ٨٠ ، ويسمي ابن العماد يوسف الصنهاجي باسم بلكين بن زيري.

وابو الطيب الهاشمي – ايده الله .

وابو جعفر احمد بن نصر – اعزه الله .

والقاضي – اعزه الله .

وذكروا عنكم انكم التمستم كتاباً يشتمل على امانكم في انفسكم واموالكم وبلادكم وجميع احوالكم فعرفتم ما تقدم به امر مولانا وسيدنا امير المؤمنين – صلوات الله عليه – وحسن نظره لكم، فلتحمدوا الله على ما اولاكم، وتشكروه على ما حباكم ، وتدأبوا فيما يلزمكم ، وتسارعوا الى طاعته العاصمة بكم ، العائدة بالسعادة عليكم ، وبالسلامة لكم ، وهو انه – صلوات الله عليه – لم يكن اخراجه للعساكر المنصورة والجيوش المظفرة الا لما فيه اعزازكم وحمايتكم والجهاد عنكم ؛ اذ قد تخطفتكم الايدي ، واستطال عليكم المستذل واطمعته نفسه بالاقتدار على بلدكم في هذه السنة ، والتغلب عليه وأسْر من فيه والاحتواء على نعمكم وأموالكم حسب ما فعله في غيركم من اهل بلدان المشرق ، وتأكد عزمه واشتد كلبه ، فعاجله مولانا وسيدنا امير المؤمنين – صلوات الله عليه – باخراج العساكر المنصورة ، وبادره بانفاذ الجيوش المظفرة دونكم ، ومجاهدته عنكم وعن كافة المسلمين ببلدان المشرق ، الذين عمهم الخزي وشملتهم الذلة واكتنفتهم المصائب ، وتتابعت الرزايا ، واتصل عندهم الخوف ، وكثرت استغاثتهم ، وعظم ضجيجهم وعلا صراخهم ، فلم يغثهم الا من ارمضه امرهم ومضه حالهم ، وابكى عينه ما نالهم ، واسهرها ما حل بهم ، وهو سيدنا ومولانا امير المؤمنين – صلوات الله عليه – فرجا – بفضل الله عليه واحسانه لديه ، وما عوده واجراه عليه – استنقاذ من اصبح منهم في ذل مقيم وعذاب اليم ، وان يؤمن من استولى عليه المهل[1] ، ويفرخ روع من لم

(١) كذا بالأصل ولعل الصواب الوَهَل أي الخوف والفزع .

يزل في خوف ووجل ، وآثر اقامة الحج الذي تعطل ، واهمل العباد فروضه وحقوقه لخوف المستولى عليهم ، واذ لا يأمنون على انفسهم ولا على اموالهم ، واذ قد اوقع بهم مرة بعد اخرى ، فسفكت دماؤهم وابتزت اموالهم ؛ مع اعتماد ما جرت به عاداته من صلاح الطرقات وقطع عيث العائثين فيها ليتطرق النـــاس آمنين ويسيروا مطمئنين ، ويتحفوا بالاطعمة والاقوات ، اذ كان قد انتهى اليه – صلوات الله عليه – انقطاع طرقاتها ، لخوف مادتها ، اذ لا زاجر للمعتدين ولا دافع للظالمين . ثم تجويد السكة وصرفها الى العيـار الذي عليه السكة الميمونة المنصورية المباركة ، وقطع الغش منها ، اذ كانت هذه الثلاث خصال هي التي لا يتسع لمن ينظر في امور المسلمين الا اصلاحها واستفراغ الوسع فيما يلزمه منها .

وما اوعز به مولانا وسيدنا امير المؤمنين – صلوات الله عليه – الى عبده من نشر العدل وبسط الحق ، وحسم الظلم وقطع العدوان ، ونفي الأذى ورفع المؤن ، والقيام في الحق ، واعانة المظلوم مع الشفقة والاحسان وجميل النظر وكرم الصحبة ولطف العشرة ، وافتقاد الاحوال وحياطة اهل البلد في ليلهم ونهارهم ، وحين تصرفهم في اوان ابتغـــاء معاشهم ، حتى لا تجري امورهم إلا على ما لمّ شعثهم واقام اودهم واصلح بالهم وجمـــع قلوبهم والف كلمتهم على طاعة وليه مولانا وسيدنا امير المؤمنين – صلوات الله عليـــه – وما امر به مولاه من اسقاط الرسوم الجائرة التي لا يرتضي – صلوات الله عليه – باثباتها عليكم .

وان أجريكم في المواريث على كتـــاب الله وسنة نبيه – صلى الله عليه – واضع ما كان يؤخذ من تركات موتاكم لبيت المال من غير وصية من المتوفى بها ، فلا استحقاق لمصيرها لبيت المال . وان اتقدم في رم مساجدكم . وتزيينهـــا

بالفرش والايقاد ، وان اعطي مؤذنيها وقومتها ومن يؤم الناس فيها ارزاقهم وادرها عليهم ، ولا اقطعها عنهم ، ولا ادفعها الا من بيت المـال ، لا بإحالة على من يقبض منهم .

وغير ما ذكره مولانا وسيدنا امير المؤمنين – صلوات الله عليه – مما ضمنه كتابه هذا ما ذكره من ترسل عنكم – ايدهم الله وحبـاكم اجمعين بطاعة مولانا وسيدنا امير المؤمنين – صلوات الله عليه – من انكم ذكرتم وجوهـاً التمستم ذكرها في كتاب امانكم ، فذكرتها اجابة لكم وتطميناً لأنفسكم ، والا فلم يكن لذكرها معنى، ولا في نشرها فائدة ، اذ كان الاسلام سنة واحدة وشريعة متبعة ، وهي اقامتكم على مذهبكم ، وان تتركوا على ما كنتم عليه من اداء الفروض في العلم والاجتماع عليه في جوامعكم ومساجدكم ، وثباتكم على ما كان عليه سلف الامة من الصحابة – رضي الله عنهم – والتابعين بعدهم، وفقهاء الامصار الذين جرت الاحكام بمذاهبهم وفتواهم ، وان يجري الآذان والصلاة وصيام شهر رمضان وفطره وقيام لياليه والزكاة والحج والجهـاد على امر الله في كتابه، ونصّه نبيه – صلى الله عليه – في سنته، واجراء اهل الذمة على ما كانوا عليه .

ولكم على امان الله التام العام ، الدائم المفصل ، الشامل الكامل ، المتجدد المتأكد على الايام وكرور الاعوام ، في انفسكم واموالكم واهليكم ونعمكم وضياعكم ورباعكم وقليلكم وكثيركم ، وعلى ان لا يعترض عليكم معترض ، ولا يتجنى عليكم متجنٍ ، ولا يتعقب عليكم متعقب ، وعلى انكم تصانون وتُحفظون وتُحرسون ، ويُذب عنكم ويُمنع منكم ، فلا يُتعرض الى اذاكم، ولا يسارع احد في الاعتداء عليكم ولا في الاستطالة على قويكم – فضلاً عن ضعيفكم – وعلى ان لا ازال مجتهداً فيما يعمكم صلاحه ويشملكم نفعه ،ويصل

اليكم خيره ، وتتعرفون بركته ، وتغتبطون معه بطاعـة مولانا وسيدنا امير المؤمنين – صلوات الله عليه .

ولكم على الوفاء بما التزمته واعطيتكم اياه ، عهد الله ، وغليظ ميثـاقه وذمته ، وذمة انبيائه ورسله ، وذمة الأئمة موالينـا امراء المؤمنين – قدس الله ارواحهم – وذمـــة مولانا وسيدنا امير المؤمنين المعز لدين الله – صلوات الله عليه – فتصرحون بها ، وتعلنون بالانصراف اليها ، وتخرجون اليّ ، وتسلمون عليّ ، وتكونون بين يدي ، الى ان اعبر الجسر وانزل في المناخ المبارك ، وتحفظون وتحافظون – من بعد – على الطاعة وتثابرون عليها ، وتسارعون الى فروضها ، ولا تخذلون ولياً لمولانا وسيدنا امير المؤمنين – صلوات الله عليه – وتلزمون ما امرتم به ، وفقكم الله وارشدكم اجمعين .

وكتب جوهر القائد الامان بخطه في شعبان سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ، وصلى الله على محمد ، وعلى آله الطيبين الطاهرين الاخيار .

وكتب بخطه في هذا الكتاب :

قال جوهر الكاتب عبد امير المؤمنين – صلوات الله عليه وعلى آبائـــه الطاهرين وابنائه الأكرمين – « كتبتُ هذا الامان على ما تقدم به امر مولانا وسيدنا امير المؤمنين – صلوات الله عليه – وعليّ الوفاء بجميعه لمن اجاب من اهل البلد وغيرهم على ما شرطت فيه ، والحمد لله رب العالمين ، وحسبنا الله ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وصلى الله على محمد وعلى آله الطيبين » .

وكتب جوهر بخطه في التاريخ المذكور ، واشهد جوهر على نفسه جماعة الحاضرين وهم : ابو جعفر مسلم بن محمد بن عبيد الله الحسيني ، وابو اسماعيـل ابراهيم بن احمد الرسي الحسني ، وابو الطيب العباس بن احمد الهاشمي ، والقاضي

ابو الطاهر محمد بن احمد ، وابنه ابو يعلى محمد بن محمد ، ومحمد بن مهلب بن محمد وعمرو بن الحرث بن محمد[1] .

اتعاظ الحنفا للمقريزي ج ١ ١٤٨ – ١٥٣ .

٩ – كتاب جوهر الى الشريف ابي جعفر مسلم حول طلب اهـــل مصر الامان السابق .

لم يقبل اهل مصر، وخاصة الاخشيدية ، بشروط عهد الامان سالف الذكر وقرروا الحرب ، ولكنهم هزموا شر هزيمة امام جوهر وجيشه ، فلجأوا من جديد الى الشريف مسلم يلتمسون منه الكتابة الى جوهر لاعادة منحهم الامان السابق ، فكتب الشريف الى جوهر بذلك فأجابه جوهر بما يلي بعد البسملة :

وصل كتاب الشريف الجليل – أطال الله بقاه وأدام عزه وتأييده وعلوه– وهو المهنأ بما هنأ به من الفتح الميمون ، فوقفتُ على ما سأل من اعـــادة الأمـــان الاول ، وقد أعدتـــه على حاله ، وجعلت الى الشريف ، أيـــده الله ، أن يؤمن كيف رأى وكيف أحب، ويزيد على ما كتبته كيف يشاء، فهو أماني وعن إذني وأذن مولانا وسيدنا امير المؤمنين – صلوات الله عليه – وقد كتبت الى الوزير، أيده الله ، بالاحتياط على دور الهاربين الى أن يرجعوا الى الطاعة ، ويدخلوا فيما دخلت فيه الجماعة . ويعمل الشريف ، أيده الله، على لقائي في يوم الثلاثاء لسبع عشرة تخلو من شعبان .

اتعاظ الحنفا للمقريزي ج ١ – ١٥٧.

---

(١) ذكر ابن الجوزي في كتابه المنتظم ... نصاً مختصراً كل الاختصار لهـــذا الأمان الشهير ج٧ ، ص ٤٨ .

١٠ ـ خطبة جوهر لما فتح مصر :

قال عقب الخطبة :

اللهم صل على محمــد المصطفى وعلى علي المرتضى وعلى فاطمة البتول وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً . اللهم صلّ على الائمة الطاهرين آباء أمير المؤمنين ... [١].

مرآة الجنان وعبرة اليقظان لليافعي جـ ٢ – ٤١٤ .

١١ – أول خطبة دعي فيها للمعز في مصر بعد احتلال جوهر لها :

خطب خطيب الجمعة في الجامع العتيق في الفسطاط ، وذلــك في اول جمعة تلي احتلال جوهر لمصر واستقرار الأمور فيها ، فلما وصل الى الدعاء بدأ يقرأ من ورقة معه ويقول :

اللهم صل على عبدك ووليك ، ثمرة النبوة وسيل العزة الهادية المهدية ، عبد الله الامام معد أبي تميم المعز لدين الله أمير المؤمنين ، كما صليت على آبائه الطاهرين واسلافه الأئمة الراشدين ، اللهم ارفع درجته واعــــلِ كلمته واوضح حجته ، واجمع الأمة على طاعته والقلوب على موالاته ومحبته ، واجعل الرشاد في موافقته ، وورّثه مشارق الارض ومغاربها ، واحمده مبادىء الامور وعواقبها ، فإنــك تقول ، وقولك الحق : ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الأرض يرثها عبادي الصالحون [٢] . فقد امتعض لدينك ، ولما انتهك من حرمتك ، ودرس

---

(١) أورد ابن خلكان في وفيات الأعيان جـ١ ، ص ٣٢٩ نصاً مطابقاً للنص أعلاه ، على حــين يذكر المقريزي في اتعاظ الحنفا جـ١ ، ص ١٦٦ ان هذا الدعاء زيد في الخطبة فيما بعد.
(٢) سورة الأنبياء : الآية ١٠٥ .

من الجهاد في سبيلك، وانقطع من الحج الى بيتك وزيارة قبر رسولك – ﷺ –
فأعدّ للجهاد عدته ، وأخذ لكل خطب اهبته ، فسير الجيوش لنصرتك ،
وانفق الاموال في طاعتك ، وبذل المجهود في رضاك ، فارتدع الجاهل وقصر
المتطاول ، وظهر الحق وزهق الباطل ، فانصر اللهم جيوشه التي سيرها ،
وسراياه التي انتدبها لقتال المشركين وجهاد الملحدين والذب عن المسلمين ،
وعمارة الثغور والحرم ، وازالة الظلم والقهم والفهم ، وبسط العدل في الامم .
اللهم اجعل راياته عالية مشهورة، وعساكره غالبة منصورة ، واصلح به وعلى
يديه، واجعل لنا منك وامية [1] عليه .

اتعاظ الحنفا للمقريزي ج ١ – ١٦٣ .

١٢ – رسالة من المعز الى جوهر حول آل حمدان .

ارسل نفر من آل حمدان الى جوهر ، بعد ثبوت قدمه في مصر ، رسائل
يعرضون عليه خدماتهم واستعدادهم للانضواء تحت لوائه ولواء المعز ، وارسل
جوهر يخبر سيده بذلك فأجابه المعز بما يلي :

... وأما ما ذكرت – يا جوهر – من ان جماعة بني حمدان وصلت اليك
كتبهم يبذلون الطاعة ويعدون بالمسارعة في المسير اليك فاسمع لما أذكره لك :

احذر ان تبتدىء أحد من آل حمدان بمكاتبة ترهيباً ولا ترغيباً، ومن كتب
اليك كتاباً منهم فأجبه بالحسن الجميل ولا تستدعه اليك ، ومن ورد اليك منهم،
فاحسن اليه ولا تمكن احداً منهم من قيادة جيش ولا ملك طرف . فبنو حمدان
يتظاهرون بثلاثة أشياء عليها مدار العالم وليس لهم فيها نصيب : يتظاهرون

---

(١) كذا بالأصل والمعنى غير مفهوم و [وامية] لا معنى لها ، ولعل الصواب [واقية] .

بالدين وليس لهم منه نصيب ، ويتظاهرون بالكرم وليس لواحد منهم كرم في الله . ويتظاهرون بالشجاعة وشجاعتهم للدنيا لا للآخرة . فأحذر كل الحذر من الاستناد الى أحد منهم [1] .

الخطط المقريزية جـ ٢ – ١٥٧ .

ب – العهد المصري من قدوم المعز الى مصر حتى وفاته .

١٣ – خطبة الحسن بن زولاق بين يدي المعز لما وصل مصر أول مرة .

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين الجاحدين العاصين ، وصلى الله على خير امرىء دعا الى خير دين محمد سيد المرسلين وعلى أهل بيته الطاهرين على رغم انف الراغمين . انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً [2] قل لا أسألكم عليه اجراً الا المودة في القربى[3] . ولقد اخترناهم على علم على العالمين [4] .

السلام على أمير المؤمنين المعز لدين الله ، السلام على الامام المنتظر ، السلام عليك يا مهدي الامة ، السلام عليك يا خليفة رب العالمين ، السلام عليك يا صاحب الزمان وصاحب السر والاعلان ، فضائلك اكثر من ان تحصى ، انتم اهل البيت وفيكم نزل القرآن وبكم ظهر الايمان ، وبكم رجم الشيطان وبكم اضمحلت الاباطيل ، وبكم افتخر على الملائكة جبريل ، ففرح قائلاً : من مثلي وانا ابن بيت آل محمد : جبريل خادمكم ، ميكائيل زائركم ، رحمة الله

---

(١) أورد المقريزي نفسه في اتعاظ الحنفا جـ١ ، ١٤١ – ١٤٢ نفس النص السابق أعلاه .

(٢) سورة الأحزاب : ٣٣ .

(٣) سورة الشورى : الآية ٢٣ .

(٤) سورة الدخان : الآية ٣٢ .

وبركاته عليكم اهل البيت انه حميد مجيد . اليك امير المؤمنين خرجنا منها مهاجرين، والى بيعتك جئت... عمالك مقتبسين[1]، ولعبدك جوهر شاكرين. اتقنا مصنفات علمك فنشرناها في العالمين وثبتناها في امصار المسلمين ، وشرفنا بها على الناس اجمعين فصلى الله علينا وعلى الناس ولكن اكثر الناس لا يشكرون .

المنتظم في تاريخ الملوك والامم لابن الجوزي ج ٧ : ٥٧ – ٥٨ .

١٤ – توقيع المعز الى صاحب بيت المال بشراء حاجياته وحاجيات اولاده بسعر باقي الناس تقدم يا محمد بابتياع لنا ولمولاك عبد الله (ولي العهد) في كل يوم من الفاكهة الرطبة واليابسة كذا وكذا بسعر الناس ، ولا تعرف الرسول لئلا تقع محاباة ولا مسامحة ، وكذلك حوائج المطبخ .

اتعاظ الحنفا للمقريزي ج ١ – ١٨٨ .

١٥ – رسالة حسان بن الجراح امير العرب الى المعز .

اصبح القرامطة خطراً ماحقاً يهددون الدولة الفاطمية وتحالفوا مع شيخ العرب حسان بن الجراح ، وادرك المعز عجزه عن دفع هذا الخطر ، فأرسل الى حسان يعده بمائة الف دينار ان هو خذل بين الناس وانهزم بجنده ساعة المعركة بين القرامطة وجيش المعز ، ووافق حسان على ذلك وارسل الى المعز يقول :

ابعث الي بما التزمت وتعال بمن معك ، فاذا التقينا انهزمت بمن معي فلا يبقى للقرمطي قوة فتأخذه كيف شئت .

---

(١) كذا بالأصل . والمعنى مضطرب غير مفهوم ، وهناك أشياء ساقطة .

البداية والنهاية لابن كثير ج ١١ – ٢٧٦ .

١٦ – رسالة المعز الى الحسن الاعصم زعيم القرامطة ، وذلك عقب وصوله الى مصر مباشرة وقد تيقن اخبار القرامطة وادرك خطرهم .

من عبد الله ووليه وخيرته وصفيه، معد ابي تميم المعز لدين الله امير المؤمنين وسلالة خير النبيين ، ونجل على افضل الوصيين ، الى الحسن بن احمد .

بسم الله الرحمن الرحيم ، رسوم النطقاء ومذاهب الأئمة والأنبياء ومسالك الرسل والاوصياء ، السالف والآنف منا ، صلوات الله علينا وعلى آبائنا ، اولي الايدي والابصار في متقدم الدهور والاكوار ، وسالف الزمان والاعصار ، عند قيامهم باحكام الله وانتصابهم لامر الله . الابتداء بالاعذار والانتهاء بالانذار قبل انفاذ الاقدار ، في اهل الشقاق والاصار ، لتكون الحجة على من خالف وعصى ، والعقوبة على من باين وغوى ، حسب ما قال الله جل وعز : وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً[1]، وان من امة الا خلا فيها نذير[2]. وقوله سبحانه : قل هذه سبيلي ادعو الى الله على بصيرة انا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين[3] . فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وان تولوا فانما هم في شقاق[4] .

اما بعد ايها الناس ، فانا نحمد الله بجميع محامده ، ونمجده بأحسن مماجده، حمداً دائماً ابداً ، ومجداً عالياً سرمداً ، على سبوغ نعمائه وحسن بلائه ،

---

(١) سورة الإسراء : الآية ١٥ .

(٢) سورة فاطر : الآية ٢٤ .

(٣) سورة يوسف : الآية ١٠٨ .

(٤) سورة البقرة : الآية ١٣٧ .

ونبتغي اليه الوسيلة بالتوفيق والمعونة على طـــاعته ، والتسديد في نصرته ، ونستكفيه ممايلة الهوى والزيـغ عن قصد الهدى، ونستزيد منه اتمام الصلوات، وافاضات البركات وطيب التحيات على اوليائه الماضين وخلفائه التالين ، منـا ومن آبائنا الراشدين المهديين المنتخبين ، الذين قضوا بالحق وكانوا به يعدلون .

ايهـــا الناس : « قد جاءكم بصائر من ربـــكم فمن ابصر فلنفسه ومن عمي فعليها[1] » ليذكر من يذكر وينذر من ابصر واعتبر . ايها الناس : ان الله جل وعزّ اذا اراد امراً قضاه، واذا قضاه امضاه، وكان من قضائه فينا قبل التكوين ان خلقنا اشباحاً وابرزنا ارواحاً ، بالقدرة مالكين ، وبالقوة قادرين ، حين لاسمـاء مبنية ولا ارض مدحية ولا شمس تضيء ولا قمر يسري ، ولا كوكب يجري ولا ليل يجين ولا افق يكن ولا لسان ينطق ولا جناح يخفق ولا ليل ولا نهار ، ولا فلك دوار ولا كوكب سيار . فنحن اول الفكرة وآخر العمـل ، بقدر مقدور وامر في القدم مبرور ؛ فعند تكامل الامر وصحة العزم ، وانشاء الله – جل وعز – المنشآت ، وابداء الامهات من الهيولات ، طبعنـا انواراً وظلماً وحركة وسكوناً ، وكان من حكمه السابق في علمه مـــا ترون من فلك دوار وكوكب سيار وليل ونهار ، ومـا في الآ فاق من آثار معجزات واقدار باهرات ، وما في الاقطار من الآ ثار ، ومـــا في النفوس من الاجناس والصور والانواع ، من كثيف ولطيف وموجود ومعدوم ، وظاهر وباطن ، ومحسوس وملموس ، ودانٍ وشاسع وهابط وطالع ، كل ذلك لنا ومن اجلنـــا ، دلالة علينا واشارة الينـا ، يهدي به الله من كان له لب سجيح ورأي صحيح ، قد سبقت له الحسنى فدان بالمعنى .

---

(١) سورة الانعام : الآية ١٠٤ .

ثم انه جل وعـــلا ابرز من مكنون العلم ومخزون الحكم ، آدم وحواء ، ابوين ذكراً وانثى سبباً لانشاء البشرية ، ودلالة لاظهار القدرة القوية ، وزاوج بينهما فتوالد الاولاد وتكاثرت الاعـــداد ونحن ننتقـل في الاصلاب الزكية والارحام الطاهرة المرضية ، كلما ضمنا صلب ورحم اظهر منـــا قدرة وعلم ، وهلم جراً ، الى آخـر الجد الاول والاب الافضل سيد المرسلين وامـام النبيين احمد ومحمد صلوات الله عليه وعلى آله في كل نادٍ ومشهد ، فحسن الاؤه وبان غناؤه واباد المشركين وقصم الظالمين واظهـــر الحق واستعمل الصدق وظهر بالاحدية ، ودان بالصمدية ، فعندما سقطت الاصنام وانعقد الاسلام وانتشر الايمان ، وبطل السحر والقربان ، وهربت الاوثان ، وأُتِيَ بالقرآن ، شاهداً بالحق والبرهان ، فيه خبر ما كان وما يكون الى يوم الوقت المعلوم ، منبئاً عن كتب تقدمت في صحف قد تنزلت ، تبياناً لكل شيءٍ وهدى ورحمـة ونوراً وسراجاً منيراً .

وكل ذلك دلالات لنا ومقدمات بين ايدينا واسباب لاظهار امرنا هدايات وآيات وشهادات وسعادات قدسيات ، آلاهيات ازليات ، كائنات منشآت ، مبدئات معيدات ، فما من ناطق نطق ولا نبي بعث ولا وحي ظهر ، الا وقد اشار الينا ولوحبنا ودل علينا في كتابه وخطابه ومنار اعلامه ومرموز كلامه ، فيما هو موجود غير معدوم ، وظاهر وباطن ، يعلمه من سمع النـدا ، وشاهد ورأى من الملأ الاعلى ، فمن اغفل منكم او نسي ، او ضل او غوى ، فلينظر في الكتب الاولى والصحف المنزلة ، وليتأمل الى القرآن وما فيه من البيـان ، وليسأل اهـل الذكر ان كان لا يعلم ، فقد امر الله عز وجل بالسؤال فقـال : فاسألوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون[1]. وقال سبحانه وتعالى : فلولا نفر من

(١) سورة النحل : الآية ٤٣ .

كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون[1] . الا تسمعون قول الله حيث يقول : وجعلهـا كلمة باقيـة في عقبه لعلهم يرجعون[2] . وقوله تقدست اسماؤه : ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم[3] . وقوله له العزة : شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم اليه[4] ومثل ذلك في كتاب الله ، تعالى جده ، كثير ؛ ولولا الاطالة لاتينا على كثير منه .

ومما دل به علينا وأنبأ به عنا قوله عز وجل : كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتهـا يضيء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الامثال للنـاس ، والله بكل شيء عليم[5] . وقوله في تفضيل الجد الفاضل والأب الكامل محمد صلى الله عليه ، وعليه السلام ، اعلاماً بجليل قدرنا وعلو امرنا : ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم[6] هذا مع ما اشار ولوح ، وابان واوضح في السر والاعلان ، من كل مثـل مضروب وآية وخبر واشارة ودلالة ، حيث يقول : وتلك الامثال نضربها للناس ومـا يعقلها الا العالمون[7] . وقال سبحانه وتعالى : ان في خلق السموات والارض

---

(١) سورة التوبة : الآية ١٢٢ .
(٢) سورة الزخرف : الآية ٢٨ .
(٣) سورة آل عمران : الآية ٣٤ .
(٤) سورة الشورى : الآية ١٣ .
(٥) سورة النور : الآية ٣٥ .
(٦) سورة الحجر : الآية ٨٧ .
(٧) سورة العنكبوت : الآية ٤٣ .

واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألبـاب[1] . وقوله جل وعز : سنريهم آياتنـــا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق[2] . فان اعتبر معتبر وقام وتدبر ما في الارض وما في الاقطار والآثار ، ومـا في النفس من الصور المختلفات والاعضاء المؤتلفات، والآيات والعلامات، والاتفاقات والاختراعات، والاجناس والانواع ، وما في كون الابداع من الصور البشرية والآثار العلوية ، وما يشهد به حروف المعجم والحساب المقوم ، وما جمعته الفرائض والسنن ، وما جمعته السنون من فصل وشهر ويوم ، وتصنيف القرآن من تحزيبه واسباعه ومعانيه وارباعه ، وموضع الشرائع المتقدمة والسنن المحكمة ، وما جمعته كلمة الاخلاص في تقاطيعها وحروفها وفصولها ، وما في الأرض من اقليم وجزيرة ، وبر وبحر وسهل وجبل ، وطول وعرض وفوق وتحت ، الى ما اتفق عليه في جميع الحروف من اسمـــاء المدبرات السبعة والايام السبعة النطقا ، والاوصيا والخلفا ، وما صدرت به الشرائع من فرض وسنة وحدوسة ، وما في الحساب من آحاد وافراد وازواج ، واعداد تثاليثه وترابيعه واثنا عشريته وتسابيعه ، وابواب العشرات والمئين والالوف ، وكيف تجتمع وتشتمل على ما اجتمع عليه وما تقدم من شاهد عدل وقول صدق وحكمة حكيم وترتيب عليم ، فلا اله الا هو له الاسماء الحسنى والامثال العلى ، وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها[3] ، وفوق كل ذي علم عليم[4] ، ولو ان ما في الارض من شجرة اقلام والبحر يمده من بعده سبعة ابحر ما نفدت كلمات الله[5] . وليعلم من الناس من كان له قلب

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٩٠ .

(٢) سورة فصلت : الآية ٥٣ .

(٣) سورة ابراهيم : الآية ٣٤ .

(٤) سورة يوسف : الآية ٧٦ .

(٥) سورة لقمان : الآية ٢٧ .

او ألقي السمع وهو شهيد . انا كلمات الله الاوليات وأسماؤه التامات وانواره الشمشمانيات واعلامه النيرات ومصابيحه البينـــات وبدائعه المنشآت وآياته الباهرات واقداره النافذات ، لا يخرج منا امر ولا يخلو منا عصر ، وانا لكما قال الله سبحانه وتعالى : ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ، ولا خمسة الا هو سادسهم ، ولا ادنى من ذلك ولا اكثر الا هو معهم اين مـــا كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ، ان الله بكل شيء عليم[1] . فاستشعروا النظر فقد نقر في الناقور ، وفار التنور ، واتى النذير بين يدي عذاب شديد ، فمن شاء فلينظر ، ومن شاء فليتدبر ، وما على الرسول الا البلاغ المبين .

وكتابنا هذا من فسطاط مصر ، وقد جئناهـــا على قدر مقدور ووقت مذكور ، فلا نرفع قدماً ولا نضع قدمـاً الا بعلم موضوع وحكم مجموع واجـل معلوم ، وامر قد سبق وقضاء قد تحقق ، فلما دخلنا وقد قدر المرجفون من اهلها ان الرجفة تنالهم والصعقة تحل بهم ، تبادروا وتعادوا شاردين ، وجلوا عن الأهـل والحريم والاولاد والرسوم ، وانا لنـار الله الموقدة التي تطّلع على الافئدة ، فلم اكشف لهم خبراً ولا قصصت لهم اثراً ، ولكني امرت بالنداء ، وأذنت بالامان لكل باد وحاضر ومنافق ومتشاقق ، وعاص ومارق ومعاند ومسابق ، ومن اظهر صفحته وابدى لي سوأته ، فاجتمـع الموافق والمخـالف والباين والمنافق ، فقابلت الولي بالاحسان والمسيء بالغفران ، حتى رجع الناد والشارد ، وتساوى الفريقان واتفق الجمعان ، وانبسط القطوب وزال الشحوب ، جرياً على العادة بالاحسان والصفح والامتنان والرأفـة والغفران ، فتكاثرت الخيرات وانتشرت البركات ، كل ذلك بقدرة ربانية وامرة برهانية ، واقمت

(١) سورة المجادلة : الآية ٧ .

الحدود بالبينة والشهود، في العرب والعبيد والخاص والعام، والبادي والحاضر، بأحكام الله – عز وجل – وآدابه، وحقه وصوابه، فالولي آمن جذل، والعدو خائف وجل.

فأما انت الغادر الخائن، الناكث البائن، عن هدى آبائه واجداده، المنسلخ عن دين اسلافه وانداده، والموقد لنار الفتنة، والخارج عن الجماعة والسنة، فلم اغفل امرك ولا خفي عني خبرك، ولا استتر دوني اثرك، وانك مني لبمنظر ومسمع، كما قال الله جل وعز: انني معكما اسمع وأرى[1]. ما كان ابوك امرأ سوءٍ وما كانت امك بغيا[2]. فعرفنا على اي رأي اصلت، واي طريق سلكت، اما كان لك بجدك ابي سعيد اسوة، وبعمل ابي طاهر قدوة؟ اما نظرت في كتبهم واخبارهم، ولا قرأت وصاياهم واشعارهم؟ أكنت غائباً عن ديارهم وما كان من آثارهم؟ الم تعلم انهم كانوا عباداً لنا اولي بأس شديد وعزم شديد وأمر رشيد وفعل حميد، يفيض اليهم موادنا، وينشر عليهم بركاتنا، حتى ظهروا على الاعمال ودان لهم كل امير ووال، ولقبوا بالسادة فسادوا، منحة منا واسماً من اسمائنا، فعلت اسماؤهم واستعلت هممهم واشتد عزمهم، فسارت اليهم وفود الآفاق، وامتدت نحوهم الاحداق، وخضعت لهيبتهم الاعناق، وخيف منهم الفساد والعناد، وان يكونوا لبني العباس اضداد، فعبثت الجيوش، وسار اليهم كل خميس بالرجال المنتجبة والعدد المهذبة والعساكر الموكبة، فلم يلقهم جيش الا كسروه، ولا رئيس الا اسروه، ولا عسكر الا كسروه، وألحاظنا ترمقهم ونظرنا يلحقهم، كما قال الله عز وجل: انا لننصر

---

(١) سورة طه: الآية ٢٠.

(٢) سورة مريم: الآية ١٩.

رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا [١] . وإن جندنا لهم الغالبون [٢] . وان حزبنا لهم المنصورون .

فلم يزل ذلك دأبهم وعين الله ترمقهم الى ان اختار لهم ما اختاروه من نقلهم من دار الفناء الى دار البقاء، ومن نعيم يزول الى نعيم لا يزول، فعاشوا محمودين، وانتقلوا مفقودين، الى روح وريحان وجنات النعيم فطوبى لهم وحسن مآب .

ومع هذا فما من جزيرة في الارض ولا اقليم الا ولنا فيه حجج ودعاة يدعون الينا ويدلون علينا، ويأخذون تبعتنا ويذكرون رجعتنا، وينشرون علمنا وينذرون بأسنا، بتصاريف اللغات واختلاف الالسن، وفي كل جزيرة وإقليم رجال منهم يفقهون وعنهم يأخذون، وهو قول الله عز وجل: وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم [٣]. وانت عارف بذلك. فيا ايها الناكث الحانث ما الذي ارداك وصدك ؟ اشيء شككت فيه ام امر استربت به ؟ ام كنت خلياً من الحكمة وخارجاً عن الكلمة فأزالك وصدك وعن السبيل ردك؟ ان هي إلا فتنة لكم ومتاع الى حين. وأيم الله، لقد كان الاعلى لجدك والأرفع لقدرك، والأفضل لمجدك والاوسع لرفدك، والانصر لعودك والاحسن لعذرك، الكشف عن احوال سلفك وان خفت عليك، والقفو لآثارهم وان عميت لديك، لتجري على سفنهم وتدخل في زمرهم وتسلك في مذهبهم، اخذاً بأمورهم في وقتهم وزمرهم في عصرهم فتكون خلفاً قفا سلفاً بجد وعزم مؤتلف وامر غير مختلف، لكن غلب الران على قلبك والصدى على لبك فأزالك عن الهدى وأزاغك عن البصيرة والضيا، وأمالك عن مناهج الاوليا، وكنت من بعدهم

---

(١) سورة غافر : الآية ٥١ .

(٢) سورة الصافات : الآية ١٧٣ .

(٣) سورة ابراهيم : الآية ٤ .

كما قال الله عز وجل : فخلف من بعدهم خلف اضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا[1] . ثم لم تقنع في انتكاسك وترديتك في ارتكاسك وارتباكك وانعكاسك من خلافك الابا ومشيك القهقرى ، والنكوص على الاعقاب والتسمي بالالقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الايمان[2]، وعصيانك مولاك ، وجحدك ولاك ، حتى انقلبت على الادبار وتحملت عظيم الاوزار ، لتقيم دعوة قد درست ودولة قد طمست، انك لمن الغاوين وإنك لفي ضلال مبين. ام تريد ان ترد القرون السالفة والاشخاص الغابرة . اما قرأت كتاب السفر وما فيه من نص وخبر ؟ فأين تذهبون ، ان هي الا حياتكم الدنيا ، تموتون وتظنون انكم لستم بمبعوثين : قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بم عملتم وذلك على الله يسير[3] . اما علمت ان المطيع آخر ولد العباس وآخر المترايس في الناس ، اما تراهم اعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية[4] . ختم والله الحساب وطوي الكتاب وعاد الامر الى أهله والزمان الى أوله وأزفت الآزفة[5] . ووقعت الواقعة[6]. وقرعت القارعة وطلعت الشمس من مغربها والآية من وطنها ، وجيء بالملائكة والنبيين وخسر هنالك المبطلون . هنالك الولاية لله الحق[7] والملك لله الواحد القهار ، فله الامر من قبل ومن بعد، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء : يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما ارضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد[8] . فقد

(١) سورة مريم : الآية ٥٩ .
(٢) سورة الحجرات : الآية ١١ .
(٣) سورة التغابن : الآية ٧ .
(٤) سورة الحاقة : الآيتان ٨ — ٩ .
(٥) سورة النجم : الآية ٥٧ .
(٦) اقتباس من الواقعة : الآية ١ .
(٧) سورة الكهف : الآية ٤٤ .
(٨) سورة الحج : الآية ٢ .

ضل عملك وخاب سعيك وطلع نحسك وغاب سعيك حين آثرت الحياة الدنيا على الآخرة ومال بك الهوى فأزالك عن الهدى ، فإن تكفر أنت ومن في الارض جميعاً فإن الله هو الغني الحميد .

ثم لم يكفك ذلك – مع بلائك وطـــول شقائك – حتى جمعت ارجاسك وانجاسك، وحشدت اوباشك واقلاسك، وسرت قاصداً الى دمشق وبها جعفر بن فلاح في فئة قليلة من كتامة وزويلة فقتلته وقتلتهم– جرأة على الله ورد الامرة – واستبحت اموالهم وسبيت نساؤهم وليس بينك وبينهم ترة ولا ثأر ، ولا حقد ولا اضرار ، فعل بني الاصفر والترك والخزر ، ثم سرت امامــك ولم ترجع . واقمت على كفرك ولم تقلع ، حتى اتيت الرملة وفيها سعادة بن حيان في زمرة قليلة وفرقة يسيرة فاعتزل عنك الى يافا، مستكفياً شرك وتاركاً حربك، فلم تزل ماكثاً على نكثك باكراً وصابحاً وغادياً ورائحـــاً ، تقصد لهم بكل مقعد ، وتأخذ عليها بكل مرصد، وتقصدهم بكل مقصد ، كأنهم ترك وروم وخزر ، لا ينهاك عن سفك الدماء دين ، ولا يردعــك عهد ولا يقين ، قــد استوعب من الردى حيزومك ، وانقسم على الشقاء خرطومك . اما كان لك مذكر ، وفي بعض افعالك مزدجر . اوما كان لك في كتاب الله عز وجـــل معتبر حيث يقول: ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً [1] . فحسبك بها فعلة يلقاك يوم ورودك وحشرك حين لا مناص ، ولا لك من الله خلاص ولم تستقلها ، وكيف تستقيلها واني لـــك مقيلها ؟ هيهات هيهات ، هلك الضالون وخسر هنالك المبطلون[2] وقل النصر

---

(١) سورة النساء : الآية ٩٣ .

(٢) سورة غافر : الآية ٧٨ .

وزال المشير . ومن بعد ذلك تماديك في غيك ومقامك في بغيك ، عداوة لله ولأوليائه ، وكفراً لهم وطغياناً ، وعمى وبهتاناً ، اتراك تحسب انك مخلد ام لأمر الله راد ، ام : يريدون ان يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا ان يتم نوره ولو كره الكافرون[1] . هيهات ! لا خلود لمذكور ولا مرد لمقدور ولا طافىء لنور ، ولا مقر لمولود ولا قرار لموعود . لقد خاب منك الامل وحان لك الاجل ؛ فإن شئت فاستعد للتوبة باباً وللنقلة جلباباً فقد بلغ الكتاب اجله والوالي أمله ، وقد رفع الله قبضته عن افواه حكمته ونطق من كان بالامس صامتاً ، ونهض من كان هناك خائفاً ونحن اشباح فوق الامر والنفس دون العقل وارواح في القدس ، نسبة ذاتية وآيات لدنية نسمع ونرى : ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا[2]. وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون[3] .

ونحن معرضون ثلاث خصال – والرابعة اردى لك واشقى لبالك ، وما احسبك تحصل الا عليها – فاختر : اما قدت نفسك لجعفر بن فلاح واتباعك بأنفس المستشهدين معه بدمشق والرملة من رجاله ورجال سعادة بن حيان ، ورد جميع ما كان لهم من رحال وكراع ومتاع الى آخر حبة من عقال ناقة وخطام بعير–وهي اسهل ما يرد عليك–واما ان تردهم احياء في صورهم واعيانهم واموالهم وأحوالهم – ولا سبيل لك الى ذلك ولا اقتدار – واما سرت ومن معك بغير ذمام ولا أمان فأحكم فيك وفيهم بما حكمت ، واجريكم على احدى ثلاث : اما قصاص ، واما مناً بعد (؟) وإما فدىً ، فعسى ان يكون تمحيصاً

---

(١) سورة التوبة : الآية ٣٢ .

(٢) سورة الشورى : الآية ٥٢ .

(٣) سورة الأعراف : الاية ٩٨ .

لذنوبك واقالة لعثرتك . وان أبيت الا فعل اللعين : فاخرج منها فانك رجيم ، وان عليك اللعنة الى يوم الدين [١] . اخرج منها فما يكون لك ان تنكب فيها ، وقيل اخسئوا فيها ولا تكلمون [٢] فما انت الا كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض ما لها من قرار [٣] ، فلا سماء تظلك ، ولا ارض تقلك، ولا يجنك ولا نهار يكنك ولا علم يسترك ولا فئة تنصرك ، قد تقطعت بكم الأسباب واعجزكم الذهاب، فأنتم كما قال الله عز وجل: مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء[٤]. فلا ملجأ لكم من الله يومئذ ولا منجى منه، وجنود الله في طلبك قافية ، لا يزال ذو احقاد ، ونوار أهجاد ورجال انجاد ، فلا تجد في السماء مصعداً ولا في الارض مقعداً ، ولا في الارض ولا في البحر منهجاً ، ولا في الجبال مسلكاً ، ولا الى الهوا سلماً ، ولا الى مخلوق ملتجأ ، حينئذ يفارقك اصحابك ويتخلى عنك احبابك ويخذلك اترابك ، فتبقى وحيداً فريداً وخائفاً طريداً وهائماً شريداً، قد ألجمك العرق وكظك القلق واسلمتك ذنوبك وازدراك خزيك ، كلا لا وزر ، الى ربك[٥] ...

اتعاظ الحنفا للمقريزي جـ ١ – ٢٥١ – ٢٦٥ .

١٧ – رسالة الحسن الاعصم الجوابية الى المعز على خطابه سالف الذكر .

وصل كتابك الذي قل تحصيله وكثر تفصيله ، ونحن سائرون اليك على اثره ، والسلام [٦] .

---

(١) سورة الحجر : الآيتان ٣٤ – ٣٥ .

(٢) سورة المؤمنون : الآية ٨ .

(٣) سورة ابراهيم : الآية ٢٦ .

(٤) سورة النساء : الآية ٤٣ .

(٥) هكذا ورد الخطاب ناقصاً ويقف النص عند هذا الحد . وقد اورد ابن كثير في البداية والنهاية جـ ١١ – ص ٢٧٦ نصاً مختصراً كل الاختصار لرسالة المعز الى الحسن هي عبارة عن اقل من سطر .

(٦) اورد ابن كثير في البداية والنهاية جـ ١١ – ص ٢٧٦ نصاً مطابقاً لنصنا اعلاه .

الكامل في التاريخ لابن الاثير جـ ٨ ص ٦٣٨ .

١٨ – رسالة الحسن الاعصم الى جعفر بن فلاح قبل الحرب بينهما :

الكتب معذرة والرسل مخبرة والحق متبع والخير محمود
والحرب ساكنة والخيل صافنة والسلم مبتذل والظل ممدود
فإن أنبتم فمقبول انابتكم وان ابيتم فهذا الكور مشدود
على ظهور المنايا او يردن بنا دمشق والباب مسدود ومردود
اني امرؤ ليس من شأني ولا أربي طبل يرن ولا ناي ولا عود
ولا اعتكاف على خمر ومجمرة وذات دل لها غنج وتفنيد
ولا ابيت بطين البطن من شبع ولي رفيق خميص البطن مجهود
ولا تسامت بي الدنيا الى طمع يوماً ولا غرني فيها المواعيد

البداية والنهاية لابن كثير جـ ١١ ص ٢٨٧ .

العزيز بالله ٣٦٥ – ٣٨٦ هـ/٩٧٥ – ٩٩٦ م .

ا – القرامطة وبلاد الشام :

١٩ – رسالة لؤلؤ حاكم حلب الى منجوتكين قائد العزيز سنة ٣٦٨ هـ .

استقل لؤلؤ في حكم حلب وابعد الفاطميين عنها ،فأرسل العزيز جيشاً قوياً بقيادة منجوتكين لاسترجاعها ، وبالمقابل ارسل لؤلؤ الى بسيل ملك الروم يستنجده ، فحضر ملك الروم بنفسه في جيش ضخم ، وخاف لؤلؤ ان يقضي ملك الروم على الجيش الفاطمي فأرسل الى منجوتكين سراً يقول له :

ان عصمة الاسلام الجامعة بيني وبينك وبين عساكرك تبعثني على انذاركم ، وهذا عسكر الروم قد اظلكم في الجمع الكثير فخذوا لانفسكم وتيقظوا لأمركم ولا تهملوا حذركم .

ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٤٣ .

٢٠ – رسالة والي دمشق الى العزيزبالله حول ناصر الدولة الحمداني الذي هرب من عضد الدولة البويهي واتى الى بلاد الشام وحاول اخذ دمشق من واليها الفاطمي .

ان أبا تغلب قد حاصر البلد ومد يده الى الغوطة وقتل رجالي ونحن على الحرب معه .

اتعاظ الحنفا للمقريزي جـ ١ ص ٢٥١ الطبعة الثانية سنة ١٩٦٧ م .

٢١ – رسالة منير قائد جيش العزيز الى بكجور غلام سيف الدولة الذي احتل دمشق . احتل بكجور دمشق وتعاون مع ابن الجراح احد عمال العزيز على بعض نواحي الشام ضد الفاطميين فأرسل العزيز جيشاً لاسترجاع دمشق عليه احد قواده واسمه منير . واراد منير ان يشق جبهة خصومه فأرسل الى بكجور يقول :

انا لم نجيء لقتالك وانما جئنا لنخرج ابن الجراح من العمل لأنه افسد وعصى فتكون معيناً لنا في هذا الأمر لنسير الى حلب وانطاكية .

٢٢ – رسالة العزيز الشفوية لبكجور ارسلها له مع وزيره بعد ان رفض بكجور العرض السابق وحورب وهزم واضطر لترك دمشق .

ما اردنا ان تبرح عن البلد ، وانما بعثنا الى ابن الجراح من يخرجه عن

العمل لما افسد فيه وما كان لك من الغلات والضياع فهو على رسمه افعل فيه ما احببت فما لنا فيه من حاجة .

اتعاظ الحنفا للمقريزي ج ١ ص ٢٦١ الطبعة الثانية سنة ١٩٦٧ م.

٢٣ ــ رسالة افتكين التركي الى جوهر قائد العزيز :

نشبت الحرب بين القرامطة وافتكين من جهة وبين العزيز بالله من جهة ثانية . فأرسل العزيز جيشاً بقيادة جوهر لصدهم عن بلاد الشام ، ولكن جوهراً هزم واضطر الى اللجوء الى عسقلان ، وهناك حاصره افتكين حتى اجهده واخيراً أرسل جوهر الى افتكين يسأله عما يريده بهذا الحصار فأجابه افتكين:

لا يزول هذا الحصار الا بمال تؤديه الي عن انفسكم .

٢٤ ــ رسالة ثانية من افتكين الى جوهر حول خروج المحاصرين من عسقلان بعد ان دفعوا له المال المطلوب وحصلوا على الامان :

اذا امنتكم لا بد ان تخرجوا من هذا الحصن من تحت السيف .

اتعاظ الحنفا للمقريزي ج ١ ص ٢٤١ الطبعة الثانية سنة ١٩٦٧ م .

٢٥ ــ رسالة شفوية من العزيز بالله الى الفتكين التركي الذي تحالف مع القرامطة وكسر جيوش العزيز حتى هدد القاهرة نفسها وحتى اضطر العزيز ان يخرج للقائه بنفسه ، وقبل المعركة مباشرة ارسل العزيز الى افتكين يقول : يا الفتكين : انا العزيز وقد ازعجتني عن سرير ملكي واخرجتني لمباشرة الحرب بنفسي ، وانا مسامحك بجميع ذلك وصافح لك عنه ، فاترك ما انت عليه ولذ بالعفو مني ، فلك عهد الله وميثاقه اني أؤمنك واصطفيك وأنوه باسمك واجعلك اسفهسلّار عسكري وأهب لك الشام بأسره واتركه في يدك .

ولكن الفتكين رفض العرض .

ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ١٨ .

٢٦ – رسالة العزيز بالله الى نائبه في مصر يبشره بالفتح وانتصاره على القرامطة حين خرج لقتالهم في الشام سنة ٣٦٧ هـ :

من عبد الله ووليه نزار الى منصور العزيز بالله امير المؤمنين الى الحسين بن القاسم : سلام عليك فان امير المؤمنين يحمد اليك الله الذي لا إله الا هو ، ويسأله ان يصلي على جده محمد نبيه ورسوله ﷺ ، وعلى الأئمة من عترته الابرار الطاهرين المطهرين ، وسلم تسليماً .

اما بعد: فالحمد لله الملك العظيم ، العليم الحليم ذي الطول الكريم والمن الجسيم والعز المدين والمحال الشديد ، ولي الحق ونصيره وماحق الباطل ومبيره ، المتكفل بالنصر والتمكين والتأييد والتحقيق لاوليائه المتقين وخلفائه المصطفين الذابين عن دينه والقائمين بحقه ، والدالين على توحيده ، الحاكم بإعلاء كلمتهم وافلاج حججهم ، وظهورهم على اعدائه المشاقين له ، الضالين عن سبيله ، الملحدين في آياته ، الجاحدين نعمه ، المنزل رجزه وقوارع بأسه على من عصاه فحاده ، وصد عنه فنادّه ، القاضي بالعواقب الحسنى والفوز والنعماء لمن اسلم وجهه له وتوكل عليه في امره وفوض اليه حكمه . كل ذلك فضلاً منه وعدلاً وقضاء فصلاً ، وهو الحكم العدل الذي لا يظلم الناس شيئاً ، ولكن الناس انفسهم يظلمون . فتبارك الله الغالب على امره الفرد في ملكه ، سبحانه وتعالى علواً كبيراً . والحمد لله الذي ابتعث عبده المصطفى وامينه المرتضى من أكرم سنخ ونبعة ، واظهر ملته وشرعه في افضل دهر ومصر ، وانزل عليه كتاباً من وحيه حكيماً غير ذي عوج قيماً بديع النظام ، داخلاً في الافهام ، خارجاً عن جميع الكلام ليس كسجع الكهان

ولا كتحبير ذوي اللسن والبيان، وقد تفرقت بالامم اهواؤهم وتوزعتهم آراؤهم، فضلت احلامهم وعميت افهامهم ، واستحوذ عليهم الشيطان فعبدوا الاصنام والاوثان ، جهلاً بعبادة الرحمن ، فدعاهم الى الاقرار بإلههم ، وعرفهم وحدانية ربهم ، وكان حريصاً على ارشادهم ، جاداً في الاجتهاد ، هاجراً للدعة والمهاد ، صابراً على تكذيب المشركين وتفنيد الملحدين ، ينصح لهـــم فيستكبرون ، ويهديهم فيضلون ، ويحذرهم فستهزئون ، حتى ظهر دين الله قسماً ، وطُمس الكفر فانمحق وعفا ، وعمت بركته وفضلت على الامم امته ، صلى الله عليــه افضل صلاة المصلين وزاده شرفاً في العالمين الى يوم الدين .

والحمد لله الذي حبا امير المؤمنين وانتخبه لخلافته وجعله صفيه من خلقه وامينه على عباده ، وهادياً الى سبيله ، قائماً بحقه ، مقسطاً في ارضه ، ذاباً عن دينه ، محيياً ما اماته اهل الكفر من احكامه ، وأيده بنصره وامده بقوته وتكفل له بالنجح في مسعاه ، والظفر بمبتغاه ونيل طلبته فيما امّه وارتآه ، وحكم بكبت كل عدو له وخزيهم واذلالهم ومحقهم وخذلهم وايهان كيدهم ، وضرب الذلة عليهم حيث كانوا وأين كانوا ، فلا ينعق ناعق منهم بطلال ، او يسعى بفسق وخبال، او يدفع الى افتراء على الله او مروق من دينه او إذهاب ما فرض الله عز وجل من طاعة الا اصطلمه واخزاه وأكبه لوجهه وأرداه ، وقضى عليه بالشقوة في دنياه ، وعذاب الآخرة في اخراه .

والحمد لله الذي منح فأجمل واعطى فأجزل، من نعمه السابغة وآلائه المتتابعة التي لا يوازيها شكر ولا يدرك كنهها ذكر ، حمداً يوجب منه المزيد ويستدعي المنن والتجديد، واليه يرغب امير المؤمنين خاضعاً ، ويسأله راغباً حسن العون عــــلى ما بلغ رضوانه وامترى فضله واحسانه ، وتقدم امير المؤمنين اليك بما هيأه الله من وصوله الى مدينة الرملة على اجمل صنع والطف كفاية ، وأتم أمن

واكمل عز وأوطد حال واحسن انتظام وابسط يد واظهر قدرة واشمل هيبة ، وبما أولى الله امير المؤمنين في حله وظعنه ، وارتحاله وثوائه : من نعمه العميمة ومواهبه الجسيمة ومنحه الجليلة ومننه الجزيلة ، وانه مما يستغرق الحمد والشكر ويفوت الاحصاء والنشر ، وذكر امير المؤمنين امر اللعين التركي وهربه من بين يديه وانه لم يلوِ على شيء الى ان بلغ طبرية للذي تداخله من الفرق واستولى عليه من القلق ، ولما سكن قلبه من الرعب وخشاه من الرهب ، بقصد امير المؤمنين اياه واغذاؤه السير في طلبه ومواصلته الاسباب ومتابعته الإدْآب .

ووصف امير المؤمنين ما عليه عزمه في تتبعه واقتفاء اثره ، والحلول بعقوته حيث قصد وحل ، لثقته بالله ربه وتوكله عليه وتفويضه اليه . ولم يزل جل وعز يولي امير المؤمنين – بعد نفوذ كتابه – من عز يؤيده وظفر يؤكده ونصر يوطئه ، وآلاء يجددها ومواهب يتابعها ، وعدو يذله ومنام يقله ، وشارد يصرفه الى طاعته ومارق يعيده الى موالاته ، الى ان تم له من ذلك ما واصل به حمد الله عليه ، وتهيأ له ما تواتر شكره له جل وعز فيه ، وكان مع ذلك مواصلاً الى اللعين الاعذار ومتابعاً الانذار ومحذراً له ما يعذر ، ومستدعيه الى ما يختار ويؤثر ، وممنياً له مما يمنى به مثله من العفو عنه وتعمد ما جرى منه ، والاقالة لعثرته والتجاوز عن هفوته ، والامتنان عليه بما رغب فيه من تقليده ناحية من نواحي الشام وادرار الارزاق عليه وعلى رجاله واصحابه ، وايثاره بالفضل الجليل واختصاصه بالطول الجزيل ، فما نجح في الفاسق وعد ، ولا نجح فيه وعظ ، ولا وفق الى قبول حظ ، ولا اصغى الى قبول تذكرة ولا أناب الى تبصرة ، وما زال جاداً في تهوكه ، متمادياً على تمهكه ، جارياً على ضلالته ، سالكاً سبيل عمايته ، متردداً في غوايته ، متلذذاً في جهالته ، مقدراً ان بأس الله لا يرهقه وسطوته لا تلحقه ورجزه لا يمحقه وذنوبه لا ترهقه واجرامه لا توبقه ، وما زال اللعين في خلال ذلك يبسط آمال العرب ويزجيها ويرغبها ويمنيها بأقوال كاذبة وآمال خائبة ومواعيد باطلة حتى اصغى اكثرها الى غروره وقبول إفكه وزوره ، واجابته طائفة

طاغية ووصلت اليه متتابعة، فتوفر جمعه وكثر عدده واشتد طمعه وقوي امله، وتمكن له باستدراج الله اياه وغضبه عليه ان يورد عصبته وقد اختدعه بغيه واستفزه معه جهله ، ويوردهم جميعاً ونفسه الرذلة مورداً لا صدر له ، ولا عُلل بعده، فخرج من طبرية وحل بيسان، محل الخزي والهوان . فعندها انتهى الى امير المؤمنين خبره وهو يومئذ في المنهل ، الذي حصل فيه بعد رحيله من الرملة وهو الموضع المعروف بالطواحين .

فعندما قرب استجرار الفاسق اللعين ، واعتمد ما يعود باطماعه ، اقام في الموضع اياماً ناظراً فيما يحتاج اليه، متأهباً لما يريده، وكان ذلك هو السبب الذي اطمعه . فبعدما طمع قاده الحين والغالب ، والقدر الجالب ، وما اراد الله عز وجل من استدراجه الى موضع نكاله ومنهل وباله، ورحل عن بيسان رحيل من استعجلته البلية واستدعته الرزية ، فحل بموضع يعرف بكفر سلّام كافراً بحدود الاسلام ، متجرئاً على الله محارباً لنجل نبيه عليه السلام ، واقام بها متلدداً في حيرته متردداً في سكرته ، ثم استجره شؤمه وقاده حينه ولؤمه الى ان رحل فنزل بكفر سابا البريد ، فأنبأه اسمها بمـا حل به من السبي المبيد والخزي الشديد ، ثم لم يلبث ان ضرب مضاربه المأكولة ونصب اعلامه المخذولة واقام صفوفه المفلولة ، واظهر آلة الحرب اقداماً ، واخفى عن اللقاء احجاماً .

فأمر امير المؤمنين بتزيين العساكر المنصورة والجيوش المظفرة وتعبئتها على مراتبها وترتيبها على مواكبها وتقدم الى قوادها ان لا يمشوا الا صفـاً ، ولا يسيروا الا زحفاً ، وعرفهم انه سيسير بنفسه ويقصد اللعين بموكبه وجمهوره ومن معه من حماة رجاله ، وانه لا يثنيه عن الفاسق ثان ، ولا يصرفه عن الاقتحام صارف ، فبدا من عزائمهم وشدة شكائمهم وخلوص بصائرهم وسكون افئدتهم وثبات اقدامهم ما كانت به دلائل النصر واضحة وشواهد الفلج لائحة،

وعلامات الفتح ظاهرة وآيات النجح باهرة ، فمشوا على ما أمروا ، وساروا على ما سيروا . فعندما دنوا من عدو الله اصابوه للجلاد معداً ، وفي المحـــاربة مجداً ، واستخاروا الله عز وجل وتدانوا للتلاق ، والاخذ بالنواهي والاعناق ، وقامت الحرب على ساق وتجرع منها امر مذاق ، فاستطار شرارها وتأججت نارها وارتفع دخانها وعظم شأنهـــا والتزم الاقران بالاقران ، واشتد الضرب والطعان ، الى ان مشى امير المؤمنين بنفسه وجمهور موكبه ، متوكلاً على الله ، ماتـّاً اليه بجده محمد ﷺ ، متوسلاً بقدم وعده وسالف انعامه عنده ، وقصد اللعين غير متلوم عن مصادمته ولا معرج عن ملاحمته ، فقويت نفوس اوليائه وعبيده ومن اشتملت عليه عساكره المنصورة وجيوشه المظفرة بما تبينوه من اقدامه وشاهدوه من اعتزامه ، وحملوا على الفاسق واحزابه ، وقذف الله في قلوبهم الرعب فتزلزلت اقدامهم وارْعشت ايديهم ونخبت افئدتهم وولوا الدبر منهزمين ومنحوا ظهورهم مولين ، وافترقوا ثلاث فرق : فرقة قتلت في المعركة وصرعت في الملحمة فاحتزت رؤوسهم ، وفرقة احست وقع السيوف وارهاق الحتوف فاستأمنت تحت الذلة والصغار والغلبـــة والاقتدار ، فبقيت عليهم الارواح وحقنت منهم الدماء ؛ وفرقة أسرت أسراً وقيدت قيـــداً . وهرب التركي اللعين رئيس ضلالتهم وعميد كفرهم في شريذمة من اصحابه ، فظن ان ذلك من بأس الله ينجيه ومن الأخذ بكظمه يوقيه . هيهات كما قـــال الله عز وجل ! هيهات هيهات لما توعدون[1]. ان كانت الا صيحة واحدة فاذا هم جميع لدينا محضرون[2] فاتبعه سرعان الخيل وخفاف الرجال مع مفرج بن دغفل بن جراح ، فأخذه قبضاً واتى به قوداً اسيراً من غير عهـد وذليلاً من غير عقد ،

---

(١) سورة المؤمنون : الآية ٣٦ .

(٢) سورة يس : الآية ٥٣ .

واستولى اهل العساكر المنصورة والجيوش المظفرة على مناخه وسواده وما كان فيه من مال واثاث وكراع وقناع [1] وقليل وكثير وجليل وحقير ، فحازوه واتسعوا به واكثروا من حمد الله وانصرفوا الى معسكرهم سالمين بالمغنم والظفر آمنين ، لم يكلم منهم احد ، ولم ينتقص لهم عدد وكان جملة ما اتوا به معهم من رؤوس الفسقة زائداً على الف رأس ، ومن أسراهم ثمانمائة اسير غير من استأمن وقت الايقاع بهم ولم يفلت من الفسقة الا من هرب بحشاشة نفسه مع من لاءم التركي اللعين ، وصاحب عقده ومورطه في هلاكه وقائده الى نقماته وسائقه الى موبقاته وهـــو كاتبه المعروف بابن الحمارة ، فلحق بطبرية فقتل هو وجل من كان معه واحتز رأسه وأتِي به ، فكملت النعمة وتمت الموهبـة ، وتجدد حمد امير المؤمنين واتصل شكره لمـــا اولاه من جليل عطائه وكريم حبـائه ، وسني آلائه وكان مـا اتاه الله من عظيم آياته واكبر شواهده واختصاص الله اياه وانتخابه له . فالحمد لله ثم الحمد لله ثم الحمد لله رب العالمين على عطائه الهني وحبائه السني ، وما ايد امير المؤمنين واعز الدين وقمع المشركين ، اذ كان الفاسق اللعين ، التركي الغوى المبين ثلة من ثللهم وركناً من اركانهم وحزباً من احزابهم ووثناً من اوثانهم وطاغية من طواغيتهم . ولم يكن لهم في بلد المسلمين يد تصد عنهم بأس غيرهم ولا عضد يدفعون بها سواه . وامير المؤمنين يرغب الى الله عز وجل ان يوزعه الشكر على مـــا اولاه ، ويوجده سبيلاً الى بلوغ مبتغاه ، من اعزاز الملة والدين ، واحياء شريعة جده سيد المرسلين ومجاهدة الشرك والمشركين ، وقمع الظالمين والقانطين والمارقين ، حتى يكون الدين كله لله ، ويجمع القلوب على طاعته باذن الله .

أمر أمير المؤمنين بتعريفك ذلك وتلخيص الكتاب اليك لتقف عليـــه

---

(١) القناع : السلاح .

وتذيعه وتشهره فيما قبلك ، وتحمد الله على مـــا منح امير المؤمنين من النصر ومكنه من الظفر ، فأعلمه ان شاء الله تعـــالى . والسلام عليك ورحمة الله وبركاتـه . وكتب يوم الخميس لخمس ليـــال بقين من المحرم سنة سبع وستين وثلثمائة .

صبح الأعشى للقلقشندي جـ٦ ص ٤٣٣ – ٤٣٩ .

ا – شؤون ادارية :

٢٧ – رسالة خازن بيت المال الى جعفر محمد بن حسين الى العزيز يستأذنه في اقراض بعض الموظفين المحتاجين بعض المال من بيت المال .

يا مولانا، صلى الله عليك، ربما سألني اهلي وكتابي وبعض الكتاب المتصرفين من عبيد الدولة الموثوق بهم في قرض مال ، ومالي لا يحتمل ذلك ، ومـــال مولانا فلا تبسط فيه يدي الا باذنــه . وقد كتبت هذه الرقعـــة الى مولانا استأذنه فيما اعول عليه .

٢٨ – رسالة جوابية من العزيز الى خازن بيت المال حـــول الموضوع المذكور اعلاه :

يا محمد اسلمك الله ، من اتاك من اهلك وكتابك وخزانك والمتصرفين معك ومن سائر عبيدنا والمتمسكين باذيالنا يطلب منك سلفاً ، ورأيت منه ما يدل على صحة ما شكاه من ضرورته وعلمت صدقه في ديانته ، فادفع اليه ما رأيته وخذ منه خطه ولا تطلب منه ، فان رده اليك عفواً من ذات نفسه فخـــذ منه ، وان لم يرده اليك وعلمت ان يده لا تصل الى رده فاعذره في تأخير مـــا قبضه ، وان طلب زيادة زد له على شرطه واسكت عن طلبه ، ومن عرفت

انه قادر على رد ما قبضه ولم يعده اليك فامسك عن طلبه وامنعه من مثله .

اتعاظ الحنفا للمقريزي جـ ١ ص٢٩٦ الطبعة الثانية سنة ١٩٦٧ م .

٢٩ – رسالة الحكم المستنصر بالله الاموي الاندلسي الجوابية الى العزيز :

قيل ان العزيز ارسل الى صاحب الاندلس – وهو الحكم المستنصر – يهجوه ويسبه فأجابه بما يلي :

عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لهجوناك وأجبناك ، والسلام .

٣٠ – رسالة موجهة من مجهول الى العزيز تتضمن هجاءه والشك في نسبه :

قيل ان العزيز وجد رقعة على المنبر فيها ما يلي :

انا سمعنـــا نسبـاً منكراً	يتـلى على المنبر بالجـامع
ان كنت فيما تدعي صادقـاً	فانسب أباً بعد الاب الرابـع
وان ترد تحقيق مــا قلته	فانسب لنا نفسك كالطائع
او فدع الاشيـــاء مستورة	وادخل بنا في النسب الواسع

شذرات الذهب للعماد الحنبلي جـ ٣ ص١٢١ .

٣١ – رسالة اخرى مجهولة المرسل موجهة الى العزيز تتضمن تذمر المصريين من تحكم اهل الذمة في شؤون الحكم . تذمر المصريون من تحكم اهل الذمة في شؤون الحكم فتوصلوا ان يوصلوا الى العزيز رقعة فيها :

يا مولانا : بالذي اعز النصارى بعيسى بن نسطورس واليهـــود بمنشا بن الفرار وأذل المسلمين بك الا نظرت في امري .

ذيل تجارب الامم لابي شجاع جـ٣ ، ص ١٨٦ .

الحاكم بأمر الله ٣٨٦ – ٤١١ هـ/٩٩٦ – ١٠٢٠ م .

ا – شؤون ادارية :

٣٢ – خطبة قرواش بن المقلد حاكم الموصل للحاكم بأمر الله سنة ٤٠١ هـ في بلده ، وذلك لما نشب صراع بينه وبين خليفة بغداد والحاكم البويهي ، ففعل ذلك نكاية لهما وبهما ، وكان ذلك يوم الجمعة رابع المحرم من تلك السنة . وكان نص الخطبة ما يلي :

الله اكبر الله اكبر لا إله إلا الله ، والله اكبر ولله الحمد . الحمد لله الذي انجلت بنوره غمرات الغضب وانهدت بقدرته اركان النصب ، واطلع بقدره شمس الحق من الغرب ، الذي محا بعدله جور الظلمة ، وقصم بقوته ظهر الغشمة فعاد الامر الى نصابه ، والحق الى اربابه ، البائن بذاته ، المنفرد بصفاته ، الظاهر بآياته ، المتوحد بدلالاته ، لم تفنه الاوقات فتسبقه الازمنة ، ولم يشبه الصور فتحويه الامكنة ، ولم تره العيون فتصفه الألسنة ، سبق كل موجود وجوده ، وفات كل جود جوده ، واستقر في كل عقل توحيده ، وقام في كل مرأى شهيده ، احمده كما يجب على اوليائه الشاكرين تحميده ، واستعينه على القيام بما يشاء ويريده ، واشهد له بما شهد اصفياؤه وشهوده ، واشهد ان لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة لا يشوبها دنس الشرك ، ولا يعتريها وهم الشك ، خالصة من الإدهان ، قائمة بالطاعة والإذعان . واشهد ان محمداً عبده ورسوله ﷺ ، اصطفاه واختاره لهداية الخلق واقامة الحق فبلغ الرسالة وأدى الامانة ، وهدى من الضلالة ؛ والناس حينئذٍ عن الهدى غافلون ، وعن سبيل الحق ضالون ، فأنقذهم من عبادة الاوثان وامرهم بطاعة الرحمن ، حتى قامت

حجج الله وآياته ، وتمت بالتبليغ كلماته ، صلى الله عليه وعلى اول مستجيب له علي امير المؤمنين وسيد الوصيين اساس الفضل والرحمة ، وعماد العلم والحكمة واصل الشجرة الكرام البررة ، النابتة في الارومة المقدسة المطهرة ، وعلى خلفائه الاغصان البواسق من تلك الشجرة ، وعلى ما خلص منها وزكا من الثمرة .

أيها الناس : اتقوا الله حق تقاته ، وارغبوا في ثوابه واحذروا من عقابه ، فقد تسمعون ما يُتلى عليكم من كتابه ، قال الله عز وجل : يوم ندعوا كل اناس بامامهم[1] . فالحذر الحذر ، فكأني وقد افضت بكم الدنيا الى الآخرة ، وقد بان اشراطها ولاح سراطها ومناقشة حسابها ، والعرض على كتابها . فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره[2] . اركبوا سفينة نجاتكم قبل ان تغرقوا . واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا[3] . وأنيبوا اليه خير الانابة ، واجيبوا داعي الله على باب الاجابة ، قبل : ان تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله وان كنت لمن الساخرين ، او تقول لو ان الله هداني لكنت من المهتدين ، او تقول حين يرى العذاب لو ان لي كرة فأكون من المحسنين[4] . تيقظوا من الغفلة والفترة قبل الندامة والحسرة وتمنى الكر والتماس الخلاص ، ولات حين مناص . واطيعوا امامكم ترشدوا وتمسكوا بولاة العهود تهتدوا ، فقد نصب الله لكم علماً لتهتدوا به وسبيلاً لتقتدوا به . جعلنا الله واياكم ممن تبع مراده ، وجعل الايمان زاده

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٧١ .

(٢) سورة الزلزلة : الآيتان ٧ ، ٨ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ١٠٣ .

(٤) سورة الزمر : الآيات ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ .

والهمة تقواه ورشاده ، استغفر الله العظيم لي ولكم ولجميع المؤمنين .

ثم جلس ثم قام فقال :

الحمد لله ذي الجلال والاكرام وخالق الانام ومقدر الاقسام ، المنفرد بحقيقة البقاء والدوام ، فالق الاصباح وخالق الاشباح وفاطر الارواح ، احمده اولاً وآخراً واشكره باطناً وظاهراً، واستعين به إلهاً قادراً، واستنصره ولياً ناصراً، واشهد ان لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وان محمداً عبده ورسوله شهادة من اقر بوحدانيته ايماناً ، واعترف بربوبيته ايقاناً ، وعلم برهان ما يدعو اليه ، وعرف حقيقة الدلالة عليه . اللهم وصل على وليك الازهر وصديقك الاكبر ، علي بن أبي طالب ابي الخلفاء الراشدين المهديين ، اللهم وصل على السبطين الطاهرين الحسن والحسين وعلى الأئمة الابرار والصفوة الاخيار ، من اقام منهم وظهر ، ومن خاف فاستتر ، اللهم وصل على الامام المهدي بك ، والذي بلغ امرك واظهر حجتك ونهض بالعدل في بلادك ، هادياً لعبادك . اللهم وصل على القائم بأمرك والمنصور بنصرك ، اللذين بذلا نفوسهما في رضائك وجاهدا اعداءك . اللهم وصل على المعز لدينك المجاهد في سبيلك ، المظهر للآيات الخفية والحجج الجلية . اللهم وصل على العزيز بك الذي مهدت به البلاد وهديت به العباد . اللهم واجعل نوامي صلواتك وزواكي بركاتك على سيدنا ومولانا امام الزمان وحصن الايمان وصاحب الدعوة العلوية والملة النبوية ، عبدك ووليك المنصور ابي علي الحاكم بأمر الله امير المؤمنين ، كما صليت على آبائه الراشدين ، واكرمت اجداده المهديين . اللهم وفقنا لطاعته واجمعنا على كلمته ودعوته ، واحشرنا في حزبه وزمرته . اللهم وأعنه على ما وليته واحفظه فيما استرعيته ، وبارك له فيما آتيته، وانصر جيوشه واعلِ اعلامه في مشارق الارض ومغاربها،

انك على كل شيء قدير[1] .

النجوم الزاهرة لابن تغري بردي جـ ٤ ، ص ٢٢٥ – ٢٢٧ .

٣٣ – منشور اصدره الحاكم باعفاء اهل حلب من الخراج .

الحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم . هذا من أمر الامام الحاكم بأمر الله امير المؤمنين لجميع اهل حلب واعمالها : انه لما انتهى الى امير المؤمنين ما انتم فيه من الظلمة المدلهمة وقبيح ظفر من يتولى اموركم في المعاملات وزيادتهم عليكم في الخراج والجبايات اضعافاً لكم وعدولاً عن سنن الحق بكم ، امر – زاد الله امره علواً ونفاذاً – باطلاق المؤن من دار كوره ونظائرها ، والصفح عن الواجب عليكم من مال الخراج لاستقبال سنة سبع واربعمائة ، لتعلموا ان ضياء الدولة النبوية قد لمع وظهر ، وان حندس الظلام قد انجاب ودثر .

٣٤ – رسالة الحاكم بأمر الله الى قواده وجيشه لما قتل وزيره برجوان .

اورده هذه الرسالة الدكتور الشيال في **مجموعة الوثائق الفاطمية** ١٣٤ – ١٣٥ .

وقد نقلها عن **اتعاظ الحنفا** للمقريزي جـ٢، ص٢٧–٢٩. كما اورد نصاً مختصراً كل الاختصار ، لرسالة الحاكم هذه كل من ابن القلانسي في **ذيل تاريخ دمشق** ٥٦ – ٥٧ ، وأبي شجاع في **ذيل تجارب الامم** جـ ٣ ، ص ٢٣١ .

٣٥ – مرسوم الحاكم بتقليد الحسين بن علي بن النعمان القضاء في مصر

---

(١) ذكر ابن الجوزي في المنتظم جـ٧ ص ٢٤٩ – ٢٥١ نص هذه الخطبة وفيها بعض الاختلافات البسيطة عن نصنا اعلاه .

واجناد الشام وبلاد المغرب ، مضافاً الى ذلك النظر في دور الضرب والعيار وامر المساجد والجوامع .

هذا ما عهد عبدُ الله ووليه المنصور ابو علي الحاكم بأمر الله امير المؤمنين للقاضي الحسين بن علي بن النعمان حين ولاه الحكم بالمعزية القاهرة ومصر ، والاسكندرية واعمالها ، والحرمين – حرسهما الله تعالى – واجناد الشام ، واعمال المغرب ، واعلاء المنابر وأئمة المساجد الجامعة والقومة عليها والمؤذنين بها وسائر المتصرفين فيها وفي غيرها من المساجد ، والنظر في مصالحها جميعاً ، ومشارفة دار الضرب وعيار الذهب والفضة ، مع ما اعتمده امير المؤمنين وانتحاه وقصده وتوخاه : من اقتفائه لآثاره وانتهائه الى ايثاره ، في كل علّية للدولة ينشرها ويحييها ، ودنية عن اهل القبلة يدثرها ويعفيها ، وما التوفيق الا بالله ولي امير المؤمنين عليه توكله في الخيرة له ولسائر المسلمين فيما قلده اياه من امورهم وولاه .

امره ان يتقي الله عز وجل حق التقوى في السر والجهر والنجوى ، ويعتصم بالثبات واليقين والنهى ، وينفصم من الشبهات والشكوك والهوى ، فإن تقوى الله تبارك وتعالى موئل لمن وأل اليها حصين ، ومعقل لمن اقتضاها أمين ، ومعوّل لمن عول عليه مكين ، ووصية الله التي اشاد بفضلها وزاد في سناها بما عهد انه من اهلها فقال تبارك وتعالى : يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين[1] .

وامره ان لا يُنزل ما ولاه امير المؤمنين اياه من الاحكام في الدماء والاشعار والابشار والفروج والاموال عن منزلته العظمى من حقوق الله المحرمة

(١) سورة التوبة : الآية ١١٩ .

وحرماته المعظمة وبنياته المبينة في آياته المحكمة ، وان يجعل كتاب الله عز وجل وسنة جدنا محمد خاتم الانبياء ، والمأثور عن أبينا علي سيد الأوصياء ، وآبائنا الأئمة النجباء – صلى الله على رسوله وعليهم – قبلة لوجهه اليها يتوجه وعليها يكون المتجه ، فيحكم بالحق ويقضي بالقسط ولا يحكم الهوى على العقل ، ولا القسط على العدل ، ايثاراً لأمر الله عز وجل حيث يقول : فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب[1] . ولا يجرمنكم شنآن قوم على ان لا تعدلوا ، اعدلوا هو اقرب للتقوى ، واتقوا الله ان الله خبير بما تعلمون[2].

وامره ان يقابل ما رسمه امير المؤمنين وحده لفتاه برجوان من اعزازه والشد على يده وتنفيذ أحكامه واقضيته ، والقصر من عنان كل متطاول على الحكم والقبض على شكائمه ، بالحق المفترض لله جل وعز ولامير المؤمنين عليه امن ترك المجاملة فيه والمحاباة لذي رحم وقربى وولي للدولة او مولى ، فالحكم لله ولخليفته في أرضه ، والمستكينُ له لحكم الله وحكم وليه يستكين ، والمتطاول عليه ، والمباين للاجابة اليه ، حقيق بالإزالة والنهوض ، فليتق الله ان يستحيَ من احد في حق له ، والله لا يستحي من الحق .

وامره ان يجعل جلوسه للحكم في المواضع الضاحية للمتحاكمين ويرفع عنهم حجابه ويفتح لهم ابوابه ، ويحسن لهم انتصابه ، ويقسم بينهم لحظه ولفظه قسمة لا يحابي فيها قوياً لقوته ، ولا يردي فيها ضعيفاً لضعفه ، بل يميل مع الحق ويجنح الى جهته ، ولا يكون الا مع الحق وفي كفته ، ويذكر

(١) سورة ص : الآية ٦ .
(٢) سورة المائدة : الآية ١٠ .

بموقف الخصوم ومحاباتهم بين يديه موقفه ومحاباته بين يدي الحكم العدل الديان: يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء تود لو ان بينها وبينه امداً بعيداً ويحذركم الله نفسه[1] .

وامره ان ينعم النظر في الشهود الذين اليهم يرجع وبهم يقطع في منافذ القضايا ومقاطع الاحكام ، ويستشف احوالهم استشفافاً شافياً ويتعرف دخائلهم تعرفاً كافياً ، ويسأل عن مذاهبهم وتقلبهم في سرهم وجهرهم ، والجلي والخفي من امورهم ، فمن وجده منهم في العدالة والامانة والنزاهة والصيانة وتحري الصدق والشهادة بالحق على الشيمة الحسنى والطريقة المثلى ابقاه ؛ والا كان بالاسقاط للشهادة اولى ، وان يطالع حضرة امير المؤمنين بما يبدو له فيمن يعدّله او يرد شهادته ولا يقبله : ليكون في الامرين على ما يحدُّ له ويمثله، ويأمن فيما هذه سبيله كل خلل يدخله ، اذ كانت الشهادة اسس الاحكام واليها يرجع الحكام ، والنظرُ فيمن يؤهل لها احق شيء بالإحكام . قال الله تقدست اسماؤه : يا ايها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم او الوالدين والاقربين[2] . وقال تعالى : والذين لا يشهدون الزور واذا مروا باللغو مروا كراماً[3] .

وامره ان يعمل بأمثلة امير المؤمنين له فيمن يلي اموال اليتامى والوصايا واولي الخلل في عقولهم ، والعجز عن القيام بأموالهم حتى يجوز امرها على ما يرضي الله ووليه : من حياطتها وصيانتها من الامناء عليها ، وحفظهم لها

---

(١) سورة آل عمران : الآية ٣٠ .

(٢) سورة النساء : الآية ١٣٥ .

(٣) سورة الفرقان : الآية ٧٢ .

ولفظهم لما يحرم ولا يحل اكله منها ، فيتبوأ عند الله بعداً ومقتاً ، آكلُ الحرام والموكل له سحتا . قال الله تعالى : ان الذين يأكلون اموال اليتامى ظلماً انما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً[1] .

وامره ان يشارف أئمة المساجد والقومة عليها ، والخطباء بها والمؤذنين فيها وسائر المتصرفين في مصالحها ، مشارفة لا يدخل معها خلل في شيء يلزم مثله : من تطهير ساحتها وافنيتها والاستبدال بما تبذل من حصرها في احيانها ، وعمارتها بالمصابيح في اوقاتها، والانذار بالصلوات في ساعاتها واقامتها لاوقاتها، وتوفيتها حق ركوعها وسجودها مع المحافظة على رسومها وحدودها ، من غير اختراع ولا اختلاع لشيء منها . ان الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً[2].

وامره ان يراعي دار الضرب وعيار الذهب والفضة بثقات يحتاطون عليهما من كل لبس ، ولا يمكنون المتصرفين فيهما من سبب يُدخِل على المعاملين بهما شيئاً من الوكس ، اذ كان بالعين والورق تتناول الرباع والضياع والمتاع ، ويبتاع الرقيق وتنعقد المناكح وتتقاضى الحقوق ، فدخول الغش والدَّخل فيما هذه سبيله جُرحة للدين وضرر على المسلمين يتبرأ الى الله منها امير المؤمنين . وامره ان يستعين على اعمال الامصار التي لا يمكنه ان يشاهدها بأفضل واعلم وارشد واحمد من تمكنه الاستعانة به على ما طوقه امير المؤمنين في استعماله . قال الله عز وجل : إنا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين ان يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوماً جهولاً[3] .

---

(١) سورة النساء : الآية ١٠ .

(٢) سورة النساء : الآية ١٠٣ .

(٣) سورة الأحزاب : الآية ٧٢ .

هذا عهد امير المؤمنين فأوف بعهده تهتد بهديه وترشد برشده . وهذا اول امرة امرها لك فاعمل بها وحاسب نفسك قبل حسابها ، ولا تدع من عاجل النظر لها ان تنظر لمآبها : يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفي كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون[1] .

وكتب في يوم الاحد لسبع ليال بقين من صفر سنة ٣٨٩ هـ .

صبح الاعشى للقلقشندي جـ ١٠ ، ص٣٨٥ — ٣٨٨ .

٣٦ — رسالة الحاكم الى القاضي حسين بن النعمان لما كثر النزاع بينه وبين عبد العزيز بن النعمان :

بسم الله الرحمن الرحيم . يا حسين : احسن الله اليك ، اتصل بنا ما جرى من شناعات العوام ومن لا خير فيه وارجافهم ، وانكرنا ان يجري مثله فيمن يحل محلك من خدمتنا اذ انت قاضينا وداعينا وثقتنا . ونحن نتقدم بما يزيل ذلك ، ولم نجعل لاحد غيرك نظراً في شيء من القضايا والحكم ، ولا في شيء مما استخدمناك فيه ، ولا مكاتبة احد من خلفائك بالحضرة وغيرها وسائر النواحي ، ولا ان نكاتب احداً منهم غيرك ، ومن تسمى غيرك بالقضاء فذلك على المجاز في اللفظ لا على الحقيقة . وقد منعنا غيرك ان يسجل في شيء ، فتقدم الى جميع الشهود والعدول بأن لا يشهدوا في سجل لأحد سواك ، وان تشاجر خصمان فدُعِي احدهما اليك ودُعي الآخر الى غيرك ، كان الداعي الى غيرك عليه الرجوع اليك طائعاً مكرهاً . فاجر على ما انت عليه من تنفيذ القضايا والاحكام مستعيناً بالله عز وجل ، ثم بنا . ولك من جميل رأينا فيك ما يسعدك في الدنيا والآخرة . وقد اذنا لك ان يكاتب جميع من يكاتب

(١) سورة النحل : الآية ١١١ .

القاضي بقاضي القضاة كما جعلناك ، وتكاتب من تكاتبه بذلك وتكتب به في سجلاتك . فاعلم ذلك واشهر امرنا بجميع ما يقتضيه هذا التوقيع ليمتثل ولا يتجاوز . وفقك الله لرضاه ورضانا وايدك على ذلك واعانك عليه ان شاء الله. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً .

اتعاظ الحنفا للمقريزي ج ٢ ، ص ٤٠ – ٤١ .

٣٧ – امان الحاكم بأمر الله لأهل الاسواق بخاصة .

منع الحاكم الناس من الدخول من باب الزهومة الى باب الزمرد لانه ملاصق للقصر ، ثم سمح للمكارين بالدخول وكتب لهم اماناً ، ثم خاف الناس فطلبوا منه ان يكتب لهم اماناً فكتب أكثر من مائة امان لاهل الاسواق بخاصة ، وكلها نسخة واحدة نصها كما يلي :

هذا كتاب من عبد الله ووليه المنصور ابي علي الحاكم بأمر الله امير المؤمنين لأهل مشهد عبد الله : انكم من الآمنين بأمان الله الملك الحق المبين ، وامان سيدنا محمد خاتم النبيين ، وأبينا على خير الوصيين وذرية النبوة المهديين آبائنا – صلى الله على الرسول ووصيه وعليهم اجمعين – وامان امير المؤمنين على النفس والاهل والدم والمال لا خوف عليكم ولا تهديد بسوء اليكم ، الا في حد يقام بواجبه وحق يؤخذ لمستوجبه ، فليوثق بذلك وليعول بأمان الله . وكتب في جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وثلثمائة . والحمد لله وصلى الله على محمد سيد المرسلين وعلى خير الوصيين وعلى الأئمة المهديين ذرية النبوة وسلم تسليماً .

اتعاظ الحنفا للمقريزي ج ٢ ، ص ٥٧ – ٥٨ .

٣٨ – مطلع رسالة وجهها الحاكم الى واليه على صقلية يوسف بن أبي الحسين

لما قتل وزيره أبا محمد الحسن بن عمـــار بن أبي الحسين – وهو ابن عم والي صقلية يوسف بن أبي الحسين ، وذلك بعد فترة من وزارته .

الحمد لله قاطع الانساب بقـاطع الاسباب اذ يقول وقوله الحق هدى لأولي الألباب : يا نوح انه ليس من اهلك ، انه عمل غير صالح[1] .

الاشارة الى من نال الوزارة لابن منجب الصيرفي ص ٢٦ .

٣٩ – رسالة الحاكم الى خازنه على بيت المال ابي عبد الله الحسين بن طاهر الوزان .

ولى الحاكم الوزارة أمين الامناء أبا عبد الله الحسين بن طاهر الوزان واطلق يده في الاموال ، وبدأ الحاكم يهب الناس ويكثر الصلات ، ثم بلغه عن الوزير بعض التوقف عن اعطـاء من يوقع باعطائه ، فأرسل اليه الحاكم رقعة يقول فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله كما هو اهله ومستحقه .

اصبحت لا ارجو ولا اتقي الا إلهـــي وله الفضـــل

جدي نبي وأمـــامي أبي وديني الاخلاص والعـــدل

ما عندكم ينفد وما عند الله باق[2] ، والمال مال الله ، والخلق عيال الله ونحن امناؤه في الارض . اطلق ارزاق الناس ولا تقطعها ، والسلام[3] .

---

(١) سورة هود : الآية ٤٦ .

(٢) سورة النحل : الآية ٩٦ ،

(٣) أورد المقريزي في اتعاظ الحنفا جـ٢ – نصاً مشابهاً لنصنا أعـــلاه ، مع بعض الخلافات الطفيفة .

الاشارة الى من نال الوزارة لابن منجب الصيرفي ص ٢٩ .

٤٠ – مرسوم الحاكم بمنع ذبح البقر الصالح للحرث .

ان الله بسابغ نعمته وبالغ حكمته خلق ضروب الانعام ، وعلم بها منافع الانام ، فوجب ان تحمى البقر المخصوصة بعمارة الارض ، المذللة لمصالح الخلق ، فإن ذبحها غاية الفساد واضرار بالعباد والبلاد .

حسن المحاضرة في ملوك مصر والقاهرة للسيوطي ج٢، ص ٢٨٥ .

ب – الجيوش والثوار :

٤١ – رسالة قائد جيش الحاكم فضل الذي ارسله لحرب الثائر أبي ركوة في الانتصار عليه .

كتب عبد مولانا الامام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين من المخيم المنصور في الساعة الخامسة من نهار يوم الخميس الخامس من شوال ، وقد اظفره الله عز وجل بعدو الله وعدو الحضرة المطهرة أبي ركوة المخذول ، وهو في قبضة الاسر ، والحمد لله رب العالمين .

الاشارة الى من نال الوزارة لابن منجب الصيرفي ٤٢ – ٤٣ .

٤٢ – رسالة أبي ركوة من السجن الى الحاكم يلتمس منه العفو بعد ان ثار ضده وحاربه وهُزم ووضع في السجن .

يا مولانا : الذنوب عظيمة ، واعظم منها عفوك ، والدماء حرام ما لم يحللها سخطك ، وقد احسنتَ واسأتُ ، وما ظلمتُ الا نفسي ، وسوء عملي اوبقني ، واقول :

فررت فلم يغن الفرار ومن يكن
مع الله لم يعجزه في الارض هارب

ووالله ما كان الفرار لحاجـــة
سوى فزع الموت الذي أنا شارب

وقد قادني جرمي اليـــك برمتي
كما خرّ ميت في رجا الموت سارب

وأجمع كل النـــاس انك قـــاتلي
فيـا رب ظن ربه فيـــك كاذب

ومـــا هو الا الانتقـــام وينتهي
واخذك منه واجباً لك واجب[1]

الكامل في التاريخ لابن الاثير ج ٩ ص٢٠٢ .

٤٣ – رسالة الحاكم الى والي الرملة يأمره ان يقبض على والي دمشق محمود ابن محمد بن النجوى وان يقتله. تآمر ابن العداس وابن النجوى على وزير الحاكم فهد وتسببا في جعل الحاكم يقتله ، ثم اصبح ابن النجوى والياً على دمشق فأساء السيرة ، ووصل الخبر الى اخت الحاكم فحرضت أخاهـــا ضده فكتب الى وحيد والي الرملة يقول :

بسم الله الرحمن الرحيم . يا وحيد : سلمك الله ، ساعة وقوفك على هـــذا الكتاب اقبض على محمود بن محمد لا حمـــد الله امره ، وسيره مع من يوصله من

(١) ذكر ابن القلانسي في ذيل تاريخ دمشق ص ٦٥ نصاً مشابهاً كل المشابهة لنصنا أعلاه .

ثقاتك الى الباب العزيز ان شاء الله .

ولكن اخت الحاكم اعترضت عليه : بأن بطن الأرض خير من احضاره فزاد الحاكم في الكتاب : بل تضرب عنقه وتنفذ رأسه .

ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٦٠ .

٤٤ – رسالة الجند الاتراك والمغاربة الى الحاكم عندما نشب القتال بينهم وبين العبيد :

غضب الحاكم على اهل مصر لما عملوا له تمثال المرأة وفي يدها الرقعة واسمعوه كل مكروه ، فحرض العبيد والاتراك على احراق القاهرة ، ودار قتال مرير بين اهل مصر من جهة وبين العبيد والاتراك من جهة ثانية ، ثم انضم الاتراك والمغاربة الى اهل مصر ضد العبيد ، وارسلوا الى الحاكم يقولون :

نحن عبيدك ومماليك ، وهذا البلد بلدك ، وفيه حرمنا واموالنا واولادنا وعقارنا ، وما علمنا ان اهله جنوا جناته تقتضي سوء المقابلة وتدعو الى مثل هذه المعاملة ، فإن كان هناك باطن لا نعرفه فأخبرنا به ، وانتظرنا حتى نخرج بعيالنا واموالنا منه ، وان كان ماعليه هؤلاء العبيد مخالفاً لرأيك فاطلقنا في معاملتهم بما يعامل به المفسدون المخالفون .

٤٥ – جواب الحاكم للجند الاتراك والمغاربة على الرسالة السابقة :

انتم على صواب في الذب عن المصريين وقد اذنت لكم في نصرتهم والايقاع بمن تعرض لهم .

٤٦ – رسالة سرية من الحاكم الى العبيد حول نفس الموضوع .

لم يكن الحاكم مخلصاً فيما قال للجند الاتراك والمغاربة ، وانما ارسل الى العبيد سراً يقول : كونوا على امركم .

٤٧ – جواب الجند الاتراك والمغاربة الى الحاكم لما وصلت الى مسامعهم انباء رسالته السرية الى العبيد .

قد عرفنا غرضك وهو إهلاك هذه البلدة واهلها، وهلاكنا معهم ، وما يجوز ان نسلم نفوسنا والمسلمين لفتك الحريم وذهاب المهج ، ولئن لم تكفهم لنحرقن القاهرة ولنستنصرن العرب وغيرهم[1].

النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج ٤ – ١٨١ – ١٨٢ .

٤٨ – رسالة اخت الحاكم الى ابن دواس .

ادعى الحاكم الربوبية وخافت اخته سوء العاقبة فقررت التخلص منه والاستعانة بالقائد ابن دواس لتنفيذ ذلك فأرسلت اليه رسالة تقول له فيها :

اني اريد ان ألقاك اما ان تتنكر لي وتأتيني ، واما ان أجيء انا اليك .

المنتظم في تاريخ الملوك والامم لابن الجوزي ج ٧ – ٢٩٨ .

الظاهر بالله ٤١١ – ٤٢٧ هـ/١٠٢٠ – ١٠٣٥ م .

٤٩ – مرسوم اصدره الظاهر بتولية الوزير صفي امير المؤمنين وخالصته ابي القاسم علي بن احمد الجرجرائي الوزارة .

اتى بنص هذا المرسوم الدكتور الشيال في كتابه : **مجموعة الوثائق الفاطمية** ٣١٥ – ٣٢١ وقد نقله عن ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ٨٠ – ٨٣ .

---

(١) ذكر ابن الجوزي في المنتظم جـ٧ ص ٢٨٩ نصاً قريباً كل القرب من النص المذكور اعلاه .

٥٠ – مرسوم اصدره الظاهر يمنع بموجبه من ذبح البقر السليم .

ان الله تعالى بتتابع نعمته وبالغ حكمته خلق ضروب الانعام وعمل فيها منافع للأنام ، فوجب ان تحمى البقر المخصوصة بعمارة الارض المذللة لمصالح الخلق ، فان في ذبحها غاية الفساد واضراراً للعباد والبلاد .

النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج ٤ – ٢٥٢ .

المستنصر بالله ٤٢٧ – ٤٨٧هـ/١٠٣٥ – ١٠٩٤ م .

ا – ثوار وعصاة ومتغلبون :

٥١ – بيان اذاعه المستنصر بالله على الناس لما شق القائد انوشتكين عصا الطاعة وعصى في حلب ، وقد اذيع من على منابر مدينة دمشق .

اما بعد : فقد علم الحاضر والبادي ، والموالف والمعادي حال انوشتكين الدزبري الخائن ، وانه كان مملوكاً لدزبر بن اونيم الحاكمي واهداه الى امير المؤمنين الحاكم بأمر الله فنقله الى المراتب ، الى ان انتهى امره الى ما انتهى اليه ، فلما تغيرت نيته سلبه الله تعالى نعمته لقوله تعالى : ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم[٢] .

٥٢ – رسالة المستنصر بالله الى انوشتكين بعد هذا البيان وبعد ان اعلن عصيانه واستقل بولاية حلب .

بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله ووليه الامام معد ابي تميم المستنصر بالله امير المؤمنين الى انوشتكين مولى دزبر بن اونيم الديلمي . اما بعد : فان الله

---

(١) سورة الرعد : الآية ١١.

بقضيته العادلة ومشيئته البالغة لم يكُ مغيراً ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم[1]، واذا اراد الله بقوم سوءً فلا مرد له وما لهم من دونه من والٍ[2] مع ما انك اجرمت على نفسك في يومك وأمسك واستوجبت بذلك مقام الحلول من نحسك فلا تعجل بعذاب الله عند ما اسرفت ووبيل عقابه عندما خالفت ، فان الله تعالى يقول مخاطباً لذوي العقول : « فمهل الكافرين امهلهم رويداً[3] » . وتالله لقد جددت بمسيرك الى حلب لبعد املك وانقطاع اجلك ، وانما بقي لك الايام القلائل ويكثر لك الندم وتحل بك النقم (ان الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها)[4] وان مثلك مثل شاة عطشانة ولهانة ضائعة جـــائعة نزلت في مرج افيح غزير ماؤه ، كثير عشبه ومرعـــاه فشربت ماءً واكلت عشباً فرويت بعد ظمأها وشبعت بعد جوعها ، واستحسنت بعد قبحها ، فلما تكامل حسنها ذبحت، (ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون)[5]. وان امير المؤمنين يضرب لك مثلاً عن جده المصطفى ﷺ لما انزل عليه : والضحى والليل اذا سجى ، ما ودعك ربك وما قلى ، وللآخرة خير لك من الاولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى ، ألم يجدك يتيماً فآوى ، ووجدك ضالاً فهدى ، ووجدك عائلاً فأغنى . فبدلت النعمة كفـــراً ، ووضعت موضع الخير شراً . وقد انتهى الى حضرة امير المؤمنين افتخارك بجمع الاموال واكتنازك لها لامر يدهمك او ليوم ينفعك . أفمـــا قرأت القرآن العظيم ؟ اما تدبرت قول الملك الرحيم في قصة قارون لما بغى واعتدى وازداد في الطغيان حيث يقول جــل

---

(١) استفاء من الآية ٥٢ في سورة الأنفال .

(٢) سورة الرعد : الآية ١١.

(٣) سورة الطارق : الآية ١٧ .

(٤) سورة البقرة : الآية ٢٦ .

(٥) سورة ابراهيم : الآية ٢٥ .

وعلا : فخسفنا به وبداره الارض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين[1] . اما رأيت الامم الماضية الذين عادوا الدولة ونصبوا لهـا العداوة الشديدة ؟ انظر الى ديارهم كيف قل فيها الساكنون وكثر عليها الباكون . قال الله تعـالى : فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ، ان في ذلك لآية لقوم يعلمون[2] . فاشتغل عن اصلاح العين وعن خطرك في حساب الفرقدين ، وافتكر في رب المشرقين ورب المغربين ، حيث يقول جل جلاله : ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين وهديناه النجدين[3]. وقد عرف امير المؤمنين بكتاب الله الاعلى الذي نزل على خاتم الانبياء حيث يقول :

وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون[4] .

٥٣ – رسالة انوشتكين الجوابية الى الخليفة المستنصر بالله وذلك سنة ٤٣٦ هـ

لما وصلت الرسالة السابقة الى انوشتكين عظم الأمر عليه وخاف عاقبة العصيان ، فأرسل الى الخليفة يعتذر ويتنصل ويقول بعد البسملة :

كتب عبد الدولة العلوية والامامية الفاطمية والخلافة المهدية عن سلامة تحت ظلها ونعمة منوطة بكفلهـا ، وهو متبرىء اليها من ذنوبه الموبقة وإساءته المرهقة لا بُد[5] بعفو امير المؤمنين، متنصل ان يكون في جملة المجرمين المذنبين من غير اساءة اقترفها ولا جناية احتقبها ، عائذٌ بكرمها ، صابر

---

(١) سورة القصص : الآية ٨١ وما بعدها .

(٢) سورة النمل : الآية ٥٢ .

(٣) سورة البلد : الآية ١٠ .

(٤) سورة الشعراء : الآية ٢٢٧ .

(٥) كذا بالأصل ولعل الصواب لائذ وبذلك يستقيم المعنى .

لحكمها، لقوله تعالى: وبشر الصابرين[1]. وهو تحت خوف ورجاء وتضرع ودعاء قد ذلت نفسه بعد عزها ، وخافت بعد أمنها ووسخت بعد رفعتها ، ومن يضلل الله فما له من هاد[2] واي قرب لمن ابعدته ، واي رفعة لمن حططته . والعبد بفخرها شمخ ، وبجدرها طال وبذخ ، فزكت نصبته وطابت ارومته وسمت فروعه وكان كقوله تعالى : ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة اصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها[3] فلما انكرت الدولة حاله وقبحت افعاله وازرت عليه ، خذله الانصار وقل بعد الاكثار فصار كقول الملك الجبار : ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض ما لها من قرار[4] . غير ان العبد توسل بوكيد خدمته وقديم صحبته ومجاهدته لاعداء الدولة مذكراً قول الله تعالى : والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل اعمالهم ، سيهديهم ويصلح بالهم[5] . وهو مع ذلك معترف بذنوب ما جناها واساء ما اتاها ذاكراً ما نزل الله في كتابه المبين على سيد المرسلين : وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله ان يتوب عليهم ان الله غفور رحيم[6].عفا الله عن امير المؤمنين اهل بيت العفو والكرامة لجميع الامم، وفيهم نزلت الآيات والحكم. قال الله تعالى: « وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون ان يغفر الله لكم »[7] وليس مسير العبد ينجيه من سطوات مواليه لقوله تعالى : قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٥٥ .
(٢) سورة الرعد : الآية ٣٣ .
(٣) سورة ابراهيم : الآية ٢٤ .
(٤) سورة اهيم : الآية ٢٦ .
(٥) سورة محمد : الاية ٤ .
(٦) سورة التوبة : الآية ١٠٢ .
(٧) سورة النور : الآية ٢٢ .

مضاجعهم[1] . لكنه بعد توصله واعترافه بجرائره وذنوبه وتنصله يرجو قبول توبته وتمهيده عذره في انابته ، ولله الامر من قبل ومن بعد[2] ولأمير المؤمنين في كل قول وحد، فقد وعد الله المسرفين على انفسهم فقال تعالى: قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم[3] واما مـــا رقى الى الحضرة المطهرة عن العبد من كثرة الاموال وجمعها فذلك طباع ولد آدم في حب اللجين والعسجد ، وما عليه في الدنيا يعتمد . نعوذ بالله ان يكون ذاك لمضادة او مقاومة او مكاثرة او مقابلة، لكنها معدة للجهاد في اعداء امير المؤمنين، ومبذولة في نصرة اوليائه المخلصين اذ يقول تعالى ، وله المثل الاعلى : وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم[4] . ولقد قرىء على العبد القرآن العظيم فوجده منوطاً بطاعة امام الزمان ، وهو ولي العفو والغفران من اهل الاساءة والعدوان مكرراً لقول الملك الديان : والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين[5] .

ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ٧٦ – ٧٨ .

٥٤ – رسالة جوابية من محمود بن الروقلية المتغلب على حلب الى المستنصر عن رسالة كان المستنصر ارسلها له يطالبه بارسال الاموال المتفق عليها وغزو الروم :

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٥٤ .

(٢) اقتباس من الآية ٤ سورة الروم .

(٣) سورة الزمر : الآية ٥٣.

(٤) سورة الأنفال : الآية ٦٠ .

(٥) سورة آل عمران : الآية ١٣٤ .

اني التزمت على اخذ حلب من عمي اموالاً اقترضتها وانا مطالب بهـــا ، وليس في يدي ما اقضيها فضلاً عما اصرفه لغيره . واما الروم فقد هادنتهم مدة واعطيتهم ولدي رهينة على مال اقترضته منهم ، فلا سبيل الى محـــاربتهم . واما ابن خاقان والغز فيدهم فوق يدي .

النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج ٥ – ٧٩ .

٥٥ – رسالة المستنصر الى المعز بن باديس الذي قطع الدعوة الفـاطمية في المغرب وخطب للقائم العباسي :

... هلا اقتفيت آثار آبائك في الطاعة والولاء ...

في كلام طويل ...

٥٦ – جواب المعز بن باديس الى المستنصر على رسالته السابقة :

ان آبائي واجدادي كانوا ملوك المغرب قبل ان تملكه اسلافك ، ولهم عليهم من الخدم اعظم من التقديم ، ولو أخروهم لتقدموا بأسيافهم .

وفيات الاعيان لابن خلكان ج ٤ – ٣٨ .

٥٧ – رسالة اليازوري وزير المستنصر الى المعز بن باديس يخبره بارسال العربان الى بلاده عقوبة له لانه قطع الدعوة الفاطمية :

أشار الوزير اليازوري على المستنصر ان افضل عقوبة للمعز بن باديس هو ارسال القبـــائل العربية كبني سليم وبني هلال الى المغرب فقبل المستنصر ذلك وارسلهم نحوه ، وأرسل الوزير الرسالة التالية الى المعز متهكماً :

أما بعد : فقد ارسلنا اليكم خيولاً فحولاً وحملنا عليها رجـــالاً كهولاً ،

ليقضي الله أمراً كان مفعولاً[1] ...

الكامل في التاريخ لابن الاثير جـ ٩ – ٥٦٦ .

ب – علاقات خارجية –

٥٨ – رسالة اليازوري وزير المستنصر الى طغرلبك زعيم السلاجقة :

احتل السلاجقة ، في اواسط القرن الخامس الهجري ، العراق وزحفوا على سورية ، فخاف اليازوري سوء العاقبة فراسل طغرلبك يهنئه على ذلك ويقول له انه لا حاجة لأن يزحف على سورية لأنه نائبه في حكم الشام وسيسلمه الدولة كلها ان انتظر قليلاً؛ فوثق طغرلبك بقوله وسرح جيشه ، فلما عرف اليازوري ذلك كشر عن انيابه وأرسل الى طغرلبك يقول :

لا تغرنك الاماني والخدع بأني اسلم اليك اعمال الدولة واخون امانتي لمن غذاني فضله وغمرني احسانه ، وتتعين عليّ طاعاته وموالاته ، فإن كنت تسلم اليّ ما في يدك لصاحبك من العراق واعماله سلمت اليك ما في يدي لصاحبي ، بل الواجب ان تكون كلمة الاسلام مجموعة لابن بنت النبي الذي هو اولى بمكانه من غيره ، وان رغبت في المهادنة والموادعة انتظمت الحال بين الدولتين وأمن الناس بينهما . فان ابيت الا الخلاف ونزع الهوى بك الى الظنون الفاسدة والاطماع الكاذبة فليس لك عندي الا السيف ، فإن شئت فأقم وان شئت فسر .

اتعاظ الحنفا للمقريزي جـ ٢ ، ٢٣٦ – ٢٣٧ .

٥٩ – فقرات من رسالة طغرلبك الى ملك الروم حول رسول ارسله المعز

---

(١) اورد المقريزي في اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ٢١٦ نصاً مطابقاً لنصنا أعلاه.

ابن باديس الى المستنصر مع هدايا :

قطع المعز بن باديس الدعوة الفـــاطمية في المغرب ولكنه لم يرد اساءة علاقاته مع المستنصر فأرسل اليه هدية قيمة مع رسول ، وذلك بعد ان ضمن ملك الروم – الذي كان ذا علاقة طيبة مع الفاطميين – عودة الرسول سالمـاً مكرمـــاً ، ولكن المستنصر احرق الهدايا واهان الرسول واعاده لملك الروم فكبر ذلك على ملك الروم ، وتألم المعز من ذلك وارسل الى طغرلبك يخبره بما تم ويطلب اليه التوسط لدى ملك الروم لاطلاق سراح رسوله ابي غالب واعادته اليه . فكتب طغرلبك الى ملك الروم ما يلي :

الحمد لله القاهر سلطانه ، الباهر برهانه ، العلي شأنه ، السابغ احسانه ...

الى ان قال :

وقد نجم بمصر منذ سنين ناجم ضلالة يدعو الى نفسه ويغتر بمن اغواه من حزبه ، ويعتقد من الدين ما لا يستجيزه أحد من أهل العلم في الأئمة الاول وهذا العصر ، ولا يستحسنه عاقل من اهل الاسلام والكفر ثم ذكر أمر الرسول الى غالب وعاتب في امره وطلب اعادته مخفوراً الى المعز بن باديس .

اتعاظ الحنفا للمقريزي ج ٢ ، ٢٢٣ .

ح – شؤون ادارية –

٦٠ – منشور أصدره المستنصر بمدح وزيره اليازوري :

أرسل المستنصر وزيره اليازوري على رأس جيش لحرب المعز بن باديس ، وطالت الحرب وعدمت الاخبار فروّج المروجون ضد الوزير وانتقصوه وعابوه

حتى أتت الاخبار بانتصاره على ابن باديس ، فأصدر المستنصر بياناً يكرم الوزير ويندد باعدائه يقول :

(لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها الا قليلاً ملعونين اينما ثقفوا اخذوا وقتلوا تقتيلاً ، سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا)[1] .

كذلك تضمن البيان ابياتاً من الشعر قالها ابو نواس الحسن بن هانىء :

اني لما تهواه ركاب	والذي تخرج شراب
لا عائفاً شيئاً ولو ديف لي	من كفك العلقم والصاب
ما حطك الواشون من رتبة	عندي ولا ضرك مغتاب
كأنما اثنوا ولم يعلموا	عليك عندي بالذي عابوا

الاشارة الى من نال الوزارة لابن منجب الصيرفي ص ٤٣ .

٦١ – رسالة المستنصر الى وزيره لما ألح عليه ناصر الدولة والاتراك بطلب المال وارسل الوزير الى الخليفة يعلمه بطلبهم وقلة ما تحت يده :

أصبحت لا أرجو ولا اتقي	الا إلهي وله الفضل
جدي نبي وإمامي أبي	وقولي التوحيد والعدل

المال مال الله والعبد عبد الله ، والاعطاء خير من المنع ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون[2] .

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٦١ .

(٢) ذكر ابن القلانسي في ذيل تاريخ دمشق ص ٩٥ نصاً قريباً كل القرب من النص المذكور اعلاه وثمة اقتباس من الآية الأخيرة من سورة الشعراء ٢٢٧ .

النجوم الزاهرة لابن تغري بردي جـ ٥ — ٨١ .

المستعلي بالله ٤٨٧ — ٤٩٥ هـ/١٠٩٤ — ١١٠١ م

٦٢ — رسالة في تبرير حق المستعلي بالخلافة ودحض دعوى اخيه نزار في أحقيته بالخلافة :

موجودة في **مجموعة الوثائق الفاطمية** ٢٠٥ — ٢٣٠ وقد نقلها الشيال عن كتاب : **الهداية الآمرية وابطال الدعوى النزارية** ٣ — ٢٦ تأليف آصف بن علي اصغر فيظي .

الآمر بالله ٤٩٥ — ٥٢٥ هـ/١١٠١ — ١١٣١ م

أ — شؤون الخلافة

٦٣ — اعلان وفاة المستعلي وخلافة الآمر مكانه :

موجودة في **مجموعة الوثائق الفاطمية** ١٨٤ — ١٩٠ وقد نقلها الشيال عن كتاب **حسن المحاضرة** جـ٢ ض ١٤ — ١٦ للسيوطي .

٦٤ — اعلام ولاة الاقاليم بوفاة المستعلي وخلافة الآمر .

موجودة في **مجموعة الوثائق الفاطمية** ١٩٣ — ١٩٦ وقد نقلها الشيال عن كتاب **صبح الاعشى** للقلقشندي جـ٨ ٢٣٧ — ٢٣٩

ب — شؤون الوزارة —

٦٥ — كتاب أصدره الآمر الى كافة أفراد رعيته يخبرهم بقتل وزيره الأفضل ويثني عليه ويقبل التعزية به :

هذا كتاب من عبد الله ووليه المنصور أبي علي ، الامام الآمر بأحكام الله

أمير المؤمنين بما رآه وأمر به من تلاوته على كافة من بمدينة مصر – حرسها الله تعالى – من الاشراف والامراء ورجال العساكر المؤيدة على اختلاف طبقاتهم، فارسهم ومترجلهم وراجلهم ، والقضاة والشهود والاماثل وجميع الرعايا ، بأنكم قد علمتم ما أحدثته الأيام بتصاريفها وجرت به الاقدار على عاداتها ومألوفها من فقد السيد الأجل الأفضل ونعوته – قدس الله روحه ونور ضريحه وحشره مع مواليه الطاهرين الذين جعلهم أعلام الهدى ومصابيحه – الذي كان عماد دولة أمير المؤمنين وحمال أثقالها ، وعلى يديه وحسن سيرته اعتمادها ومعولها ، وتخطي الحمام اليه واخترام المنية اياه وتسلطها عليه ، وما تدارك الله الدولة به من حفظ نظامها واستتار امورها بعد هذا الفادح العظيم والتئامها ، وما رآه أمير المؤمنين من تهذيبه الامور بنظرة السعيد ومباشرته اياها بعزمه الشديد ورأيه السديد ، واهتمامه بمصالح الكافة واسباغ ظل الاحسان عليهم والرأفة حتى أصبحت الدولة الفاطمية بذلك ظليلة المناكب منيرة الكواكب محروسة الارجاء والجوانب .

ولما كانت همة أمير المؤمنين مصروفة الى الاهتمام بكم والنظر في مصالحكم والاحسان اليكم وتأمين سربكم واعذاب شربكم ، ومن رواق العدل عليكم وانصاف مظلومكم من ظالمكم ، وضعيفكم من قويكم ، ومشروفكم من شريفكم ، وكف عوادي المضار بأسرها عنكم ، وتمكينكم من التصرف في أديانكم على ما يعتقد كل منكم جارين على رسمكم وعادتكم من غير اعتراض عليكم – رأي ما خرج به عالي امره من كتب هذا السجل وتلاوته على جميعكم لتثقوا به وتسكنوا اليه ، وتتحققوا جميل رأي أمير المؤمنين فيكم ، وان لا يشغله عن مصالح الكافة شاغل ، وان باب رحمته مفتوح لمن قصده ، واحسانه عميم شامل ، وله الى تأمل احوال الصغير والكبير منكم عين ناظرة ، وفي احسان سياستكم عزيمة حاضرة وافعال ظاهرة . والله تعالى يمده بحسن الارشاد ويبلغه المراد في مصالح العباد والبلاد بمنه وعونه.

فاعلموا هـــذا من امير المؤمنين وانتهوا الى موجبه وحكمه ، وليعتمد الامير متولي المعونة بمصر تلاوته على منبر الجامع العتيق بمصر ليعيه كل من سمعه ويصل علم مضمونه الى من لم يحضر قراءته ، ليتحققوا ما ذكر فيه واودعه، وليحمل الناس على مــا امرتهم فيه ، وليحذر من مجاوزته وتعديه ، وليقرأ بالجـــامع المذكور ليقع التصفح والتأمل في اليوم وما يليه ان شاء الله تعالى .

اتعاظ الحنفا للمقريزي ج ٣ – ٦٨ – ٦٩ .

٦٦ – مرسوم الآمر بعدم تغيير شيء مما أقره الافضل قبل موته .

أورده الشيال في مجموعة الوثائق الفاطمية ٣٢٥ نقـــلا عن اتعاظ الحنفا للمقريزي . ج ٣ – ٦٩ .

٦٧ – مرسوم الآمر بتعيين ابي عبد الله محمد بن ابي شجاع وزيراً له، وتعداد ألقابه .

اللهم انصر من اصطفاه أمير المؤمنين لدولته ، وارتضاه وانتخبه لتدبير احوال مملكته ، واجتباه وولج اليه الامور فساسها احسن سياسة يقظة وجداً، وحزماً ، واستكفاه في المهمات فكفى فيها مضاءً واستقلالاً وعزماً ، وجرد منه للمصالح مرهفاً تساوى في المضاء حداه ، واطلع منه كوكب سعد عـــلا واشرف سناؤه وسناه ، الأجـــل المأمون عز الاسلام فخر الانام نظام الدين خالصة أمير المؤمنين أبا عبد الله محمـــداً الآمري أعانه الله على مصالح المسلمين ووفقه في خدمة أمير المؤمنين ، وأدام له العلو والبسطة والتمكين. اللهم اجعل كوكب سعده أبداً عالياً مشرقاً ، وافتح الدولة على يديه مغرباً ومشرقــاً ، واقرن بالتوفيق آراءه وعزائمه ، وامض في نحور اعداء الدين اسنته وصوارمه .

الاشارة الى من نال الوزارة لابن منجب الصيرفي ص ٦٢ .

حـ – شؤون الولاة والولايات –

٦٨ – مرسوم اصدره الآمر بتجديد والٍ من ولاة الاقـاليم وتثبيته في وظيفته التي باشرها في عهد كل من المستنصر والمستعلي :

موجود في **مجموعة الوثائق الفاطمية ١٩٩ – ٢٠٢ نقلاً عن صبح الاعشى** للقلقشندي جـ٨ ص ٢٣٩ – ٢٤٠ .

ى – شؤون الضرائب والخراج والجبايات –

٦٩ – مرسوم أصدره الأفضل وزير الآمر سنة ٥٠١ هـ بتصحيح الخراج ، وهو من انشاء ابي القاسم بن الصيرفي :

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله الذي ارتضى أمير المؤمنين امينه في ارضه وخليفته ، وألهمه ان يعم بحسن التدبير عبيده وخليقته ، ووفقه لمصالح يستمد اسبابها ويفتح بحسن نظره ابوابها ، واورثه مقام آبائه الراشدين الذين اختصهم بشرف المفخر ، وجعل اعتقاد موالاتهم سبب النجاة من المحشر ، وعنـاهم بقوله يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، واعلى منار سلطانه بمدبر افلاك دولته ومبيد اعداء مملكته واشرف من نصب للجند علماً وراية ، ووقف على مصلحة البرية نظره ورأيه ، وارشد بهدايته الألباب الحائرة ، واذهب بمعدلته الاحكام الجائرة السيد الأجل الأفضل ، ونتمم النعوت بالدعاء للذي كمـل تدبيره نظام الصلاح وتممه ، وسدد تقريره الامور في كل ما قصده ويممه ، ونبه في السياسة على ما اهمله من سبقه واغفله من تقدمه ، وتتبع أحوال المملكة فلم يدع مشكلاً الا اوضحه وبين الواجب فيه ، ولا خللاً الا اصلحـه وبادر بتلافيه ، ولا مهملاً الا استعمله على ما يوافق الصواب ولا ينافيه ، ايثـاراً لعمارة الاعمال ، وقصداً لما يقضي بتوفير الاموال ، وتوخياً لـما عاد بضروب الاستغلال ، واعتناءً برجال الدولة العلوية واجنادها ، واهتماماً بمصالحهم التي

ضعفت قواهم عن ارتيادها ، ورعاية لمن ضمته اقطار المملكة من الرعـــايا ، وحملاً لهم على اعدل السنن وافضل القضايا . يحمده امير المؤمنين على ما اعانه عليه من حسن النظر للأمة وادخره للامامة من الفضائل التي صفت بهـا ملابس النعمة ، ووفقه لما يعود على الكافة بشمول الانتفاع حتى صار استبدال الحقوق بواجبـــات الشريعة الواضحة الادلة ، واستيفاؤه بمقتضى المعدلة فيما يجري على أحكام الخراج واوضاع الآهلة ، ويرغب اليه في الصلاة على محمـــد الذي ميزه بالحكمة وفصل الخطاب ، وبين به ما استبهم من سبل الصواب ، وانزل عليه في محكم الكتاب : هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب[1]. صلى الله عليه وعلى اخيه وابن عمه ابينا أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب كافيه فيما اعضل لما عدم المساعد، وواقيه بنفسه لما تخاذل الكف والساعد ، وعلى الأئمة من ذريتهما العاملين برضا الله تعالى فيما يقولون ويفعلون ، والذين يهدون بالحق وبه يعدلون . وان اولى ما اولاه أمير المؤمنين حظاً وافياً من تفقده ، واسهم له جـزءاً وافراً من كريم تعهده ، ونظر اليه بعين اهتمامه واختصه بالقسم الاجـــزل من استمالته امر الاموال التي يستعان بها على سد الخلل ، وبرجائها يستدفع ما يطرق من الحادث الجلل ، وبوفورها تستثبت شؤون المملكة وتستقيم احوال الدول ، وباستخراجها على حكم العدل الشامل ، ووصيته انصاف المعامل تكون العمارة التي هي اصل زيادتها ومـادة كثرتهـــا وغزارتها . ولما كانت جباياتها على حكمين : احدهما يجبى هلالياً ، وذلك ما لا يدخله عارض ولا إشكال ولا ابهام ، ولا يحتاج فيه الى ايضاح وافهام ، لأن شهور الهلال يشترك في معرفتها الامير والمقصر ، ويستوى في الفهم بها المتقدم في العلم والمتأخر ، اذ كان الناس آلفين لأزمنة متعبداتهم السنين ، مما يحفظ لهم نظام مرسومهم . والآخر يجبى خراجياً ويثبت بنسبته الى الخراج ، لانهـــا

(١) سورة يونس : الآية ٥ .

تضبط اوقات ما يجري ذلك لأجله من النيل المبارك والزراعة ، وتحفظ احيانه دون السنة الهلالية، وتحرس اوضاعه ، ولا يستقل بمعرفته الا من باشره وعرف موارده ومصادره ، فوجب ان يقصر على السنة الخراجية النظر ، ويفعل فيها ما تعظم به الفائدة ويحسن به الاثر ، ويعتمد في ايضاح امرها وتقديم حكمها على ما تتحلى به التواريخ ويزين به السير ، ويكون ذلك شاهداً لمساعي السيد الأجل الافضل الذي لا يزال ساهراً ليله في حياطة الهاجعين ، شاهراً سيفه في حماية الوادعين، مطلعاً للدولة بدور السعادة وشموسها مذللاً لها صعب الحوادث وشموسها ، ناطقة تارة بأن أمة هو راعيها قد فضل الله سائسها واسعد مسوسها. وهذا حين التبصير والارشاد ، واوان التبيين للغرض والمراد ، لتتساوى العامة والخاصة في علمه ، وتسعهم الفائدة في معرفة حكمه ، وتتحقق المنفعة لهم فيما يمنع من تداخل السنين واستقبالها ، وتتيقن المعدلة عليهم فيما يؤمن من المضار التي يحتاج الى استدراكها .

ومعلوم ان ايام السنة الخراجيـــة ، وهي السنة الشمسية ، بخلاف السنة الهلالية ، لأن أيام السنة الخراجية من استقبال النوروز الى آخر النسيء ثلثمائة وخمسة وستون يوماً وربع اليوم ، وايام السنة الهلالية لاستقبال المحرم الى آخر ذي الحجة ثلثمائة واربعة وخمسون يومــاً . والخلاف في كل سنة بالتقريب احــد عشر يومـــاً ، وفي كل ثلاث وثلاثين سنة سنة واحدة على حكم التقريب ، ويقتضيه ما تقدم من الترتيب . فاذا اتفق ان يكون اول الهلالية موافقاً لمدخل السنة الخراجية وكانت نسبتها واحدة استمر اتفاق النسبة فيها وبقي ذلـــك جارياً عليها ، ولم يزالا متداخلين لكون مدخل الخراجية في اثنـــاء شهور الهلالية الى انقضاء ثلاث وثلاثين سنة . فاذا انقضت هذه المدة بطلت المداخلة وخلت السنة الهلالية من نوروز يكون فيها ، وبحكم ذلك بطل اتفاق النسبة ، ويكون التفـــاوت سنة واحدة للعلة المتقدم ذكرها ، ومن أين يستمر بينهما ائتلاف او يعدم لهما اختـــلاف ، أم كيف يعتقد ذلك احد من البشر ، والله

تعالى يقول : لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر[1] فقد وضح دليل التباعد بما جاء منصوصاً في الكتاب ، وظهر برهانه بما اقتضاه موجب الحساب فيحتاج بحكم ذلك الى نقل السنة الشمسية الى التي تليها لتكون موافقة للهلالية وجارية معها . وفائدة النقل ان لا تخلو السنة الهلالية من مال خاص ينسب الى السنة الموافقة لها ، لأن واجبات العسكرية على عظمها واتساعها ، وارزاق المرتزقة على اختلاف أجناسها واوضاعها جارية على احكام الهلالية غير معدول بها عن ذلك في حال من الاحوال ، والمحافظة على ثمرة ارتفاعها متعينة ، ومنفعية العناية بما تجري عليه واضحة بينة ، ولما اهلت سنة احدى وخمسمائة ودخلت فيهـــا سنة تسع وتسعين واربعمائة الخراجية الموافقة لسنة احدى وخمسمائة الهلالية ، كان في ذلك من التباين والتعارض والتفاوت والتناكر بحكم اهمــال النقل فيما تقدم ما صارت السنة الهلالية الحاضرة لا يجبى خراج ما يوافقها فيها ولا تدرك علات السنة المجرى ماالها عليها الا في السنة التي تليها . فهي تستهل وتنقضي وليس لها في الخراجي ارتفاع . والاعمال تطيف بالزراعة ولا حظ لها في ذلك ولا انتفاع . وهذه الحال المضرة بها على بيت المال غير خفية ، والاذية فيها للرجال المقطعين بادية ، واسباب لحوقها اياهم مستمرة متمادية ، ولاسيما من وقع له باثبات وانعم عليـــه بزيادات ، فانهم يتعجلون الاستقبال ويتأجلون للاستغلال ، ومتى لم تنقـــل هذه السنة الخراجية كانت متداخلة بين سنين هلالية ، وهي موافقة لغيرها وماالها يجري على سنة تجري بينهما لأن مدخلها في اليوم العاشر من المحرم سنة احدى وخمسمائة ، وانقضاؤها في العشرين من المحرم سنة اثنتين وخمسمائة . والحال في ذلك لا ينتهي الى امـــده ؛ ولا يزال الفساد يتزايد طول الابد . وقد رأى أمير المؤمنين ، وبالله توفيقه ، ما خرج به أمره الى السيد الاجل الافضل الذي نبــه على هــذا الأمر وكشف غامضه ،

---

(١) سورة يس : الآية ٤٠ .

وازال بحسن توصله تنافيه وتناقضه ، ان يوعز الى ديوان الانشاء بكتب هذا السجل مضمناً ما رآه ودبره ، مودعاً انفاذ ما احكمه وقرره ، من نقل سنة تسع وتسعين واربعمائة الى سنة احدى وخمسمائة لتكون موافقة لها ، ويجري عليها مالها ، ويكون ما يستأدونه من اقطاعاتهم ويستخرجونه من واجباتهم جارياً على نظام محروس ونطاق محيط غير منحوس ، وشاهداً بنصيب موفي غير منقوص ، ويتضح ما أبهم اشكاله العمية ويزول الاستكراه في اختـلاف التسمية ، ويستمر الوفاق بين السنين الهلالية والخراجية الى سنة اربع وثلاثين وخمسمائة ، وينسب مال الخراج والمقاسمات وما يستغل ويجبى من الاقطاعات مما كان جارياً على ذكر سنة تسع وتسعين وأربعمائة الى سنة إحدى وخمسمائة، وتجري الاضافة اليها مجرى ما يرتفع من الهلالي فيها ، لتكون سنة احدى من هذه مشتملة على ما يخصها من مالها وعلى مال السنة الخراجية بما يشرح من انتقالهـا . وكذلك نقل سنة تسع وتسعين واربعمائة الخراجية الثابتة بالتسمية الى سنة احدى وخمسمائة المشار اليها ويكون مالها جارياً عليها .

فليعتمد ذلك في الدواوين بالحضرة وفي سائر اعمال الدولة قاصيها ودانيها وفارسها وشاميها وليتنبه كافة الكتاب والمستخدمين وجميع العمال والمتصرفين الى اقتفاء هـذا السنن واتبـاعه ، وليحذروا الخروج عن احكامـه المقررة واوضاعه ، وليبادروا الى امتثال المرسوم فيه ، وليحذروا من تجاوزه وتعديه ولينسخ في دواوين الاموال والجيوش المنصورة ، وليخلد بعد ذلك في بيوت المال المعمورة ، وكتب في محرم سنة احدى وخمسمائة .

الخطط المقريزية للمقريزي ج٢، ص ٣١ – ٣٤ .

٧٠ – مرسوم اصدره المأمون البطائحي وزير الآمر بمسامحة الفلاحين من بواقي الخراج الى آخر سنة ٥١٠ هـ :

أصدر المأمون سنة ٥١٥ هـ مرسوماً سامح بموجبه اهل الخراج بما تبقى عليهم الى آخر سنة ٥١٠ هـ. وذلك للفرق بين السنتين الهلالية والخراجية. وهذا نصه بعد التصدير :

... ولما انتهى الينا حال المعاملين والضمناء والمتصرفين وما في جهاتهم من بقايا معاملاتهم انعمنا بما تضمنه هذا السجل من المسامحة قصداً في استخلاص ضامن طالت غفلته وخربت ذمته ، وانقاذ عامل اجحف به من الديوان طلبته ، وتوفير الرغبة على عمارتها وجريها فيها على قديم عادتها . ولما كان ذلك من جميل الاحدوثة التي لم يسبق اليها ولا شاركنا ملك فيها اقتضت الحال ايرادها في هذا الكتاب وايداعها هذا الباب لما اطلعنا عليه مما انتهت اليه احوال الضمناء والمعاملين بالمملكة من الاختلال وتجمد البقايا في جهاتهم والاموال عطفنا عليهم برأفة ورحمة ، وطالعنا المقام الاشرف النبوي بالتفصيل في امورهم والجملة، واستخرجنا الامر العالي بوضع ذلك في الحال وانشاء السجلات الكريمة مقصورة على ذكر هذا الاحسان ، وتنفيذها الى جميع البلدان ليقرأ على رؤوس الاشهاد بسائر البلاد .

ومبلغ ما انتهت اليه هذه المسامحة الى حين ختم هذا السجل من العين الفا الف وسبعمائة الف وعشرون الفاً وسبعمائة وسبعة وستون ديناراً ونصف وثلث وثلثان وربع قيراط ، ومن الفضة النقرة اربعة دراهم ، ومن الورق سبعة وستون الفاً وخمسة دراهم ونصف وسدس درهم؛ ومن الغلة ثلاثة آلاف الف وثمان مائة الف وعشرة آلاف ومائتان وتسعة وثلاثون اردباً وثمن ونصف وسدس وثلثي قيراط ؛ ومن العناب اربع ارادب ، ومن ورق الصباغ الفان واربعمائة وثلاثة ارادب ونصف ، ومن زريعة الوسمة عشرة ارادب وربع ، ومن الصباغ الف واربعمائة وثمانون قنطاراً ونصف ، ومن الحديد خمسمائة

رطل وواحد وثلاثون رطلاً ، ومن الزفت الف وثلاثمائة وثلاثة ارطال وربع وسدس ، ومن القطران تسعة عشر رطلاً وثلث ، ومن الثياب الحلبي ثلاثة اثواب ، ومن المآزر مائة مئزر صوف ، ومن الغرابيل مائة وسبعون غربالاً ، ومن الاغنام مائتا الف وخمسة وثلاثون الفاً وثلاثمائة وخمسة ارؤس ، ومن البسر ثلثمائة وثلاثة عشر قنطاراً وثمانية وثلاثون رطلاً ، ومن السحيل ثلاثمائة الف وخمسة وسبعون الفاً وخمسمائة وخمسون بالمائة ومن الجريد اربعمائة الف وثمانية وثلاثون الفاً وسبعمائة وثلاثة وخمسون جريدة ، ومن السلب الف واربعمائة وثلاثة وعشرون سلبة ، ومن الاطراف ستة آلاف وسبعمائة وثلاثة اطراف ، ومن الملح الفان وسبعمائة وثلاثة وتسعون اردباً وثلث ، ومن الاشنان احد عشر اردباً ، ومن الرمان الفاحبة ، ومن عسل النحل خمسمائة وأحد واربعون قنطاراً وسدس ، ومن الشهد اثنان وثلاثون زيراً وقادوساً واحداً ، ومن الشمع اربعمائة واربعون رطلاً ، ومن الخلايا ثلاثة آلاف واربعمائة وخليتان ، ومن عسل القصب مائة وثمانية وثلاثون قنطاراً ، ومن الابقار اثنان وعشرون الفاً ومائة واربعة وستون رأساً ، ومن الدواب اربعة وسبعون رأساً، ومن السمن الفان وتسعمائة وستة وتسعون مطراً وسدس وثمن ، ومن الجبن ثلثمائة وعشرون رطلاً ، ومن الصوف أربعة آلاف ومائة وثلاثة وعشرون جزة ، ومن الشعر ستة آلاف وخمسون رطلاً وربع ، ومن بيوت الشعر بيتان .

وفصل ذلك بجهاته ومعاملاته .

الخطط المقريزية للمقريزي ج ١ ، ص ١٤٩ — ١٥٠ .

٧١ — مرسوم اصدره المأمون البطائحي وزير الآمر بعدم قبول الزيادة على الضامن :

كانت العادة ، في البلاد المصرية زمن الفاطميين ، انه اذا أتى اي انسان وزاد على ضمان ما ضمنه الضامن ان يفسخ ضمان الاول ويعطى للثاني كائناً من كان . وقــد ألحق ذلك اضراراً كثيرة بالناس ، فاصدر المأمون البطائحي وزير الآمر المرسوم التالي بإلغــاء هذه الطريقة ، ونصه بعد التصدير ... ولما انتهى الى حضرتنا ما يعتمد في الدواوين ويقصده جمــاعة من المتصرفين والمستخدمين من تضمين الابواب والرباع والبساتين والحمامات والقيــاسر والمساكن وغير ذلك من الضمانات للراغبين فيها ممن تستمر معاملته ولا تنكر طريقته ، فما هو الا ان يحضر من يزيد عليه في ضمانه حتى قد نقص عليــه حكم الضمان وقُبل مــا يبذل من الزيادة كائناً من كان ، وقبضت يد الضامن الاول عن التصرف ومكن الضامن الثاني من التصرف من غير رعاية للعقد على الضامن الاول ، ولا تحرز في فسخه الذي لا يبيحه الشرع ولا يتأول ، انكرنا ذلك على معتمديه ، وذممنا من قصدنا عليه ومرتكبيه ، اذ كان للحق مجانباً ، وعن مذهب الصواب ذاهباً ، وعرضنا ذلك بالمواقف المقدسة المطهرة – ضاعف الله انوارها وأعلى ابداً منارها – واستخرجنا الاوامر المطاعة في كتب هــذا المنشور الى سائر الاعمال : بأنه اي احد من الناس ضمن ضماناً من باب او ربع او بستان او ناحية او كفر ، وكان لاقساط ضمانه مؤدياً ، ولما يلزمه من ذلك مبدياً وللحق متبعاً ، فان ضمانه باق في يده لا تقبل زيادة عليه مدة ضمانه على العقد المعقود عملاً بالواجب والنظام المحمود واتباعاً لما امر الله تعالى به في كتابه المجيد اذ يقول جل من قائل : يا أيهــا الذين آمنوا اوفوا بالعقود[1] . الى ان تنقضي مدة الضمان ويزول حكمها ويذهب وضعها ورسمها حملاً على قضية الواجب وسنتها ، واعتماداً على حكم الشريعة التي ما ضل من اهتدى بفرائضها وسننها

(١) سورة المائدة : الآية ١ .

فأما من ضمن ضماناً ولم يقم بما يجب عليه فيه واصر على المدافعة والمغالطة التي لا يعتمدها الا كل ذميم الطبـاع سفيه ، فذلك الذي فسخ حكم ضمانه بنقضه الشروط المشروطة عليه ، وحكمه حكم من اذا زيد عليه في ضمانه نقل عنه واخرج من يديه لأنه الذي بدأ بالفسخ واوجد السبيل اليه ، فليعتمد كافة ارباب الدواوين وجميع المتصرفين والمستخدمين العمل بما تضمنه هذا المنشور وامتثال المأمور ، وحمل هؤلاء الضمناء والمعـاملين على نص فيه ، والحـذر من تجاوزه وتعديه بعـد ثبوته في ديواني المجلس والخاص الامريين السعيدين ، وبحيث يثبت مثله ان شاء الله تعالى[1] .

الخطط المقريزية جـ ١ ، ص ١٥٠ — ١٥١ .

٧٢ — مرسوم اصدره المأمون البطائحي وزير الآمر باعفاء عدد ممن يجب عليهم دفع الخراج من دفع الخراج :

ثبت عند البطائحي ان عدداً من النـاس لم يدفعوا الخراج عن اراضيهم لعدد كبير من السنين بحيث ان مجموع الخراج المتوجب عليهم اصبح اكثر من ثمن الارض التي يستثمرونها ، فتقرر مطالبتهم بما عليهم ، وحكم القاضي عليهم بذلك ، ولكنهم التمسوا من المأمون البطائحي اعفاءهم فاعفاهم واصدر المنشور التالي :

قد علم الكافة ما نراه من افاضة سحب العدل عليهم والاحسان والنظر في مصالح كل قاصٍ منهم ودانٍ ، وانا لا ندع ضرراً يتوجه الى احـد من الرعية الا حسمناه ، ولا نعلم صلاحاً يعود نفعه عليه الا قوينا سببه ووصلناه ، حسب ما يتمين على رعاة الامم وعملاً بالواجب في البعيد والامـم ، وسلوكاً

(١) كذا ورد بالأصل ، والمعنى غير مفهوم تماماً ، ولعل الصواب الامريين نسبة الى الامر .

لحجة الدولة الفاطمية – خلد الله ملكها – القويمة ، واستمراراً على قضاياهـــا وسجاياها الكريمة . ولمـا كنا نرى النظر في مصالح الرعايا امراً واجبـــاً ، ونصرف الى سياستهم عزماً ماضيـــاً ورأياً ثاقباً ، لذلك نرى النظر في امور الدواوين واستيفاء حقوقها المصروفة الى حماية البيضة والمحامـــاة عن الدين وجهاد الكفرة الملحدين، ليكون ما نراعيه وننظر فيه جارياً على سنن الواجب محروساً من الخلـــل بإذن الله من جميع الجوانب ، ومن الله نستمد التوفيق في الحل والعقد ونسأله الارشاد الى سواء السبيل والقصد ، ومـــا توفيقنا الا بالله عليه نتوكل وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وكان القاضي الرشيد بن زبير أيام مشارفته الصعيد الاعلى قد طالع المجلس الافضلي بحال أرباب الاملاك هناك ، وانهم قـــد استضافوا الى أماكنهم من أملاك الدواوين اراضي اغتصبوها ، ومواضع مجاورة لاملاكهم تعدوا عليهـــا وخلطوها بها وحازوها، ورسم له كشفها ونظم المشاريح بها وارتجاعها للديوان، وان يعتمد في ذلك ما يوجبه حكم العدل المثبت في كل قطر ومكان . وبآخر ذلك سيرنا من الباب من يكشف ذلك على حقيقته وانهائه على طيته . فاعتمدوا ما أمروا من الكشف في هذه الاملاك ، ووردت المطالعـة منهم التمسوا ممن بيده ملك او ساقية ما يشهد بصحة ملكـه ومبلغ مدته وذكر حدوده ، فلم يحضر احد منهم كتاباً ولا اوضح جواباً ، واصدروا الى الديوان المشاريح بما كشفوه واوضحوه ، فوجدوا التعدي فيه ظاهـراً ، وباب الحيف والظلم غير متقاصر . والشرع يوجب وضع اليد على ما هذه حاله ، ومطالبة صاحبه بريعه واستغلاله ، لاسيما وليس بيده كتـــاب يشهد بصحة الملك رأساً ، ولا يستند في ذلك الى حجة ادخرها احترازاً عن مجاهدة سبيله واحتراساً .

ولكن نحكم بما نراه من المصلحة للرعية ، والعدل الذي اقمنا مناره واحيينا

معالمه وآثاره ، مع الرغبــة في عمارة البلاد ومصالح احوالها ، واستنباط الارضين الداثرة وانشاء الغروس واقامــة السواقي بها ، امرنا بكتب هــذا المنشور وتلاوته بأعمال الصعيد الأعلى : بإقرار جميع الامــلاك والارضين والسواقي بأيدي اربابهــا الآن من غير انتزاع شيء منها ولا ارتجاعه ، وان يقرر عليها من الخراج مــا يجب تقريره ، ويشهد الديوان على امثالهم بمثله ، احساناً اليهم لم تزل تتابع مثله ونواليه ، واحساناً ما برحنا نعيده عليهم ونبديه. وقد انعمنا وتجاوزنا عما سلف ، ونهينا من يستأنف ، وسامحنا من خرج عن التعدي الى المألوف ، وجرينا على سنننا في العفو المعروف ، وجعلناهــا توبة مقبولة من الجماعة الجــانين ، ومن عاد من الكافة فينتقم الله منه ، وطولب بمستأنفه وامسه وبرئت الذمة من ماله ونفسه وتضاعفت عليه الغرامة والعقوبة ، وسدت في وجهه أبواب الشفاعة والسلامة . وقد فسحنا ، مع ذلك ، لكل من يرغب في عمارة ارض حلفاء داثرة ، او بئر مهجورة معطلة في ان يسلم اليــه ذلك ويقاس عليه ، ولا يؤخذ خراج الا في السنة الرابعة من تسليمه اياه ، وان يكون المقرر على كل فدان ما توجبه زراعته لمثله خراجيــاً مؤبداً وأمــراً مؤكداً .

فليعتمد ذلك النواب وحكام البلاد ومن جرت العادة بحضوره عقد مجلس واحضار جميع أرباب الاملاك والسواقي واشعارهم ما شملهم من هذا الاحسان الذي تجاوز آمالهم في اجابتهم الى ما كانوا يسألون فيه وتقرير مــا يجب على الاملاك المذكورة من الخراج على الوضع الذي مثلناه ، ويجيز الديوان تقريره ويرضاه ، مع تضمين الاراضي الداثرة والآبار المعطلة لمن يرغب في ضمانهــا ، ونظم المشاريح بذلك واصدارها الى الديوان ليخلد فيه على حكم امثالها بعد ثبوت هذا المنشور بحيث يثبت مثله .

الخطط المقريزية ج ١ ، ص ١٥٢ — ١٥٣ .

٧٣ – مرسوم اصدره المأمون البطـائحي وزير الآمـر بتنظيم المواريث الحشرية واعادتها حسب فقه الشيعة ومفهومهم . والمواريث الحشرية هي مال من يموت ولا وارث له :

بسم الله الرحمن الرحيم: خرج أمر أمير المؤمنين بإنشاء هذا المنشور عندما طالعه السيد الأجل المأمون امير الجيوش – ونعوته والدعاء – وهو الخالصة أفعاله في حياطة المسلمين ، وذو المقاصد المعروفة الى النظر في مصالح الدنيـا والدين ، والهمة الموقوفة على الترقي الى درجـات المتقين ، والعزائم الكافلة بتشديد احوال الكافة اجمعين، شيمة خصه الله بفضيلتها ، جبلـةً اسعد بجلالها وشريف مراقبها . والله سبحانه يجعل آراءه للتوفيق مقارنة ، وانحاء الميامين كافلة ضامنة ، من امر المواريث ومـا اجراها عليه الحكام الدارجون بتغـاير نظرهم ، وقرروه من تغيير عما كان يعهد بتغلب آرائهم ، ومـا دخل عليهـا منهم من الفساد ، والخروج بها عن المعهود المعتـاد ؛ وهو أن لكل دارج من الناس على اختلاف طبقاتهم وتبـاين مذاهبهم واعتقاداتهم تحمل ما يترك من موجوده على حكم مذهبه في حياته ، والمشهور من اعتقاده الى حين وفاته ، فيخلص لحـرم ذوي التشيـع الوارثات جميـع موروثهم وهو المنهج القويم لقول الله سبحانه : وأولوا الارحام بعضهم اولى ببعض في كتاب الله ، ان الله بكل شيء عليم[1] . ويحمل من سواهن على مذهب مخلفيهن ، ويشركهم بيت مال المسلمين في موجودهم ، ويُحمَل اليه جزءٌ من أموالهم التي احلهـا الله لهن من بعدهم ، عدولاً عن محجة الدولة ، وخروجاً عما جاء به العباد من الأئمة الذين

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٧٥ .

نزل في بيتهم الكتاب والحكمة؛ فهم قراء القرآن وموضحو غوامضه ومشكلاته بأوضح البيان واليهم سلم المؤمنون ، وعلى هديهم وارشادهم يعول الموقنون . فلم يرض أمير المؤمنين الاستمرار في ذلك على قاعدة واهية الاصول ، بعيدة من التحقيق خالية من المحصول ولم ير الا العود فيه الى عادة آبائه المطهرين واسلافه العلماء المهديين ، صلوات الله عليهم اجمعين . وخرج امره الى السيد الأجل المأمون بالايعاز الى القاضي ثقة الملك النائب في الحكم عنه ، بتحذيره، والأمر له بتحذير جميع النواب في الأحكام بالمعزية القاهرة ومصر وسائر الأعمال دانيها وقاصيها، قريبها ونائيها،من الاستمرار على تلك السنة المتجددة، ورفض تلك القوانين التي كانت معتمدة ، واستئناف العمل في ذلك بما يراه الأئمة المطهرة واسلافه الكرام البررة ، واعادة جميع مواريث الناس على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم الى المعهود من رأي الدولة فيها ، والافراج عنها برمتها لمستحقها من غير اعتراض عليهم في قليلها ولا كثيرها ، وان يضربوا عما تقدم صفحاً ويطووا دونه كشحاً منذ تاريخ هذا التوقيع وفيما يأتي بعده مستمراً غير مستدرك لما فات ومضى ، ولا متعصب لما ذهب وانقضى .

وليوف الأجل المأمون ، عضد الله به الدين ، بامتثال هذا المأمور ، والاعتماد على مضمون هذا المسطور ، وليحذر كلاً من القضاة والنواب والمستخدمين في الباب وسائر الاعمال من اعتراض موجود احد ممن يسقط بالوفاة ، وله وارث بالغ رشيد حاضر او غائب ، ذكراً كان او انثى ، من سائر الناس على اختلاف الاديان ، بشيء من التأولات ، او تعقب ورثته بنوع من أنواع التعقبات ، الا ما اوجبته بينهم المحاكمات والقوانين الشرعيات الواجبات ، نظراً الى مصالح الكافة ، ومداً لجناح العاطفة عليهم والرأفة ، ومضاعفة للأنام وابانة عن شريف القصد اليهم والاهتمام . فأما من يموت

حشرياً ولا وارث له حــاضر ولا غائب ، فموجوده لبيت المال بأجمعه على الاوضاع والقوانين المعلومة القويمة ، الا ما يستحقه خرج[1] ، ان كان له ، او دين عليه يثبت في جهته . وان سقط متوفى وله وارث غائب فليحفظ الحكام والمستخدمون على تركته احتياطاً حكمياً وقانوناً شرعياً مصوناً من الاصطلام، محروساً من التفريط والاخترام ، فإن حضر واثبت استحقاقه ذلــك في مجلس الحكم بالباب على الاوضاع الشرعية الخالصة من الشبه والارتياب طولع بذلك ليخرج الامر بتسليمه اليه والاشهاد بقبضه عليه .

وكذلك نمي الى حضرة امير المؤمنين ان شهود الحكم بالباب وجميع الاعمال، اذا شارف احد منهم بيع شيء مما يجري في المواريث من الترك التي يتولاهــا الحكام يأخذون ربع العشر من ثمن المبيع ، فيعود ذلك بالنقيصة في امـــوال الأيتام والتعرض الى الممنوع الحرام ، اصطلاحاً استمروا على فعله ، واعتياداً لم يجر الامر فيه على حكمه ، فكره ذلك وانكره واستفظعه واكبره ، واقتضى حسن نظره في الفريقين ما خرج به أمره من توفير مال الايتام ، وتعويض من يباشر ذلك من الشهود جارياً يقام لكل منهم من الأنعام ، وامر بوضع هـــذا الأثر وتعضيته ، وابطاله وحسم مادته ، فليعتمد القاضي ثقة الملك ذلك بالباب ، وليصدر الاعلام الى سائر النواب ، سلوكاً لمحجة الدين وعملاً بأعمال الفائزين السعداء المتقين ، بعد تلاوة هذا التوقيع في المسجدين الجامعين بالمعزية القاهرة المحروسة ومدينة مصر على رؤوس الاشهاد ، ليتساوى في معرفة مضمونه كل قريب وبعيد وحـــاضر وبادٍ ، ولتفرغ منه النسخ الى جميع النواب عنه في الاعمال ، وليخلد في مجلس الحكم بعد ثبوته في ديواني المجلس والخاص الآمري،

---

(١) الخرج : هو المال المستحق لاحدى الجهات الحكومية من خراج أو ضريبة .

وحيث يثبت مثله ان شاء الله تعالى حجة مودعة في اليوم وما بعده . وكتب لليلتين بقيتا من ذي القعدة سنة ست عشرة وخمسمائة .

اتعاظ الحنفا للمقريزي ج ۳، ص ۸۹ – ۹۲ .

۷٤ – مرسوم اصدره المأمون البطائحي وزير الآمر باعفاء مستأجري الرباع السلطانية من ايجار شهر رمضان كل سنة بدءاً من سنة ٥١٧ هـ .

... بأننا لم نزل منذ ناطت بنا الحضرة المطهرة – صلوات الله عليها – الأمور ، وعولت على كفايتنا في سياسة الجمهور ، وردت الينا النظر فيما وراء سرير خلافتها ، وفوضت الى ايالتنا من مصالح دولتها وعبيدها ورعيتها ، في محاسن الأفعال ناظرين ، وعلى بسط العدل والاحسان على الكافة متوفرين ، وبحسن توفيق الله تعالى لنا واثقين ، ولمراشده الهادية مسترشدين ، فلا ندعُ وجهاً من دعوة البر الا قصدناه ، ولا باباً من أبواب الخير الا ولجناه ، ولا نعلم أمراً فيه قربى الى الله سبحانه الا وتقع المرتبة الا اتيناه ، ولا شيئاً يعود بثواب الله وحسن الاحدوثة الا اعتمدناه ، شيمة خصنا الله تعالى بميزتها ، وسجية أسبغ علينا جلابيب أمنها وسعادتها ، عملاً في ذلك بشريف آراء الحضرة المطهرة – صلوات الله عليها – وجميل سيرتها ، واستمراراً على منهج الدولة الزاهرة – خلد الله ملكها – وكريم عادتها، وذهاباً في ذلك مع سجيتها الحسنى ونشراً لأرج ذكرها في الأبعد والأدنى ، والله تعالى المسؤول ان يعيننا على مصالح الدنيا والدين ، ويقضي لنا بالفوز المبين ، ويصلح لنا وبنا كل فاسد ، وينظم لنا عقود السعود والمحامد بمنه . ولما كان أحسن ما تطرز به محاسن السير وتتناقل ذكره ألسنة البدو والحضر ، وتجنى ثمرته في الدنيا والآخرة ، وتحمد مغبته في العاجلة والآجلة ، التقرب الى الله تعالى في كل اوان، وابتغاء ثوابه في كل زمان ، ولاسيما شهر رمضان الذي تزكو فيه أفعال البر

والصلاح وتتضاعف فيه الحسنات في الغدو والرواح ، رأينا ما خرج به أمرنا من كتب هذا المنشور بمسامحة كافة سكان الرباع السلطانية بالقاهرة ومصر من الأدر والحمامات والحوانيت والمعاصر والأخونة والطواحين والعرس ، وجميع ما يجري في الرباع خارجاً من ريع الاحباس وريع المواريث المنصرف مستخرج ارتفاعها فيما يجري هذا المجرى من وجوه البر ، بأجرة شهر رمضان من كل سنة ، لاستقبال رمضان سنة سبع عشرة وخمسمائة وما بعدها ، احساناً يسير ذكره كل مسير ، وتعظيماً لحرمة هذا الشهر العظيم الخطير ، الذي فضله الله على جميع الشهور وانزل فيه قرآنه المجيد وفرض صيامه على اهل التوحيد وحضهم فيه على الأعمال المزلفة لديه ، ووعد من عمل فيه خيراً بمضاعفة الجزاء عليه .

فليعتمد العمل بما تضمنه هذا المنشور وحطيطة أجرة شهر رمضان عن جميع سكان الربع المذكور لاستقبال التاريخ المقدم منسوباً ذلك الى القرب الصالحة والتجارة الرابحة ، ويفسح في جميع الدواوين حجة بمودعه ، وليخلد بالمسجد الجامع العتيق بمدينة مصر ، منعاً لمن يروم الطول فيه ، او يفض شيئاً من وصفه ان شاء الله .

اتعاظ الحنفا للمقريزي ج٣ ، ص ١٠٤ — ١٠٥ .

٥ — شؤون متفرقة :

٧٥ — مرسوم أصدره الآمر بتخصيص دار وراتب وكسوة لأبي جعفر يوسف بن احمد بن حسديه اليهودي الأصل لما قدم مصر من الأندلس واصبح ضيفاً على الدولة ، وجعله الخليفة مدرساً رسمياً للطب ومؤلفاً فيه ومجيزاً فيه :

بعد البسملة .

ولما كان من أشرف ما طرزت السيرة بقدره ، وأنفس ما وشحت الدول بجميل اثره ، تخليد الفضائل وابداء ذكرها ، واظهار المعارف وايضاح سرها ، ولاسيما صناعة الطب التي هي غاية الجدوى والنفع ، وورود الخبر بأنها قرينة الى الشرع لقوله ﷺ : العلم علمان ، علم الأديان وعلم الأبدان ؛ خرج أمـــر سيدنا ومولانا ، لما يؤثره بعلو همته من انماء العلوم واشهارها واختصاص الدولة الفاطمية باحياء الفضائل وتجديد آثارها ، ليبقى جمال ذلك شاهداً لها على مـر الأيام ، متسقاً بما انشأه لها من المآثر الجمة المفاخر الجسام ، لشيخنا أبي جعفر يوسف بن احمد بن حسديه ، أيده الله ، لصرف رعايته الى شرح كتب ابقراط التي هي أشرف كتب الطب وأوفاها وأكثرها اغماضاً وابقاها ، والى التصنيف في غير ذلك من انحاء العلوم مما يكون منسوباً الى الاوامـــر العالية ، ورسم التوفر على ذلك والانتصاب له ، وحمل ما يكمل اولاً فأولاً الى خزائن الكتب ، واقراء جميع من يحضر اليه من اهل هـذه الصناعة ، وعرض من يدعيهـــا واستشفافه فيما يعانيه ، فمن كملت عنده صناعته فليجره على رسمه ، ومن كان مقصراً فليستنهضه ، واعتمدنا عليه في ذلك لكونه مميزاً في البراعة في العلوم ، متصرفاً في فنونها ، مقدماً في بسطها واظهـار مكنونهـا ، ولأنه يبلغ الغرض المقصود من شرح هذه الكتب ويوفي عليـه ، ويسلك أوضح السبل واسدهـا اليه ، وفي جميع ما شرع له ، فليشرع في ذلك مستعيناً بالله ، منفسح الأمل بأنها ختاله وجميل رأينا فيه بعد ثبوته في الدواوين ان شاء الله تعالى . وكتب في ذي القعدة سنة ست عشرة وخمسمائة .

اتعاظ الحنفا للمقريزي جـ ٣ ، ص ٩٤ — ٩٥ .

٧٦ — رسالة أرسلها الافضل وزير الآمر الى طغتكين حاكم دمشق يعتب

عليه تقاعسه عن نصرة المصريين أثناء حربهم مع الافرنج لما قصد هؤلاء مصر طامعين في الاستيلاء عليها :

... لا في حق الاسلام ولا في حق الدولة التي ترغب في خدمتها والانحياز اليها ان يتوجه الفرنج بجملتها الى الديار المصرية ، ولا يستبين لك فيها اثر ولا تتبعهم ، ولو كان وراءهم مثل ما كان أمامهم ما عاد منهم أحد .

اتعاظ الحنفا للمقريزي جـ ٣ ، ص ٥٣ — ٥٤ .

الحافظ لله ٥٢٥ — ٥٤٤/١١٣١ — ١١٤٩ م .

٧٧ — اعلان خلافة الحافظ .

موجود في مجموعة الوثائق الفاطمية للشيال ص ٢٥١ — ٢٦٠ وقد نقله عن كتاب القلقشندي صبح الأعشى جـ ٩ ، ص ٢٩١ — ٢٩٧ .

٧٨ — مرسوم أصدره الحافظ بتعيين ولده ولياً لعهده من بعده :

موجود في مجموعة الوثائق الفاطمية للشيال ص٢٦٣ — ٢٦٥ وقد نقله عن كتاب القلقشندي صبح الأعشى جـ ٩ ، ص ٣٧٧ — ٣٧٩ .

٧٩ — مرسوم أصدره الحافظ بالمبايعة بولاية العهد ويظن انه للظافر بن الحافظ :

موجود في مجموعة الوثائق الفاطمية للشيال ص٢٦٩—٢٧٤ ، وقد نقله عن كتاب القلقشندي صبح الأعشى جـ ٩ ، ص ٢٨٦ — ٢٩١ .

ا — شؤون الوزارة —

٨٠ — اقرار الحافظ نعوت وزيره رضوان .

موجود في مجموعة الوثائق الفاطمية للشيال ص٣٢٩ - ٣٣٣، وقد نقله عن كتاب القلقشندي صبح الأعشى ج ٨ ، ص ٣٤٢ - ٣٤٦ .

٨١ - رسالة جوابية من الحافظ الى بهرام الأرمني :

كان بهرام هذا - وهو من اصل ارمني - وزيراً للحافظ ، ثم ثار ضده رضوان بن ولخشي وخلعه من الوزارة ، فاضطر للهرب الى بلاد الشام ، ومن هناك أرسل الى الحافظ رسالة يطلب فيها ارسال اهله وجماعته من الأرمن اليه، ويظهر الطاعة والرغبة في التخلي عن الدنيا والانقطاع في بعض الاديرة للتعبد مكراً وخديعة . فأجابه الحافظ بما يلي :

عرض بحضرة امير المؤمنين الكتاب الوارد منك أيها الأمير المقدم المؤيد المنصور عز الخلافة وشمسها ، تاج المملكة ونظامها ، فخر الأمراء ، شيخ الدولة وعمادها ، ذو المجدين ، مصطفى امير المؤمنين ، ووقف على جميعه ، واستولى بحكمه على مضمونه .

فأما ما وسعت القول فيه وبسطته ، وتفسحت فيما اوردته منه وذكرته مما فحواه ومحصوله ما انت عليه من الطاعة والولاء والمشايعة ، والاعتراف بنعم الدولة عليك والاقرار باحسانها اليك ، فلعمر امير المؤمنين ان هذا الذي يليق بك ويحسن منك ، ويحسن ان يرد عنك ويجب ان يعرف لك ، وقد كانت الدولة اسلفتك من حسن الظن قديماً ، ونقلتك في درجة التنويه حديثاً، حتى رفعتك الى أعلى المراتب ، وبلغتك ما لم تسم اليه همة طالب ، وأوطأت الرجال عقبك ، وجعلت جميع اهل الدولة تبعك ، مما اغنى اعترافك به عن الاطالة بشرحه والاطناب في ذكره .

واما ما ذكرته مما كان أمير المؤمنين اعطاك التوثقة عليه ، فأجابك منه الى

مـــا رغبت فيه فاستقر بينه وبينك في معناه ما اطمأننت اليه ، فلم يزل أمير المؤمنين على الوفاء باطناً وظاهراً ، ونية وعلانية ، واعتقاده ان لا يرجع عنه ، ولا يغير ما احكمه منه ، وانما حال بينه وبين هذا المـراد ان كافة المسلمين في البعد والقرب غضبوا للمتهم ، وامتعضوا مما لم تجر به عـــادة في شريعتهم ، ونفرت نفوسهم مما يعتقدون ان الصبر عليه قادح في دينهم ومضاعف لآلامهم ، وانه ذنب لا يُغفر ، ووزر لا يُتجاوز ولا يصفح عنه ، حتى ان اهل المشرق اخذوا في ذلك واعطوا ، وعزموا على ما اتفقوا عليه ممـا صرفه الله وكفى مؤونته والاشتغال به .

وأما ما التمسته من تسيير من بالباب من طائفتك اليك ، فهـذا أمر لا يسوغ ولا يمكن فعله ، ولو جاز ان يؤمر به لمنع المسلمون منه فلم يفسحوا فيه. والآن فلن يخلو حالك من أحد قسمين : اما ان تكون متعلقاً بأمور الدنيا وغير منفصل عنها ، فأمير المؤمنين يخيّرك في ولاية احد ثلاثة مواضع : امـا قوص او أخميم أو أسيوط ، فأيها اخترت ولاك اياه ، ورد امره والنظر فيـه اليك ، على ان تقتصر من الذين معـــك على خمسين او ستين فارساً ، وتسيّر الباقين الى الباب ليجروا على عاداتهم ورسومهم في واجباتهم واقطاعاتهم ، اذ كانوا عبيد الدولة ومتقلبين في فضلها ، واكثرهم متولدون في ظلها . واما ان تكون على القضية التي ما زلت تذكر رغبتك فيها وايثارك لها: من التخلي عن الدنيا ولزوم احد الاديرة والانقطاع الى العبادة ، فإن كنت مقيماً على ذلك فتخير ضيعة من اي الضياع شئت يكون فيهـــا دير تقيم فيه وتنقطع اليه ، فتعيّن الضيعة ليجعلها امير المؤمنين تسويغاً لك مؤبداً ، واقطاعاً دائمـاً مخلداً وتجرى مجرى الملك ، ويكتب لك بذلك ما جرت العادة بمثله مما تطمئن اليه وتستحكم ثقتك به . وإن أبيت القسمين المذكورين ، ولم يرضك الاول منهما ، ولا رغبت في الثاني ، فتحقق ان المسلمين بأجمعهم ، كافتهم واسرهم ، وكل من

يقول بالشهادتين من قاصٍ ودانٍ وقريب وبعيد وكبير وصغير ينفرون اليك ، ويتفقون على القصد لك ، ولا يختلفون في التوجه نحوك ، وهو عمل ديني ، لا يريّثه امر دنيوي . فتأمل ما تضمنته هذه الاجابة من الاقسام ، وطالع بما عندك في ذلك .

صبح الأعشى للقلقشندي ج ٨ ، ص ٢٦٠ – ٢٦٢ .

ب – شؤون ادارية :

٨٢ – رسالة الحافظ الى قاضي بيسان أبي المجد علي بن الحسن (والد القاضي الفاضل) حول الشهود والعدول وقبول شهاداتهم :

الى القاضي الأشرف أبي المجد علي بن الحسن بن الحسين بن احمد البيساني (وهو والد القاضي الفاضل وكان يومئذٍ متولي القضاء والحكم بمدينة عسقلان).

انتهى الى حضرة أمير المؤمنين ان قوماً من اهل ثغر عسقلان – حماه الله – قد صاروا يؤدون توقيعات بقبول اقوالهم من غير تزكية من شهوده المعروفين بالتزكية لهم ، مع كونهم غير مستوجبين للشهادة ، ولا مستحقين لسماع القول ؛ فأنكر أمير المؤمنين ذلك من فعلهم ، وخرج عالي امره بألا يسمع قول شاهد ، ولا من تقدم لخطابة ولا لصلاة بالناس ، ولا لتلاوة في موضع شريف ، الا من زكاه أعيان شهود الثغر المحروس وهم فلان وفلان ...

وعد تسعة أنفس .

عبد الساتر بن عبد الرحمن ، عبد العزيز بن مفضل ، علي بن قريش ، احمد ابن حسن ، احمد بن علي ، عبد الرحمن بن محسن ، اسامة بن عبد الصمد ، علي ابن عبد الله .

كتاب الروضتين في أخبـــار الدولتين لأبي شامة جـ ١ ، ق ١ ص ١٢٨ – ١٢٩ .

جـ – علاقات خارجية :

٨٣ – رسالة جوابية من الحافظ الى شمس الدين أبي منصور محمد بن ظهير الدين بن بوري بن طغتكين والي بعلبك :

كان شمس الدين قد ارسل الى الخليفة الحافظ رسالة يذكر فيها انه حسن لفخر الملك ان يرد على بلاط الخليفة ، وذكر انه ، اي فخر الملك انتصر على فرنج طرابلس وقتل قومصها ، فأجابه الحافظ بما يلي :

من عبد الله ووليه عبد المجيد أبي الميمون الامـــام الحافظ لدين الله أمير المؤمنين الى الامير فلان . أما بعد : فإنه عرض بحضرة أمير المؤمنين كتابك من يد فتاه ووزيره وصفيه وظهيره السيد الأجـــل الأفضل ، الذي بذل نفسه في نصرة الدين تقىً وليانا ، واوضح الله للدولة الحافظية بوزارته حجة وبرهاناً ، واسبغ النعمة على أهلها بأن جعله فيهم ناظراً ولهم سلطاناً ، ووفقه في حسن التدبير ، والعمل بما يقضي بمصالح الصغير والكبير ، وبما أعاد المملكة الى افضل ما كانت عليه من النضرة والبهجة ، ولم يخرج المادحون لهـا اذا اختلفوا عن التحقيق وصدق اللهجة . فقد ساوت سياسته بين البعيد والقريب ، وأخذ كل منهما بأجزل حظ وأوفر نصيب . وسارت سيرته الفـاضلة في الآفـاق مسير المثل ، واستوجب من خالقه أجر من جمع في طاعته بين القول والعمل ، وشفع عرضه من وصفك وشكرك والثناء عليك واطابة ذكرك ، وأنهى مـــا أنت عليه من الولاء وشكر الآلاء ، بما يضاهي ما ذكرته فيه ممـا علم عند تلاوته ، واصغى اليه عند قراءته . وقد استقر بحضرة أمير المؤمنين مكانك من المشايعة

وموقعك من المخالصة ، وكونك من ولاء الدولة على قضية كسَّبتك شرفاً تفيأت ظلاله ، وأفاضت عليك ملبساً جررت أذياله ، وسمت بك الى محل لا يُباهى من بلغه ، ولا يطاول من ناله ، وكنت في ذلك سالكاً للمنهج القويم ، ومعتمداً ما اهلُ بيتك عليه في القديم ، لا جرم انه عاد عليك من حسن رأي أمير المؤمنين بما تقصر عنه كل امنية ، ويشهد لك بمخالصة جمعت فيها بين عمل ونية . والله يضاعف أجرك على اعتصامك من طاعة أمير المؤمنين بالحبل المتين ، ويوزعك شكر ما منحك من الاستضاءة بنور الحق المبين .

فأما الأمير الاسفهسلار فخر الملك رواج ، وبعثك له على الوصول الى الباب وحضك اياه على التعلق من الخدمة بمحض الأسباب ، فما كان الأذن له في ذلك الا لأن كتابه وصل بملتمسه وعرض فيه نفسه وبذل المناصحة والخدمة ، ويسأل سؤال من يعرف قدر العارفة بالاجابة اليه وموقع النعمة ، فأجيب الى ذلك اسعافاً له بمراده ، وعملاً برأي الدولة فيمن يرغب الى التحيز اليها من اقطاره وبلاده ، والا فلا حاجة لها اليه ولا الى غيره ، لأن الله تعالى - وله الحمد - وفر حظها من الأولياء والاشياع والانصار والاتباع والعساكر والجيوش ، والاجناد والانجاد ، والاعوان الاقوياء الشداد ، وعبيد الله الذين يتبارون في النصح ويتنافسون في الاجتهاد والحرص ، وسعة الأموال وعمارة الأعمال ، وجمع الرجال في العزائم بين الافعال والاقوال، ولو وصل المذكور لكانت المنة للدولة عليه ، والحاجة له في ذلك لا اليه . قال الله عز من قائل : يمنون عليك ان اسلموا ، قل لا تمنوا عليّ اسلامكم ، بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان ان كنتم صادقين(١) .

واما من توجهه الى طرابلس وظفره بقومصها وقتله اياه مع من بها ، وعظيم

(١) سورة الحجرات : الآية ١٧ .

امره فيها ، فالله تعالى يعز الاسلام وينشر لواءه ويعلي مناره ويخذل اعداءه وينصر عساكره وأجناده ، ويبلغه في احزاب الكفر والضلال مراده ، وهو عز وجل يمتعك من الولاء بما منحك وينيلك في دينك ودنياك املك ومقترحك، فاعلم هذا واعمل به ان شاء الله تعالى .

صبح الأعشى للقلقشندي جـ ٦ ، ص ٤٥٠ – ٤٥١ .

٨٤ – رسالة الحافظ الى ملك صقلية[1] .

من عبد الله ووليه عبد المجيد أبي الميمون الامام الحافظ لدين الله أمير المؤمنين ، الى الملك بجزيرة صقلية وانكورية وانطالية وقلورية وسترلو وملف، وما انضاف الى ذلك ، وفقه الله في مقاصده ، وارشده الى العمل بطاعته في مصادره وموارده .

سلام على من اتبع الهدى ، وأمير المؤمنين يحمد اليك الله الذي لا إله إلا هو ، ويسأله ان يصلي على جده محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين ، صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين ، الأئمة المهديين ، وسلم تسليماً .

أما بعد : فقد عرض بحضرة أمير المؤمنين الكتاب الواصل من جهتك ، ففض ختامه واجتلي . وقرىء مضمونه وتلي ، ووقعت الاصاخة الى فصوله ، وحصلت الاحاطة بجمله وتفاصيله . والاجابة تأتي على اجمعه ، ولا تخل بشيء من مستودعه .

أما ما افتتحته به من حمد الله تعالى على نعمه ، وتوسيعك القول فيما أولاك

---

(١) المقصود بملك صقلية روجر الثاني الذي كان معاصراً للحافظ وتوفي سنة ١١٥٣ م . ٥٤٨ هـ.

من احسائه وكرمه ، فأن مواهب الله تعالى ومننه التي جعل تواليها اختبار شكر العبد وامتحانه على انه بخائنة الاعين وما تخفي الصدور عليم. وهو القائل فيمن اثنى عليهم : اولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم[1] ، لا يزال مضاعفها ومرادفها ، ومتبعاً سالفها آنفها ، وهو يوليها كلاً من عبيده بقدر منزلته عنده ، ويخص اصفياءه بأوفى مما تمناه الآمل المبالغ ووده . والله تبارك وتعالى يمنح أمير المؤمنين وآباءه الأئمة الراشدين ما غدت مستقدمات الحمد والشكر عند لوازمه مستأخرة ، اذ كان افردهم دون الخليقة بأن اعطاهم الدنيا ثم اعطاهم معها الآخرة . واختصهم من حبائه بما لا يحصيه عدد ، وخوّلهم من آلائه بما لا يقوم بشكره أحد.

واما ما ذكرته من افتتاحك الجزيرة المعروفة بجربة لما شرحته من عدوان اهلها وعدولهم عن طرق الخيرات وسبلها ، واجترائهم في الطغيان على اسباب لا يجوز التغافل عن مثلها ، واستعمالهم الظلم تمرداً ، وتماديهم في الغي تباهياً في الباطل ، وغلواً ، يأساً من الجزاء لما استبطئوه ، فإن من كانت هذه حالته حقيق أن تكون الرحمة عنه نائية ، وخليق ان يأخذه الله من مأمنه أخذة رابية ، كما انه من كان من اهل السلامة وسالكاً سبيل الاستقامة ، ومقبلاً على صلاح شأنه ، وغير متعد للواجب في سره واعلانه ، تعين ان توفر من الرعاية سهمه ، وتجزل من العناية نصيبه وقسمه ، ويؤمّن ما يقلقه ويزعجه ، ويقصد بما يسره ويبهجه ، ويصان عن ان ينساله مكروه ، ويُحمى من أذىً يلم به ويعروه .

وأما شكرك لوزيرك الأمير تأييد الدولة وعضدها عز الملك وفخره نظام الرياسة ، امير الامراء ، فإن من تهذب بتهذيبك وتخلق بأخلاقك وتأدب

---

(١) سورة الحجرات ، الآية ٣ .

بتأديبك لا ينكر منه اصـــابة المرامي ، ولا يُستغرب عنده نجح المساعي ، وواجب عليه ان لا يجعل قلبه الا مثوى للنصائح ، وان لا يزال عمـــره بين غاد في المخالصة ورائح .

واما المركب العروس ووصول كتاب وكيله ذاكراً مـــا اعتمده مقدم اسطولك من صونه وحمايته ، وحفظه ورعايته ، واعادة ما كان أخذ منـــه قبل المعرفة بأنه جارٍ في الديوان الخاص الحافظي ، ففعلٌ يجمل عنك صدره ، ويليق بك أن ينسب اليك ذكره وخبره ، ويدل على علم اصحابك برأيـــك وإحكام معاقدة المودة ، ويعرب عن ايثارك ابرازها كلما تقادم عهدهـــا في ملابس بهجة مستجدة . وهذا الفعل من خلائقك الرضية غير مستبدع ، وقد ذخرت منه عند أمير المؤمنين ما حصل في اعز مقر واكرم مستودع ، لا جرم ان اوامره خرجت الى مقدمي اساطيله المظفرة بما يجنيك ثمرة مـــا غرسته ، ويعلي منار ثنائك الذي قررته على اقوى اصل واسسته ، وقد نفذت مراسيمه باجرائك على غلاتك المستمرة في المسامحة بما وجب للديوان عمـــا وصل برسمك على مراكبـــك ، وبرسم الامير تأييد الدولة وزيرك ، والرسولين الواردين عن حق الورود الى ثغر الاسكندرية ، حماه الله تعالى ، ثم الى مصر ، حرسها الله تعالى ، وحق الصدور عنها وكل ما يصل من جهتك فعلى هذه القضية .

واما شكرك على الاسرى الذين امرامير المؤمنين بإطلاقهم اجابة لرغبتك، ورسم بتسييرهم اليك محافظة على مرادك وبغيتك فأوزعنا شعارهم انهم عتقاء شفاعتك وارقاء منتك ؛ فذلك من الدلائل على ما ينطوي عليه من جميـــل الرأي وكريم النية ، ومن الشواهد بأنه يوجب لك ما لا يوجبه لأحـــد من ملوك النصرانية .

وأما سؤالك الآن في اطلاق من تجدد اسره ، وانهاؤك ان ذلك مما يهمك أمره ، فقد شفعك أمير المؤمنين بالاجابة اليه على مـــا ألِف من كريم شيمته ،

وسيَّرَ اليك مع رسولك من تضمن الثبت ذكر عدته . وقد علمت ما كان من أمر بهرام ووصوله الى الدولة الفاطمية – خلد الله ملكها – شريداً طريداً ، قد نبتْ به أوطانه ، وقذفته دياره ، لا مال له ولا حال ، ولا عشيرة ولا رجال ، فقبلته احسن قبول ، وبلغت به في الاحسان ما يزيد على السّول ، وغمرته من الانعام ما يقصر عن اقتراحه كل أمل ، وجعلته فواضلُها يقلب الطرف بين الخيل والخول ، وكانت أموره كل يوم في نمو وزيادة ، وأحواله توفي على البغية والارادة ، الى ان جرت نوبة اقتضى التدبير في وقتها ان عدقت به الوزارة ، ونيطت به السفارة، فوسوس له خاطره ما زخرفه البطر وزينه، وصوره الشيطان وحسنه ، واظهر ما ظهرت إماراته ووضحت ادلته وعلاماته ، فاستدعى قبيله واسرته ، وجنسه وعشيرته ، بمكاتبات منه سرية ، وخطوط عثر عليها بالأرمنية ، فكانوا يصلون أول أول ، الى ان اجتمع منهم عشرون الف رجل من فارس وراجل ، ومن جملتهم ابنا أخيه وغيرهما من اهله، فدلوه بالغرور، وحملوه على ما قضى بالاستيحاش منه والنفور، وقووا عزمه فيما يؤدي الى اضطراب الأحوال واختلال الامور ، فامتعض العساكر المنصورة مما أساء به سياستهم ، وأبوا الصبر على ما غيّر به رسمهم وعادتهم ؛ فلما رأى أمير المؤمنين ذلك استعظم الحال فيه ، وتيقن ان التغافل عنه يقضي بما يعسر استدراكه وتلافيه ؛ فكاتب وليّه وصفيه الذي ربي في حجر الخلافة ، وسما به استحقاقه الى اعلى درج الانافة ، وحصلت له الرياسة باكتسابه وانتسابه ، وغدا النظر في امور المملكة لا يصلح لغيره ولا يليق الا به ، السيد الأجل الأفضل ، وهو يومئذٍ والي الأعمال الغربية ، وصدرت كتب أمير المؤمنين تشعره بهذا الأمر الصعب ، وتستكشف به ما عرا الدولة من هذا الخطب ، فأجاب دعاءه ولبى نداءه ، وقام قيام مثله ممن اجزل الله حظه من الايمان ، وجعله ، جل وعز ، حسنة هذا الزمان ، واختصه بعناية قوية ، وامده بمواد علوية، وأيده باعانة سماوية، تخرج عن الاستطاعة البشرية.

فجمع الناس وقام خطيباً فيهم ، وباعثاً لهم على ما يزلفهم عند الله ويخطيهم ، وموضحاً لهم ما يُخشى على الدولة من الامر المنكر ، فاجتمعوا اليه كاجتماعهم يوم المحشر ، وغصت النجود والاغوار ، وامتلأت السهول والاوعار ، وضاقت الارض على سعتها بالخلائق ، وارتفعت في توجههم لطلب المذكور الاعذار والعوائق ، ولم يبق فضاء ، الا وهو بهم شَرِق ، ولا أحد الا وهو منزعج بقصده وعلى تأخر ذلك قلق ، وكان بهرام وأصحابه بالاضافة اليهم كالشامة في اللون البسيط ، وكالقطرة في البحر المحيط ، وساروا مع السيد الأجل نحوه مسارعين ، وعلى الانقضاض عليهم متهافتين . فلما شعر بذلك لم يبق له قرار ، ولاذ بالهرب والفرار ، يهجر المناهل ويطوي المراحل ويرى الشرود غنماً ، ويعد السلامة حلماً . واستقرت وزارة أمير المؤمنين لهذا السيد الأجل الأفضل الذي لم تزل فيه راغبة ، وله خاطبة ، ونحو توليه اياها متطلعة ، والى نظره فيها مبادرة متسرعة ، ولم تنفك لزينة دستها مستبطئة ، وفي التلهف على تأخر ذلك معيدة مبدئة ، فأحسن الى الكافة قولاً وفعلاً ، وعمل في حق الدولة ما لم يجعل له في الوزراء شبهاً ولا في الملوك العظماء مثلاً ، وغدا للملة الحنيفية حجة وبرهاناً ، وأولى الأولياء اعزازاً وتكريماً ، والاعداء إذلالاً واهواناً ، وصان الخلافة عن نفاذ حِيَله وتمام غيله ، ومخادعة ماكر ، ومخاتلة غادر ، فلذلك انتضاه أمير المؤمنين حساماً باتراً ماضي الغرار ، واجتباه هُماماً في المصالح لا يطعم جفنه غير الغرار ، واصطفاه خليلاً وظهيراً لتساوي باطنه وظاهره في الصفاء ، واستخلصه لنفسه لمفاخره الجمة التي ليس بها من خفاء ، وانتظمت الأمور بكفالته في سلك الوفاق ، وعمت الخيرات بوزارته عموم الشمس بأنوارها جميع الآفاق ، فسعدت بنظره الجدود ، وتظاهرت ببركاته الميامن والسعود ، وأصبح غصن المعالي بيمنه مورقاً ، وعلى الملة من يمن أرائه تمائم من مَسّ الحوادث ورقى ، فآثاره توفي على ضياء الصباح ، وعزماته تزري بمضاء المهندة الصفاح ، ومآثره تفوت شأو الثناء وغاية الامتداح . فالله تعالى يحفظ النعمة

على الخلافة الحافظية ، ويوزع شكره على سبوغها كافة البرية بكرمه وفضله، ومنّه وطوله .

ولما أمعن بهرام في الهرب وجدّت العساكر المنصورة وراءه في الطلب ، وضاقت عليه المسالك ، وتيقن انه في كل وجهة يقصدها هالك ، عاد لمكارم الدولة وعواطفها ، وسأل أماناً على نفسه من متالفها، فشملته الرحمة و كُتب له الأمان ، فعاودته النعمة ، واختلط برجال العساكر المنصورة ، وصار حظه بعد ان كان منحوساً من الحظوظ الموفورة .

وأما اعتذار الكاتب عما وُجّه اليه بأن من الكلام ما اذا نقل من لغة الى لغة اخرى اضطرب مبناه فاختل معناه ، ولا سيما ان غرس فيه لفظ ليس في احدى اللغتين سواه ، فقد أبان فيما نسب اليه السهو فيه عن وضوح سببه ، وقد قبل عذره ولم تفك يده عن التمسك به .

وأما ما سيرته الى خزائن امير المؤمنين تحفة وهدية ، وأنبت به عن همة بدواعي المجد ملية ، فأنه وصل وتسلم كل صنف منه متولي الخزائن المختصة به بعد عرضه على الثبت المعطوف كتابك عليه وموافقته ، وقد أجريَ رسولك في اكرامه وملاحظته على افضل ما يعتمد مع مثله بمنزلة من ورد من جهته ، وعلى قدر من وصل برسالته . وقد سيّر أمير المؤمنين من امــراء دولته ، ووجوه المتقدمين بحضرته ، الأمير المؤتمن المنصور المنتخب ، مجد الخلافــة ، تاج المعالي، فخر الملك ، مُوالي الدولة وشجاعها ، ذا النجابتين ، خالصة أمير المؤمنين ، أبا منصور جعفراً الحافظي ، رسولاً بهذه الإجابة ، لما هو معروف من سداده ، وموصوف من مستوفق قصده ومستصوب اعتماده ، وألقِيَ اليه ما يذكره ويشرحه ، وعول عليه فيما يشافه به ويوضحه، واصحبه من سجاياه وألطافه مــا تضمنه الثبت الواصل على يده ، ابانة لمحلك عنده وموقفك منه ، ومكانك لديه . وأمير المؤمنين متطلع الى ورود كتبك متضمنة من سار انبائك

وطيب أخبارك ما يسكن الى معرفته ، ويثق بعلم حقيقته ، فاعلم هذا واعمل به ان شاء الله تعالى .

صبح الأعشى للقلقشندي جـ ٦ ، ص ٤٥٨ – ٤٦٣ .

الفائز بالله ٥٤٩ – ٥٥٥ هـ / ١١٥٤ – ١١٦٠ م .

٨٥ – مرسومه بتقليد طلائــع بن رزيــك الوزارة من انشاء الموفق أبي الحجاج يوسف بن علي بن الخلال مع توقيـع الفائز بخطه على طرة سجل الوزير.

اورد نصه الشيال في **مجموعة الوثائق الفاطمية** ٣٣٧ – ٣٥٠ ، نقــلاً عن السيوطي : **حسن المحاضرة** جـ ٢ ، ص ٢٠٥ – ٢١٥ . وقد اورد المقريزي في **اتعاظ الحنفا** جـ ٢ – ٢١٨ وابن تغري بردي في **النجوم الزاهرة** جـ ٥ – ٣١١ مقتطفات من هذا المرسوم .

العاضد بالله ٥٥٥ – ٥٦٧ هـ/١١٦٠ – ١١٧١ م .

٨٦ – عهد العاضد لابن شاور بجعله نائباً للوزارة عن أبيه شاور .

ذكره الشيال في **مجموعة الوثائق الفاطمية** ٣٥٧ – ٣٦٦ وقد نقله الشيال عن **صبح الأعشى** للقلقشندي جـ ١٠ ، ص٣١٨ – ٣٢٥ .

٨٧ – عهد العاضد بتولية شاور الوزارة مرة ثانية .

اورده الشيال في **مجموعة الوثائق الفاطمية** ٣٦٩ – ٣٧٩ ، وقد نقلــه الشيال عن **صبح الأعشى** للقلقشندي جـ ١٠ ، ص ٣١٠ – ٣١٨ .

٨٨ – عهد العاضد بتولية أسد الدين شيركوه الوزارة .

ورد في **مجموعة الوثائق الفاطمية** للشيال ٣٨٣ – ٣٩٧ نقلاً عن صبح

الأعشى للقلقشندي جـ ١٠، ص ٨٠ – ٩٠. ونحب ان نضيف هنا ان نفس هذا العهـــد ورد في ابن الفرات تاريخ ابن الفرات جـ ٤ ص ٣٤ – ٤٤ مع شيء يسير جداً من الخلاف، وكذلك ورد في مفرج الكروب لابن واصل جـ ٢ ص ٤٤٣، عـلى حين اورد مقتطفات منه كل من أبي الفداء في المختصر جـ ٣ ص ٤٦، والمقريزي في اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٣٠٢، وابن خلدون في العبر جـ ٥ ص ٦٢١، وأبي شامة في كتاب الروضتين جـ ١، ق ٢، ص ٤٠٢ – ٤٠٣.

٨٩ – عهد العاضد الى صلاح الدين بالوزارة.

ذكره الشيـــال في مجموعة الوثائق الفاطمية ص ٤٠١ – ٤١٥ نقـلاً عن صبح الأعشى للقلقشندي جـ ١٠ ص ٩١ – ٩٨. كما وان نفس العهـــد ورد بصورة اكمل في تاريخ ابن الفرات لابن الفرات جـ ٤ ص ٥٧ – ٦٣، وكذلك ورد في مفرج الكروب لابن واصل جـ ٢ ص ٤٥٥ –   ، وقد ذكر كل من ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣٥٣ وأبي شامـة في كتـــاب الروضتين جـ ١، ق ٢ ص ٤٠٩ مقتطفات يسيرة من هذا المرسوم الشهير.

٩٠ – رسالة العـــاضد الى نور الدين الشهيد يستنجد به ضد الفرنج الذين هددوا مصر.

هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج.

كتاب الروضتين لأبي شامة جـ ١، ق ٢، ص ٣٩١.

٩١ – رسالة شيركوه الى شاور وزير العاضد يستنجزه الوعد الذي قطعه شاور لنور الدين.

ارسل نور الدين جيشاً بقيادة شيركوه أبعد الفرنج عن مصر وأعاد شاور الى الوزارة، ولقد اراد شيركوه البقـاء في مصر، ولـكن شاور اهملـه ولم يلتفت اليه، فلما طال المقام على شيركوه أرسل الى شاور يقول:

قد طال مقامنا في الخيام وقد ضجر العسكر من الحر والغبار .

٩٢ – جواب شاور لشيركوه على الرسالة السابقة :

أرسل اليه ثلاثين ألف دينار وقال له :

ترحل الآن في أمن الله تعالى ودعته .

٩٣ – جواب شيركوه لشاور :

ان نور الدين اوصاني عند انفصالي عنه اذا ملك شاور تكون مقيماً عنده ، ويكون لك ثلث مغل البلاد ، والثلث الآخر لشاور والعسكر ، والثلث الآخر لصاحب القصر يصرفه في مصالحه .

٩٤ – جواب شاور لشيركوه عن الرسالة الاخيرة :

أنا ما قررت شيئاً مما تقول ، أنا طلبت نجدة من نور الدين ، فاذا انقضى شغلي عـادوا الى الشام ، وقد سيرت اليكم نفقة فخذوهـا وانصرفوا ، وأنا اتصرف مع نور الدين .

٩٥ – جواب شيركوه الى شاور على الرسالة السابقة :

أنا لا يمكنني مخالفة نور الدين ولا اقدر على الانصراف الا بإمضاء أمره .

كتاب الروضتين لأبي شامة جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٠ – ٤٢١ .

الدّولة الأتابكيّة

٥١٦ – ٦٥٧ هـ

١١٢٢ – ١٢٥٩م



عماد الدين زنكي ٥١٦ – ٥٤١ ﻫ / ١١٢٢ – ١١٤٦ م

٩٦ – رسالة من عماد الدين زنكي الى أهل نصيبين على لسان حاكمها تمرتاش :

أصبح عماد الدين حاكماً للموصل فأراد احتلال نصيبين ، وكان حاكمها تمرتاش قد تركها الى ماردين واجتمع مع ابن عمه على حرب عماد الدين ، وأرسل على أجنحة الطير الى أهل نصيبين رسالة يطلب منهم ان يصمدوا خمسة أيام أمام عماد الدين لأنه سيكون عندهم مع ابن عمه قبل انقضاء تلك الفترة ، ولحسن حظ عماد الدين وقعت الرقعة في يده فأبدلها بنص آخر هذا هو :

اني قصدت ابن عمي ركن الدولة ، وقد وعدني النصرة وجمع العساكر ، وما يتأخر عن الوصول أكثر من عشرين يوماً .

وجعلها على الطائر وأرسله الى أهل نصيبين ، فلما وصلت الرسالة الى أهل نصيبين فتّ ذلك في عضدهم وصالحوا زنكي واسلموه البلد .

الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ١٠ ص ٦٤٦ .

٩٧ – رسالة عماد الدين الى السلطان السلجوقي مسعود بن محمد حول ابن عماد الدين .

ترك سيف الدين بن عماد الدين خدمة السلطان السلجوقي مسعود دون إذنه ولجأ الى والده ، ولكن والده رفض ان يستقبله وانما أرسل اليه يأمره ان يرجع الى خدمة السلطان وارسل الى السلطان يقول :

ان ولدي هرب خوفاً لما رأى تغير السلطان عليّ ، وقد اعدته الى الخدمة ولم اجتمع به فإنه مملوكك والبلاد لك .

فحل ذلك عند السلطان محلاً عظيماً .

مفرج الكروب لابن واصل ج ١ ، ص ٩١ .

٩٨ — رسالة اسماعيل بن بوري بن طغتكين حاكم دمشق الى عماد الدين يطلب منه الاسراع لتسلم دمشق منه :

أصبح اسماعيل هذا حاكماً على دمشق فأساء السيرة وظلم الرعية فتحزبوا ضده ، فخاف منهم وقرر تسليم البلد الى عماد الدين نكاية بأهل دمشق فأرسل اليه يقول :

ان اهملت هـذا الأمر استدعيت الافرنج وسلمت دمشق اليهم وكان اثم المسلمين في عنقك .

وقد أسرع زنكي لاستلام دمشق ، ولكن بعد فوات الأوان ، اذ ان اسماعيل هذا قتلته امه ونصبت اخاه الصغير حاكماً مكانه ، وكان ذلك سنة ٥٢٩ هـ .

زبدة الحلب لابن العديم ج ٢ ، ص ٢٥٦ .

٩٩ — رسالة المسترشد الى عماد الدين زنكي حول دمشق وحاكمها :

حاصر دمشقَ زنكي وحاول أخذها عنوة ، وذلك بعد مصرع اسماعيل حاكمها وتولية أخيه الصغير حكم دمشق ، فبعث اهل دمشق الى الخليفة

المسترشد هدايا كثيرة ، وتعهدوا ان يدفعوا له كل سنة مبلغ خمسين الف دينار ان دفع عنهم زنكي ، فأرسل المسترشد الى زنكي يقول :

تنحّ عنهم واخطب للصبي[1] وتعال معه الى العراق حتى اخطب له ونتساعد على مسعود .

المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي ج ١٠ ، ص ٤٣ .

١٠٠ – رسالة عماد الدين الى ملك الروم :

زحف الروم والإفرنج بجيش عظيم على سورية سنة ٥٣٢ هـ وحاصروا شيزر وخاف الناس منهم ، وأتاهم زنكي بجيشه ، وهو لا يوازن بهم عدداً ، ولكنه لجأ الى الحيلة والخديعة ، وكان يتخطف من يتخلف من عسكر الروم ، ثم ارسل الى ملك الروم يقول :

انكم قد تحصنتم بهذه الجبال فاخرجوا عنها الى الصحراء حتى نلتقي ، فإن ظفرتم اخذتم شيزر وغيرها ، وان ظفرت بكم أرحت المسلمين من شركم .

كتاب الروضتين لأبي شامة ج ١ ، ق ١ ، ص ٨١ .

١٠١ – رسالة وزير عماد الدين جمال الدين الاصفهاني الى الأمير صلاح الدين الياغيسيائي .

قتل عماد الدين فطمع في البلاد الملك الب ارسلان الخفاجي ، واطاعه الجند ، فخاف وزير عماد الدين منه وخاف أكثر من ضياع الملك من يد اولاد سيده عماد الدين ، فأرسل الى الأمير صلاح الدين الياغيسيائي أكبر امراء عماد الدين يقول :

---

(١) الصبي هو حاكم دمشق الصغير بعد أخيه اسماعيل ، ومسعود هو السلطان مسعود السلجوقي .

المصلحة ان نترك ما كان بيننـــا وراء ظهورنا – وكان بينهما مشاحنة – ونسلك طريقاً تبقى به البلاد والملك في اولاد صاحبنـــا ، فإن الملك الب ارسلان قد طمع في البلاد واجتمعت عليه العساكر ، وان لم نتلاف هذا الأمر في أوله ، ونتداركه في ابتدائه اتسع الخرق ولم يمكن رقعه .

مفرج الكروب لابن واصل جـ ١ ، ص ١٠٧ .

نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي ٥٤١ – ٥٦٩ هـ/١١٤٦ – ١١٧٣ م .

أ – ايامه الاولى في الموصل –

١٠٢ – رسالة لنور الدين من احد صلحاء الجزيرة حول اللعب بالكرة :

كان بالجزيرة رجل صالح شديد الورع ، وكان بينه وبين نور الدين مكاتبة ومودة ويعتقد فيه نور الدين اعتقاداً حسناً ، فبلغ الرجل الصالح ان نور الدين يدمن اللعب بالكرة فأرسل اليه يعاتبه ويقول :

ما كنت اظنك تلهو وتلعب وتعذب الخيل لغير فائدة دينية .

١٠٣ – جواب نور الدين على الرسالة السابقة :

والله ما يحملني على اللعب بالكرة اللهو والبطر ، وانمـا نحن في ثغر والعدو قريب منا ، وبينا نحن جلوس اذ يقع صوت فنركب في الطلب ، ولا يمكننـا أيضاً ملازمة الجهاد ليلاً نهاراً ، شتاءً وصيفاً ، اذ لا بد من الراحة للجنـد ، ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جماماً لا قدرة لها على ادمـان السير في الطلب ، ولا معرفة لها بسرعة الانعطاف في الكر والفـر في المعركة ، فنحن نركبها ونروضها بهذا اللعب فيذهب جمامها وتتعود سرعة الانعطاف والطاعة

لراكبها في الحرب ، فهذا والله الذي بعثني على اللعب بالكرة[1] .

كتاب الروضتين لأبي شامة جـ ١ ، ق ١ ، ص ١٢ – ١٣ .

١٠٤ – رسالة الملا عمر الى نور الدين حول العصاة والذعار في الموصل .

ولى نور الدين شحنة الموصل الى كمشتكين وطلب منه الا يخرج عن امر الشيخ عمر الملا – وهو زاهد يعتقد فيه نور الدين – فكثر الذعار في الموصل ، فأخبر بذلك الشيخ عمر وطلب منه ان يكتب الى نور الدين ان يسمح للوالي باستعمال الشدة من صلب وقتل مع العصاة ، فأرسل الشيخ الى نور الدين يقول :

ان الذعار والمفسدين وقطاع الطرق قد كثروا ، ويحتاج الى نوع سياسة ، فمثل هذا لا يجيء الا بقتل وصلب وضرب ، واذا اخذ مال انسان في البرية من يشهد له ؟

١٠٥ – جواب نور الدين على الرسالة السابقة :

ان الله تعالى خلق الخلق وهو أعلم بما يصلحهم ، وان مصلحتهم تجعل فيما شرعه على وجه الكمال فيها ، ولو علم ان على الشريعة زيادة في المصلحة لشرعه. فما لنا حاجة الى زيادة على ما شرعه الله تعالى .

كتاب الروضتين لأبي شامة جـ ١ ، ق ١ ، ص ٣٢ .

١٠٦ – وصية نور الدين لاجناده لما اشتد مرضه وخاف من الموت سنة ٥٥٣ – ٥٥٤ هـ .

---

(١) ورد نص هذه الرسالة ، بشكل يختلف بعض الاختلاف ، في كل من مفرج الكروب لابن واصل جـ١ ، ص ٢٦٥ – ٢٦٦ ، والكواكب الدرية لابن قاضي شهبة ص ٥٥ .

اشتد المرض بنور الدين في ذي الحجة سنة ٥٥٣ هـ وخاف ان يموت وليس له ولد يرثه فأوصى أجنـــاده وحلفهم على ذلك ، وذلك بعد ان جمعهم وقال لهم :

اني قد عزمت على وصية اليكم بما قد وقع في نفسي ، فكونوا لها سامعين مطيعين وبشروطها عاملين .

فقالوا : السمع والطاعة لأمرك ، ومـــا تقرره من رأيك وحكمك فإنا له قابلون وبه عاملون .

فقال : اني مشفق على الرعـــايا وكافة المسلمين ممن يكون بعدي من الولاة الجاهلين والظلمة الجائرين، وأن أخي نصرة الدين أمير ميران اعرف من أخلاقه وسوء أفعاله ما لا ارتضي معه بتوليته أمـــراً من امور المسلمين ، وقد وقع اختيـــاري على أخي الامير قطب الدين مودود بن عماد الدين متولي الموصل وخواصه لما يرجع اليه من عقل وسداد ودين وصحة اعتقـــاد بأن يكون في منصبي بعدي والسادّ لثلمة فقدي،فكونوا لأمره بعدي طائعين ولحكمه سامعين. فاحلفوا لي بصحة من نياتكم وسرائركم واخلاص من عقائدكم وضمائركم .

فقالوا : امرك المطاع وحكمك المتبع[١] .

وحلفوا له الأيمان المؤكدة وارسل الى أخيه بذلك، ثم منّ الله عليه بالعافية فشفي وعوفي .

ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٣٥٥ .

---

(١) اورد ابو شامة في كتاب الروضتين جـ١ ، ق١، ص ٣٠٥ نصـــاً أكثر اختصاراً لهذه الوصية .

ب – علاقة نور الدين بالخلافة الفاطمية –

١٠٧ – رسالة جوابية من شاور الى نور الدين يشكره فيها لأنه (أي نور الدين) ارسل الى شيركوه يأمره بالرجوع الى بـــلاد الشام وعدم التعرض الى مصر والخليفة العاضد ووزيره شاور .

ورد كتاب استدعى شكري وحمدي ، واستخلص من الصفاء ما عندي ، واستفرغ في الثناء على مرسله جهدي ، وكأنما استمليت معانيه ممـــا عندي واشتملت على حقائق قصدي ، وسررت للاسلام وأهله والدين الذي وعد ان يطلعه على الدين كله ، بأن يكون مثله ملكـاً من ملوكه يرجع اليــه في عقده وحله ، وتشير الأصابع وتعقد الخناصر على علو محله . والله يزيده بمكانه تثبيتاً وقوة ، ويحقق على يديه مخايل النصر المرجوة . فأما وصول الأمير شهاب الدين محمود وما سر به من ابلاغ رسالتي ونقله اليه من سالف مقالتي وتحقيق طلوعها عليه ، بما كان متطلعاً ، ووقوعها من نفسه النفسية بحيث كان متوقعاً ، فمـا أسعد رأساً دل على نصرة الكلمة ، ودعا الى سبيل النية المسلمة ، ووفر على مصالح الأمة قلوب رعاياها المنقسمة وأنا متمم من هذا الأمر ما صدر مني، باق منه على ما نقل عني ؛ لا اتغير عن المصلحة فيه ، ولا أعدل عما أظهر منه لمـا أخفيه ، ولا استكثر كبيراً اصل اليه ، وأتوصل به لما سبق للملك العادل من حقوق استوجب شكرها قولاً وفعلاً ، ونصرة كانت في هجير الخطوب برداً وطلاً ، وانعم لا تزال آياتها بألسنة الحمد تتلى . ولعمري لقد علا بناؤها مجداً وفخراً وارتفع على الافلاك قدراً وذكراً ، ووجب ان يشتمها ، فلا يصل الى مواردها الكدر ويحوطها فلا يتطرق الى جوانبها الغير . ووراء هذه المكاتبة من اهتمامي ما لا يعوقه عائق الا انتظام العقد على الأمور المألوفة ، وتمـــام التوثقة باليمين المنصوصة الموصوفة . مع ان قوله كيمينه ، وكتـابه كصفحة

يمينه والثقة به واقعة على كل حال ، والمحبة له توجب الاحتراس على الوداد من تطرق أسباب الاختلال[1] .

تاريخ ابن الفرات جـ ٤ ، ص ٥ — ٦ .

١٠٨ — مقتطفات من رسالة أرسلها نور الدين الى العاضد يعرض فيها بضرورة ارسال شيركوه له من مصر .

خاف نور الدين ان يستقل شيركوه في حكم مصر فأراد عودته منها ، وارسل الى العاضد عدداً من الرسائل يعرض له تلميحاً بارساله له ، وفيما يلي مقتطفات من احداهن :

... وكان سهمه المسدد وحسامه المجرد وساعده المساعد وعضده العاضد ، والجناح القوي بالجناح ، واليمين الباطشة بالسلاح ، الباسطة بالصلاح ، ينوب عنه في دفع ما ينوب من الخطوب ، ويتقدم على عسكره في الحروب ، ملياً بكشف الكروب ، فحين وافت الامثلة مستجيشة جيوشه الاسلامية ، على طاغية الكفر الطارئة على البلاد المصرية سير الأسد واعمل الساعد الاشد ، وامضى العضب الذي لا يفل غراره ، ما جرى الجواد الذي لا يؤمن عثاره ولا يسبق غباره ...

ومنها :

... وقد افتقر العبد الى بعثته واعوز عسكره يمن نقيبته ، واشتد حزب الضلال على المسلمين لغيبته ، لانه لا يزال يرمي شياطين الضلال بشهابه الثاقب ، ويصمي معقل الشرك بسهمه النافذ الصائب[2] .

---

(١) ذكر ابو شامة في كتاب الروضتين نصاً قريباً من نصنا هذا جـ ١ . ق ٢ ، ص ٤٢٩ .

(٢) ذكر ابو شامة في كتاب الروضتين جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٧ نصاً مختصراً كل الاختصار للرسالة المذكورة اعلاه .

تاريخ ابن الفرات ج ٤ ، ص ٤٨ .

١٠٩ – وصية اسد الدين شيركوه قبل موته لقراقوش .

الحمد لله الذي بلغنا من هذه الديار ما أردنا وصار اهلها راضين عنا ، فلا تفارقوا سور القاهرة ولا تفرطوا في الاسطول .

كتاب العبر لابن خلدون ج ٥ ، ص ٦٢٢ .

١١٠ – رسالة نور الدين الى صلاح الدين يحثه على الغاء الخلافة الفاطمية .

أرسل الخليفة العباسي المستنجد بالله الى نور الدين يعاتبه على تأخير الغاء الخلافة الفاطمية واقامة الدعوة العباسية في مصر . فلما رحل نجم الدين أيوب والد صلاح الدين الى مصر حمله نور الدين الى صلاح الدين الرسالة التالية :

وهذا أمر تجب المبادرة اليه لتحظى بهذه الفضيلة الجليلة والمنقبة النبيلة قبل هجوم الموت وحضور الفوت ، ولاسيا وأمام الوقت متطلع الى ذلك بكلتيه وهو عنده من أهم امنيته[1] .

كتاب الروضتين لأبي شامة ج ١ ، ق ٢ ، ص ١٦٦ .

١١١ – رسالة صلاح الدين الى وزير الخليفة العباسي المستضيء بالله يخبره بالغاء الخلافة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ وهي من انشاء القاضي الفاضل :

كتب الخادم هذه الخدمة من مستقره ، ودين الولاء مشروع وعلم الجهاد مرفوع ، وسؤدد السواد متبوع ، وحكم السداد بين الأمة موضوع ، وسبب

(١) اورد ابن قاضي شهبة في الكواكب الدرية ص١٨٨ نصاً مشابهاً كل المشابهة لنصنا أعلاه، مع وجود بعض الخلافات البسيطة .

الفساد مقطوع ممنوع . وقد توالت الفتوح غرباً ويمناً وشآماً ، وصارت البلاد بل الدنيا ، والشهر بل الدهر حرماً حراماً ، واضحى الدين واحداً بعد ما كان أدياناً ، والخلافة اذا ذكر بها اهل الخلاف لم يخرّوا عليها الا صماً وعمياناً ، والبدعة خاشعة ، والجمعة جامعة ، والمذلة في شيع الضلال شائعة ، ذلك بأنهم اتخذوا عباد الله من دونه اولياء ، وسموا أعداء الله اصفياء ، وتقطعوا امرهم بينهم شيعاً ، وفرقوا امر الأمة وكان مجتمعاً ، وكذبوا بالنار فعجلت لهم نار الحتوف ، ونثرت اقلام الظبا حروف رؤوسهم نثر الاقلام للحروف ، ومزقوا كل ممزق ، وأخذوا منهم كل مخنق ، وقطع دابرهم ، ووعظ آيبهم غابرهم ، ورغمت انوفهم ومنابرهم ، وحقت عليهم الكلمة تشريداً وقتلا ، وتمت كلمات ربك صدقاً وعدلاً ، وليس السيف عمن سواهم من كفار الفرنج بصائم ، ولا الليل عن سير اليهم بنائم .

ولا خفاء عن المجلس الصاحبي ان من شد عقد خلافة ، وحل عقد خلاف ، وقام بدولة وقعد بأخرى قد عجز الاخلاف والاسلاف ، فأنه مفتقر الى ان يُشكر ما نصح ، ويقلد ما فتح ، ويبلغ ما اقترح ، ويقدم حقه ولا يطرح ، ويقرب مكانه وان نزح ، وتأتيه التشريفات الشريفة ، وتتواصل اليه امداد التقويات الجليلة اللطيفة ، وتلبى دعوته بما أقام من دعوة ، وتوصل عروته بما وصل من غزوة ، وترفع دونه الحجب المعترضة وترسل اليه السحب المروضة ، فكل ذلك تعود عوائده وتبدو فوائده ، بالدولة التي كشف وجهه لنصرها ، وجرد سيفه لرفع منارها والقيام بأمرها وقد أتى البيوت من أبوابها وطلب النجعة من سحابها ، ووعد آماله الواثقة بجواب كتابها، وانهض لايصال ملطفاته وتنجيز تشريفاته خطيب الخطباء بمصر ، وهو الذي اختاره لصعود درجة المنبر ، وقام بالأمر قيام من برّ ، واستفتح بلبس السواد الاعظم ، الذي جمع

الله عليه السواد الاعظم ، املاً انه يعود اليه بما يطوي الرجاء فضل عقب ... ويخلد الشرف في عقبه[1] .

كتاب الروضتين لأبي شامة جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٤٩٦ – ٤٩٧ .

١١٢ – مقتطفات من رسالة أرسلها صلاح الدين الى الخليفة العباسي المستضيء بالله يبشره بالغاء الخلافة الفاطمية واقامة الخطبة العباسية باسمه في مصر من انشاء ابن أبي عصرون . الحمد لله معلي الحق ومعلنه ، وموهن الباطل وموهنه .

ومنها :

لم يبق بتلك البلاد منبر الا وقد اجتمعت عليه الخطبة لمولانا الامام المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين ، وتمهدت جوامع الجمع ، وتهدمت صوامع البدع .

ومنها :

وطالما مرت عليها الحقب الخوالي وبقيت مائتين وثمان سنين ، ممنوة بدعوة المبطلين ، مملوءة بحزب الشياطين ، فملكنا الله تلك البلاد، ومكن لنا في الأرض واقدرنا على ما كنا نؤمله من ازالة الألحاد والرفض ، وتقدمنا الى من استنبناه ان يقيم الدعوة العباسية هنالك ، ويورد الادعياء ودعاة الالحاد بها المهالك .

تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٤٤٦ .

١١٣ – اشعار من رسالة بعث بها نور الدين الى المستضيء العباسي يخبره فيها

---

(١) ذكر ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة جـ٥ ، ص ٣٤٣ – ٣٤٤ نصاً أكثر اختصاراً من نصنا أعلاه لهذه الرسالة الشهيرة ، وان كانت لا تختلف كثيراً عن نص ابي شامة .

بالغاء الخلافة الفاطمية واقامة الخطبة له وللخلافة العباسية في مصر ، وهي من نظم العماد الاصفهاني :

قد خطبنا للمستضيء بمصر نائب المصطفى إمام العصر

ولدينا تضاعفت نعم الله وخلت عن كل عد وحصر

واستثارت عزائم الملك العا دل نور الدين الهمام الأغر

هو فتح «بكر» ودون البرايا خصنا الله بافتراع البكر[1]

النجوم الزاهرة لابن تغري بردي جـ ٥ ، ص ٣٥٦ .

١١٤ – بشارة نور الدين الى جميع المسلمين بعامة ، والى المستضيء بالله العباسي بخاصة في الغاء الخلافة الفاطمية واقامة الدعوة للخلافة العباسية في مصر ، وقد حملها الى بغداد وفد برئاسة ابن أبي عصرون ، وكانت تقرأ في كل بلدة وناحية وقرية بين دمشق وبغداد .

الحمد لله معلي الحق ومعلنه ، وموهي الباطل وموهنه ، وموليالنعم ومسديها ، ومعيد المنح ومبديها ، ومكرم انصار الايمان ومبين سبله ، ومرغم أصحاب الطغيان ومهين أهله ، الذي نصر الهدى باعلاء راياته ، وقهر الضلال بصرف ملماته وكشف غياباته ، وجلى ظلمة البدعة بسنا السنة ، وازال بنور اليقين وسُنَّة الدين والريب عن القلوب المستكنة والذي اتبع النعمى واحمد العقبى ،

(١) ذكر السيوطي في كتابيه حسن المحاضرة جـ٢ ، ص ٦ وتاريخ الخلفاء ص ٤٤٦ نصاً يختلف بعض الاختلاف عن النص الذي ذكرنا أعلاه ، وذكر أن صلاح الدين أرسل هذه الأشعار الى نور الدين مبشراً بإلغاء الخلافة الفاطمية واقامة الدعوة العباسية في مصر .

وقرن سعادة الاولى بخير الأخرى ، وختم لنا في حاضرنا بالحسنى وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا .

نحمده حمد من توكل عليه فكفاه ، وفوض امره اليه فأغناه ، واعترف بنعمه السابغة فزاده وحباه ، واستسعفه في أمانيه فأناله مراده ومناه .

ونسأله ان يصلي على محمد المصطفى وآله وصحبه ، ينابيع الكرم والنهى ، ومصابيح الشرف والحجى، واعضاد الحق واشهاد الصدق وامجاد الخلق واجواد الورى .

وبعد : فأنا اصدرنا هذه المكاتبة الى جميع البلاد الاسلامية عامة ، والى سائر الجزيرة الجبلية والفراتية والشامية خاصة ، مبشرة بفتح الفتوح والنصر الممنوح والسعد المشرق واليمن المتألق ، والصبح المسفر بعد الاظلام ، والنجح الميسر بعد المرام ، والنعمة التي يجب على اهل الاسلام القيام بشكرها ، والمنحة التي يعجز عن عدها ، ولا تحصر في حصرها ، وما يقدرها حق قدرها ، والعقيلة المخطوبة بأغلى المهور المطلوبة ، بشرح الصدور المعلنة ، لباس السرور المفضلة عصرنا على ماضيات العصور ، بما فتح الله على أيدينا رتاجه ، واوضح لنا منهاجه ، واذكى سراجه ، ويسر لنا بعد اعضال الداء واسقامه شفاه وعلاجه وذلل صعابه وسهل طلابه وجلى ظلامه واعلا علاته والف شتاته وثقف قناته واعاض النعمى من البؤس واعاد الامام بنوره ، طلعة بعد العبوس .

وهو ما اعتمدنا من اقامة الدعوة الهادية العباسية بجميع المدن والبلاد والاقطار والامصار المصرية والاسكندرية ومصر والقاهرة وسائر الاطراف القاصية والدانية ، والبادية والحاضرة، وانتهت الى القريب والبعيد، والى قوص واسوان وأقصى الصعيد . ولم يبق بتلك البلاد منبر الا وقد اقيمت عليه

الخطبة لمولانا وسيدنا الامــــام المستضيء بنور الله أمير المؤمنين – صلوات الله عليه – حتى أثار منابر المنابر سماته الشريفة ، وشرف خطباء تلك الخطبـــة بذكرها في توغل ذروتهـــا المنيفة ، وتمهدت جوامع الجمع ، وتهدمت صوامع البدع ، واهتزت اعطاف العباد لبركتها ويمنها ، واعترت أطراف البلاد بنهجها وحسنها ، وجلبت معالم العلم بالمدارس بعد الدرس ، وهبت ارواح الطمأنينة وأنفاس السكينة على الارواح والنفوس ، واعتذر الزمــــان من ذنوبه فقبلت اعذاره ، واعتذر الدهر المــــائل عن قصده ، فحسنت آثاره ، وصفت بمصر شرعة الشرع وقام عماده ، وانطفأ شرار الشر وكبت زناده، ونظرت احداقها بنور الهدى بعد الاغماض ، واعتاضت نواظرها السواد من البياض ، ونضرت حدائقها لسوار السعي بين الرياض واستيقظ حظها بعد الرقاد ، وجرى نجمها بعد الركود ، وفاض ماء السعادة بعد النضوب ، وطلعت شمسها المنيرة بعــد الغروب ، وكسدت سوق الفسوق ، واقفر مأوى العقوق ، وراحت بضائع الرجاء بعرف العرف منــازحة الارجاء ، واتسع بهـــا مجال السجود ومجالس الجود ، وخفقت في اكنافها الرايات السود ، وصفا مـــا تكدر من غديرهـــا ، وعذب اسنُهُ من غيرها ، وتحلى ما عطل من منبرها وسريرها ، فهي العدالة معمورة مبتهجة بالفضل ، مسرورة مضيئة الليالي بالأيام المستضيئة ، مشرقــة المطالع بسعود الدولة العبـــاسية ، ضاحكة السن ، السنا مفاخرهـــا ، صادقة الظن في آثار مآثرها . ولقد احرزت من الفخر والمجد ما ستطيل به على الغور والنجد . وهذا شرف لزماننا هذا وأهله ، يفتخر على الأزمنة التي مضت من قبله ، وفضيلة خصنا الله بها دون سائر الانام ، ومنقبة اهداها لنا دون ملوك الاسلام ، ببركات اختصاصنا بطاعة الدار العزيزة ، فاننا لا نزال نتقلد نجادها ونمتطي جوادها ونستوري زنادها ، ونستفتح بهـــا مغالق المآرب ، ونستهل بسيبها مصاعب المطالب ، ولم نزل نتخذ طاعة الامام امامــــاً نقتدي بهداه ، نهدى بهداه وسحل جناه ، ونستمسك بوثيق عراه . وما برحت هممنا الى مصر

مصروفة ، وعلى افتتاحها موقوفة ، وعزائمنا في اقامـة الدعوة الهادية بهـا ماضية ، حتى ظفرنا بها بعد يأس الملوك منها، وقدرنا عليها وقد عجزوا عنها، وطالما مرت عليها الحقب الخوالي ، وآبت دونها الأيام والليالي . وبقت مائتان وثمانون سنة ، ممنوة بدعوة المبطلين ، مملوءة بحزب الشياطين ، سابغة ظلالهـا للضلال ، ومقفرة المحل الا من المحال ، مفتقرة الى نصرة من الله يملكها ونظرة ستدركها ، رافعة يدها في اشكائها ، متظلمة اليه ليكفل باعدائها ، حتى اذن الله تعالى لغمتها بالانفراج، ولعلتها بالعلاج ولدولتها بالابتهاج ، ولمنجاتها بوضوح المنهاج ، ولمحنتها المتجددة على الأيام بالابهاج ، وسبب قصد الفرنج لها وتوجههم اليها طمعاً في الاستيلاء عليها . وبلغ ذلك منا أقصى المبالغ ، وكاد يغيض خطبه بالزلزال السابق ، امتعاضاً للدين أن يتجنب الكفر ، وارهاصاً للتوحيد لا ان تقرع الاشراك مروته ، واجتمع داءان : الكفر والبدعة ، وكلاهمـــا شديد الروعة مديد اللوعة ، فانهضنا اليها من عساكرنا المنصورة كل ناهض ، وانزلنا لانتهاز الفرصة من فوارسنا كل رابض ، واذقنا الكفار مر البأس واصليناهم نار المراس وفرقنا جموعهم واجتثثنا اصولهم واهتصرنا فروعهم ، وامناهـــا من تعديهم ، وخلصناها من ايديهم ، وملكنا الله ملك البلاد، ومكن لنا في الأرض واقدرنا على ما كنا نؤمله من ازالة الالحاد والرفض من اقامة الفرض . فبادرنا الى تهذيب ساكنيها من عصب الغواية ، وكشفنا ما اذلهم بها من الغمة والغيابة، وخفنا من مضرة الاهمال ومعرة الامهال ، واشفقنا من عود الامر جذعـاً ، وسهل الباطل مجتمعاً ، وتقدمنـــا الى من استنبناه ان يستفتح باب السعادة ، ويستنجح ما لنا من الارادة ، ويقيم الدعوة الهادية العبــاسية هنالك ، ويورد الادعياء ودعاة الإلحاد المهالك ، فالحمد لله على سبوغ هذه الموهبـــة ، وبلوغ النصرة المذهبة والنعمة المهدية والمنحة المرتبة ، وما خصنا به من كمال الفضيلة والمنقبة .

وقد سيرنا شهاب الدين لتبليغ هـــذه البشارة الخطيرة والمآثر الأثيرة ،

والتعريف بريع هذه النعمة السامية القدر ، العالية الفخر ، الواجبة استدامتها بالشكر ، الباقي ذكرها بقاء الدهر . ونسأل الله تعالى ان يختم لنـــا بالحسنى والخير ، ويوضح لنا سبيل المعروف والبر ، ويوزعنا شكر آلائه الغر ، وسر نعمه الغرر ، وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه انيب[1] .

(تاريخ ابن الفرات جـ ٤ ، ص ١٧٤ - ١٧٧) .

١١٥ - رسالة صلاح الدين الى نور الدين وذلك على اثر المؤامرة المخفقة غير الناجحة التي استهدفت اعادة الحكم الفاطمي الى مصر بعد الغـــاء الخلافـة الفاطمية ، والعقاب الذي حل بالمتآمرين ، وهي من انشاء القاضي الفاضل .

قصر هذه الخدمة على متجدد سار للاسلام واهله ، وبشارة مؤذنة بظهور وعد الله في اظهاره على الدين كله ، بعد ان كانت لها مقدمات عظيمة ، الا انها اسفرت عن النجح ، واوائل كالليلة البهيمة الا انها انفرجت عن الصبح. فالاسلام ببركاته البادية وفتكاته الماضية قد عاد مستوطناً بعد ان كان غريباً ، وضرب في البلاد بجرانه بعد ان كان الكفر يتم عليه تحيلاً عجيباً . الا ان الله سبحانه اطلع على أمرها من أوله ، واظهر على سرها من مستقبله ، والمملوك يأخذ في ذكر الخبر ، ويعرض عن ذكر الأثر .

لم يزل يُتوسم من جند مصر ومن اهل القصر ، بعدما ازال الله من بدعتهم ونقص من عرى دولتهم ، وخفض من مرفوع كلمتهم ، انهم اعداء وان تعدت بهم الأيام ، واضداد وان وقعت عليهم كلمة الاسلام ، وكان لا يحتقر منهـــم صغيراً ولا يستبعد منهم شراً كبيراً ، وعيونه لمقاصدهم موكلة ، وخطراتـه في

(١) أورد أبو شامة في كتاب الروضتين جـ١ ، ق ٢ ، ص ٥٠٢ فقرات كثيرة من هذا المنشور الهام ، هي القسم الأكبر منه ، وهي قريبة كل القرب مما أثبتناه هنا أعلاه نقلاً عن ابن الفرات .

التحرز منهم مستعجلة، لا تخلو سنة تمرّ ولا شهر يكر من مكر يجتمعون عليه، وفساد يتسرعون اليه ، وحيلة يبرمونها ومكيدة يتممونها . وكان أكثر ما يتعللون به ويستريحون اليه المكاتبات المتواترة والمراسلات المتقاطرة الى الفرنج - خذلهم الله تعالى - التي يوسعون لهم فيها سبل المطامع ، ويحملونهم فيها على العظائم والفظائع ، ويزينون لهم الاقدام والقدوم ، ويخلعون فيها ربقة الاسلام خلع المرتد المخصوم . ويد الفرنج - بحمد الله - قصيرة عن اجابتهم ، الا انهم لا يقطعون حبل طمعهم على عادتهم . وكذلك ملك الفرنج ، كلما سولت له نفسه الاستتار في مراسلتهم والتحيل في مفاوضتهم ، سير « جرج » كاتبه رسولاً الينا ظاهراً ، واليهم باطناً ، عارضاً علينا الجميل الذي ما قبلته قط أنفسنا ، وعاقداً معهم القبيح الذي يشتمل عليه في وقته علمنا . ولأهل القصر والمصريين في اثناء هذه المدد رسل تتردد وكتب الى الفرنج تتجدد .

ثم قال :

والمولى عالم ان عادة اوليائه المستفادة من ادبه الا يبسطوا عقاباً مؤلماً ولا يعذبوا عذاباً محكماً ، واذا طال لهم الاعتقال ولم ينجع السؤال اطلق سراحهم وخلي سبيلهم ، فلا يزيدهم العفو الا ضراوة ، ولا الرقة عليهم الا قساوة . وعند وصول « جرج » في هذه الدفعة الاخيرة رسولاً الينا بزعمه ، ورد الينا كتاب ممن لا نرتاب به من قومه يذكرون انه رسول مخاتلة لا رسول مجاملة ، وحامل بلية لا حامل هدية ؛ فأوهمناه الاغفال عن التيقظ لكل ما يصدر منه واليه ، فتوصل مرة بالخروج ليلاً ، ومرة بالركوب الى الكنيسة وغيرها نهاراً ، الى الاجتماع بحاشية القصر وخدامه ، وبامراء المصريين واسبابهم ، وجماعة من النصارى واليهود وكلابهم وكتابهم . فدسسنا اليهم من طائفتهم من داخلهم ، فصار ينقل الينا اخبارهم ويرفع الينا احوالهم. ولما تكاثرت الاقوال،

وكاد يشتهر علمنا بهذه الاحوال ، استخرنا الله تعالى وقبضنا على جماعة مفسدة، وطائفة من هذا الجنس متمردة،وقد اشتملت على الاعتقادات المارقة والسرائر المنافقة . فكلا اخذ الله بذنبه ، فمنهم من اقر طائعاً عند احضاره ، ومنهم من اقر بعد ضربه ، فانكشف امور أخر كانت مكتومـــة ، ونوب غير التي كانت عندنا معلومة ، وتقريرات مختلفة في المراد ، متفقة في الفساد .

ثم ذكر تفصيلا حاصله : انهم عينوا خليفـــة ووزيراً ، مختلفين في ذلك ، فمنهم من طلب اقامة رجل كبير السن من بني عم العاضد ، ومنهم من جعل ذلك لبعض اولاد العاضد ، وان كان صغيراً . واختلف هؤلاء في تعيين واحد من ولدين له . واما بنو زريك واهل شاور فكل منهم أراد الوزارة لبيتهم من غير ان يكون لهم غرض في تعيين الخليفة .

ثم قال :

وكانوا فيا تقدم ، والمملوك على الكرك والشوبك بالعسكر ، قد كاتبوهم وقالوا لهم انه بعيد والفرصة قد امكنت ، فاذا وصل الملك الفرنجي الى صَدْر او الى ايلة ثارت حاشية القصر وكافة الجند وطائفـة السودان وجموع الأرمـن وعامة الاسماعيلية وفتكت بأهلنا وأصحابنا بالقاهرة .

ثم قال :

ولما وصل « جرج » كتبوا الى الملك الفرنجي ان العساكر متبـــاعدة في نواحي اقطاعاتهم وعلى قرب من موسم غلاتهم ، وانه لم يبق في القـــاهرة الا بعضهم ، واذا بعثت اسطولاً الى بعض الثغور أنهض فلانـــاً من عنده وبقي في البلد وحده ، ففعلنا ما تقدم ذكره من الثورة .

ثم قال :

وفي أثناء هذه المدة كاتبوا سناناً صاحب الحشيشية بأن الدعوة واحدة والكلمة جامعة ، وان ما بين أهلها خلاف الا فيما لا يفترق به كلمة ، ولا يجب به قعود عن نصرة ، واستدعوا منه من يتمم على الملوك غيلة ، او يبيت له مكيدة وحيلة . والله من ورائهم محيط . وكان الرسول اليهم عن المصريين خال ابن قرجَلة المقيم الآن هو وابن اخته عند الفرنج .

ولما صح الخبر وكان حكم الله اولى مـا اخذ به ، وادب الله امضى فيمن خرج عن ادبه ، وتناصرت من اهل العلم الفتاوى ، وتوالت من أهل المشورة بسبب تأخير القتل فيهم المراجعات والشكاوى ، قتل الله بسيف الشرع المطهر جماعة من الغواة الغلاة ، الدعاة الى النار ، الحاملين لاثقالهم واثقال من اضلوه من الفجار ، وشنقوا على باب قصورهم وصلبوا على الجذوع المواجهة لدورهم ، ووقع التتبع لاتباعهم ، وشردت طائفة الاسماعيلية ونفوا ، ونودي بأن يرحل كافة الاجناد وحاشية القصر وراجل السودان الى اقصى بلاد الصعيد . فأما من في القصر فقد وقعت الحوطة عليهم الى ان ينكشف وجه رأي يمضي فيهم ، ولا رأي فوق رأي المولى . والله سبحانه مستخار وهو المستشار ، وعنده من اهل العلم من تطيب النفس بتقليده ، وتمضي الحدود بتحديده . ورأي المملوك اخراجهم من القصر ، فانهم مهما بقوا فيه بقيت مادة لا تنحسر الاطماع عنها ، فإنه حبالة للضلال منصوبة ، وبيعة للبدع محجوجة[1] .

ومما يطرف به المولى ان ثغر الاسكندرية على عموم مذهب السنة فيه ، اطلع البحث ان فيه داعية خبيثاً امره ، محتقراً شخصه ، عظيماً كفره ،

(١) هكذا وردت هذه الكلمة بالأصل ، ولعل الصواب « محجوبة » كما يقول المؤلف .

يسمى قديد القصاص ، وان المذكور ، مع خموله في الديار المصرية ، قد فشت في الشام دعوته وطبقت عقول اهل مصر فتنته ، وان أرباب المعـايش فيه يحملون اليه جزءاً من كسبهم . والنسوان يبعثن اليه شطراً وافياً من اموالهن . ووجدت في منزله بالاسكندرية ، عند القبض له والهجوم عليه ، كتب محررة فيها خلع العذار وصريح الكفر الذي ما عنه اعتذار ، ورقاع يخاطب بها فيها ما تقشعر منه الجلود ، وكان يدعي النسب الى اهـل القصر ، وانه خرج منه صغيراً ، ونشأ على الضلالة كبيراً ، وبالجملة فقد كفى الاسلام امره وحـاق به مكره وصرعه كفره[1] .

كتاب الروضتين لأبي شامة جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦٣ – ٥٦٦ .

حـ – علاقة نور الدين بالخلافة العباسية –

١١٦ – رسالة أرسلها نور الدين الى الخليفة المستنجد بالله العبـاسي يخبره بخبر الزلازل التي ضربت الشام .

والكتاب من انشاء العماد الاصفهاني .

قد احاط العلم الشريف – اجله الله – بهذه الحـادثة التي ألمت بالشام من الزلزلة التي تداعت لها الثغور بالانثلام ، والمعاقل والحصون بالانهـدام ، ولم يكن الا عبرة لأولي الابصار ، وموعظة وآية من الله لعباده منذرة ، ومن سنة الغفلة موقظة . وقد عمت حتى هدت كل بقعة ، وهدمت كل قلعة وعطلت كل حال وانزلت كل عال ، وشغلت كل بال ، وألهت كل فرد ببال ، والحمد لله على

---

(١) وردت مقتطفات مختصرة من هذه الرسالة الشهيرة في مفرج الكروب لابن واصل جـ١ ، ص ٢٤٨ – ٢٥١ ولكن نص أبي شامة أوفى وأتم وأكمل .

كل حال . وما سكنت النفوس من رعبها وتسلت القلوب عن كربها ، الا بما دهم الكفار من ضرها ؛ فقد خصتهم بالامض الأشق ، وأخذتهم الرجفة بالحق فإنهـــا وافت يوم عيدهم وهم في الكنـــائس وكانوا شم الأنوف من الفوارس ، فأصبحوا للردى فرائس ، شاخصة ابصارهم ينظرون ، فخرّ عليهم السقف من فوقهم ، وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون . حصونهم مهدومة ومعاقلهـــم مردومة وثغورهم مثلومة . ولولا اشتغالهم بما عراهم واهالهم بما دهاهم ودعـــاهم حيث انقلبت كل قلعة لهم من أساس بنيانها ، وزهقت كل بلدة في ايديهم بهلاك سكانها ، لم يؤمن معرتهم ، ولم يخش بعد هذه المضرة الا مضرتهم . وان بالثغور الاسلامية شدة افتقار الى تحصينها ، واعادة بناية حصونهـــا قبل ان يستفحل الداء ويتفرغ لشغلها الاعداء . والحال مفتقر لعمارة الثغور وضبط الأمــــور واقامة رجال المعاقل الذين يقومون ، الى ان تعمر ، مقام ابراجهـــا ، ويأمن قلوب المؤمنين بهم ويظهر سكونها بعد انزعاجها ، الى ذخـــــائر اموال تبذل وتدال ، ولا غنى عن مساعدة ومساعفة بنفقات يستعان بها على سد الثلمة ودفع الملمة وتجديد العمارة الزائلة وتسديد حال الزلزلة الهائلة .

تاريخ ابن الفرات جـ ٤ ، ص ٩٦ – ٩٧ .

١١٧ – رسالة أرسلها نور الدين الى الخليفة العبـــاسي المستضيء بنور الله يبشره بالفتوح في شمالي سورية والنوبة .

تحالف نور الدين مع مليح بن لاون ملك الأرمن ، وهـــاجم مليح الدروب التي يحتلها الروم ، وهي اذنة والمصيصة وسيواس فاحتلها وقتل وأسر ، وساق الى نور الدين ثلاثين اسيراً من مقدمي الروم فسيرهم نور الدين هدية الى بغداد مع رسالة منها ما يلي :

... وقسطنطينية والقدس يجريان الى امد الفتوح في مضمار المنـــافسة ، وكلاهما في وحشة ليل الظلام المدلهم على انتظار صباح المؤانسة . والله تعـــالى بكرمه يدني قطاف الفتحين لأهل الاسلام ويوفق الخادم لحيازة مراضي الامام.

وفي آخرها :

ومن جملة حسنات هذه الايام الزاهرة ما تسنى في هذه النوبة ، من افتتاح بعض بلاد النوبة ، والوصول الى مواضع منها لم تطرقها سنابك الخيل الاسلامية في العصور الخالية ، وكذلك استولت عساكر مصر أيضاً على برقة وحصونها ، وتحكموا في محكم معاقلها وحصونهـا ، حتى بلغوا الى حدود المغرب فظفروا من السؤال بعنقاء مغرب .

وفي آخر تلك الرسالة :

ونسأل الله التوفيق لاستدناء قواصي المنى واقصاء عبدة الصليب الانجاس من المسجد الاقصى وان يجعـل فتح البيت المقدس مفتتح مراده ، ومقتدح زناده ومقترحه من جهاده ، وأن يملكه الساحل بجميـع بلاده[1] .

كتاب الروضتين لأبي شامة جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٥٤٧ — ٥٤٨ .

د — علاقة نور الدين بصلاح الدين —

١١٨— محاورة صلاح الدين مع ابيه وخاله واقربائه واصحابه من اجل تقرير

---

(١) ذكر ابن واصل في مفرج الكروب جـ١ ، ص ٢٣٥ نفس النص السابق لهذه الرسالة، مع شيء يسير من الخلاف . ولكنه لم يذكر الفقرة الأخيرة منها أي أنه وقف عند نهاية جملة بعنقاء مغرب .

موقفه من نور الدين وذلك بعد ان وقعت الوحشة بين الطرفين . فقد احس نور الدين بمطامع صلاح الدين في مصر وانصرافه عن حصار حصن الشوبك لما بلغه قصد نور الدين اياه. ولقد حاول صلاح الدين استرضاء نور الدين، فأرسل يعتذر اليه ، ولكن نور الدين لم يقبل عذره وعول على قصد مصر . فجمع صلاح الدين اهله وسائر امرائه واعلمهم بما بلغه عن عزم نور الدين على قصد مصر واستشارهم، فلم ينبس احد منهم ببنت شفة ، فقام تقي الدين عمر ابن اخي صلاح الدين فقال :

- اذا جاءنا قاتلناه ومنعناه عن البلاد .

فشتمهم نجم الدين ايوب - والد صلاح الدين - وانكر ذلك واستعظمه وشتم تقي الدين واقعده وقال لصلاح الدين :

- أنا أبوك وهذا خالك شهاب الدين ، ونحن أكثر محبة لك من جميع من ترى . لا والله لو رأيت أنا وخالك هذا نور الدين لم يمكننا الا ان نقبل الأرض بين يديه . ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا . فإذا كنا نحن هكذا ، فما ظنك بغيرنا ؟ وكل من تراه عندك من الأمراء لو رأوا نور الدين وحده لم يتجاسروا على الثبات على سروجهم. وهذه البلاد له ونحن مماليكه ونوابه فيها، فإن أراد عزلك سمعنا وأطعنا . والرأي أن تكتب كتاباً مع نجاب تقول فيه : بلغني انك تريد الحركة لأجل البلاد ، فأي حاجة الى هذا ؟ يرسل المولى نجاباً يضع في رقبتي منديلاً ويأخذني اليك . وما ها هنا من يمتنع عليك .

وأقام الأمراء وغيرهم وتفرقوا على هذا .

فلما خلا أيوب بولده صلاح الدين قال له :

بأي عقل فعلت هذا ؟ ألم تعلم ان نور الدين اذا سمع عزمنا على منعه

ومحاربته جعلنا اهم الوجوه اليه وحينئذٍ لا تقوى عليه . وأما الآن اذا بلغه ماجرى وطاعتنا له تركنا واشتغل بغيرنا، والاقدار تعمل عملها. ووالله لو أراد نور الدين قصبة من قصب السكر لقاتلته أنا عليها حتى أمنعه أو اقتل [1] .

ففعل صلاح الدين ذلك فترك نور الدين قصده .

الكامل في التاريخ لابن الأثير جـ ١١ ، ص ٣٧٢ – ٣٧٣ .

١١٩ – رسالة من صلاح الدين الى نور الدين مستفسراً عن صحته وقد بلغته من نصارى الشام أخبار توحي بوفاة نور الدين ، ولذلك أرسل اليه ما يلي من انشاء القاضي الفاضل :

ورد خبر من جانب العدو اللعين ، عن المولى نور الدين ، أعاذ الله تعالى فيه من سماع المكروه ، ونور بعافيته القلوب والوجوه ، فاشتد به الأمر وضاق به الصدر ، وانقصم بسادته الظهر ، وعز فيه التثبت واعوز الصبر . فإن كان ، والعياذ بالله ، قد تم ، وخصه الحكم الذي عم ، فللحوادث تدخر النصال ، وللأيام تصطنع الرجال ، وما ربت الملوك ممالكها الا لأولادها ، ولا استودعت الأرض الكريمة البذر الا لتؤدي حقها يوم حصادها ، فالله الله ان تختلف القلوب والأيدي فتبلغ الأعداء مرادها ، وتعدم الآراء رشادها ، وتنتقل النعم التي تعبت الايام فيها الى ان اعطت قيادها . فكونوا يداً واحدة ، واعضاداً

---

(١) ورد نص هذه المحاورة الشهيرة في عدد كبير من المصادر ، وهناك خلافات طفيفة بين مضامينها، ولكن المعنى العام واحد . أنظر الكواكب الدرية لابن قاضي شهبة ص ٢١٣ – ٢١٤ وكتاب السلوك للمقريزي جـ١، ق١ ص ٤٩، وتاريخ ابن الفرات جـ٤ ص١٨٥، ومفرج الكروب لابن واصل جـ١ ، ص ٢٢٢ – ٢٢٣ وزبدة الحلب لابن العديم جـ٢ ، ص ٣٣٥ – ٣٣٦ ومرآة الجنان لليافعي جـ٣ ، ص ٤٤٨ – ٤٤٩ .

متساعدة ، وقلوباً يحميها ود ، وسيوفاً يضمها غمد ، ولا تختلفوا فتنكلوا ، ولا تنازعوا فتفشلوا، وقوموا على امشاط الارجل ، ولا تأخذوا الامر بأطراف الأنمل ، فالعداوة محدقة بكم من كل مكان ، والكفر مجتمع على الايمان . ولهذا البيت منا ناصر لا نخذله وقائم لا نسلمه وقد كانت وصيته الينا سبقت، ورسالته عندنا تحققت بأن ولده القائم بالأمر وسعد الدين كمشتكين الاتابك بين يديه ، فإن كانت الوصية ظهرت وقبلت ، والطاعة في الغيبة والحضور اديت وفعلت ، والا فنحن لهذا الولد يد على من ناواه ، وسيف على من عاداه ، وان اسفر الخبر عن معافاة، فهو الغرض المطلوب والنذر الذي يحل على الايدي والقلوب.

كتاب الروضتين لأبي شامة جـ١ ، ق٢ ، ص ٥٨٧ .

١٢٠ – رسالة من صلاح الدين الى نور الدين يخبره أنه رحّل من بلاد الفرنج جميع العربان الذين كانوا يساعدونهم كأدلة ضد بلاد المسلمين ، وذلك مع هدية أرسلها له سنة ٥٦٨ هـ . والكتاب من إنشاء القاضي الفاضل :

سبب هذه الخدمة الى مولانا السلطان الملك العادل – اعز الله سلطانه ، ومد أبداً إحسانه ، ومكن بالنصر امكانه ، وشيد بالتأييد اركانه ، ونصر انصاره وأعان أعوانه – علم المملوك بما يؤثره المولى بأن يقصد الكفار بما يقص اجنختهم ويفل اسلحتهم ويقطع موادهم ويخرب بلادهم . واكبر الأسباب المعينة على ما يرومه من هذه المصلحة ان لا يبقى في بلادهم أحد من العربان ، وأن ينتقلوا من ذل الكفر الى عز الأيمان . ومما اجتهد فيه عامة الاجتهاد ، وعده من أفضل اسباب الجهاد ترحيل كثير من أنفارهم، والحرص في تبديل دارهم، الى أن صار العدو اليوم اذا نهض لا يجد بين يديه دليلاً ولا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلا.

مفرج الكروب لابن واصل جـ١ ، ص ٢٢٥ .

هـ ـ علاقات خارجية :

١٢١ ـ رسالة من نور الدين الى وزير أخيـه قطب الدين ـ واسم الوزير جمال الدين ـ لما زحف نور الدين على الموصل يريد احتلالها .

توفي سيف الدين ملك الموصل اخو نور الدين ، وحل محله اخوه قطب الدين وهو أخو نور الدين الاصغر ، فأساء السيرة وسيطر عليه الوزير جمـال الدين ، وارسل عدد من الامراء نور الدين واطمعوه في أخذها ، فزحف نور الدين على سنجار واحتلها ، ولما سمع ذلك قطب الدين حشد جيشه وتقدم لقتال جيش نور الدين ، وهنـاك ارسل جمال الدين وزير قطب الدين رسالة الى نور الدين يتهدده فأجابهم نور الدين بما يلي :

إنني أنا الاكبر ، وأنا أحق أن أدبر أخي منكم ، وما جئت الا لما تتابعت الي كتب الامـراء يذكرون كراهيتهم لولايتكم عليه ، فخفت أن يحمله الغيظ والانفة على ان يخرجوا البلاد من ايدينا ، وأمـا تهديدكم إياي بالقتال ، فأنا ما اقاتلكم الا بجندكم [١] .

ولكن هذه الرسالة كانت السبب في الصلح بين الاخوين .

مفرج الكروب لابن واصل جـ١ ، ص ١١٩ ـ ١٢٠ .

١٢٢ ـ رسالة نور الدين لأهل دمشق سنة ٥٤٤ هـ .

توفي معين الدين أنر صاحب دمشق وحل محله مجير الدين ، واختلف أهل

---

(١) أورد أبو شامة في كتاب الروضتين جـ١ ، ق٢ ص ١٧٣ نصاً مطابقاً لنصنا أعلاه .

دمشق وضعفوا حتى اضطروا ان يدفعوا للفرنج جزية سنوية . واراد نور الدين احتلالها ولكنه خاف ان يستنجد اهلهـــا بالفرنج ، ولذلك استعمل الدهاء والسياسة في مداراة القوم وزحف بجنوده حتى وصل الى جسر الخشب المعروف بمنازل العساكر ومن هناك ارسل الى مجير الدين يقول :

إني ما قصدت بنزول هذا المنزل طلباً لمحاربتكم ولا منازلتكم ، وانما دعاني الى هذا الامر كثرة شكاية المسلمين من أهل حوران والعربان بأن الفلاحين اخذت اموالهم وسبيت نساؤهم واطفالهم بيد الافرنج وعدم الناصر لهم . ولا يسعني ، مع ما أعطاني الله ، وله الحمد ، من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين وكثرة المال والرجال ، ان اقعد عنهم ، ولا انتصر لهم ، مع معرفتي بعجزكم عن حفظ اعمالكم والذب عنها ، والتقصير الذي دعاكم الى الاستصراخ بالافرنج على محاربتي وبذلكم لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعية ظلماً لهم وتعدياً عليهم . وهذا ما لا يرضي الله تعالى ولا أحداً من المسلمين ، ولا بـد من المعونة بألف فارس مزاحي العلة تجرد مع من يوثق بشجاعته من المقدمين لتخليص ثغر عسقلان وغزة .

١٢٣ — جواب مجير الدين الى نور على الرسالة السابقة :

ليس بيننا وبينك الا السيف ، وسيوافينا من الافرنج ما يعيننا على دفعك ان قصدتنا ونزلت الينا [١] .

كتاب الروضتين لأبي شامة جـ١ ، ق٢ ، ص ١٧٨ — ١٧٩ .

١٢٤ — رسالة أخرى من نور الدين الى حكام دمشق سنة ٥٤٥ هـ.

---

(١) أورد ابن القلانسي في ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٩ نصاً قريباً من نصنا أعلاه مع وجود بعض الخلافات اليسيرة .

عـــاود نور الدين حصار دمشق ومضايقتها قصد احتلالهـا وأرسل الى حكامها يقول :

أنا ما أؤثر إلا صلاح المسلمين وجهاد المشركين ، وخلاص من في أيديهم من الاسرى ، فإن ظهرتم معي في عسكر دمشق وتعاضدنا على الجهـاد ، فذلك المراد .

كتاب الروضتين لأبي شامة جـ١ ، ق٢ ، ص ٢٠٠ .

١٢٥ – رسالة جوابية لنور الدين من سنان شيخ الاسماعيلية .

كتب نور الدين ، ذات مرة ، الى سنان ، يتهدده ويتوعده لسبب اقتضى ذلك فشق ذلك على سنان وارسل ما يلي الى نور الدين ، وهي رسالة جوابية ، شعراً ونثراً ، وكلها تهديد :

يا ذا الذي بقراع السيف هـددنا لا قام مصرع جنبي حين تصرعه
قام الحمـــام الى البازي يهدده واستيقظت لأسود البر أضبعه
أضحى يسد فم الأفعى باصبعه يكفيه ما قـد تلاقي منه أصبعه

وقفنا على تفاصيله وجمله ، وعلمنا ما هددنا به من قوله وعمله ، فيا لله العجب من ذبابة تطن في أذن فيل ، وبعوضة تعد في التماثيل ، ولقد قالها من قبلك قوم آخرون ، فدمرنا عليهم وما كان لهم من ناصرين . أو للحق تدحضون وللباطل تنصرون ، وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون . واما مـا صدر من قولك في قطع رأسي ، وقلعك لقلاعي من الجبال الرواسي فتلك أماني كاذبة وخيالات غير صائبة ، فـإن الجواهر لا تزول بالأعراض ، كما ان الأرواح لا تضمحل بالامراض . كم بين قوي وضعيف ، ودني وشريف ، وان عـــدنا الى الظاهر والمحسوسات وعدلنا عن البواطن والمعقولات ، فلنا اسوة برسول الله ﷺ في

قوله : ما أوذي نبي" ما أوذيت ، ولقد علمتم ما جرى على عترته وأهل بيته وشيعته . والحال ما حال، والامر ما زال . والحمد لله في الاولى والآخرة اذ نحن مظلومون لا ظالمون ، ومغصوبون لا غاصبون ، واذا جاء الحق زهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً . ولقد علمتم ظاهر حالنا وكيفية رجالنا ، وما يتمنونه من الفوت ويتقربون به الى حياض الموت ، قل فتمنوا الموت ان كنتم صادقين ، ولا يتمنونه أبداً بما قدمت ايديهم ، والله عليم بالظالمين . وفي الامثال العامة السائرة : او للبط يتهددون بالشط . فهيء للبلايا جلباباً وتدرع للرزايا أثواباً، فلأظهرن عليك منك، ولأفنينهم فيك عنك ، فتكون كالباحث عن حتفه بظلفه، والجادع مارن انفه بكفه ، وما ذلك على الله بعزيز.

ويقول ابن خلكان الذي نقلنا هذا النص عنه ما يلي :

نقلت هذه الرسالة من خط القاضي الفاضل على هذه الصورة ، ورأيت في نسخة زيادة على هذا وهو:

فإذا وقفت على كتابنا هذا، فكن لامرنا بالمرصاد، ومن حالك على اقتصاد، واقرأ أول النحل وآخر صاد .

والصحيح [الكلام لابن خلكان] انه كتبها الى السلطان صلاح الدين يوسف ابن أيوب. ورأيت في بعض النسخ زيادة بيت في أول الابيات الثلاثة وهو :

يا للرجال لأمر هال مفظعه ما مر قط على سمعي توقعه[1]

وفيات الاعيان لابن خلكان جـ٤ ، ص ٢٧٢ - ٢٧٣ .

---

(١) ذكر اليافعي في مرآة الجنان جـ٣ ، ص ٣٨٧ - ٣٨٨ نصاً قريباً كل القرب من نصنا هذا ، ونسبه أيضاً الى صلاح الدين باستثناء البيت الرابع الذي ذكره ابن خلكان في آخر النص أعلاه .

١٢٦ – رسالة اخرى من سنان الى نور الدين وقد جرت بينهما وحشة :

بنا نلت هذا الملك حتى تأثلت بيوتك فيها واشمخر عمودها

فأصبحت ترمينا بنبل بنا استوى مغارسها منا ، وفينا حديدها

وفيات الاعيان لابن خلكان جـ٤ ، ص ٢٧٨ .

١٢٧ – رسالة نور الدين الى قليج ارسلان ملك سلاجقة الروم :

قصد نور الدين سنة ٥٦٨ هـ بلاد سلاجقة الروم وحارب ملكها قليج ارسلان فهرب من بين يديه ، واحتل نور الدين عدداً من ثغوره ، فخاف قليج ارسلان مغبة ذلك فأرسل الى نور الدين يطلب الصلح فأجابه الى ذلك وأرسل له رسالة يقول له فيها :

اني أريد منك أموراً وقواعد ، ومهما تركت منها فلا أترك ثلاثة أشياء : أحدها أنك تجدد اسلامك على يد رسولي حتى يحل لي اقرارك على بلاد الاسلام، فإني لا أعتقدك مؤمناً – وكان قليج ارسلان يتهم باعتقاد مذهب الفلاسفة . والثاني : اذا طلبت عسكرك الى الغزاة تسيره فإنك قد ملكت طرفاً كبيراً من بلاد الاسلام وتركت الروم وجهادهم وهادنتهم ، فأما أن تنجدني بعسكرك لأقاتل بهم الافرنج ، وإما ان تجاهد من يجاورك من الروم وتبذل الوسع في جهادهم ، والثالث : ان تزوج ابنتك بسيف الدين غازي ولد أخي ...

وذكر أشياء أخرى غيرها كثيرة ووافق على ذلك قليج ارسلان [1] .

التاريخ الباهر لابن الاثير ، ص ١٦٠ – ١٦١ .

---

(١) أورد أبو شامة في كتاب الروضتين جـ١ ، ق٢ ص ٥٤٤ نصاً قريباً كل القرب من نصنا أعلاه .

١٢٨ – رسالة شفهية من نور الدين الى أيلدكز صاحب اذربيجان .

توفي قطب الدين اخو نور الدين وحاكم الموصل وأوصى بالملك من بعده لابنه الاكبر عماد الدين ، ولكن فخر الدين عبد المسيح – وزير قطب الـــدين – وخاتون – وهي ام سيف الدين الولد الثاني لقطب الدين – اتفقا على صرف الملك الى سيف الدين وخلع عماد الدين . فاستجار عماد الدين بعمه نور الدين فأجاره وذهب بنفسه لحصار سنجار واسترجاع حقه . وخاف الوزير عبد المسيح وسيف الدين من نور الدين ، فاستنجدا بايلدكز صاحب اذربيجان واصبهان . فأرسل ايلدكز رسولا الى نور الدين ، ينهاه عن التعرض الى الموصل وسيف الـــدين . ولكن نور الدين رفض ما طلبه ايلدكز وقال للرسول :

قل لصاحبك : انا اصلح لاولاد أخي منك ، فلا تدخل بيننا . وعند الفراغ من اصلاح بلادهم يكون لي معك الحديث على باب همذان فانك قد ملكت هذه المملكة العظيمة واهملت الثغور حتى غلب الكرج عليها . وقد بليت انا ، ولي مثل ربع بلادك بالفرنج فأخذت معظم بلادهم واسرت ملوكهم .

زبدة الحلب لابن العديم جـ ٢ ، ص ٣٣٢ .

و – شؤون المال والضرائب والخراج والمكوس :

١٢٩ – رسالة الى نور الدين من نوابـــه يطلبون اليه ان يستعين بالأموال التي يوزعها على الفقراء والصوفية من اجل الاعداد للحرب ومجاهدة الاعداء .

أراد نور الدين الاستعداد للحرب وبدأ يجمع المال فكتب اليه نوابه :

ان الصدقات كثيرة للفقهاء والصوفية ، فلو استعنت بها ثم تعوضهم عنها ،

١٣٠ – جواب نور الدين الى نوابه عن الرسالة السابقة وقد غضب منها :

ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا مـــا بأنفسهم . وهل ارجو النصر الا بهؤلاء ، وهل تنصرون الا بضعفائكم ؟

١٣١ – رسالة ثانية لنور الدين من نوابه من أجل الحصول على الأموال :

فلنقترض من أصحاب الأموال ثم نوفيهم .

شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٤ ، ص ١٨١ .

١٣٢ – رسالة من نور الدين الى احد الاشخاص في حلب .

ارسل احد الاشخاص في حلب الى نور الدين رسالة يخبره فيها ان تاجراً موسراً قدم حلب وتوفي فيها وخلف ولداً صغيراً ومالاً كثيراً ، وينصحـه ان يستولي على التركة .

أما الميت فرحمه الله تعالى ، وأما الولد فأنشأه الله ، وأما المال فثمره الله، وأما الساعي فلعنه الله .

الكواكب الدرية لابن قاضي شهبة ص ٢٦ .

١٣٣ – مرسوم أصدره نور الدين بإطلاق المظـالم ورد الأموال المغتصبة لأصحابها في كل من حلب ودمشق وحمص وحران وسنجار والرحبـة واعزاز وتل باشر وعداد العرب :

بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما تقرب به الى الله سبحانه صافحاً ، واطلقه مسامحاً لمن علم ضعفه من الرعايا ، رعـاهم الله ، لضعفهم عن عمارة ما اخربته أيدي الكفار ، أبادهم الله تعالى ، عند استيلائهم على البلاد وظهور كلمتهم في العباد ، رأفة بالمسلمين المثاغرين ، ولطفاً بالضعفـاء المرابطين الذين خصهم الله

سبحانه بفضيلة الجهاد ، واستمنحهم بمجاورة أهل العناد ، اختبـــاراً لصبرهم وإعظاماً لأجرهم ، فصبروا احتساباً واجزل الله لهم أجراً وثوابـاً : « انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب». وأعاد عليهم ما اغتصبوا عليه من أملاكهم التي أفاء الله عليهم بها من الفتوح العمرية ، وأقرها في الدولة الاسلامية بعد ما طرأ عليها من الظلمـــة المتقدمين ، واسترجعه بسيفه من الكفرة الملاعين . فطمس عنهم بذلك معالم الجور وهدم أركان التعدي ، وامر الحق مقرة لقوله تعالى : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها[1] والله يضاعف لمن يشاء »[2] .

ثم لما أعانه الله بعونه وأيده بنصره وقمع به عادية الكفر ، وأظهر بهمتـه شعائر الاسلام ، وأظفره بالفئة الطاغية ، وأمكنه من ملوكهـــا الباغية ، فجعلهم بين قتيل غير مُقاد ، وهارب ممنوع الرقـــاد « وآخرين مقرنين في الأصفاد ، هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب وان له عندنا لزلفى وحسن مآب »[3] علم ان الدنيا فانية فاستخدمها للآخرة البـــاقية . واستبقى ملكه الزائل بأن قدمه أمامه وجعله ذخراً للمعاد . فالتقوى مادة دارّة اذا انقطعت المواد ، وجادة واضحة حين تلتبس الجواد ، « يوم لا تملك نفس لنفس شيئـــاً والأمر يومئذ لله»[4]، فصفح لكافة المسافرين وجميع المسلمين بالضرائب والمكوس وأسقطها من دواوينه وحرمها على كل متطاول اليها ، ومتهافت عليها ، تجنباً لإثمها واكتساباً لثوابها ، فكان مبلغ ما سامح به وأطلقه وأنفذ الأمـر فيه ، اتباعاً لكتاب الله وسنة نبيّه ﷺ في كل سنة من العين : مـــائة الف وستة

---

(١) سورة الانعام : الآية ١٦٠ .
(٢) سورةالبقرة : الآية ١٦١ .
(٣) سورة : الآيات ٣٨ — ٤٠ .
(٤) سورة الانفطار : الآية ١٩ .

وخمسون الف دينار ، جهة ذلك .

حلب : خمسون الف دينار .

عزاز : عن مكس جددته الفرنج – خذلهم الله – على المسافرين : عشرة آلاف دينار .

تل باشر : واحد وعشرون الف دينار .

المعرة : ثلاثة آلاف دينار .

دمشق المحروسة: لما استنجد به اهلها واستصرخ من فيها خوفاً على انفسهم واموالهم من استيلاء العدو ، وضعفهم عن مقاومة ما كان يؤخذ منهم في كل سنة ، وهو رسم يسمونه القشة : عشرون الف دينار .

حمص : ستة وعشرون الف دينار .

حران : خمسة آلاف دينار.

سنجار : الف دينار .

الرحبة : عشرة آلاف دينار .

عداد العرب : عشرة آلاف دينار .

وما وقفه وتصدق به وأجراه في سبيل الخيرات ووجوه البر والصدقات تقدير ثمنه مائتا ألف دينار ، وتقدير الحاصل من ارتفاعه في كل سنة ستة وثلاثون ألف دينار؛ من ذلك ما وقفه على المدارس الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية وأئمتها ومدرسيها وفقهائها ، وما وقفه على آدر[1] الصوفية والربط والجسور والبيمارستانات والجوامع والمساجد والاسوار ، وما وقفه على السبيل

---

(١) آدر : دور .

في طريق الحجاز ، وما وقفه على فكاك الاسرى وتعليم الايتـام ومقر الغرباء وفقراء المسلمين ، وما وقفه على الاشراف العلويين والعباسيين ، ومـــا ملكه لجماعة من الأولياء والغزاة ، والمجاهدين . هذا جميعه سوى مـــا انعم به على اهل الثغور — حرسها الله تعالى — من املاكهم التي تقدم ذكرها ، فإنه يضاهي هذا المبلغ وزيادة عليه . جعل ذلك ذريعة عند الله تعالى وتقرباً اليه ، مضافاً الى ما انفقه في الغزاة والجهاد ، واستئصال شأفة الكفر والعناد ، من خزائنه المعمورة ، وأمواله الموروثة المذخورة ، طلباً لمـــا عند الله ، والله عنده حسن الثواب .

فالواجب على كل إمام عادل وسلطان قادر ان يمده ويوده ، ويشد عضده ويقوي عزمه وينفذ حكمه ، وعلى كل مسلم ان يواصله بالدعاء آناء الليل واطراف النهار .

وكتب خادم دولته وغذي نعمته عبد الرحمن بن عبد المنعم بن رضوان ابن عبـد الواحد بن محمد بن المنذر الحلبي — غفر الله له ورحمه ورضي عنه — الى كل من يصل اليه من أئمة الدين وفقهاء المسلمين وأصحاب الزوايا والمتعبدين وكافة التجار والمسافرين ، احسن الله توفيقهم ، وسدد الى اغراض الخير تفويقهم ، ليشعروا بذلك من حضرهم من التجار والمترددين اليهـــا من السفار ، ليعرفوا قدر ما أنعم الله به عليه وعليهم ، ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم ، ويمدوه بأدعيتهم ويبرئوا ذمته مما سبق من أخذ مؤونتهم ، فإنه لم يصرف ذلك الا في وجه بر ، وتجهيز جيش ومعونة مجاهد وردع كافر ومعاند ، فهم شركاؤه في الثواب [1] .

---

(١) ذكر ابن قاضي شهبة في الكواكب الدرية ص ٤٤–٤٦ نفس النص السابق ، ولكن نص ابي شامة أكمل وأوضح وأكثر تفصيلا .

كتاب الروضتين لأبي شامة جـ ١ ، ق ١ ، ص ٣٨ — ٤١ .

١٣٤ — أمر نور الدين بإسقاط المكوس في مصر سنة ٥٦٧ هـ، وقد تلاه صلاح الدين بأمر من نور الدين .

أما بعد : فإنا نحمد الله سبحانه على ما مكن لنا في الأرض ، وحسنه عندنا من أداء كل نافلة وفرض ، ونصبنا له من ازالة النصب عن عباده ، واختارنا له من الجهاد في الله حق جهاده ، وزهدنا فيه من متاع الدنيا القليل ، وألهمنا من محاسبة أنفسنا على النقير والضئيل ، وأولانا من شجاعة السماحة ، فيوماً نهب ما اشتملت عليه الدواوين ، ويوماً نقطع ما سقاه النيل ، فالبشائر في أيامنا تترى ، شفعاً ووتراً . والمسارُّ كنظام الجواهر تتبع الواحدة منها الأخرى ، والمسامحات قد ملأت المسامع والمطامع ، واسخطت الخيمة والصنائع وأرضت المنبر والجامع .

ولما تقلدنا امور الرعية رأينا المكوس الديوانية بالقاهرة ومصر ، اولى ما نقلناها من ان تكون لنا في الدنيا الى ان تكون لنا في الآخرة ، وان نتجرد منها لنلبس أثواب الأجر الفاخرة ونطهر منها مكاسبنا ، ونصون عنها مطالبنا ، ونكفي الرعية ضرهم الذي نتوجه اليهم ، ونضع عنهم إصرهم والاغلال التي كانت عليهم ، ونعيدها اليوم كأمس الذاهب ، ونضعها فلا ترفعها من بعد يد حاسب ولا قلم كاتب . فاستخرنا الله وعجلنا اليه ليرضى ، ورأينا فرصة أجر لا تغض عليها بصائر الابصار ولا يُغْضَى ، وخرج أمرنا بكتب هذا المنشور بمسامحة اهل القاهرة ومصر وجميع التجار المترددين اليها والى ساحل المقسم[1] . والمنية ، بأبواب المكوس صادرها وواردها ، فيرد التاجر ويسفر ، ويغيب عن

(١) المقسم : هو الميناء النهري للقاهرة الفاطمية .

ماله ويحضر ، ويقارض ويتجر براً وبحراً ، مركباً وظهراً ، سراً وجهراً ، لا يحل ما شده ، ولا يحاول ما عنده ، ولا يكشف ما ستره ، ولا يسأل عما اورده وأصدره ، ولا يستوقف في طريقه ، ولا يشرق بريقه ، ولا يؤخذ منه طعمه ، ولا يستباح له حرمه .

والذي اشتملت عليه المسامحة في السنة من العين مائة الف دينار ، مسامحة لا يتعقبها تأويل ولا يتخونها تحويل ، ولا يعتريها زوال ولا يعتورها انتقال ، دائمة بدوام الكلمة قائمة ما دام دين القيمة . من عارضها ردت أحكامه ومن ناقضها نقض إبرامه ، ومن أزالها زلت اقدامه ، ومن أحالها حل دمه ، ومن تعقبها خلدت اللعنة فيه وفي عقبه ، ومن احتاط لدنياه فيها احاط به الجحيم الذي هو من خطبه . فمن قرأه او قرىء عليه من كافة ولاة الأمر من صاحب سيف وقلم ومشارف او ناظر ، فليمتثل ما مثل من الأمر ، وليمضه على ممر الدهر ، مرضياً لربه ، ممضياً لما أمر به .

كتاب الروضتين لأبي شامة جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٥٢٢ – ٥٢٣ .

١٣٥ – منشور أصدره نور الدين سنة ٥٦٦ هـ بإسقاط المكوس في الموصل:

توفي قطب الدين اخو نور الدين حاكم الموصل ، واستبد بالحكم فيها وزير اخيه واسمه عبد المسيح . فحضر نور الدين الى الموصل وحارب الوزير وطرده واعاد الأمور الى نصابها وأبطل المكوس وكافة الضرائب واصدر بذلك منشوراً من فقراته ما يلي :

وقد قنعنا من كنز الاموال باليسير من الحلال ، فسحقاً للسحت ومحقاً للحرام الحقيق بالمقت ، وبعداً لما يبعد من رضا الرب ويقصي من محل القرب . وقد استخرنا الله وتقربنا اليه ، وتوكلنا في جميع الاحوال عليه . وتقدمنا

بإسقاط كل مكس وضريبة في كل ولاية لنا بعيدة او قريبـة ، وازالة كل جهة مشتبهة مشوبة ، ومحو كل سنة سيئة شنيعة ، ونفي كل مَظلمة مُظلمة فظيعة ، واحياء كل سنة ، وانتهاز كل فرصة في الخير ممكنة ، واطلاق كل مـا جرت العادة بأخذه من الاموال المحظورة ، خوفاً من عواقبها الرديئة المحذورة ، فلا يبقى في جميع ولايتنا جور جائر جارياً ، ولا عمل لا يكون به الله راضياً ، ايثاراً للثواب الآجل على الحطام العاجل . وهذا حق الله قضيناه وواجب علينا أديناه ، بل هي سنة استننناها ومحجة واضحة بيناهـا وقاعدة محكمة مهدناها وفائدة مغتنمة افدناها .

كتاب الروضتين لأبي شامة ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٧٩ – ٤٨٠ .

١٣٦– مرسوم أصدره نور الدين بإلغاء ضريبة الاتبان في دمشق وضواحيها سنة ٥٦٨ هـ. :

الحمد لله . وبعد: فإن من سنتنا العادلة وسير ايامنا الزاهرة وعوائد دولتنا القاهرة . إشاعة المعروف واغاثة الملهوف وانصاف المظلوم ، واعفاء رسم مـا سنه الظالمون من جائرات الرسوم . وما نزال نجدد للرعية رسماً من الاحسان يرتعون في رياضه ويرتوون من حياضه . ونستقرىء اعمـال بلادنا المحروسة ونصفيها من الشبه والشوائب ، ونُلحِق مـا يعثر عليه من بواقي رسومهـا الضائرة مما اسقطناه من المكوس والضرائب ، تقربـاً الى الله تعالى الكافل بسبوغ المواهب وبلوغ المطالب . وقد اطلقنا جميع ما جرت العادة بأخذه من فريضة الاتبان المقسطة على اعمال دمشق المحروسة وضياع الغوطة والمرج وجبل سَنير[1] وقصر حجاج والشاغور والعقيبة ، ومزارعها الجـارية في الاملاك ،

(١) مكان بين حمص وبعلبك .

وجميع ما يقسط بعد المقاسمة من الاتبان على الضياع الخواص والمقطعة بسائر الأعمال المذكورة ، وفرناه على أربابه طلباً لرضاة الله وعظيم اجره وثوابه ، وهرباً من انتقامه وأليم عقابه . وسبيل النواب اطلاق ذلك على الدوام وتعفية آثاره والاستعفاء من أوزاره ، والاحتراز من التدنس بأوضاره ، وابطال رسمه من الدواوين لاستقبال سنة تسع وستين وما بعدها على تعاقب الأيام والسنين .

كتاب الروضتين لأبي شامة ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٥٠ – ٥٥١ .

١٣٧ – منشور أصدره نور الدين بإبطال وإسقاط المكوس في جميع البلاد الخاضعة لحكمه :

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله فاتح أبواب الخيرات بعد اغلاقها ، وناهج سبل النجاة لطلابها ، وطراقها ، وفارج الكربات بعد ارتاجها وأطباقها ، الذي منح أولياءه التوفيق وأوضح لهم دليله ، ونصر أهل الحق وأعان قبيله . نحمده على جزيل مواهبه وجليل رغائبه وبالغ هدايته وسابغ وقايته ، ونسأله أن يصلي على سيدنا محمد الذي أوضح الطريق وفرج المضايق وانجب المحجة وأوجب الحجة ، وخفف الله ببعثه كل أصر ، وجعل أمته خير أمة وعصره خير عصر ، وعلى آله الأكرمين ما اسفر بدر وأنار فجر .

وبعد : فقد اتضح على الافهام ، وصح عند الخاص والعام ، ما نغاديه ونراوحه ، ونماسيه ونصابحه ونشتغل به عامة اوقاتنا ونعمل فيه رويتنا وأفكارنا ، ونستنفد بالاهتمام به ساعاتنا ولحظاتنا في الاجتهاد في إحياء سنة حسنة يكون لنا أجرها وأجر من عمل بها ، واماتة سنة سيئة نخلص من عظيم وزرها ووخيم خزيها ، وازالة مظلمة مظلمة وطد الجور أساسها ، ومحو سيرة مؤلمة أبرم الحيف أمراسها ، ليعم الرعايا لباس الفضل والامتنان ، ويفيض على

البرايا سجال العدل والاحسان ، ليصبحوا من حياض الأمن دارعين ، وفي رياض الدعة وادعين ، لا يجدون للنعم عندهم تبديلاً ولا تغييراً ، لا يجدون لصافي شربهم تصريداً ولا تكديراً ، ولا يظلمون نقيراً ، فما يسفر صبح ولا يعتكر جنح الا ولله علينا نعمة لا نستطيع الاحاطة بشكرها ولا نطيق قدرها لحق قدرها ، فيما يوفقنا له من فعل الخيرات ويلهمنا اياه من ازالة المنكرات ويهدينا اليه من الأعمال الصالحات وينقذنا به من الموارد المهلكات ، ويوضحه لنا من الطريق الى رضاه ، ويبعثنا به على الجد في عبادته وتقاه . فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله .

وقد علمتم – معاشر الرعايا – وفقكم الله ورعاكم – ما كان مرتباً من المظالم المجحفة بأحوالكم والمكوس المستولية على شطر أموالكم ، والرسوم المضيقة عليكم في أرزاقكم ، والمؤن التي تساهمكم في منافع املاككم ، واستمرار ذلك عليكم ، الى ان فوّض الله عز وجل الينا تدبير اموالكم واسترعانا على كبيركم وصغيركم ، فأمرنا بازالة ذلك عنكم اولاً فأولاً ، ولم نبتغ في اقراره على وجوهه شبهة ولا تأولاً . وقد كان بقي من رسوم الظلم ومعالم الجور في سائر الاعمال بولايتنا ما أمرنا بإزالته الآن ، وأضفنا ذلك الى ما كنا اسقطناه أولاً رأفة بكم ولطفاً ، وتخففاً عليكم وعطفاً . « الآن خفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضعفاً » . وسنذكر ما أزلناه من المظالم والمكوس أولاً وآخراً من سائر أعمال ولايتنا – عمرها الله – في هذا السجل من الديوان .

ثم كتب بقلم دقيق ما صورته :

ذكر ما أطلق من الرسوم والمؤن والمكوس والضرائب في سائر اعمال الولاية المحروسة – عمرها الله – شاميها وجزيرتها في تواريخ متقدمة وفي تاريخ هذا السجل ، ورسم اطلاق ذلك كله وتعفية آثاره واخماد ناره .

ومبلغ ما يحصل من ذلك كل سنة: خمسمائة ألف وستة وثمانون الفاً واربعمائة وسبعون ديناراً نقداً . الشام ، فمن ذلك :

دمشق : بتواريخ متقدمة ما هي في هذا الاطلاق : مائتا الف وعشرون الفاً وخمسمائة وثلاثة وثمانون ديناراً .

دمشق : في تاريخ هذا الكتاب : خمسون الفاً وسبعمائة وثلاثون ديناراً .

تدمر : خمسمائة دينار .

صرخد : سبعمائة وخمسون ديناراً .

القريتان والسخنة : خمسمائة دينار .

بانياس : الف ومائتا دينار .

بعلبك واعمالها : ستة آلاف وتسعمائة وعشرون ديناراً .

حمص واعمالها : ستة وعشرون الفاً واربعمائة وعشرون ديناراً .

حماه واعمالها : ستة وعشرون الفاً واثنان وتسعون ديناراً .

حلب واعمالها : ستة وتسعون الفاً ومائة وستة وثمانون ديناراً .

سرمين : الفان وثلاثمائة وستون ديناراً .

معرة النعمان : سبعة آلاف دينار .

كفرطاب : ألفا دينار .

عزاز : ستة آلاف وخمسمائة دينار .

تل باشر : الف وخمسمائة دينار .

عين تاب : تسعة وثمانون ديناراً .

بالس : أربعة آلاف دينار .

منبج واعمالها : ثمانية عشر الفاً وخمسمائة وستة وستون ديناراً .

بزاعة والباب : ثلاثة آلاف دينار .

قلعة نجم : ثلاثمائة دينار .

قلعة جعبر : سبعة آلاف وستمائة وستة وتسعون ديناراً .

الرقة : ستة وعشرون الفاً وسبعمائة وثلاثة وستون ديناراً .

الرها : ثمانية آلاف وخمسمائة دينار .

حران : ستة عشر الفاً وستمائة وواحد وسبعون ديناراً .

سنجار : سبعة آلاف وثمانية دنانير .

الموصل واعمالها : ثمانية وثمانون الفاً ومائة وستة وأربعون ديناراً .

نصيبين : عشرة آلاف واربعمائة وستة وثمانون ديناراً .

عربان : خمسة آلاف وسبعمائة دينار .

بطنان[1] : مائتان وخمسون ديناراً .

تبنين والارسل : سبعمائة وخمسون ديناراً .

السمسمانية[2] : الف دينار .

قرقيسيا : الفا دينار .

السكيرة : مائتا دينار .

ماكسين : خمسة آلاف دينار .

(١و٢) من أعمال الخابور . والخابور نهر يجري في شمالي شرقي سوريا ويرفد الفرات .

الجدل : ثلاثة آلاف وخمسة دنانير .

الحصين[1] : ستمائة وخمسة وثلاثون ديناراً .

الجحشية[2] : مائة دينار .

الحولية[3] : مائة وثلاثة وستون ديناراً .

الرحبة : ستة عشر الفاً وسبعمائة وأربعون ديناراً .

[وغير ذلك ما عيناه خوفاً من الاطالة] .

ثم كتب بعد ذلك بالقلم الجافي .

تحقيقاً للحق وتمحيقاً للباطل ، ونشراً للعدل وتقديماً للصلاح الشامل وايثاراً للثواب الآجل على الحطام العاجل ، وتأميلاً لحسن الخلق من الله الكافي الكامل ، وتخليصاً للأمة من درك المظالم ، وتنزيهاً للنفس من درن المآثم ، واستعفاءً من تحمل الاوزار ، واستغناءً بما أولاه الله من سابغ المدرار ، وشكراً لما أولاه من الفضل الجسيم والمنح العميم ، وهداية الى الصراط المستقيم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

فاعلموا — رعاكم الله — ما أمرناه ، واسكنوا الى ما قررناه ، واشكروا الله على ما سهله وسنّاه ، وأجزله من فضله واسناه ، وايقنوا أن ذلك الانعام العام مستمر على الدهور وباق الى يوم النشور ، وكلوا من رزق ربكم ، واشكروا له «بلدة طيبة ورب غفور» . وسبيل كل واقف على هذا المثال من الولاة والنواب والأصحاب والأعمال والعمال — اعزهم الله — حذف ذلك كله ، وتعفية رسومه ومحو آثاره ودحض أوزاره ، وازالة اوضاره ، وصون جمال الدولة عن شين عاره ، واطلاقه على الاطلاق من غير تبديل يحل عقده ، ولا فسخ يكدر ورده ،

(١و٢و٣) راجع المرجع السابق .

فمن بدله بعدما سمعه فانما إثمه على الذين يبدلونه ، ان الله سميع عليم .

والتوقيع الأعلى حجة لمضمونه ومقتضاه ، وليمتثل الأمر فيه ان شاء الله.

وكتب بالمشافهة الكريمة – شرفها الله تعالى – في مستهل شهر الله الأصب رجب سنة سبع وستين وخمسمائة .

مفرج الكروب لابن واصل جـ ١ ، ص ٢٧١ – ٢٧٩ .

ز – شؤون ادارية :

١٣٨ – صورة ما كان يخطب به على المنابر لنور الدين :

اللهم واصلح المولى السلطان الملك العادل العالم العامل الزاهد العابد الورع المجاهد المرابط المثاغر نور الدين وعدته ، ركن الاسلام وسيفه ، قسيم الدولة وعمادها ، اختيار الخلافة ومعزها ، رضي الامامة واثيرها ، فخر الملة ومجيرها ، شمس المعالي وملكها ، سيد ملوك المشرق والمغرب وسلطانها ، محيي العدل في العالمين ، منصف المظلوم من الظالمين ناصر دولة امير المؤمنين .

الكواكب الدرية لابن قاضي شهبة ص ٦٨ – ٦٩ .

١٣٩ – رسالة ابن القيسراني الى نور الدين حول الصيغة التي يقترحها ليخطب له بها على المنابر :

طلب نور الدين من ابن القيسراني ان يكتب له صورة ما يدعى له به على المنابر حتى لا يقول الخطيب في نور الدين ويمدحه بما ليس فيه ويصونه عن الكذب وعما هو مخالف لحاله ، فأرسل ابن القيسراني له يقول :

اعلى الله قدر المولى في الدارين ، وبلغه آماله في نفسه وذريته ، وختم له بخير في العاجلة والآجلة بمنه وجوده وفضله وحمده .

وقف المملوك على الرقعة وتضاعف دعاؤه وابتهاله الى الله تعالى بأن يرضى عنه وعن والديه ، وان يسهل له السلوك الى مرضاه والقرب منه والفوز عنده انه على كل شيء قدير . وقد رأى المملوك ما يعرضه على العلم الأشرف – زاده الله شرفاً – وهو ان يذكر الخطيب على المنبر اذا أراد الدعاء للمولى :

اللهم اصلح عبدك الفقير الى رحمتك ، الخاضع لهيبتك ، المعتصم بقوتك ، المجاهد في سبيلك ، المرابط لاعداء دينك أبا القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر ناصر أمير المؤمنين . فإن هذا جميعه لا يدخله كذب ولا تزيد ، والرأي أعلى وأسمى ان شاء الله تعالى .

١٤٠ – جواب نور الدين لابن القيسراني على الرسالة السابقة :

مقصودي الا يكذب على المنبر . أنا بخلاف كل ما يقال ، افرح بما لا اعمل ، قلة عقل عظيم . الذي كتبت جيد هو . اكتب به نسخ حتى نسيره الى جميع البلاد ...[1]

كتاب الروضتين لأبي شامة جـ ١ ، ق ١ ، ص ٣٠ .

١٤١ – كتاب وجهه نور الدين الى الشيخ ابن ابي عصرون يوليه فيه قضاء مصر ويمدح فيه أيضاً صلاح الدين :

حسبي الله وكفى . وفق الله الشيخ الامام شرف الدين لطاعته ، وختم له بخير . غيرُ خافٍ على الشيخ ما أنا فيه ، وكل غرضي ومقصودي في مصالح المسلمين وما يقربني الى الله ، والله ولي التوفيق ، والمطلع على نيتي . وانت

---

(١) ذكر ابن قاضي شهبة في الكواكب الدرية ص ٦٩ صيغة الدعاء وجواب نور الدين ، وهو موافق لما ورد أعلاه ، ولكنه اضاف في نفس الصفحة ما يلي : وكتب في آخر الرقعة : ثم يبدأ بالدعاء : اللهم أره الحق حقاً ، اللهم اسعده ، اللهم انصره ، اللهم وفقه ... من هذا الجنس .

تعلم نبي كما قال عز من قائل : ومن عنده علم الكتاب[1] .

أنت تعلم اليوم ان مصر اليوم قد لزمنا النظر فيهـــا ، فهي من الفتوحات الكبار التي جعلها الله تعالى دار اسلام بعد ما كانت دار كفر ونفاق ، فلله المنة والحمد . الا ان المقدم على كل شيء أمور الدين التي هي الأصل ، وبها النجاة . وانت تعلم ان مصر واقليمها ما هي قليلة ، وهي خالية من أمور الشرع ، وما تدخر الدموع الا للشدائد . وأنا ما كنت اسخي واشتهي مفارقتك . والآن فقد تعين عليك وعليّ أيضاً ان ننظر في مصالحها . وما لنا أحد اليوم لهـــا الا أنت ، ولا اقدر اولي امورها ولا اقلدها الا لك حتى تبرأ ذمتي عنـــد الله . فيجب عليك – وفقك الله – ان تشمر عن ساق الاجتهاد وتتولى قضاءهـا ، وتعمل ما تعلم انه يقربك الى الله . وقد برئت ذمتي وانت تجاوب الله . فاذا كنت انت هناك وولدك ابو المعالي – وفقه الله – فيطيب قلبي وتبرأ ذمتي . وقد كتبت هـــذا بخطي حتى لا يبقى عليّ حجة . تصل أنت وولدك عندي حتى اسيركم الى مصر ، والسلام ، بموافقة صاحبي واتفاق معك ، صلاح الدين – وفقه الله – فأنا منه شاكر كثير كثير كثير ، جزاه الله خيراً وابقـاه ؛ ففي بقاء الصالحين والاخيار صلاح عظيم ومنفعة لأهل الاسلام . الله تعالى يكثر من الأخيار واعوان الخير ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً .

كتاب الروضتين لأبي شامة جـ ١ ق ٢ ، ص ٤٤٢ – ٤٤٣ .

---

(١) سورة الرعد : الآية ٤٣ .

الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين الشهيد

٥٦٩ – ٥٧٧ هـ/١١٧٣ – ١١٨١ م

١٤٢ – رسالة الملك الصالح الى صلاح الدين يخبره بوفاة والده نور الدين من انشاء العماد الاصفهاني :

اطال الله بقاء سيدنا الملك الناصر ، وعظم أجرنا واجره في والدنا الملك العادل. ندب الشام، بل الاسلام، حافظ ثغوره وملاحظ اموره. وعدم الجهادُ مقتني فضيلته ومؤدي فريضته ، ومحيي سنته ؛ واورثنا بالاستحقاق ملكه وسريره . على انه يعز ان يرى الزمان نظيره. وما هاهنا ما يشغل السر ويقسم الفكر ، الا أمر الفرنج – خذلهم الله – وما كان اعتماد مولانا الملك العادل عليه وسكونه اليه الا لمثل هذا الحادث الجلل ، والصرف الكارث المذهل ، فقد ادخره لكفايات النوائب ، واعده لحسم ادواء المعضلات اللوازب ، واملهُ ليومه ولغده ، ورجاه لنفسه وولده ، ومكنه قوة لعضده . فما فقد – رحمه الله – الا صورة ، والأصل باق . والله تعالى حافظ لبيته واقٍ . وهل غيره – دام سموه – من مؤازر ، وهل سوى السيد الأجل الناصر من ناصر ؟ وقد عرفناه المقترح ليروض برأيه من الأمر ما جمح. والأهم شغل الكفار عن هذه الديار ، بما كان عازماً عليه من قصدهم والنكاية فيهم على البدار ، ويجري على

العادة الحسنى في احياء ذكر الوالد هناك بتجديد ذكرنا ، راغباً في اغتنام ثنائنا وشكرنا[1] .

مفرج الكروب لابن واصل جـ ٢ ، ص ٢ – ٣ .

١٤٣ – مقتطفات من رسالة صلاح الدين الجوابية الى الملك الصالح على الرسالة السابقة من انشاء القاضي الفاضل .

افتتح الرسالة بقوله :

لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة[2] .

وفي آخره .

وأما العدو – خذله الله تعالى – فوراءه من الخادم من يطلبه طلب ليل انهار وسيل لقرار ، الى ان يزعجه من مجاثمه ، ويستوقفه عن مواقف مغانمه . وذلك من اقل فروض البيت الكريم وايسر لوازمه .

اصدر هذه الخدمة يوم الجمعة رابع ذي القعدة ، وهو اليوم الذي اقيمت فيه الخطبة بالاسم الكريم وصرح فيه بذكره في الموقف العظيم ، والجمع الذي لا لغو فيه ولا تأثيم ، واشبه يوم الخادم امسه في الخدمة ، ووفى ما لزمه من حقوق النعمة وجمع كلمة الاسلام عالماً ان الجماعة رحمة . والله تعالى يخلد ملك المولى الملك الصالح ويصلح به وعلى يديه ، ويؤكد عهود النعماء الراهنة لديه ،

---

(١) ورد نص قريب كل القرب من نصنا اعلاه في كتاب الروضتين لأبي شامة جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٥٨٦ .

(٢) ورد مفتتح هذه الرسالة وحدها في مفرج الكروب لابن واصل جـ ٢ ، ص ٤ ولم ترد في أبي شامة .

ويجعل للاسلام واقية باقية عليه ، ويوفق الخـــادم لما ينويه من توثيق سلطانه وتشييده ، ومضاعفة ملكه ومزيده ، وييسر منال كل امل صـالح وتقريب بعيده ، ان شاء الله تعالى[1] .

كتاب الروضتين لابي شامة جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٥٨٧ – ٥٨٨ .

١٤٤ – مقتطفات من رسالة اخرى ارسلهـا صلاح الدين الى الملك الصالح يعيد تهنئته ويؤكد ولاءه :

والخادم مستمر على بدأته من الاستشراف لاوامرها ، والتعرض لمراسمهـا والرفع لكلمتها ، والايالة لعسكرها ، والتحقق بخدمتها ، في بواطن الأحوال وظواهرها ، والترقب لأن يؤمر فيمتثل ، ويكلف فيحتمل ، وان يرمي به في نحر عدوه فيتسدد بجهده ، ويوفي أيام الدولة العالية يومـاً يكشف الله فيه للمولى ضمير عبده .

كتاب الروضتين لأبي شامة جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٥٨٨ .

١٤٥ – رسالة من صلاح الدين الى أحد امراء الشام معزياً بوفاة نور الدين ومهنئاً باستلام ابنه الملك الصالح مكان ابيه من انشاء القاضي الفاضل :

كتابنا هذا الى الامير معزين بالرزء الذي كملت أقسامـــه وتمت ، ورمت احداثه القلوب فأصمت ، وطرقت احاديثه الاسماع فأصمَّت ، وأبى أن تعفو كلومه ، وكاد لأجله الأفق تتكسف بدوره وتنكسف نجومه . وثلم جـانب الدين لفقد من لولاه لدرست اعلامه ولم تُدْرَس علومه ، وفجـأ فاستولى على كل قلب وجيبه ، وعلى كل خاطر وجومه ، بانتقال المولى نور الدين الى سكنى

(١) ذكر ابن واصل في مفرج الكروب جـ٢ ، ص ٤ نصاً قريباً من نصنا أعلاه .

دار السلام ، وقدومه على مـــا أعده الله من جزاء ذبه عن الاسلام ، وبكى أهله على فقد عزائمه التي بها حفظت وحرست اوشكت الممالك وحشة بعده ، وان ابتهجت الملائكة بقربه وأنست ، فلله له ! من مصـاب اغرى العيون بفيضها ، والنفوس بقيظها ، ونقل الأولياء من ظل المسرة ونعيمها الى هجيرة المساءة وقيظها ، واوجب تناجي الكفار بالنجـاة من تلك السطوة التي لم تزل تزيدها غماً وتردها بغيظها .

ومهنئين بما أسى الكلم وداواه ، وحوى الحق الى الجـانب الامنع وآواه ، من جلوس ولده الملك الصالح ذي التصويب والتسديد ، مشمولاً منـا بالعرف العميم والطول الجسيم ، جاريـــاً على سنته المعهودة وعادته المحمودة ، في رفع صالح ادعيته عن صفاء سريرته وخلوص عقيدته ، مستمراً على جميل تحيته ، في امدادنا ببركته ان شاء الله تعالى .

صبح الأعشى للقلقشندي ج ٧ — ٢٩ .

١٤٦ — رسالة صلاح الدين الى كمال الدين وبقيـــة الأمراء الموجودين حول الملك الصالح :

كان الملك الصالح صغير السن ، ولذلك استلم قواد ابيه الحكم باسمه ، ولم يكونوا اكفاء واختلفوا وتناحروا . وكذلك طمع ابن عمه سيف الدين غازي صاحب الموصل في املاكه وزحف على سورية واحتل الجزيرة ، فأرسل صلاح الدين الى كمال الدين والامراء الملتفين حول الملك الصالح يقول :

ان الملك العادل ، لو علم ان فيكم من يقوم مقامي ، او يثق اليه مثل ثقته بي ، يسلم اليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولاياته ، ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد الى احد بتربية ولده والقيام بخدمته سواي . واراكم قد تفردتم بخدمة

مولاي دوني ، وسوف اصل الى خدمته وأجازي انعام والده بخدمة يظهر اثرها ، واقابل كلاً منكم على سوء صنيعه واهمال امر الملك الصالح ومصالحه حتى اخذت بلاده[1] .

التاريخ الباهر لابن الأثير ص ١٦٣ .

١٤٧ — رسالة من ابن المقدم الى صلاح الدين حول الملك الصالح :

اضطربت احوال الملك الصالح وتنازعته القوى المسيطرة عليه ، فقرر صلاح الدين التدخل من اجل انقاذ الوضع المتدهور ، ولم تخف نيته على أرباب الدولة ، فأرسل اليه ابن المقدم احد المتنفذين حول الملك الصالح رسالة يردعه عن مثل ذلك العزم ويقول له ، وذلك سنة ٥٧٠ هـ .

لا يقال عنك انك طمعت في بيت من غرسك ورباك واسسك وامضى مشربك واحتفى ملبسك واجلى سكونك لملك مصر ، وفي دسته اجلسك ، فما يليق بما لك ومحاسن اخلاقك وخلالك غير فضلك وافضالك .

١٤٨ — جواب صلاح الدين لابن المقدم عن الرسالة السابقة من انشاء القاضي الفاضل :

إنا لا نؤثر للاسلام واهله الا ما جمع شملهم وألف كلمتهم ، وللبيت الاتابكي — اعلاه الله تعالى — الا ما يحفظ اصله وفرعه ، ودفع ضره وجلب نفعه . فالوفاء انما يكون بعد الوفاة . والمحبة ، انما تظهر آثارها عند تكاثر اطماع

---

(١) ذكر عدد من المصادر نصوصاً متقاربة كل التقارب لهذه الرسالة الشهيرة كما في مفرج الكروب لابن واصل ج٢ ، ص ٧ وكتاب الروضتين لأبي شامة ج١ ، ق٢ ، ص ٥٩٠ والكامل في التاريخ لابن الأثير ج ١١ ، ص ٤٠٥ — ٤٠٦ .

العداة . وبالجملة انا في وادٍ ، والظانون بنا ظن السوء في وادٍ ، ولنا من الصلاح مراد ، ولمن يبعدنا عنه مـراد ، ولا يقال لمن طلب الصلاح انك قادح ، ولمن ألقى السلاح انك جارح[1].

كتاب الروضتين لأبي شامة جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٥٩٧ – ٥٩٨ .

١٤٩ – رسالة شمس الدين بن الداية حاكم حلب الى الامراء حول الملـك الصالح :

احتل سيف الدين ابن عم الملك الصالح صاحب الموصل الجزيرة . وخاف ابن الداية ، وكان أكبر الامراء النورية وحـاكم حلب ، ان يعبر سيف الدين الفرات ويصل الى حلب ، وهو لا طاقة له بحربه ، فأرسل الى الامـراء حول الملك الصالح يدعوهم الى القدوم بالسلطان الى حلب وجميع الجيوش لصد سيف الدين واسترجاع ما احتله ويقول :

ان سيف الدين قد ملـك الى الفرات ، ولئن لم ترسلوا الملك الصـالح الى حلب حتى يجمع العساكر ويسترد ما أخذ منهم ، وإلا عبر سيف الدين الفرات الى حلب ولا نقوى على منعه .

فلم يرسلوه ولا مكنوه من قصد حلب[2] .

كتاب الروضتين لأبي شامة جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٥٩٠ .

١٥٠ – رسالة الامراء حول الملك الصالح الى صلاح الدين لمـا هَزم صلاحُ

---

(١) أورد ابن واصل في مفرج الكروب جـ٢ ، ص ١٨ نص جواب صلاح الدين على رسالة ابن المقدم سالفة الذكر .

(٢) ذكر ابن الأثير في التاريخ الباهر ، ص ١٦٣ نص هذه الرسالة وهي لا تختلف عن نصنا الا اختلافاً يسيراً جداً .

الدين جيشهم واحتل دمشق ومال الناس اليه وهرب الملك الصالح والامراء الى حلب . ومن هناك ارسلوا له هذه الرسالة الشفهية مع شخص اسمه قطب الدين نيال بن حسان :

هذه السيوف التي ملكتك مصر بأيدينا ، والرماح التي حويت بها قصور المصريين على اكتافنا ، والرجال التي ردت عنك تلك العساكر هي تردك، وعما تصديت له تصدك . وأنت قد تعديت طورك وتجاوزت حدك . وانت احد غلمان نور الدين وممن يجب عليه حفظه في ولده .

كتاب الروضتين لأبي شامة جـ ١ ، ق ٢ ، ص٦٠٧ .

١٥١– رسالة الخادم كمشتكين الى صلاح الدين يطلب منه السماح له بدخول حلب :

حاصر صلاح الدين حلب سنة ٥٧١ هـ . وفيها الملك الصالح وبقية الامراء . وكان كمشتكين من كبار الامراء حول الملك الصالح ، ولم يكن آنذاك بحلب وانما كان في حارم ، فخاف ان يتم صلح بين صلاح الدين والملك الصالح ، كما خاف ان يقصده صلاح الدين ، ولذلك لجأ الى الحيلة ليتمكن من الرجوع الى حلب ، فأرسل الى صلاح الدين يقول :

لو فسح لي في الدخول الى حلب لسارعت في الخدمة ، واصلحت الامر على ما يرومه السلطان .

١٥٢ – رسالة كمشتكين الخادم الى الملك الصالح والامراء من حوله في حلب يطلب منهم السعي معه لدى صلاح الدين ليسمح له بدخول حلب :

قد حصلت خارجاً ، وقد بلغتني امور، ولا بد من طلبي من الملك الناصر ليأذن لي في الصيرورة اليكم ، فان الذي حصل عندي لا يمكنني الكلام فيه .

فتراسل الطرفان حتى سمح لكمشتكين بالدخول الى حلب، وكان ذلك خدعة منه للسلطان .

كتاب الروضتين لأبي شامة جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٦٦٢ .

١٥٣ – خطبـة الملك الصالح في أهل حلب يطلب منهم مساعدتـه ضد صلاح الدين الذي حاصر حلب وفيها الملك الصالح والامراء :

قـد عرفتم احسان ابي اليكم ومحبتـه لكم وسيرته فيكم ، وانا يتيمكم . وقد جاء هذا الظالم الجاحد احسان والدي اليه يأخـذ بلدي ولا يراقب الله تعالى ولا الخلق .

الكامل في التاريخ لابن الاثير جـ ١١ ص٤١٨ .

الأيوبيُّون

٥٦٩ — ٦٥٨ هـ

١١٧٣ — ١٢٦٠م

صلاح الدين الايوبي يوسف بن أيوب

٥٦٩ – ٥٨٩ ﻫ / ١١٧٣ – ١١٩٣ م

ا – علاقته بخلفاء بغداد العباسيين :

١٥٤ – رسالة صلاح الدين الى الخليفة المستضيء بنور الله العباسي يشرح بها احواله وما قام به من اعمال من إنشاء القاضي الفاضل:

هي عبارة عن فصول :

فصل منها في ذكر أهل مصر .

ووصلنا البلاد ، وبها اجناد عددهم كثير وسوادهم كبير ، واموالهم واسعة وكلمتهم جامعة ، وهم على حرب الاسلام اقدر منهم على حرب الكفر . والحيلة في السر فيهم انفذ من العزيمة في الجهر ، وبها راجل من السودان يزيد على مائة الف رجل ، كلهم اغنام اعجام ، ان هم الا كالانعام ، لا يعرفون رباً الا ساكن قصره ، ولا قبلة الا ما يتوجهون اليه من ركنه وامتثال امره ، وبها عسكر من الارمن باقون على النصرانية ، موضوعة عنهم الجزية ، لهم شوكة وشكة وحمة وحمية ، ولهم حواشٍ اقصرهم من بين داعٍ تتلطف في الضلال مداخله ، وتصيب العقول مخاتله . ومن كُتّابٍ تفعل اقلامهم فعل الأسل ، وخدام يجمعون الى سواد الوجوه سواد النحل ، ودولة قد كبر عليها الصغير ، ولم يعرف غيرها

الكبير ، ومهابة تمنع من خطرات الضمير ، فكيف بخطوات التدبير . هذا الى استباحة للمحارم ظاهرة وتعطيل للفرائض علـى عادة جارية جائرة ، وتحريف للشريعة بالتأويل ، وعدول الى غـير مراد الله بالتنزيل ، وكفر يسمى بغير اسمه ، وشرع يتستر به ويحكم بغير حكمه ، فما زلنا نسحتهم سحت المبارد للشفار ، ونتحيفهم تحيف الليالي والنهـار بعجائب تدبير لا تحتملها المساطير ، وغرائب تقدير لا تحملها الاساطير . فشرعنا في تلـك الطوائف من الاجناد والسودان والارمن فأخرجنـاهم من القاهرة حتى بقي القصر ومن بـه من خدم وذرية قد تفرقت شيعه وغرقت بدعه وأخفيت دعوته وخفتت ضلالته . فهناك تمت لنا اقامة الكلمة ، والجهر بالخطبة ، والرفع للواء الاعظم الاسود . وعجل الله للطاغية الأكبر بفنائه ، وبرأنا من عهـدة يمين كان أثم حنثها أيسر من إثم بقائه ، الا انه عوجل لفرط روعته ، ووافق هلاك شخصه هلاك دولته .

فصل :

وكان باليمن ما علم من امر ابن مهدي الضال الملحد المبتدع المتمرد ، وله آثار في الاسلام وثأر طالبه النبي – عليه الصلاة والسلام – لانه سبى الشرائف الصالحات ، وباعهن بالثمن البخس ، واستبـاح منهن كل ما لا تقر عليه نفس ، ودان ببدعة صعبة ، ودعا الى قبر ابيه وسماه كعبة . واخـذ اموال الرعايا المعصومة واجاحها ، واحل الفروج المحرمة واباحها .

فصل :

ولنا بالمغرب اثر اغرب ، قد ملكنا مما تجاور منه بلادنا بلاداً تزيد مسافتها على شهر ، وسيرنا اليها عسكراً بعد عسكر ، رجع بنصر بعد نصر ، من مشاهيرها : برقة ، قفصة ، توزر . كل هذه تقام فيها الخطبة لمولانا المستضيء بنور الله سلام الله عليه .

ثم ذكر تشتت بلاد الشام بعد وفاة نور الدين وطمع العدو فيها لاختلاف الآراء، وان كل قلعة قد حصل فيها صاحب، وكل جانب قد طمع فيه طالب وساءت السيرة وخبثت السريرة .

فصل :

وعرفنا ان البيت المقدس ان لم تتيسر الاسباب لفتحه، وأمر الكفر ان لم نجرد العزم لقلعه، والا نبتت عروقه واتسعت على المسلمين خروقه، وكانت الحجة لله قائمة، وهم القادرين، بالقعود آثمة، وانا لا نتمكن بمصر منه، مع بعد المسافة وانقطاع العمارة وكلال الدواب التي بها على الجهاد قوة، واذا جاوزناه كانت المصلحة بادية، والمنفعة جامعة واليد قادرة، والبلاد قريبة والغزوة ممكنة والميرة متسعة والخيل مستريحة والعساكر كثيرة الجموع .

واذا شد رأينا حسن الرأي ضربنا بسيف يقطع في غمده، وبلغنا المنى بمشيئة الله، ويد كل مسلم تحت برده، واستنقذنا اسيراً من المسجد الأقصى الذي اسرى الله اليه بعبده .

ثم ذكر فيه :

انه قدم الشام لاصلاح الامور وحفظ الثغور وخدمة ابن نور الدين وكفالته وتخليصه من قوم يأكلون الدنيا باسمه ويبالغون في ظلمه .

ثم طلب من الخليفة تقليداً جامعاً بمصر والمغرب واليمن والشام وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية ...

مفرج الكروب لابن واصل جـ ٢، ص ٢٦ – ٢٩ .

١٥٥ – رسالة في صورة تذكرة ارسلها صلاح الدين الى الخليفة العباسي

المستضيء بنور الله صحبة رسوله اليـه الامير شمس الدين الخطيب ، وهي من انشاء القاضي الفاضل :

تذكرة مباركة ولم تزل الذكرى للمؤمنين نافعة ، ولعوارض الشك دافعة ، ضمنتْ اغراضاً يقيدها الكتاب الى ان يطلقها الخطاب . على ان السائر سيّار البيان ، والرسول يمضي على رسل التبيان . والله سبحانه يسدده قائلاً وفاعلاً ، ويحفظه بادئاً وعائداً ومقيماً وراحلاً .

الامير الفقيه شمس الدين خطيب الخطباء – أدام الله عزه وكتب سلامته وأحسن صحابته – يتوجه بعد الاستخارة ويقصد دار السلام والخطة التي هي عش بيضة الاسلام ومجتمع رجاء الرجال ، ومتسع رحاب الرّحال . فاذا نظر تلك الدار الدارّ سحابها ، وشافه بالنظر معالم ذلك الحرم المحرم على الخطوب خطابها ، ووقف امام تلك المواقف التي تحسد الارجل عليها الرؤوس ، وقام بتلك المنازل التي تنافس الاجسام فيها النفوس ، فلو استطاعت لزارت الارواح محرمة من اجسادها ، وطافت بكعبتها متجردة من اغمادها ، فليمطر الارض هناك عنا قبلاً تخضلها بأعداد لا تحصّلها ، وليسلم عليها سلاماً نعتده من شعائر الدين اللازمة وسنن الاسلام القائمة ، وليورد عنا تحية يستنزلها من عند الله تحية مباركة طيبة ، وصلاة تخترق انوارها الاستار المحجبة ، وليصافح عنا بوجهه صفحة الثرى ، وليستشرف عنـــا بنظره فقد ظفر بصباح السُّرى ، وليستلم الاركان الشريفة فإن الدين اليها مستند وليستدم الملاحظات اللطيفة فإن النور منها مستمد . واذا قضى التسليم وحق اللقاء واستدعى الاخلاص جهد الدعاء ، فليعد وليعد حوادث ما كانت حديثاً يفترى ، وجواري امور ان قال منهـــا كثيراً فأكثر منه ما جرى ، وليشرح صدراً منهـــا لعله يشرح منـــا صدراً أو ليوضح الأحوال المستسرة فإن الله لا يعبد سراً .

ومن الغرائب ان تسير غرائب　　في الأرض لم يعلم بها المأمول

كالعيس اقتل ما يكون لها الظما　　والماء فوق ظهورهـــا محمول

فإنا كنا نقتبس النار بأيدينا وغيرنا يستنير ، ونستنبط الماء بأيدينا وغيرنا يستمير ، ونلقي السهـــام بنحورنا وغيرنا يغير التصوير ، ونصافح الصفـاح بصدورنا وغيرنا يدعي التصدير . ولا بد ان نسترد بضاعتنا بموقف العدل الذي ترد به الغصوب ، ونظهر طاعتنا فنأخذ بحظ الألسنة كما اخذنا بحظ القلوب . وما العائق الا انا كنا ننظر ابتداءً من الجانب الشريف بالنعمة يضاهي ابتداءنا بالخدمة ، وايجاباً للحق يشاكل ايجابنا للسبق ، الى ان يكون سحابها بغير يد مستنزلاً ، وروضها بغير غرسٍ مُطفِلاً .

كان أول أمرنا أنا كنا في الشام نفتح الفتوحات مباشرين بأنفسنا ونجاهد الكفار متقدمين لعساكره نحن ووالدنا وعمنا ، فأي مدينة فتحت او معقــل مُلِك ، او عسكر للعدو كسر ، او مصافٍ للاسلام معه ضُرِب ، فما يجهل أحد ، ولا يجحد عدو، انا نصطلي الجمرة ونملك الكسرة ونتقدم الجماعة ونرتب المقاتلة وندبر التعبئة الى ان ظهرت في الشام الآثار التي لنا اجرها ، ولا يضرنا أن يكون لغيرنا ذكرها .

وكانت أخبار مصر تتصل بنا بما الأحوال عليه فيها من سوء التدبير ، وما دولتها عليه من غلبة صغير على كبير ، وان النظام قد فسد ، والاسلام بها قد ضعف عن اقامته كل قائم بها وقعد ، والفرنج قد احتاج من يديرهـا الى ان يقاطعهم بأموال كثيرة لها مقادير خطيرة . وان كلمة السنة بها ، وان كانت مجموعة ، الا انها مقموعة ، وأحكام الشريعة وان كانت مسماة فإنها متحامـاة . وتلك البدع بها على ما يُعلم ، وتلك الضلالات فيها على ما يفتق منهـــا بفراق

الاسلام ويحكم . وذلك المذهب قد خالط من اهله اللحم والدم. وتلك الانصاب قد نصبت آلهة تتخذ من دون الله تعظم وتفخم . فتعالى الله عن شبه العباد ، وويل لمن غره تقلب الذين كفروا في البلاد .

فسمت همتنا دون هم ملوك الارض الى ان نستفتح مقفلها ونسترجع للاسلام شاردها ، ونعيد على الدين ضالته منها ، فسرنا اليهـا بعساكر ضخمة وجموع جمـة ، وبأموال انتهكت الموجود وبلغت منا المجهود ، وانفقناها من خالص ذممنا وكسب أيدينـا ، ومن اسارى الفرنج الواقعين في قبضتنـا . فعرضت عوارض منعت ، وتوجهت للمصريين حيل باستنجاد الفرنج تمت . ولكل اجل كتاب ولكل أمل باب .

وكان في تقدير الله سبحانه انا نملكها على الوجه الأحسن ، ونأخذها بالحكم الاقوى الأمكن فغدر الفرنج بالمصريين غدرة في هدنة عظم خطبها وخبطها ، وعلم ان استئصال كلمـة الاسلام محطها ، وكاتبنا المسلمون من مصر في ذلك الزمان ، كما كاتبنا المسلمون من الشام في هذا الأوان ، بأنا ان لم ندرك الأمـر والا خرج من اليد ، وان لم ندفع غريم اليوم لم يمهل الى الغد ؛ فسرنا بالعساكر الموجودة ، والامراء الأهل المعروفة الى بلاد قد تمهد لنا بها أمران ، وتقرر لنا فيها في القلوب ودان : الأول لما علموه من ايثارنا المذهب الأقوم واحياء الحق الأقدم ، والآخر لما يرجونه من فك اسارهم واقالة عثارهم . ففعل الله ما هو اهله ، وجاء الخبر الى العدو فانقطع حبله ، وضاقت به سبله ، وافرج عن الديار بعد ان كانت ضياعها ورساتيقها وبلادها واقليمها قد نفذت فيها أوامـره ، وخفقت عليها صلبانه وأمن من أن يُسترجع ما كان بأيديهم حاصـلا ، وان يستنقذ ما صار في ملكهم داخلا ، ووصلنا البلا وبهـا أجنـاد عددهم كثير وسوادهم كبير ، وأموالهم واسعة وكلمتهم جامعة ، وهم على حرب الاسلام أقدر

منهم على حرب الكفر . والحيلة في السر منهم انفذ من العزيمة في الجهر . وبها راجل من السودان يزيد على مائة الف رجل كلهم أغنــــام أعجام ، ان هم الا كالانعام ، لا يعرفون رباً الا ساكن قصره ، ولا قبلة الا ما يتوجهون اليه من ركنه . وبها عسكر من الأرمن باقون على النصرانية ، موضوعة عنهم الجزيــة كانت لهم شوكة وشكة وحمية وحمـــة ، ولهم حواشٍ لقصيرهم من بين داعٍ تلطف في الضلال مداخله ، وتصيب العقول مخاتله ، ومن بين كتــــاب اقلامهم تفعل افعال الأسل ، وخدام يجمعون الى سواد الوجوه سواد النِحَل ، ودولة قد كبر عليها الصغير ولم يعرف غيرها الكبير ، ومهـــابة تمنع خطوات الضمير فكيف لحظات التدبير ؟

هذا الى استباحة للمحارم ظاهرة ، وتعطيل للفرائض على عادة جارية ، وتحريف للشريعة بالتأويل ، وعدول عن غير مراد الله في التنزيل ، وكفــــر سمي بغير اسمه ، وشرع يتستر به ويحكم بغير حكمه . فما زلنا نسحتهم سحت المبارد للشفار ، ونتحيفهم تحيف الليل والنهار للأعمار ، بعجـــائب تدبير لا تحتملها المساطير وغرائب تقرير لا تحملها الأساطير ، ولطف توصل ما كان في حيلة البشر ولا قدرتهم الا اعانة المقادير . وفي أثناء ذلك استنجدوا علينـــا الفرنج دفعة الى بلبيس ودفعة الى دمياط ، في كل منها وصلوا بالعدد المجهـــر والحشد الأوفر ، وخصوصاً في نوبة دمياط فانهم نازلوها بحـراً بألف مركب مقاتل وحامل ، وبراً في مائتي الف الف فارس وراجل ، وحصروهـــا شهرين يباكرونها ويراوحونها ويماسونها ويصابحونهـــا القتال الذي يصليه الصليب ، والقراع الذي ينادي به من مكان قريب . ونحن نقاتل العدويين : البـــاطن والظاهر ، ونصابر الضدين المنافق والكافر ، حتى أتى الله بأمره وأيدنا بنصره ، وخابت المطـــامع من المصريين ومن الفرنج ومن ملك الروم ومن الجنويين

واجناس الروم، لأن أنفارهم تنافرت ونصاراهم تناصرت ، واناجيل طواغيتهم رفعت ، وصلب صلبوتهم اخرجت . وشرعنا في تلك الطوائف من الأجناد السودان والأرمن فأخرجناهم من القاهرة ، تارة بالأوامر المرهقة لهم ، وبالذنوب الفاضحة منهم ، وبالسيوف المجردة والنار المحرقة ، حتى بقي القصر ومن به من خدمة قد تفرقت شيعه وتمزقت بدعه ، وخفتت دعوته وخفيت ضلالته . فهنالك تمت لنا اقامة الكلمة والجهر بالخطبة والرفع للواء السواد الأعظم ، والجمع لكلمة السواد الاعظم ، وعاجل الله الطاغية الاكبر بفنائه ، وبرأنا من عهدة يمين كان حنثها ايسر من اثم بقائه ، الا انه عوجل لفرط روعته ووافق هلاك شخصه هلاك دولته .

ولما خلا ذرعنا ورحب وسعنا ، نظرنا في الغزوات الى بلاد الكفار ، فلم تخرج سنة الا عن سنة اقيمت فيها براً وبحراً ومركباً وظهراً ، الى ان اوسعناهم قتلاً وأسراً ، وملكنا رقابهم قهراً وقسراً ، وفتحنا لهم معاقل ما خطر اهل الاسلام فيها منذ أخِذت من أيديهم ، وما اوجفت فيها خيلهم ولا ركابهم مذ ملكها اعاديهم ، فمنها ما حكمت فيه يد الخراب ، ومنها ما استولت عليه يد الاكتساب ، ومنها قلعة بثغر أيلة كان العدو قد بناها في بحر الهند ، وهو المسلوك منه الى الحرمين واليمن ، وغزا ساحل الحرم فسبى منه خلقاً ، وخرق الكفر في هذا الجانب خرقاً ، فكادت القبلة ان يستولى على اصلها ، ومساجد الله ان يسكنها غير اهلها ، ومقام الخليل صلوات الله عليه ان يقوم به من ناره غير برد وسلام ، ومضجع الرسول – شرفه الله – ان يتطرقه من لا يدين بما جاء من الاسلام ، ففتح الله هذه القلعة وصارت معقلاً للجهاد وموئلاً لسفار البلاد وغيرهم من عُبّاد العباد . فلو شرح ما تم بها للمسلمين من الأثر الجليل وما استدّ من خلاتهم ، واحرق من زروع المشركين ورُعي من غلاتهم الى ان

ضعفت ثغورهم واختلت امورهم لاحتيج فيه الى زمن يشغل عن المهات الشريفة لسماع مورده وايضاح مقصده .

وكان باليمن ما علم من ابن مهدي الضال ، وله آثار في الاسلام ، وثأر طالبه النبي عليه الصلاة والسلام ، لأنه سبى الشرائف الصالحات وباعهن بالثمن البخس ، واستباح منهن كل ما لا تقر عليه نفس ، وكان ببدعه قد دعا الى قبر ابيه وسماه كعبة ، واخذ أموال الرعايا المعصومة واجاحها ، واحل الفروج المحرمة واباحها ، فانهضنا اليه أخانا بعسكرنا بعد ان تكلفنا له نفقات واسعة وأسلحة رائعة ، وسار فأخذناه ، ولله الحمد ، وانجح الله فيه القصد ، وردتنا كتب عساكرنا وامرائنا بما نفذ بابن مهدي وبلاده المفتتحة ومعاقله المستضافة. والكلمة هنالك بمشيئة الله الى الهند سارية ، والى ما لم يَفتَتَض الاسلام عذرته منذ اقام الله كلمته متمادية .

ولنا في المغرب اثر غرب ، وفي اعماله اعمال دون مطلبها كما يكون المهلك دون المطلب . وذلك ان بني عبد المؤمن قد اشتهر ان امرهم امر وملكهم قد عمر ، وجيوشهم لا تطاق ، واوامرهم لا تشاق . ونحن ، والحمد لله ، قد ملكنا مما يجاورنا منه بلاداً تزيد مساحتها على شهر ، وسيرنا عسكراً بعد عسكر رجع بنصر بعد نصر . ومن البلاد المشاهير والاقاليم الجماهير : لك ، برقة ، قفصة ، قسطيلية ، توزر . كل هذه تقام فيها الخطبة لمولانا الامام المستضيء بالله سلام الله عليه ، ولا عهد للاسلام باقامتها ، وتنفذ فيها الاحكام بعلمها المنصور وعلامتها . وفي هذه السنة كان عندنا وفد قد شاهده وفود الامصار ، مقداره سبعون راكباً ، كلهم يطلب لسلطان بلده تقليداً ، ويرجو منا وعداً ويخاف وعيداً . وقد صدرت عنا ، بحمد الله ، تقاليدها ، والقيت الينا مقاليدها. وسيرنا الخلع والألوية والمناشير بما فيها من الأوامر والاقضية .

وأما الاعداء الذين يحدقون بهذه البلاد ، والكفار الذين يقاتلونها بالممالك العظام والعزائم الشداد فمنهم صاحب القسطنطينية ، وهو الطاغية الأكبر والجبار الاكفر وصاحب المملكة التي اكلت على الدهر وشربت ، وقائم النصرانية التي حكمت دولته على ممالكها وغلبت ، وجرت لنا معه غزوات بحرية ، ومناقلات ظاهرية وسرية ، وكانت له في البلاد مطامع : منها ان يجبى خراجاً ، ومنها ان يملك منها فجاجاً، وكانت غصة لا يسيغها الماء وداهية لا ترجى لها الارض بل السماء ، فأخذنا ، ولله الحمد ، بكظمه ، واقمناه على قدمه ، ولم نخرج من مصر الى ان وصلتنا رسله في جمعة واحدة في نوبتين بكتابين ، كل واحد منهما يظهر فيه خفض الجناح والقاء السلاح والانتقال من معاداة الى مهاداة ، ومن مناضحة الى مناصحة ، حتى انه انذر بصاحب صقلية واساطيله التي يرد ذكرها ، وعساكره التي لم يخف امرها .

ومن هؤلاء الكفار صاحب صقلية . هذا كان حين علم ان صاحب الشام وصاحب قسطنطينية قد اجتمعا في نوبة دمياط فغُلبا وهزما وكسرا ، اراد ان يظهر قوته المستقلة بمفردها ، وعزمته القائمة بمجردها ، فعمر اسطولاً استوعب فيه ماله وزمانه ، فانه الى الآن منذ خمس سنين يكثر عِدته وينتخب عُدته ، ويجتلب مقاتلته الى ان وصل منها في السنة الخالية الى الاسكندرية أمر رائع وخطب هائل ، ما اثقل ظهرَ البحر مثلُ حمله ، ولا ملأ صدره مثل خيله ورجله . ما هو اقليم بل اقاليم نقله ، وجيش ما احتفل ملك قط بنظره لولا ان الله خذله . ولو ذهبنا نصف ما ذهب فيه من ذهب ، وما أخذ منه من سلاح وخيل وعدد ومجانيق ، ومن أسِر منه من خيالة كبار ، ومقدمين ذوي اقدار ، وملوك يقاطعون بالجمل التي لها مقدار ، وكيف اخذه وهو في العدد الاكثر بالعدد الاقل من رجالنا ، وكيف نصر الله عليه مع الاصعب من قتاله

بالاسهل من قتالنا ، لعُلِم ان عناية الله بالاسلام تغنيه عن السلاح ، وكفاية الله لهذا الدين تكفيه مئونة الكفاح ومن هؤلاء الجنويين الذين يسيرون الجيوش : البنادقة البياشية[1] ، الجنوية ، كل هؤلاء تارة لا تطاق ضراوة ضرهم ولا تطفأ شرارة شرهم ، وتارة يجهزون سُفاراً يحتكمون على الاسلام في الاموال المجلوبة ، وتقصر عنهم يد الاحكام المرهوبة ، وما منهم الآن الا من يجلب الى بلدنا آلة قتاله وجهاده ، ويتقرب الينا باهداء طرائف اعماله وبلاده ، وكلهم قد قررت معهم المواصفة ، وانتظمت المسالمة ، على ما نريد ويكرهون ونؤثر ولا يؤثرون.

ولما قضى الله بالوفاة النورية ، وكنا في تلك السنة على نية الغزو ، والعساكر قد ظهرت ، والمضارب قد برزت ، ونزل الفرنج بانياس واشرفوا على احتيازها ، ورأوها فرصة مدوا اليها يد انتهازها ، استصرخ بنا صاحبها للممانعة ، واستنهضنا لتفريج الكرب الواقعة ، فسرنا مراحل اتصل بالعدو امرها ، وعوجل بالهدنة الدمشقية التي لولا مسيرنا ما انتظم حكمها ولا قبل كثيرها ولا قليلها . ثم عدنا الى البلاد فتوافت الينا الاخبار بما الدولة النورية عليه من تشعب الآراء وتوزعها وتشتت الامور وتقطعها ، وان كل قلعة قد حصل فيها صاحب ، وكل جانب قد طمح اليه طالب ، والفرنج قد بنوا بلاداً يتحيفون بها الاطراف الاسلامية ويضايقون بها البلاد الشامية ، وامراء الدولة قد سجن اكابرهم وعوقبوا وصودروا ، والمماليك الذين للمتوفى اغرار خلقوا للاطراف لا للصدور ، وجعلوا للقيام لا للجلوس في المحفل المحصور ، وقد مدوا الأعين والايدي والسيوف ، وساءت سيرتهم في الامر بالمنكر والنهي عن المعروف ، وكل واحد يتخذ عند الفرنج يداً ، ويجعلهم لظهره سنداً ، ويرفع عنهم ذخيرة كانت للاسلام ، ويفرج لهم عن اسير من أكابر الكفار كان مقامه مما يدفع شراً ،

---

(١) البياشية هم أهل بيزا مدينة من مدن إيطاليا .

ولا يزيد نار الكفر جمراً ، واطلاقه يجلب قطيعة تقوى اسلاماً وتضعف كفراً.
فكثرت الينا مكاتبات اهل الآراء الصائبة ، ونظرنا للاسلام ولنـــا ولبلاد الاسلام في العاقبة ، وعرفنا ان البيت المقدس ان لم تتيسر الاسباب لفتحـه ، وأمر الكفر ان لم يجرد العزم في قلعه ، والا ثبتت عروقه واتسعت على اهـل الدين خروقه ، وكانت الحجة لله قائمة ، وهم القادرين في القعود آثمة ؛ وانّا لا نتمكن بمصر منه مع بعد المسافة وانقطاع العمارة وكلال الدواب. واذا جاورناه كانت المصلحة بادية ، والمنفعة جامعة واليد قادرة والبلاد قريبة والغزوة ممكنة والميرة متسعة ، والخيل مستريحة والعساكـــر كثيرة ، والجمـوع متيسرة ، والأوقات مساعدة ، واصلحنا ما في الشام من عقائد معتلة وامور مختلة وآراء فاسدة وامراء متحاسدة ، واطماع غالية وعقول غائبة ، وحفظنـا الولد القائم بعد أبيه ، وكفلناه كفالة من يقضي الحق ويوفيه؛ فإنّا به اولى من قوم يأكلون الدنيا باسمه ، ويظهرون الوفاء بخدمه ، وهم عاملون بظلمه . والمراد الآن هو كل ما يقوي الدولة ويؤكد الدعوة ويجمع الأمة ويحفظ الألفة ويضمن الزلفـة ويفتح بقية البلاد ، ويطبّق بالاسم العباسي كل ما تخطئه العِهاد . ونحن نقترح على الاحكام المعهـــودة ، وننتظر ان يأتي الانعام على الغايات المزيدة : وهو تقليد جامع لمصر والمغرب واليمن والشام ، وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية، وكل ما يفتحه الله للدولة بسيوفنا وسيوف عساكرنا ، ولمن نقيمه من اخ وولد من بعدنا ، تقليداً يضمن للنعمة تخليداً ، وللدعوة تجديداً ، مع ما يُنعم به من السمات التي يقتضيها الملك ، فإن الامارة اليوم بحسن نيتنا في الخدمـة تصرّف بأقلامنا ، وتستفاد من تحت اعلامنا ، ويتبين ان امراء الدولة النورية يحتـاج اليهم في فتـح البلاد القدسية ضرورة ، لأنها منازل العساكر ومجمع الأنفـــار والعشائر . فمتى لم يكن عليهم يد حـــاكمة ، وفيهم كلمة نافذة ، منعهم ولاة البلاد وبغاة العناد .

وبالجملة فالشام لا ينتظم امره بمن فيه ، وفتح بيت المقدس ليس له قرن يقوم به ويكفيه ، والفرنج ، فهم يعرفون منا خصماً لا يمل الشر حتى يملوا ، وقرناً لا يزال يحرم السيف حتى يحلوا ، حتى أننا لما جاورناهم في هذا الأمد القريب ، وعلموا ان المصحف قد جاء بأيدينا يخاصم الصليب ، استشعروا بفراق بلادهم ، وتهادوا التعازي لأرواحهم بأجسادهم ، وإذا سدد رأينا حسنُ الرأي ضربنا بسيف يقطع في غمده ، وبلغنا المنى بمشيئة الله ويد كل مسلم تحت برده ، واستنقذنا أسيراً من المسجد الذي اسرى الله اليه بعبده .

هذا ما لاح طلبه على قدر الزمان، والأنفس تطلب على مقدار الاحسان ، فإن في استنهاض نيات الخادم بالانعام ما يعود على الدولة منافعه ، وتنكأ الاعداء مواقعه ، وتبعث العزائم من موت منامها ، وتنفض عن البصائر غبار ظلامها . والله تعالى ينجد ارادتنا في الخدمة بمضاعفة الاقتدار ومساعدة الأقدار ان شاء الله تعالى[1] .

صبح الأعشى للقلقشندي جـ ١٣ ، ص ٨١ — ٩٠ .

١٥٦ — فصل من رسالة ثانية وجهها صلاح الدين الى المستضيء بنور الله يعدد أياديه من انشاء القاضي الفاضل :

---

(١) اورد ابو شامة في كتاب الروضتين جـ ١ ، ق٢ ، ص ٦١٦ — ٦٢٣ ، ولكن نص القلقشندي أكمل وأوضح وأوسع، كما أورد مقتطفات وفصولاً منها ابن واصل في مفرج الكروب جـ٢، ص٢٦ – ٢٩، وقد أثبتناها هنا في الوثيقة رقم ١٥٤ وان القلقشندي ارتكب خطأ تاريخياً عندما ذكر أن هذه التذكرة وجهها صلاح الدين الى الخليفة الناصر ، بينما الصواب ما ذكره أبو شامة من أنها موجهة للمستضيء . ولا ندري كيف أخطأ القلقشندي هذا الخطأ وهو نفسه يذكر في صلب النص جـ ١٣ ، ص ٨٧ ان الخطبة تقام على منابر برقة وقفصة ... لمولانا الإمام المستضيء بالله ؟

... والذي أجـــراه الله على يد المملوك من الممالك التي دوخها ، وسنن الضلال التي نسخها ، وعقود الإلحاد التي فسخها ، ومنابر الباطل التي رحضها ، وحجج الزندقة التي دحضها ؛ فلله عليه المنة فيه اذ أهلـّه لشرف مشهده ، وما فعله الا لوجهه ، ويد الله كانت عون يده . والا فقد مضت الليالي والايام على تلك الامور وما تحركت للفلك في قلعها نابضة ، وغبرت الاحـوال على تلك البدعة وما ثارت لافراسها رابضة . فشكر يد الله تعـــالى فيما اجراه على يده منها ، ان يجتهد في اخرى مثلها في الكفار ، وقد عـــاد الاسلام الى وطنه ، وصوحت[1] من الكفر خضراء دمنه .

١٥٧ – مقتطفات من رسالة ثالثة ارسلها صلاح الدين الى المستضيء يذكر فيها اعادة الخطبة العباسية في مصر ، وهي من انشاء القاضي الفاضل :

حتى أتى الدنيا ابن بجدتها فقضى من الأمر ما قضى ، واسخط مَن لله في سخطه رضا ، وجعل وجه لابس السواد مبيضاً ، فأدرك لهم بثأر نامت عنـه الهمم ، ودوخت عليه الامم ، وشفى الصدور ، وجاء بالحق الى من غره بالله الغرور ، واستبضع الى الله تعالى تجارة لن تبور .

١٥٨ – مقتطفات من رسالة رابعة أرسلها صلاح الدين الى المستضيء :

قد بورك للخادم في الطاعة التي لبس الاولياء شعارها ، وامضى في الاعداء شغارها ، وجمع عليها الدين وكان اديانـــاً ، واستقامت بها القلوب على صبغة التكلف وكانت الواناً .

١٥٩ – مقتطفات من رسالة خامسة ارسلها صلاح الدين الى المستضيء يبرر بها زحفه على بلاد الشام .

(١) صوح : ذبل .

... لم يكن سبب خروج المملوك من بيته الا عن وعد كان انعقد بينه وبين نور الدين رحمه الله تعالى في ان يتجاذبا طرفي الغزاة من مصر والشام ، المملوك بعسكري بره وبحره ، ونور الدين من جانب سهل الشام ووعره . فلما قضى الله بالمحتوم على احدهما ، وحدثت بعد الامور امـور ، اشتهرت للمسلمين عورات وضاعت ثغور ، وتحكمت الآراء الفـاسدة وفورقت المحاج القاصدة ، وصارت الباطنية بطانة من دون المؤمنين ، والكفار محمولة اليها جزى المسلمين . والامراء الذين كانوا للاسلام قواعد ، وكانت سيوفهم للنصر موارد يشكون ضيق حلقات الاسار . وتطرق الكفار بالبناء في الحدود الاسلامية . ولا خفاء ان الفرنج بعد حلولنا بهذه الخطة قـاموا وقعدوا واستنجدوا انصار النصرانية في الاقطار ، وسيروا الصليب ومن كسى مذابحهم بقمامة ، وهددوا طاغيـة كفرهم باشراط القيامة ، وانفذوا البطارقة والقسيسين برسائل صور من يتصورونه ممن يسمونهم القديسين ؛ وقالوا ان الغفلة ان وقعت اوقعت فيما لا يستدرك فـارطه ، وان كلاً من صاحب قسطنطينية وصاحب صقلية وملك الألمان وملوك مـا وراء البحر ، واصحاب الجزائر كالبندقية والبيشانيـة والجنوية وغيرهم قد تأهبوا بالعمائر البحرية والأساطيـل القوية . وللاسلام بأمير المؤمنين اعز ناصر ، ولا سيما وهم ينصرون باطلاً وهو ينصر حقاً ، وهو يعبد خالقاً وهم يعبدون خلقاً .

كتاب الروضتين لأبي شامة ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٢٣ – ٦٢٤ .

١٦٠ – فصل من رسالة صلاح الدين الى خليفة بغداد المستضيء لمـا توفي الملك الصالح بن نور الدين الشهيد :

توفي الملك الصالح وهو فتى بدون وارث ، وكان مقره في حلب . فحضر ابن عمه صاحب الموصل عماد الدين الى حلب واحتلهـا ، وتجددت مطامع بيت آل زنكي في الاستيلاء على الشام كله . كذلك تهيأت الفرصة الآن لصلاح الدين

للاستيلاء على حلب وضمها الى ملكه ، فأرسل الى امرائه في الشام ان يكونوا على استعداد للحرب ، وارسل الى الخليفة رسالة ، هذا فصل منها ، من انشاء العماد الاصفهاني :

... وشاع الخبر بغارة افرنج انطاكية على حارم ، وأتوا من النهب والسبي بالعظائم، وشاع أيضاً ان عسكر حلب اغاروا على الراوندان، وهي من اعمالنا، ورسلهم عند الفرنج يستنجدونهم ، وراسلوا الحشيشية ، والمراد من الرسالة غير خافٍ ، وابن اخينا غائب في اقصى بلاد الفرنج في اول برية الحجاز ، فإن طاغية منهم جمع خيله ورجله وحدثته نفسه الخبيثة بقصد تيماء ، وهي دهليز المدينة ، على ساكنها السلام ، واغتنم كون البرية معشبة مخضرة مخصبة في هذا العام . والعجب انا نحامي عن قبر النبي – صلوات الله عليه وسلامه – مشتغلين بهمة ، والمذكور – يعني صاحب الموصل – ينازع في ولاية هي لنا ليأخذها بيد ظلمة . وكم بين من يحارب الكفر ويحمل اليهم قواصم الآجال ، وبين من يتخذهم بطانة دون المؤمنين ، ويحمل اليهم كرائم الاموال . هذا مع ما نعد في الملة الحنيفية والدولة الهادية العباسية من آثار لا يعد مثلها اولاً لأبي مسلم ، لأنه اقدم ثم خامر ، ووالى ثم ولى ؛ ولا آخراً لطغرلبك ، فإنه نصر ونصب ثم حجر وحجب . وقد عرف ما فضلنا الله به عليهما في نصر الدولة وقطع من كان ينازع الخلافة رداءها ، ويطهر المنابر من رجس الادعياء . ولم نفعل ما فعلناه لأجل الدنيا ، غير ان التحدث بنعمة الله واجب ، والتبجح بالخدمة الشريفة والافتخار بالتوفيق فيها على السجية غالب. ولا غنى عن بروز الاوامر الشريفة الى المذكور ان يلزم حده ، ولا يتجاوز حقه . فإن دخول الأيدي المختلفة عن الاعداء المتفقة مشاغل ، ويحتاج فيه الى مغرم ينفق فيه العمر بغير طائل . فإن الاعمار تمر مر السحاب ، والفرص تُمِضُّ ومض السراب . وبقاؤنا

في هذه الدار القليلة اللبث القصيرة المكث نؤثر ان نغتنمه في مجـــاهدة العدو الكافر ، الذي صار به البيت المقدس محلاً للأرجاس ، ومضت عليـه دهور وملوك لم يحصلوا من رجاء تطهيره الا على اليــأس . وان كان القوم قد بذلوا للدار العزيزة بذولاً معارة ، فقد اسلف الخادم خدمات ليست بعوار ، فإنهم لو بذلوا بلادهم كلها ما وفت بفتح مصر التي رحل بها اسامي الأدعيــاء الزاكية اعوادها ، واعاد الى عينها بعد بياض عماها من نور الشعار العباسي سوادهـا . فإن اقتضت الأوامر الشريفة ان يوعز للمذكور بجلب بتقليد ، فالأولى ان يقلد الكل ، فلا رغبة فيا لا يؤمن معه شر الشريك . ولمالك الأمر الحكم في ممالك المماليك .

مفرج الكروب لابن واصل جـ ٢ ، ص ١١٠ — ١١٢ .

١٦١ — عهد الخليفة المستضيء بنور الله الى صلاح الدين وتوليته مصر واليمن وما يفتتحه من البلاد .

ان اولى من جادت رباعَـه سحبُ الاصطناع ، وخص من الاصطفـــاء والاجتباء بالصفايا والمرباع ، من ترسم انتهاج الجدد القويم ، والطريق الواضح المستقيم ، واعتلق من الولاء بأوثق عصمه وحباله ، والفناء الذي يهتدى بأنواره في متصرفاته واعماله ، والتحلي بجميل الذكر في سيرته ، وخلوص الاعتنـــاء بأمور رعيته ، وكان راغبـاً في اقتناء حميد الخلال ، مجتهداً في طاعـــة الله بما يرضيه من العدل الممتد الظلال ، عاملاً بمـــا يناط به بما يتضوع نشر خبره ، ويجتني بحسن صنعه يانع ثمـــره ، باذلاً وسعه في الصلاح ، مؤذنـــة مساعيه بفوز القداح .

ولما كان الملك الأجل السيد صلاح الدين ، ناصر الاسلام عماد الدولة ، جمال

الملك ، فخر الملة ، صفي الخلافـــة ، تاج الملوك والسلاطين ، قامـــع الكفرة والمشركين ، قاهر الخوارج والمتمردين ، عز المجاهدين ، ألب غـــازي بك ابن يوسف بن ايوب — ادام الله علوه — على هذه السجايا مقبلاً ، وبصفاتها الكاملة مشتملاً ، مؤثراً تضاعف المأثرات ، مثابراً على ما تزكو به الأعمال الصالحات ، متحلياً بالمحامد الرائقة ، مستبداً بالمناقب التي هي لجميل أفعاله موافقة مطابقة، محصلاً من رضا الله تعالى ما يؤثره ويرومه ، ومن طاعـــة الدار العزيزة — لا زالت مشيدة البناء ، سابغـة النعماء ، دائمة الاستبشار عزيزة الانصار — ومن استمرار الظفر بما يستديمه ، اقتضت الآراء الشريفة — لا زال التوفيق قرينها ، والتأييد مظافرها ومعينها — امضاء تصرفه وانفاذ حكمه في بلاد مصر واعمالها، والصعيد الاعلى والاسكندرية ، وما يفتحه من بلاد الغرب والساحل ، وبلاد اليمن وما افتتحه منها ويستخلصه بعد من ولايتها ، والتعويل في هذه الولايات عليه ، واستنقاذ مـــا استولى عليه الكفار من البلاد ، واعزاز كل من اذلوه واضطهدوه من العباد : لتعود الثغور بيمن نقيبته ضاحكة المبـاسم ، وبإصابة رأيه قائمة المواسم .

امره بادئاً بتقوى الله التي هي الجنة الواقية والذخيرة البـــاقية والعصمة الكافية والزاد اذا انفض وفد الآخرة وارملوا ، والعتـــاد النافع اذا وجدوا شاهداً لهم وعليهم ما عملوا ، فانها العلم المنصوب للرشد ، قال الله تعالى : « يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد »[1] .

وامره ان يتخذ كتـاب الله سبحانه العلم الذي به يقتدى ، وبأنواره الى حدود الصواب يهتـدى ، ويستمع لزواجره ومواعظه ، ويعتبر بتخويفـــه

(١) سورة الحشر : الآية ١٨ .

وملاحظه ، ويصغي اليه بسمعه وقلبه ، وجوارحه ولبه ، ويعمل بأوامره المحكمة ، ويقف عند نواهيه المبرمة ، ويتدبر ما حوته آياته من الوعد والوعيد والزجر والتهديد . قال الله عز وجل : «وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد »[1] .

وامره ان يكون على صلاته محافظاً، ولنفسه عن الاخلال والتقصير في اداء فرضها واعظاً ، فيغتنم الاستعداد أمام اوقاتها للأداء ، ويحترز من فواتها والحاجة الى القضاء ، موفياً حقها من الركوع والسجود على الوصف الواجب المحدود ، مخلصاً سره عند الدخول فيها ، وناهياً نفسه عما يصدها بالأفكار ويلهيها ، مجتهداً في نفي الفكر والوسواس عن قلبه ، منتصباً في اخلاص لعبادة ربه ، ليغدو بوصف الابرار منعوتاً . قال الله تعالى : « ان الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً »[2] .

وأمره بقصد المساجد الجامعة في أيام الجمع ، امتثالاً لأمر الله المتبع بعزيمة في الخير صادقة ، ونية للعبادة موافقة ؛ وفي الاعياد الى المصليات المصحرة المجملة بالمنابر الحالية ؛ التي هي عن الادناس مطهرة نائية ؛ فإنها من مواضع العبادة ومواطنها ، ومظان تلاوة القرآن المأمور بحفظ آدابها وسننها . فقد وصف الله تعالى من وفقه لتحميل[3] مؤنه بالعمارة بما اوضح فيه الاشارة ، وشرفه بوضع سمة الايمان عليه بالاكرام الفاخر ، فقال : « انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر »[4] . فيقيم الدعوة الهادية على المنابر على عادة من

---

(١) سورة فصلت : الآية ٤٢ .
(٢) سورة النساء : الآية ١٠٣ .
(٣) لعل صوابها : لتجميل .
(٤) سورة التوبة : الآية ١٨ .

تقدمه ، ومنتهياً فيها الى أحسن ما عهده وعلمه .

وامره بلزوم نزاهة الحرمات واجتناب المحرمات ، والتحلي من العفاف والورع بأجمل القلائد الرائقة ، والتقمص بملابس التقوى التي هي بأمثاله لائقة ، وسلوك مناهج الصلاح الذي يجمل به فعله ويصفو له عله ونهله ، وان يمنع نفسه من الغضب ، ويردها عما تأمر به من سوء المكتسب ، ويأخذها بآداب الله سبحانه في نهيها عن الهوى، وحملها على التقوى، وردعها عن التورط في المهاوي والشبه ، وكل امر يلتبس فيه الحق ويشتبه ؛ ويلزمها بالأخذ بالعفو والصفح والتأمل لمكان الاعمال فيه واللمح . قال الله تعالى : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين »[1] .

وأمره باحسان السيرة في الرعايا بتلك البلاد واختصاصهم بالصون الرائح الغاد ، ونشر جناح الرعاية على البعيد منهم والقريب ، واحلال كل واحد منهم محله على القاعدة والترتيب،واشاعة المعدلة فيهم واسهام دانيهم من وافرملاحظته وقاصيهم ، وان يحمي سرحهم من كل داعر ، ويذود عنهم كل موارب بالفساد ومظاهر ، حتى تصفو لهم من الأمن الشرائع ، وتضفو عليهم من بركة ولايته المدارع ، ويستنير بضوء العدل منهم المطالع ، ويحترم أكابرهم ، ويحنو على اصاغرهم ، ويشملهم بكنفه ودرعه ، وينتهي في مصالحهم الى غاية وسعه ، ولا يألوهم في النصح جهداً ، ولا يخلف لهم في الخير وعداً ، ويشاورهم في امره ، فإن المشورة داعية الى الفلاح ومفتاح باب الصلاح . قال الله تعالى : « فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين »[2] .

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٩٩.
(٢) سورة آل عمران : الآية ١٥٩ .

وامره باظهار العدل في الرعية التي تضمها جميع الأكنـــاف والأطراف ، والتحلي من النصفة بأكمل الأوصاف ، وحمل كافتهم على اقوم جدد ، وعصيان الهوى في تقويم كل أود ، والمساواة بين الفاضل والمفضول في الحق اذا ظهـــر صدق دليله ، والاشتمال عليهم بالأمن الذي يعذب لهـــم برد مقيله ، وكشف ظلامـــة من انبسطت الى تحيفه الأيدي والاطماع ، واعجزته النصرة لنفسه والدفاع ، وتصفح احوالهم بعين لا ترنو الى هوى يميل بها عن الواجب ، وسمع لا يصغي الى مقالة مائنٍ ولا كاذب ، ولا يغفل عن مصلحة تعود اليهـــم ، ويرجع نفعها عليهم ، ولا عن كشف ظلامات بعضهم من بعض ، وردهم الى الحق في كل رفع من احوالهم وخفض ، فلا يرى الا بالحق عامـلاً وللأمور على سنن الشريعة حاملاً ، مجتنباً اغفال مصالحهم واهمالها ، وحارساً نظامهـــا على تتابع الأيام واتصالها ، ليكون ذلك الى وفور الأجر داعياً ، وبحسن الاحدوثة قاضياً ، مقتدياً بما نطق به القرآن : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان »[1] .

وأمره أن يأمر بالمعروف ويقيم مناره ، وينهي عن المنكر ويمحو آثاره ، فلا يترك ممكناً من اظهار الحق واعلائه ، وقمع الباطل واخماد نيرانه ، ويعتمد مساعدة كل مرشد الى الطريق الاقصد ، وناهٍ عـــن التظاهر بالمحظور في كل مشهد ، وكل من تضحى معونته مشاركة في احراز المثوبة ومساهمة في اقتنـــاء الاجر ومقاسمة ، وأن يوعز بازالة مظان الريب والفساد في الداني من الاعمال والقاصي؛ فانها مواطن الشيطان واماكن المعاصي، وان يشد على ايدي الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، ويعينهم على ذلك بما يطيب ذكره في كل مشهد ومحضر ، ويجتهد في ازالة كل محظور ومنكر ، مقدم في الباطل ومؤخر . قال الله تعالى : « وأمر بالمعروف وانه عن المنكر »[2] .

---

(١) سورة النحل : الآية ٩٠ .

(٢) سورة لقمان : الآية ١٧ .

وامره ان يقدم الاحتياط في حفظ الثغور ومجاوريها من الكفار ، ويستعمل غاية التيقظ في ذلك والاستظهار ، ليأمن عليها غوائل المكايد ، ويفوز من التوفيق لذلك بانواع المحامد، ويتجرد لجهاد اعداء الدين، والانتقام من الكفرة المارقين ، أخذاً بقول رب العالمين : « انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون »[1]. وان يعمل فيما يحصل من الغنائم عند فل جموعهم وافتتاح بلادهم وربوعهم ، بقول الله وما امر به في قسمتها ، وايفاء كل صاحب حصة منها ، سالكاً سبل من غدا لآثار الصلاح مقتفياً ، وللفرص في ذلك مؤدياً ، وبهدي ذوي الرشد مهتدياً . قال الله تعالى في محكم التنزيل : « واعلموا انما غنمتم من شيء فإن لله خمسهُ وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل[2] .

وأمره ان يجيب الى الأمان من طلبه منه، ويكون وفاؤه مقترناً بما تضمنه غير مضمر خلاف ما يعطي به صفقة امانه ، ويجتنب الغدر وما فيه من العار واسخاط الملك الجبار . قال الله عز وجل : « واوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ، ان الله يعلم ما تفعلون »[3] .

وأمره ان يأمر أصحاب المعاون بمساعدة القضاة والحكام ومعاونتهم بما يقضي بلمّ شمل الصلاح في تنفيذ القضايا والانتظام، وأخذ الخصوم باجابة الداعي اذا استحضروا الى أبوابهم والانصاف ، والمسارعة الى الحق الواجب عليهم من غير خلاف . قال الله تعالى : « واكثرهم للحق كارهون »[4] .

---

(١) سورة التوبة : الآية ٤١ .

(٢) سورة الانفال : الآية ٤١ .

(٣) سورة النحل : الآية ٩١ ،

(٤) سورة المؤمنون : الآية ٧٠ .

وأمره بالتعويل في المظالم وأسواق الرقيق ودور الضرب والحسبة على من يأوي الى عفاف ودين ، وعلم بأحكام الشريعة وصحة يقين ، لا يخفى عليه ما حرمه الله تعالى وأحله ، ولا يلتبس على علمه ما اوضح الى الحق الواضح سبله ، والى من يتولى المظالم بايصال الخصوم اليه وانصافهم كما اوجبه الله تعالى عليه ، واستماع ظلاماتهم واحسان النظر في مشاجراتهم ، فإن أسفر للحق ضياء تبعه ، او اشتبه الأمـــر رده الى الحكام ورفعه . والى النـــاظر في أسواق الرقيق بالاحتراز والاحتراس وتعرية الاموال من الشبه في امتزاج العبيد بالأحـــرار ، لتضحي الأنساب مصونة مرعية ، والأموال عن الثلم محروسة محمية . والى من ينظر في الحسنة بتصفح أحوال العامة في متـــاجرهم وأموالهم ، وتتبع آثار صحتهم في المعاملة واعتلالهم ، واعتبار الموازين والمكاييل وإلزام أصحابهـــا الصحة والتعديل ، قال الله سبحانه وتعالى : وزنوا بالقسطاس المستقيم[1] .

وان يُعمِل الجفن في تطهير البلاد من كل مدخول الاعتقـــاد ، معروفٍ بالشبه في دينه والالحـــاد ، ومن يسعى منهم في الفساد ، ويأمـــر المرتبين في المراكز والاطـــراف باقتناصهم وكف فسادهم واجلائهم عن عراصهم ، وان يجري عليهم في السياسة مـــا يجب على امثالهم من الزنادقة والذين توبتهم لا تقبل ، وأمرهم على حكم المخاطبين لا يحمل. قال الله تعالى: « ان الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم واولئك هم الضالون »[2] .

وأمره ان يتلقى النعمة التي افرغت عليـه وانساقت اليه بشكر ينطق به لسانه ، ويترجم عنه بيانه ، ليستديم بذلك الاكرام ، ويقترن الاحسان عنده بالالتئام ، وان يوفيها حقها من دوام الحمد ، والمقصد الى شكرها والعمد .

---

(١) سورة الشعراء : الآية ١٨٢ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٩٠ .

قال الله تعالى : « ومن شكر فانما يشكر لنفسه »[1] .

وليعلم ان امير المؤمنين قد بين له من الصلاح ما اتضحت اعلامه ، واثبتت في المرامي سهامه ، وارشد الى ما اودع هذا المنشور من جدد الفوز بمرضاة الله تعالى وشكر عباده ، عاملاً في ذلك بمقتضى جده واجتهاده ، ليحرز السبق في دنياه وعقباه ، ويتوفر عنده ما مُنِحَ به مما ارهف عزمه وحباه ، وغدا بمكانه رافلاً في ملابس الفخر والبهاء ، نائلاً مني ما طابل به مناكب القرناء . واختص بما أعلى درجته فتقاعست عنه آمال حاسديه ، وتفرد بالمكانة عن مقام من يباريه ويناويه ، وأولي من الانعام ما أمن به سرب النعمة عنده ، وأصفى من مناهل الاحسان ورده ، وأهدى اليه من المواعظ ما يجب ان يودعه واعية الاسماع ، ويأخذ بالعمل به كل راعٍ ، فينهج – ادام الله علوه – محاج الولاء ، الذي عهده من أمثاله من الأولياء ، متنزهاً عن تقصير منه في عامة الأوقات ، ومراعياً أفعاله في جميع التصرفات ، ويعلم انه مسؤول عن كل ما تلفظ به لسانه ناطقاً ، ونظر طرفه اليه رامقاً ، قبل ان يجانب هواه ويبقى رهيناً بما اكتسبت يداه ، ولا يغتر من الدنيا وزخرفها بغرار ليس الوفاء من طبعه ، ومعبر ما اقصر مدة ارتجاعه . وسبيل كافة القضاة والاعيان ومقدمي العساكر والأجناد ورؤساء البلاد متابعته وموافقته ، وطلب مصالحهم من جنابه ، والتصرف على استصوابه . وقد أكّدَتْ وصاته في الرفق بهم والاشتمال عليهم والاحسان اليهم واجمال السيرة فيهم . وكلما اشكل عليه أمر من المتجددات يطالع به الديوان العزيز – مجده الله تعالى – لينهج له السبيل الى فتح رتاجه وسلوك منهاجه . والله ولي التوفيق والهداية ، وجمع الكلمة في كل اعادة وبداية ، والمعونة على العصمة من الزلل ، والتأييد في القول والعمل ان شاء الله تعالى ؛ وهو حسبنا ونعم الوكيل .

---

(١) سورة النمل : الآية ٤٠ .

صبح الأعشى للقلقشندي ج ١٠ ، ص ١٤٥ – ١٥٢ .

١٦٢ – رسالة المستضيء بنور الله الخليفة العباسي الى صلاح الدين بعد الغاء الخلافة الفاطمية واقامة الدعوة العباسية في مصر ، وبعد وفاة نور الدين الشهيد واثناء الصراع بين صلاح الدين وامراء الملك الصالح على السلطة في بلاد الشام . وهو يقلده مصر واليمن وغيرهما من الأقطار ، اذ يوليه جميع أقطار المملكة النورية باستثناء حلب واعمالها اذ كانت بيد الملك الصالح بن نور الدين .

أما بعد: فإن أمير المؤمنين يبدأ بحمد الله الذي يكون لكل خطبة قياداً، ولكل أمر مهاداً ، ويستزيده من نعمه التي جعلت التقوى لها زاداً ، وحملته اعباء الخلافة فلم يضعف عنه طوقاً ، ولم يأل فيه اجتهاداً . وصغرت لديه أمر الدنيا فما تسورت له محراباً، ولا عرضت عليه جياداً ، وحققت فيه قوله تعالى: « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً » [1].

ثم يصلي على من انزلت الملائكة لنصره امداداً ، وأسري به الى السماء حتى ارتقى سبعاً شِداداً ، وتجلى له ربه فلم يزغ منه بصر ولا كذب فؤاداً .

ثم من بعده على اسرته الطاهرة التي زكت اوراقاً واعواداً ، وورثت النور المبين بلاداً، ووصفت بأنها احد الثقلين هداية وارشاداً ، وخصوصاً عمه العباس المدعو له بأن يُحفظ نفساً واولاداً. وان تبقى كلمة الخلافة فيهم خالدة لا تخاف دركاً ولا تخشى نفاداً .

واذا استوفى العلم مراده من هذه الحمدلة ، وأسند القول فيها عن فصاحته المرسلة ، فإنه يأخذ في انشاء هذا التقليد الذي جعله حليفاً لقرطاسه ، واستلام سجوده على صفحته حتى لم يكد يرفع من رأسه ، وليس ذلك الا قاضية في

(١) سورة القصص : الآية ٨٣ .

وصف المناقب التي كثرت فحسن لها مقام الاكثار ، واشتبه التطويل فيها بالاختصار ، وهي التي لا يفتقر واصفها الى القول المعاد ، ولم يستوعر سلوك أطوادها ، ومن العجب وجود السهل في سلوك الأطواد .

وتلك هي مناقبك أيها الملك الناصر السيد الأجل الكبير ، العالم العادل المجاهد المرابط صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب .

والديوان العزيز يتلوها عليك تحدثاً بشكرك ، ويباهي اولياءه تنويهاً بذكرك فيقول : أنت الذي نستكفي فتكون للدولة سهمها الصائب وشهابها الثاقب ، وكنزها الذي تذهب الكنوز وليس بذاهب ، وما ضرها ، وقد حضرت في نصرتها اذا كان غيرك هو الغائب . فاشكر اذاً مساعيك التي اهّلتك لما اهلتك ، وفضلتك على الأولياء بما فضلتك . ولئن شوركت في الولاء بقصيدة الاضمار ، فلم تشارك في عزمك الذي انتصر للدولة فكان له بسطة الانتصار . وفرق بين من أمدّ بقلبه ، وبين من امدّ بيده في درجات الامداد، وما جعل الله القاعد كالذي قال : لو أمرتنا لضربنا أكبادها الى برك الغماد وقد كفاك من المساعي انك كفيت الخلافة أمر منازعيها ، وطمست على الدعوة الكاذبة التي كانت تدعيها ، ولقد مضى عليها زمن ومحراب حقها محفوف من الباطل بمحرابين ، ورأتْ ما رآه رسول الله ﷺ من السوارين اللذين اولهما كذابين : فبمصر منها واحد تجري انهارها من تحته ، ودعا الناس الى عبادة طاغوته وجبته ، ولعب بالدين حتى لم يدر يوم جمعته من يوم احده ولا سبته .

وأعانه على ذلك قوم رمى الله بصائرهم بالعمى والصمم ، واتخذوه صنماً ، ولم تكن الضلالة هناك الا بعجل أو صنم ، فقمت أنت في وجه باطله حتى قعد، وجعلت في جيده حبلاً من مسد ؛ وقلت ليده : تبت ، فاصبح لا يسعى بقدم ولا يبطش بيد . وكذلك فعلت بالآخر الذي نجمت باليمن ناجمته ، وسامت

فيه سائمته ، فوضع بيته موضع الكعبة اليمانية، وقال : هذا ذو الخلصة الثانية. فأي مقامك يعترف الاسلام بسبقه ، أم ايها يقوم باداء حقه ؟

وها هنا فليصح القلم للسيف من الحساد ، ولتقصر مكانته عن مكانته وقد كان له من الانداد . ولم يحظ بهذه المزية الا انه اصبح لك صاحباً ، وفخر بك حتى طال فخراً كما عز جانباً . وقضى بولايتك فكان بها قاضياً ، لما كان حده ماضياً .

وقد قلدك أمير المؤمنين البلاد المصرية واليمنية غوراً ونجداً ، وما اشتملت عليه رعية ً وجنداً ، وما انتهت اليه اطرافها براً وبحراً ، وما يستنقذ من مجاوريها مسالمة وقهراً ، وأضاف اليها بلاد الشام وما تحتوي عليه من المدن الممدنة والمراكز المحصنة ، مستثنياً منها ما هو بيد نور الدين اسماعيل بن نور الدين محمود رحمه الله ، وهو حلب واعمالها ، فقد مضى أبوه عن آثار في الاسلام ترفع ذكره في الدارين ، وتخلفه في عقبه من الغابرين . وولده هذا قد هذبته الفطرة في القول والعمل ، وليست هذه الربوة الا من ذلك الجبل ، فليكن له منك جار يدنو منه وداداً كما دنا ارضاً ، وتصبح وهو له كالبنيان يشد بعضه بعضاً . والذي قدمناه من الثناء عليك ربما تجاوزتك درجة الاقتصاد ، وألقتك عن فضيلة الازدياد ، فإياك ان تنظر الى سعيك نظر الاعجاب فتقول : هذه بلادنا افتتحتها بعد ان اضرب عنها كثير من الأحزاب. ولكن اعلم ان الارض لله ولرسوله ، ثم لخليفته من بعده ، ولا منة للعبد في اسلامه ، بل المنة لله بهداية عبده . وكم سلف قبلك ممن رام ما رمته لدناً شاسعة وأجاب مانعه ، لكن ذخره الله لك لتحظى في الآخرة بمفازه ، وفي الدنيا برقم طرازه . فألق بيدك عند هذا القول القاء التسليم ، وقل : « لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم الحكيم »[1] .

---

(١) سورة البقرة : الآية ٣٢ .

وقد قرن تقليدك هذا بخلعة تكون لك في الاسلام شعـــاراً ، وفي الرسم فخاراً ، وتناسب محل قلبك وبصرك ، وخير ملابس الأولياء ما ناسب قلوباً وأبصاراً ، ومن جملتها طوق يوضع في عنقك موضع العهد والميثـــاق ، ويشير اليك بأن الانعام قد اطاق بك اطاقة الاطواق بالاعناق .

ثم انك خوطبت بالملك، وذلك خطاب يقضي لصدرك بالانشراح ، ولأملك بالانفساح ، وتؤمر معه بمد يدك العليا لا تضمها الى الجناح .

وهذه الثلاثة المشار اليها هي التي تكمل بهـا أقسام السعادة ، وهي التي لا مزيد عليها في الاحسان فيقال انها الحسنى وزيادة ، فإذا صارت اليك فانصب لها يوماً في الايام كريم الانساب ، واجعله لها عيداً وقل : هذا عيد الخلعـــة والتقليد والخطاب .

هذا ولك عند أمير المؤمنين مكانة يجعلك اليه حـــاضراً وانت ناءٍ عن الحضور ، وتضنّ ان تكون مشتركة بينك وبين غيرك ، والضنة من شيم الغيوب. وهذه المكانة قد عرفت نفسها وما كنت تعرفها، وما نقول الا انها لك صاحبها وانت يوسفها فاحرسها عليك حراسة تقضي بتقديمها ، واعمل لها فإن الاعمال بخواتيمها .

واعلم انك تقلدت أمراً يُفتَنُ به نقي الحلوم ، ولا ينفك صاحبه عن عهدة الملوم ، وكثيراً ما ترى حسناته يوم القيامة وهي مقسومة بأيدي الخصوم ؛ ولا ينجو من ذلك الا من أخذ بأهبـــة الحذار ، واشفـق من شهـــادة الاسماع والابصار . واعلم ان الولاية ميزان احدى كفتيه في الجنة والأخرى في النار . قـــال النبي ﷺ : يا أبا ذر ، اني احب لك ما احب لنفسي ؛ لا تأمرن على اثنين ، ولا تولين مـــال يتيم . فانظر الى هذا القول النبوي نظر من لم يخدع

بحديث الحرص والآمال . ومثل الدنيا وقد سيقت اليك بجذافيرها ، أليس مصيرها الى زوال ؟ والسعيد من اذا جاءته قضى بهـا أرب الارواح لا أرب الجسوم ، واتخذ منها ، وهي السم ، دواء ، وقد تتخذ الادوية من السموم .

وما الاغتباط بما يختلف على تلاشيه المساء والصباح ، وهـو « كماءٍ أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فأصبح هشيماً تذروه الرياح »[1] .

والله يعصم أمير المؤمنين وولاة أمره من تبعاتها التي لابستهم ولابسوها ، واحصاها الله ونسوها . ولك انت من الله هذا الدعاء خطٌ على قدر محلك من العناية التي حدثت بصنعك ، ومحلك من الولاية التي بسطت من ذرعك .

فخذ هذا الأمر الذي تقلدته أخذ من لم يتعقبه بالنسيان ، وكن في رعايته ممن اذا نامت عيناه كان قلبه يقظان . ومـلاك ذلك كله في اسباغ العدل الذي جعله الله ثالث الحديث والكتاب ، واغنى بثوابه وحده عن اعمـال الثواب ، وقدّر يوماً منه بعبادة ستين عاماً في الحساب . ولم يأمر به آمر الا زيد قوة في أمره ، وتحصن به من عدوه ومن دهره ، ثم يجاء به يوم القيامة وفي يده كتاب أمان ، ويجلس على منبر من نور عن يمين الرحمن . ومع هذا فإن مركبه صعب لا يستوي على ظهره الا من امسك عنان نفسه قبل امساك عنانه ؛ وغلبت لمة ملكه على لمـة شيطانه . ومن آكد فروضه ان تمحى السير السيئة التي طالت مدد أيامها ، ويئس الرعايا من رفع ظلاماتها فلم يجعلوا أمداً لانحسار ظلامها . تلك السير هي المكوس التي انشأتها الهمم الحقيرة ، ولا غنى للأيدي الغنية اذا كانت ذا نفوس فقيرة . وكلما زادت الأموال الحاصلة منها قدراً ، زادهـا الله محقاً . وقد استـ ـت عليها العوائد التي ألحقها الظالمون بالحقوق الموجبة فسموها حقاً . ولو ان صاحبها اعظم الناس جرماً لما أغلظ في عقـابه ، ومثلت توبة

---

(١) سورة الكهف : الآية ٤٥ .

المرأة الغامدية بمتابه – وهي أشقى ممن يكون السواد الاعظم له خصمـــاً . ويصبح وهو مطالب بما يعلم وبما لم يحط به علماً . وأنت مأمور بأن تأبى هذه الظلامات فتنهى عن اجرائها ، وتلحق اسماءها في المحو باهمالها ، حتى لا يبقى لها في العيان صورة منظورة ، ولا في الألسنة أحاديث مذكورة .

واذا فعلت ذلك كنت أزلت عن الماضي سنة سوءٍ سنتهـــا يداه ، وعن الآتي متابعة ظلم وجده طريقاً مسلوكاً فجرى على بداه . فبادر الى ما أمِرْتَ به مبادرة من يضيق به ذراعاً ، وانظر الى الحياة الدنيا بعينها فرآها في الآخرة متاعاً . وأحمد الله على ان قيض لك إمام هدى يقف بك على هداك ، ويأخذ بحجزتك عن خطوات الشيطان الذي هو اعدى عداك . وهذه البلاد المنوطة بنظرك تشتمل على اطراف متباعدة ، وتفتقر في سياستها الى أيدٍ متساعدة ؛ ولهذا يكثر بها قضاة الاحكام ، واولو تدبيرات السيوف والاقلام . وكل من هؤلاء ينبغي ان يفتن على نار الاختبار ، ويسلط عليه شاهد عدل من امـــانة الدرهم والدنيار ، فما اضل النــــاس شيء كحب المال الذي فورقت من اجله الأديان ، وهجرت بسببه الاولاد والاخوان ، وكثيراً ما يُرى الرجل الصائم القائم ، وهو عابد له عبادة الاوثان . فاذا استعنت بأحـد منهم على شيء من امرك فاضرب عليه بالارصاد ، ولا ترضى بما عرفته من مبدأ حاله فإن الاحوال تنقل بنقل الاجساد ، واياك ان تخدع بصلاح الظاهر كما خدع عمر بن الخطاب بالربيع بن زياد .

وكذلك نأمر هؤلاء على اختلاف طبقاتهم بأن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر محاسبين ، ويعلموا ان ذلك من دأب حزب الله الذين جعلهـم الغالبين ، وليبدأوا اولاً بأنفسهم فيعدلوها عن هواها ، ويأمروها بما يأمرون به سواها ، ولا يكونوا ممن هدى الى طريق البر وهو عنها حائد ، وانتصب لطب المرضى

وهو محتاج الى طبيب وعائد ؛ فما تنزل بركات السماء الا على من خاف مقام ربه ، وألزم التقوى اعمال يده ولسانه وقلبه ؛ فـــاذا صلحت الولاة صلحت الرعية بصلاحهم ، وهم لهم بمنزلة المصابيح ولا يستضيء كل قوم الا بمصباحهم . ومما يؤمرون به ان يكونوا لمن تحت ايديهم اخواناً في الاصحـــاب ، وجيراناً في الاقتراب ، واعوانـــاً في توزع الحمل الذي يثقل على الرقاب ؛ فالمسلم اخو المسلم وأن كان عليـــه أميراً ، واولى الناس باستعمال الرفق من كان فضل الله عليه كثيراً ، وليست الولاية لمن يستجد بها كثرة اللفيف ، ويتولاهـا بالوطء العنيف ، ولكنها لمن يمال عن جوانبه ، ويؤكل من اطايبه ، ولمن اذا غضب لم ير للغضب عنـده أثر ، واذا ألحف في سؤاله تخلق بخلق الفجر . واذا حضر الخصوم بين يديه عـــدل بينهم في قسمة القول والنظر ؛ فذلك الذي يكون لصاحبه من اصحاب اليمين ، والذي يدعى بالحفيظ العليم والقوي الأمين .

ومن سعادة المرء انتكون ولاته متأدبين بآدابه وجارين على منهج صوابه ، واذا تطايرت الكتب يوم القيامة كانوا حسنات مثبتة في كتابه .

وبعد هذه الوصية ، فإن هاهنا حسنة هي للحسنات كالأم الودود ، ولطالما أغنت عن صاحبها اغناء الجود ، وتيقظت لنصره والعيون رقود ، وهي التي تسبغ لها اللألاء ، ولا يتخطاها البلاء . ولأمير المؤمنين عناية تبعثها الرحمـــة الموضوعة في قلبه ، والرغبة في المغفرة والرحمة لما تقدم وتأخـــر من ذنبه ، وتلك هي الصدقة التي فضل الله بعض عباده بمزية افضالها ، وجعلها سبباً الى التعويض عنها بعشرة أمثالها . وهو يأمرك ان تفقد احوال الفقراء الذين قدرت عليهم مادة الارزاق وألبسهم التعفف ثوب الغنى وهم في ضيق من الإمـــلاق . فأولئك أولياء الله الذين مستهم الضراء فصبروا ، وكثرت الدنيا في يد غيرهم فما نظروا اليها اذا نظروا . وينبغي لك ان تهيىء لهـم من امرهم مرفقـــاً ؛ وتضرب بينهم وبين الفقر موبقاً .

وما أطلنا لك القول في هذه الوصية إلا اعلاماً بأنها من المهم الذي يستقبل ولا يستدبر ، ويستكثر منه ولا يستكبر . وهذا يعد من جهاد النفس في بذل المال ، ويتلوه جهاد العدو الكافر في مواقف القتال . وامير المؤمنين يعرفك من ثوابه ما يجعل السيف في ملازمته اخاً ، وتسخو له بنفسك ان كان احد بنفسه سخا . ومن صفاته ان العمل المحبوب بفضل الكرامة ، الذي ينمو اجره بعد صاحبه الى يوم القيامة ، وبه يمتحن طاعة الخالق على المخلوق . وكل الأعمال عاطلة لا خلوق لها وهي المختص دونها بزينة الخلوق . ولولا فضله لما كان محسوباً بشطر الايمان ، ولما جعل الله الجنة له ثمناً ، وليست لغيره من الأثمان . وقد علمت ان العدو هو جارك الادنى ، والذي يبلغك وتبلغه عيناً واذناً ، ولا تكون للاسلام نعم الجار حتى تكون له بئس الجار ، ولا عذر لك في ترك جهاده بنفسك ومالك اذا قامت لغيرك الاعذار . وامير المؤمنين لا يرضى منك بأن تلقاه مصافحاً ، او تطرق ارضه ماسياً او مصابحاً ، بل يريد ان تقصد البلاد التي في يده قصد المستغير لا قصد المغير ، وان تحكم فيها بحكم الله الذي قضاه على لسان سعد في بني قريظة والنضير . وعلى الخصوص البيت المقدس فإنه بلاد الاسلام القديم ، واخو البيت الحرام في شرف التعظيم ، والذي توجهت اليه الوجوه من قبل بالسجود والتسليم . وقد اصبح وهو يشكو طول المدة في اسر رقبته ، واصبحت كلمة التوحيد وهي تشكو طول الوحشة في غربتها عنه وغربته . فانهض اليه نهضة متوغل في فرحه ، وتبدل صعب قياده بسمحه ، وان كان له عام حديبية فاتبعه بعام فتحه . وهذه الاستزادة بعد سداد ما في اليد من ثغر كان مهملاً فحميت موارده ، او مستهدماً فرفعت قواعده، ومن اهمها حاضر البحر كأنه اعمه عورته مكشوفة ، وخطة مخوفة، والعدو قريب منه على بعده ، وكثيراً ما يأتيه فجاءة حتى يشق برقه برعده ، فينبغي ان ترتب بهذه الثغور رابطة يكثر شجعانها ويقل اقرانها ، ويكون

قتالها لأن تكون كلمة الله هي العليـــا لا لأن يرى مكانها ، وحينئذٍ يصبح كل منها وله من الرجال اسوار ، ويعلم اهله ان بناء السيف امنع من بناء الاحجار. ومع هـذا لا بد له من اسطول يكثر عدده ويقوي مدده ، فإنه العمـدة التي يستعين بها على كشف العماء ، والاستكثار من سبايا العبيد والامـاء . وجيشه أخو الجيش السلياني ، فذاك يسري على متن الريح ، وهذا يجري على متن الماء .

ومن صفات خيله انها جمعت بين القوم والمطار ، وتسادت اقدار خلقها على اختلاف مدة الأعمار ؛ فاذا اشرعتْ قيلَ جبـــال متلفعة بقطع من الغيوم ، واذا نظر الى اشكالها قيل اهلة غير انها تهتدي في سيرها بالنجوم . ومثل هذه الخيل ينبغي ان يغالى من جيادها ويستكثر من قيادها . وليؤمر عليهـا امير يلقى البحر بمثله من سعة صدره ، ويسلك طرقه سلوك من لم تقتله بجهلها ولكن قتلها بخبره . وكذلك فليكن ممن افنت الأيام تجاربه وزحمتها منـاكبه ، وممن يذل الصعب اذا هو ساسه ، وان سيس لان جانبه . وهـذا هو الرجل الذي يرأس على القوم فلا يحد هذه بالرياسة ، فإن كان في الساقة ففي الساقة ، او كان في الحـراسة ففي الحراسة . ولقد افلحت عصابة اعتصبت من ورائه وايقنت بالنصر من رايته ، كما ايقنت بالنجح من رأيه .

واعلم انه قد اخلّ من الجهاد بركن يقدح في علمه ، وهو تمامه الذي يأتي في آخره كما أن صدق النية يأتي في أوله ، وذلك هو قسم الغنائم ، فإن الأيدي قد تناولته بالاجحاف ، وخلطت جهادها فيه بغلولها فلم ترجع بالكفـاف . والله قد جعل الظلم في تعدي حدوده المحدودة ، وجعل الاستئثار بالمغنم من اشراط الساعة الموعودة . ونحن نعوذ به أن يكون زماننا هذا شر زمـــان وناسه شر ناس ، ولم يستخلفنا على حفظ اركان دينه ثم نهمله اهمال مضيع ولا اهمـــال ناس .

والذي نأمرك به ان تجري هذا الأمر على المنصوص من حكمه ، وتبريء ذمتك مما يكون غيرك الفائز بفائدة ، وأنت المطالب بأثمه ، وفي أرزاق المجاهدين بالديار المصرية والشامية ما يغنيهم عن هذه الأكلة التي تكون غداً نكالاً وجحيماً وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً .

فتصفح ما سطرناه لك من هذه الأساطير التي هي عزائم مبرمات ، بل آيات محكمات ، وتحبب الى الله والى أمير المؤمنين باقتفاء كتابها ، وابْنِ لك بها مجداً يبقى في عقبك اذا اصيبت البيوت في اعقابها ، وهذا الذي ينطق عليك بأنه لم يأل في الوصايا التي أوصاها ، فإنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها .

ثم انه قد ختم بدعوات دعا بها أمير المؤمنين عند ختامه ، وسأل فيها خيرة الله التي تتنزل من كل امر منزلة نظامه ثم قال : اني اشهدك على من قلدته شهادة تكون عليه رقيبة وله حسيبة فإني لم آمره الا بأوامر الحق التي فيها موعظة وذكرى ، ولمن اتبعها هدى ورحمة وبشرى . واذا اخذ بها فلج بحجته يوم يسأل فيه عن الحجج ، ولم يختلج دون رسوله على الحوض في جملة من يختلج ، وقيل له : لا حرج عليك ولا اثم اذ نجوت من ورطات الاثم والحرج ، والسلام .

حسن المحاضرة للسيوطي ج ٢ ، ص ٧ — ١٥ .

١٦٣ — رسالة من صلاح الدين الى المستضيء بنور الله العباسي يتوسط للعفو عن عز الدين اقبوري من انشاء القاضي الفاضل :

تمكن قايماز كل التمكن من الخليفة المستضيء حتى اصبح صاحب السلطة لديه ، ثم ثار ضده فهُزِم وهرب من بغداد ومعه جماعة من اصحابه احدهم

عز الدين اقبوري ، وكان صهر صلاح الدين واثيراً لديه . فالتجأ اقبوري الى صلاح الدين وطلب منه التوسط لدى وزير الخليفة للعفو عنه والسماح له بالرجوع الى بغداد واسترجاع ثروته . فكتب صلاح الدين الى الخليفة بذلك ومنها هذه المقتطفات :

... وما نحسب انا مع الموالاة المشتهرة ، والنصرة المتناصرة المستظهرة ، والمساعي التي كانت لثارات هذه الدولة بالغة ، ولاعدائهم دامغة ، ولمنازعيهم الامر قاصمة ، ولمجاذبيهم الحق واقمة ، وبحقوق الله تعالى الواجبة لهم قائمة ، وكوننا ما أعِنّا منها بنجدة من رجال ولا بمادة من مال، ولا باعانة بحال من الأحوال، يرد سؤالنا من الدولة- اعلاها الله - في ذي قربى لا نستطيع دفعه، ولا يقبل أسباب النفع اذا أردنا نفعه ، فالأخبار عندنا واسعة ، والاعواض لدينا غير متعذرة ، والولايات التي نفوضها عن كفايته غير مستغنية ، ولكنه ما باع بمكانه من الخدمة مكاناً ، ولا آثر غير سلطانه سلطاناً . وله اعذار لا بأس ان نعيره فيها لساناً وبياناً .

ثم ذكرها ثم قال :

وهذا الأمير جزءٌ منا فكيف يعد جزءٌ منا عاصياً ، وبألسنتنا وسيوفنا يدعى الخلق الى الطاعة . وكيف يخلو دار الخلافة من واحد من أهلنا ينوب عنا وعن بقية الجماعة . فنحن في أنفسنا نشفع ، وعن جاهنا ندفع ، وفي مكاننا نسأل ، وبخطنا الذي لا نسمح به للاسلام نبخل . وأنت أيها الأمير السائر ثالث رسول سواك ندب في أمر هذا الأمير . والله ولي التوفيق .

كتاب الروضتين لأبي شامة ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٤٥ .

١٦٤ - مقتطفات من رسالة بعث بها صلاح الدين الى الخليفة العباسي

الناصر لدين الله يشكره لأنه أرسل له الخلعة والتشريفات وجدد عهده له ؛ وكان الخليفة ارسلها له مع شيخ الشيوخ .

...قد سبقت مطالعته بما انتهى اليه من اداء الفرض وتقبيل الأرض والافاضة في شكر ما افيض عليه من التشريفات التي اسحبته ذيل الفخار ، واصحبته الشرف السامي المنار ، واحظته بالايثار ، وحضته على العبودية الحميدة الآثار ، المأمونة العثار . وما أسعده وقد خص برسالة الجانب المحروس الصدري شيخ الشيوخ شرقاً وغرباً ، وسفارته التي زادها وجه استبشاره سفوراً ، وأمد استظهاره واستنصاره قوة وظهوراً ، وطرف استبصاره ضياءً ونوراً ؛ فإنه وان كان تناهى في العبودية الى مدى لا مزيد عليه لمستزيد ، ولا مطمع في توقل هضباته لمريد ؛ غير انه بالوفود الصدري ارتفع قدره وانشرح صدره ، ونظم في سلك الابرار أمره ، وسر سره ونصر نصره ، وتوالى لما أولاه مولانا الامام من مقدم مثله عليه شكره ، واطلعه على أسباب في الاخلاص ما تجد سوى الخادم لها اهلاً ، وعاد ببركة قدومه كل صعب سهلاً ، وأصبح امله منه بعبء النجح مستقلاً ، واستجلى بغرته المباركة عزة البركة ، واستجلى لغزة قدومه الميمون عزة المملكة . وقد توجه الخادم الى الديار المصرية لتجديد النظر فيها وترتيب مصالحها وتوخيها .

ومنه :

وقد ندب القاضي ضياء الدين الشهرزوي ينوب عنه في رفع الادعية والقيام بشرائط العبودية ، وقرر معه من أسباب الخلوص وأسرار العموم والخصوص ما ينهيه وينتهي الى غاية الحد فيه .

مضمار الحقائق لمحمد بن تقي الدين عمر ، ص ٥١ — ٥٢ .

١٦٥ – رسالة الى الخليفة العباسي من صلاح الدين يشرح فيها موقفه من المواصلة والحلبيين وغدرهم واستعدادهم للقتال، وهي من انشاء القاضي الفاضل.

يطالع بأن الحلبيين والموصليين لما وضعوا السلاح وخفضوا الجناح ، اقتصرنا، بعد أن كانت البلاد في أيدينا ، على استخدام عسكر الحلبيين في البيكارات[1] الى الكفر ، وعرضنا عليهم الامانة فحملوها ، والايمان فبذلوها. وسار رسولنا وحلف صاحب الموصل بحضر من فقهاء بلده وامراء مشهده يميناً جعل الله فيها حكماً ، وضيق في نكثها المجال على من كان حنيفاً مسلماً ، وعاد رسوله ليسمع منا اليمين . فلما حضر واحضر نسختها ، اومى بيده ليخرجها ، فأخرج نسخة يمين كانت بين الموصليين والحلبيين ، مضمونها الاتفاق على حزبنا، والتداعي الى حربنا ، والتساعد على ازالة خطبنا ، والاستنفار لمن هو على بعدنا وقربنا، وقد حلف بها كمشتكين الخادم وجماعة معه ، يميناً تنضت الاولى، فرددنا اليمين الى يمين الرسول . وقلنا : هذه يمين عن الايمان خارجة ، واردت عمراً واراد الله خارجة .

وانصرف الرسول عن بابنا وقد نزهنا الله ان يكون اسمه معرضاً للحنث العظيم والنكث الذميم . وعلمنا ان الناقد بصير والآخذ قدير . والمواقف الشريفة النبوية – اعلاها الله – مستخرجة الاوامر الى الموصلي اما بكتاب مؤكد بأن لا ينقض عهد الله بعد ميثاقه ، واما ان تكون الفسحة واقعة لنا في تضييق خناقه .

ثم ذكر امر الفرنج ثم قال :

والمملوك بين عدو اسلام يشاركونه في هذا الاسم لفظاً ، ولا ينوون لما

---

(١) البيكارات جمع بيكار وهي كلمة فارسية تعني الحرب في أبسط معانيها .

استحفظوا حفظاً ، وعدو كفر فما يجاورهم الا بلاده ولا يقارعهم الا اجناده .

ثم طلب :

خروج الأمر بخطاب جميع ملوك الاطراف ان يكونوا للمملوك على المشركين اعواناً ، وأن يمتثل امر نبينا ﷺ في ان يكونوا بنياناً ، فيعضدوه اذا سعى ، ويلبوه اذا دعا ، ولا يقعدوا عن المعاضدة في فتح البيت المقدس الذي طابت النفوس عن ثأره ، وطأطأت الرؤوس تحت عاره ، وصارت القلوب صخرة لا ترق على صخرته ، والعزائم قاصية عن تطهر اقصاه من رجس الشرك ومعرته ، فإن قعدت بهم العزائم ، وأخذ لهم في الله لومة لائم ، فلا اقل من الا يكونوا أعواناً عليه يلفتونه عن قصده ، حريصين على ايصال المكروه اليه .

كتاب الروضتين لأبي شامة ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٤٨ – ٦٤٩ .

١٦٦ – رسالة صلاح الدين الى استاذ الدار الإمامية مجد الدين بن الصاحب سنة ٥٨١ هـ يشكو اعمال المواصلة ويشرح حركته ضدهم :

قد أحاط العلم الكريم بأن التوجه لم يكن في هـذه السنة من دمشق الى حلب الا للجهاد في سبيل الله عز وجل ، فإنه غاية الأرب ، وذلك بنية غزاة انطاكية . فإن غزاة الفرنج من جانب دمشق انما تستقيم اسبابهـا وتستتب آرابها ، اذا كانت عساكر مصر حاضرة ، والأيدي بقوتها متظاهرة . وكانت العساكر المصرية قد طالت بالشام اقامتها ، وتوفرت في ملازمة الخدمـة في البيكارات عرامتها ، فرأى اراحتها واستجمامها ، وعـاد الى مصر لتستجد استعدادها واهتمامها ووصل الى حلب لقربها من البلاد الاسلامية لتجمع العساكر منها لغزاة انطـاكية . وطمع أيضاً في وصول العسكر الموصلي للانجـاد ، والمساعدة من سائر الجهات على الجهاد ، والاستظهار منها بتوافر الامـداد ،

فإن رسل المواصلة لا زالوا مترددين ، وللخديعة بالقول والكتب مجددين ، وهم في أثناء ذلك يراسلون الجوائب ويكاتبون الأجانب ويرتقبون النوائب، وتذهب بمعاودتهم الأوقات ، وتحدث دون قصدهم الحادثات . فهادن انطاكيـــة هدنة آذنت بغبطة الاسلام ، وخلـّص من طال اساره من ذوي الاقدام ورجـــال الشام ، ورأى ان المواصلة لا ينزلون عن المحتمين به ، ولا يرفعون أيديهـم عن المعتصمين بسببه ، ومنهم صاحب الجزيرة واربـل ومن تكريت والحديثـــة وغيرها ، وأنهم لا يقفون في المكر والخديعة عند أمد ، وان رسلهم متناوبة الى كل أحد. فسار على انه يلحق البلاد قبل هجوم الحر ، ويصل اليها في وقت امكان الحصر ؛ فما وصل اليها الا والحر قد اشتد استعاره، والقيظ قد تأججت ناره ، ورأى الوقت يعسر في تقديم آلات الحصار ، ويخشى عليهـــا مع نـــار الهجير من قبول النار ، فإنه استصحب منجنيقات ودبابات ، وأخشاباً لعمل البرج مهيبات ، ووقد الظهيرة يؤثر فيهـــا ، ويشق أيضاً لبس الدروع على مستلميها ، فلم يبق الا المقام بنية المطاولة والمصابرة ، والتمهل ان يطيب الزمان ويتيسر امكان المحاصرة ، فتوطن عزمه على التوطن ، وأقام بنية التثبت وقوة التمكن واقطع البلاد والولايات وولى الاقطاعات ، وخيمت العساكر المنصورة بشرقي الموصل وغربها، فضيقت خناقها وملأت بنجوم الأسنة آفاقها، وتصرفت في اعمالها ، وتفرقت في سهولها وجبالها .

ومنه :

ورأينا ان مقامنا بغير شغل ، فانكرنا في امر يقوم مقام الحصار سهل ؛ وهو أنـّا وجدنا الماء في أوان نقصانه، وانه اذا سد وحول فهذا زمان امكانه، فركبنا وشاهدنا موضع التحويل ، وايقنا من الله تعالى بنجح التأويل . وذكر المهندسون اهل الخبرة انه يسهل تحويل دجلة الموصل عنهـــا ، بحيث يبعـــد

مستسقى الماء منها ، فحينئذٍ يضطر اهلها الى تسليمها بغير قتال ، ولا حصول ضرر في تضيق ولا نِزال ، واستدعى لذلك آلالات واشتغل بجمع صناع ورجال .

مضمار الحقائق لمحمد بن تقي الدين عمر ، ص ٢١٥ - ٢١٦ .

١٦٧ - رسالة من صلاح الدين الى استاذ دار الخليفة مجد الدين يذكر بها جهاده وغدر المواصلة :

أدام الله اقبال سامي مجلس الصاحب ، واندى سعاداته ، وأيد بالنجح ارادته ، وحلّى بالمكارم والمحامد سجاياه وعاداته ، وانجز بنصرٍ اوليائه وكبت عداته ، ولا زالت امداد الزيادة له والسعادة نامية ، وآماد عزه في سماء مجده مترامية ، وأعين مناوئية في مناره عن الطموح الى ذرى فخاره متغاشية متعامية وديم الكرم في فضاء فضائله من سماء سماحه هامرة هامية ، ما سفر وجه وتوجه سفر وقدر أمر .

وقد امر بعدما أصدر مملوك الدار العزيزة - ثبت الله قواعد مجدها ، وشد بعرى النصر معاقد سعدها - مطالعاته التي أعرب فيها عن صاحب الموصل ، وانه قد طمع في حلب وطمح اليها ، ومن عين التعدي بالاحتواء عليها ، وانه نكث الإيمان المبرمة ونقضها ، وترك المراقبة التي فرضها الله بأن رفضها . فإن حلب وأعمالها داخلة في ولايتنا دخولاً يشهد به المثال ، وينطق بحقه المنشور العال ، الموقع له من مقر العظمة والجلال . بلغه أنه بلغ الفرات وقطعه ، قاطعاً لما أمر الله به أن يوصل من العهد ، وجسر على عبور جسره بل خسر ، حيث جاوز حد التعدي بتعدي الحد ، ووصل الى حلب ممترياً حلف الخلاف ، متنكباً طريق الإنصاف . وقد أحوجته قلة عسكره الى الاستكثار بمن في

البلد من الاجناد والاشباه من رعية البلاد . هذا وذوو التميز وأهـــل الرأي والمشورة من أمراء العسكر الحلبي لم يرضوا ولم يرفعوا به رأساً ، ومـا ازدادوا به إلا استيحاشاً لا استئناساً . ومن حلف لهم حيث أكرهوه ، حلف على المقام ان طابت نفسه بخدمته ، أو مفارقته الينا والانحياز عن جهتـــه . ومن هؤلاء الامراء ممن هو احماهم حقيقة واحقهم حمية وآباهم نفساً وانفسهم آبية من فارقه متاركاً وشاققه مباكتاً وذهب مغاضباً ، وتحيز الى جانبنا واعرض عنه جانباً، ووصل الى نوابنـــا بالشام متوسلاً إلينا لنفسة بآرائه وآرابه ، ورسولاً عمن وراءه من رفقائه وأصحابه. وشاع أيضاً ان عسكر حلب أغار على الراوندان، وهي أحد ما في عملنا ، وتصرفنا له ولولايته شامل ، ورسولهم عند الفـرنج يستنجدهم في شغلنا ويغريهم ، ويبذل لهم الرغبـــات ويضريهم ، وقد راسل الحشيشية ، والمراد من الرسالة غير خافٍ ، والمعتاد منها كافٍ . ومـا تهيـأ للمذكور الوصول الى حلب الا بسبب غيبة ابن أخينا في اقصى بلاد الفرنـج في أول برية الحجـاز . وقد نهض اليهم بالعسكر معترضاً لهم في المجـــاز ، فإن طاغيتهم[١] جمع خيله ورجله ، واستعمل في الاستكثـــار من الزاد والآلات والعدد منته وجهله ؛ وحدثته نفسه الخبيثة بقصد تيماء ، وهي دهليز المدينة — على ساكنها السلام — واغتنم كون المدينة مخصبة هذا العام . فقفى ابن أخينـا أثره ، وأخذ عليه مورده ومصدره ، وعارض بالعسكر المنصور عدوله المخذول وعسكره ، وذلك بعد ان أمضى عزمه ، وأنضى ركابه وجهده ؛ ومنع الكافر المخذول وصد قصده، ولم يعلم بوفاة ولد نور الدين — رحمه الله — الا بعد عودته

(١) يقصد بطاغيتهم القائد الصليبي المعروف رينودو شاتيون ، ويسميه المؤرخون المسلمون بإسم ارناط ، وكان حاكم حصن الكرك ، ومن أشد الصليبيين عداوة وكفراً وغـــدراً ، ولقي مصرعه بعيد معركة حطين .

من نهضته . وقد حسن بحمد الله أثر عزمته ، واستنقذ بركة وجهه في غزوته. ولم يشك هو ولا غيره ان صاحب الموصل لا يتعرض للبلاد لأمرين : أحدهما انه لا يتصرف الا على الأوامر الشريفة المطاعة التي تأمر بالوفاء وتنهى عن الغدر ، والآخر انه لا ينقض يميناً ليس في نقضها وجه من العذر . والعجب اننا نحامي عن قبر النبي ﷺ ، مشتغلين بهمة ، والمذكور[1] ينازع في ولاية هي لنا ليأخذها بيد ظلمه . وكم بين من يحارب الكفر ويحمل اليهم قواصم الآجال ، وبين من يتخذهم بطانة دون المؤمنين ويحمل اليهم كرائم الأموال ؟ وبين بعيد من دار الخلافة المعظمة يفترض الطاعة ويستفرغ في مراضيها الاستطاعة ، ولا يحل ولا يعقد الا بمراشدها . ولا يقوم ولا يقعد الا بمراصدها ولا يصدر ولا يورد الا عن مصادرها ومواردها ، وبين آخر يدعي انه أقرب جيرانها ، ولا يمت بل لا يموت الا بعصيانها، ويخطب لأهل الخلاف على الخلافة، ويجهر بأسمائها ، وينشر في ولايته راية اعدائها ، وكل يعمل على شاكلة أسلافه، فهو يمري بيد المراء – كعادتهم الجارية – اخلاف احلافه ، ونحن لا نتدين الا بطاعة الامام ، ولا نرى ذلك الا من اركان الاسلام . هذا مع ما نُعَدُّ في الملة الحنيفية والدولة الهادية العباسية بما لا يعد مثله ، اولاً لأبي مسلم : لأنه أقدم ثم ضام ، وأمال ثم آلام ، ووالى ثم ولى ، وجلّ وجلا ثم اخلّ وأخلى ؛ ولا يعد آخراً لطغرليك فإنه نصر ونصب ثم حجر وحجب . وقد عرف ما فضلنا الله تعالى به عليهما في نصر الدولة وقطع من كان ينازع الخلافة رداءها ، واساغته الغصة التي ذخر الله لاساغته في سبقه بنسا اياها ؛ وتطهير المنابر من رجس الادعياء ، واطلاع أنوار السمات كاشفة ظلم تلك الأسماء ، وانارة صباح الهدى بعد امتداد رواق الضلالة المدلهمة الظلماء ، ولم نفعل ما فعلناه لأجل الدنيا ،

[1] يقصد صاحب الموصل .

فلا معنى للاعتداد بما الجزاء عنه بالحسنى فتوقع في العقبى . غير ان التحدث بنعمة الله واجب، والتبجح بالخدمة الشريفة والافتخار بالتوفيق لها على السجية غالب . ولا غنى عن بروز الأوامر الشريفة الى المذكور بأن يلزم حده ولا يتجاوز حقه ، فلا ولاية له من خليفة يقترن به بهاء المضاء ، ولا وراثة له في ارض الله . فإن الأرض لله يورثها من يشاء . فإن أطاع وأناب ورجع عن الخطأ وعاود الصواب وترك الحق لأهله ، وأخذ الوفاء في سلوك سبله ، والا فما قصدنا الا ان نقاتله وهو لأمر الخلافة المعظمة مخالف ونحن طائعون ، والمشار اليه متصامم ونحن سامعون . وكفى بالحق نصرة انه على الرشد الكامل ، وبالمبطل خذلاناً انه طالب للباطل .

فصل منه :

هذا وما بنا — بحمد الله — قصور عن ان نصده عن قصده ، ونرديه ثوب العجز برده ، ونكيل له بصاعه ، ونعثره في عثير اسراعه ، ونحسم داءه وان اعضل مرضاً ، ونرميه بسهام من عند الله تعالى لا تقبل غيره غرضاً . ولا شك ان التجارب يحيره والادبار يصحبه فيما يدبره . وقد طالع الديوان العزيز بطبه مستشفياً ولشرح قصته مستوفياً ، ولعذره في جميع الأحوال مبيناً ، ولا غناء عن نظره السامي ليكون للمراد متولياً ولراية الحق معلياً . لا زال لذخائر الحق مقتنياً ولقواعد المجد مبتنياً ، ورأيه اسمى ان شاء الله تعالى .

مضمار الحقائق لمحمد بن تقي الدين عمر ، ص ٦٢ — ٦٥ .

١٦٨ — رسالة من صلاح الدين الى الديوان العزيز حول المواصلة ونقضهم العهود وحربهم من انشاء القاضي الفاضل :

اجتمع المواصلة وشاه ارمن وصاحب ماردين ودولتشاه صاحب اردن

وبدليس وغيرهم على قصد الخادم وحين ظنوا انه تقلل من عسكره ، وندب الى الكفار من امرائه من اكتفى من مغيبه بمحضره ، وقدروا ان يتم لهم اغتراره ويمكنهم عواره ويتناصرون عليه قبل ان يجتمع انصاره ونزلوا تحت الجبل . فلما صح لهم قصد الخادم ظنوا انه واقع بهم ، فأخذوا أعنة الفرار بقوة ، وذكروا ما في لقائه من عوائد عندهم مخوفة وعنده مرجوة ، وسار كل فريق على طريق بكيد عدو وفعل صديق ، معتقلاً ما لا يهتز ولا يعتز ، ومتقلداً ما لا يرقى ولا يريق ، وأعدى انفسهم بجمع ليس له تبشير ، وان كان ما هو جمع سلامة ، بل هو جمع تكسير .

مضمار الحقائق لمحمد بن تقي الدين عمر ، ص ١١٤ .

١٦٩ – فصل من رسالة ارسلها صلاح الدين الى الخليفة الناصر – يخبره بفتح آمد وأخذها من صاحبها محمود سنة ٥٧٨ هـ :

... وهو يتوقع، في جواب هذا الفتح ان يمد بجيش ، هو الكلام ، ورماح، هي الاقلام ، ونصر ، وهو وافد العز ، ورشد ، هو فك الحجز . وليس ذلك لوسائل من دولة اقامها بعد ميل عروشها ، ولا دعوة قام فيها بعد ما تصاغرت دونه همم جيوشها ، ولكن لأن هذه الجزيرة الصغيرة منها تنبعث الجزيرة الكبيرة ، وهي دار الفرقة ومدار الشقة . فلو انتظمت في السلك لانتظم جميع عسكر الاسلام في قتال الشرك ، وكان الكفر يكفي يديه، وينقلب على عقبيه، ويغشاه الاسلام من خلفه ومن بين يديه ، ويغزى من مصر براً وبحراً ، ومن بلاد الشام سراً وجهراً ، ومن الجزيرة مداً وجزراً .

مفرج الكروب لابن واصل جـ ٢ ، ص ١٣٨ .

١٧٠ – رسالة من صلاح الدين الى الخليفة العباسي الناصر يخبره بفتح بلد من

بلاد النوبة وانهزام ملكها بعساكره من انشاء القاضي الفاضل :

صلوات الله التي اعدها لأوليائه وذخرها، وتحياته التي قذف بشهبها شياطين أعدائه ودحرها ، وبركاته التي دعا بها كل موحد فأجاب ، وانقشع بها غمام الغم وظلام الظلم فانجاب عن أنجاب ، وزكاته التي هي للمؤمنين سكن، وسلامه الذي لا يعتري الموقنين في ترديده خطر ولا لكن ، على مولانا عاقد ألوية الايمان وصاحب دور الزمان ، وساحب ذيل الاحسان ، وغالب حزب الشيطان ، الذي زلزلت إمامته قدم الباطل ، وحلت خلافته ترائب الدهر العاطل ، واقتضت سيوفه ديون الدين من كل غريم ماطل ، وامضت غرب كل عزم للحق مغلول واطلعت غارب نجم كل هدي آفل وشفعت يقظات استغفاره الى غافر ذنب كل غافل ، وعلى آبائه الغاية والمفزع ، والملاذ في وقت الفزع ، والقائمين بحقوق الله اذا قعد الناس ، والحاكمين بعدل الله اذ عدم القسطاس ، والمستضيئين بأنوار الالهام الموروثة من الوحي اذا عجز الاقتباس، والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ، خزّان الحِكم وحفاظها ومعاني النعم وألفاظها ، واعلام العلوم المنشورة الى يوم القيامة ، وكائي السروح المنتشرة من كلا سديد[1] الامامة ، ومن لا ينفذ سهم عمل الا اذا شحذ بموالاتهم، ولا يتألق صبح هداية الا اذا استصبح الساري بدلالاتهم .

المملوك يقبل الأرض بمطالع الشرف ومنازله ، ومرابع المجد ومعاقله ، ومجالس الجود ومحال السجود ، ومختلف ابناء الرحمة المنزلة ، ومرسى اطواد البسيطة المتزلزلة ، ومفتر مباسم الامامة ، ومجرّ مساحب الكرامة ، ومكان جنوح اجنحة الملائك ، ومشتجر مناسك المناسك ، حيث يدخلون من كل

(١) كذا بالأصل .

باب مسلمين ، ويتبعهم ملوك الأرض مستسلمين ، ومشاهد الاسلام كيوم انزل فيه : اليوم اكملت لكم دينكم . وينعقد على الولاية ؛ فأمـــا غيره فله قوله : قاتلوا الذين يلونكم ، ويناجيها بلسان جلي الاخلاص الصادق عقيدته ، وانشط الولاء السابق عقيلته ، وارهف الايمان الناصع مضاربه ، وفسَّح المعتقد الناصح مذاهبه ، فأعرب عن خاطر لم يخطر فيه لغير الولاء خَطْرَة ، وقلبٍ اعانه على ورود الولاء ان صفاء المصافاة فيه فطرة . ويخبر أنه ما وهن عما اوجبته آلاؤه ولا وهى ، ولا انثنى عزمـــه عن ان يقف حيث اظلت سدرة المنتهى ، ووضحت الآيات لأولي النهى . والله سبحانه يزيل عنه في شرف المثول عوائق القدر وموانعه ، ويكشف له عن قناع الأنوار التي ليست همته بما دون نظرها قانعة . وكان توجه منصوراً بجيش دعائه قبل جيش لوائه ، وبعسكر اقباله قبل عسكر قتاله ، وبنصال سلطانه قبل نصال اجفانه . لا جرم ان كتائب الرعب سارت امام الكتائب ، وقواضب الحذر غُمِضتْ في جفونها عيون القواضب . وسار اولياء أمير المؤمنين الذين تجمعوا من كل امـــة ، وتداعوا بلسان النعمة ، وتصرفوا بيد الخدمة وصالوا بسيف العزمة ، متواخية نياتهم في الاقدام ، متآلفة طوياتهم في طاعة الامام ، كالبنيان المرصوص انتظاماً ، وكالغاب المشجر اعلاماً ، وكالنهار المانع حديداً وهاجاً ، وكالليل الشامـــل عجاجاً عجّاجاً ، وكالنهر المتدفع اصحاباً ، وكالمشط المطرد اصطحابـــاً . والأرض ترجل برجلهم لما ترفعه الحوافر من غيومها ، والسماء تنزل نزولهم لمـــا تضعه الذوابل من نجومها ، فما انتشرت رياضها المزهرة وغياضها المشجرة الا دلت على أن السحاب الذي سقاهم كريم ، والانعام الذي غمرهم عظيم ، والدنيا التي وسعتهم من عزمتهم تظعن وتقيم .

ولما علم العدو ان الخطب المظنون قد صرح خطابه ، والأمل المخدوع قد صغر

وطابه ، راسل ورأى سل السيوف يغمده ، وماكر وماكرّ لعله ان الحتف يـَعمِده ، واندفع هارباً هائباً وخضع كائبا كاذباً . فمضى المملوك قدماً ، وحمله ظلمه ، وقد خاب من حمل ظلماً ، وأجابه بأنه ان وطيء البساط برجله وإلا وطئه برأسه ، وان قدم على المملوك بأمله ، ولا أقدمه بيأسه ، وان لم يُظهر أثر التوبة ، والا اقام عليه الحد بسكرة الموت من كأسه ، فلم يخرج عن مراوغة تحتها مغاورة ، ومكاسرة وراءها مكاشرة . فاستخار الله في طلبه ، وانتهز فيـــه فرصة شغل قلبه بريبه . ولم يغره ما املي له في البلاد من تقلبه ، وسار ولم يزل مقتحماً ، وتقدم اول العسكر محتدماً ، واذا الدار قد ترحل اهلها فبــانوا ، وظعنوا عن ساحتها فكأنهم ما كانوا ، ولم يبق الا مواقد نيران رحلت قلوبهم بضرامها ، واثافي دهمٌ اعجلت المهابة مــا رد سغبهم عن طعامها ، وغربان بينٍ كأنها في الديار ما قطع من رؤوس بقي حامها ، وعوافي طيرٍ كانت تنتظر من اشلائهم فطر صيامها . وعادت الرسل المنفذة لاقتفاء آثارهم واداء اخبـــارهم ذاكرة انهم لبسوا الليل سواداً على النعمة التي خلعت ، وغسلوا بماء الصبح أطماع نفس كانت قد تطلعت ، وأنهم طلعوا الاوعار اوعالاً ، والعقاب عقبانـــاً ، وكانوا لمهابط الاودية سيولاً ، ولأعالي الشجر قضباناً ، فرأى المملوك ان الكتاب فيهم قد بلغ اجله ، والعزم فيهم قد نال أمله ، والفتك بهم قد اعمـــل منصله ، وان سيوف عساكر امير المؤمنين منزهة ان تريق الا دماءَ اكفائها من الأبطال ، وان تلقى الا وجوه انظارها من الرجال ، وان المذكورين نمل حطمــه سليمان عليه السلام وجنوده ، ورمل اطاره العاصف الذي يسحفه ويقوده[1] .

وأصدر هذه الخدمة ، والبلاد من معرتهم عارية ، والكلمة بانخفاضهم غالية

---

(١) سحف : بمعنى ذهب به وساقه من مكان الى مكان مثل سحفت الريح السحاب اذا ذهبت به وساقته من مكان الى مكان .

عالية ، ويد الله على اعدائه عادية ، وأنفس المخاذيل في وثاق مهابته العـــالية عانية . فرأى المملوك ان يرتب بعده الأمير فلاناً ليبذل الامانات لسوقة اهل البلاد ومزارعيها ، ويفصل المحاكمات بين متابعي السلطنة ومطاوعيها ، ويفسح مجال الاحسان لمعاودي المواطن ومراجعيها ، فيعمر من البلاد مـــا قد شغر ، ويشغر بالآمنة من لا شعر ، فان مقام المملوك ومن معه من عساكر تمنع الشمس من مطلعها وترد جرية البحر عن موقعهـا مما يضر بالغلال وينسفها ، ويجحف بالرعايا ويعسفها .

فالحمد لله الذي جعـــل النصر لائذاً بأعطاف اعتزامه ، وانامل الرعب السائر الى الاعـداء محركة عذبات اعلامه ، والعساكر المناضلة لسلاح ولائه تفنى بأسمائها عن مرهفاتها ، والكتائب المقاتلة بشعار علائه تقرأ كتب النصر من حماتها .

صبح الأعشى للقلقشندي ج ٦ ، ص ٥١٢ — ٥١٥ .

١٧١ — رسالة ارسلها الى صلاح الدين الصاحب قوام الدين بن زيادة استاذ الدار العزيزة باسم الخليفة الناصر ونيابة عنه ، وهو يعاتبه فيها على امور كثيرة صدرت عنه وبلغت الخلافة عنه وذلك سنة ٥٨٢ هـ :

... ولولا مكان صلاح الدين من الخدمة ، والشح به والمنافسة فيه لما جوهر بالعتاب ، ولا رفع دونه الحجـــاب ، بل كان يترك معه الأمر على اختلاله ، ويدمل الجرح على اعتلاله . وقد ذكرت الأسباب التي أخذهـا الديوان العزيز عليه واستغرب وقوعها من كاله ، ليوعيها سمعه الكريم ويستوري فيهـا برأيه الأصيل ، وينصف في استماعها والاجابة عنها غير عارج على الجـــدل ولا مؤتم بالمراء المذمومين عقلاً وشرعاً ، بل بجمل تولي هذا على سبيل المماحضة والانتصاح

وصدق النية في رأب التناهي والاصلاح ، فان ابحار الدواء المقر[1] لا يتهم فيه الطبيب المجتلب للعافية .

ثم ذكر من تلك الأمور :

ان من انتفى من العراق بسبب من الاسباب لجـــأ الى صلاح الدين فوجد عنده الاقبال عليه . وكان الأدب يوجب إبعاد من ابعد عنه وتقريب من قربه اليـــه .

ثم قال :

وان مما اضحك بثغر الاستعبار ما انتهى عن العوام واشباه العوام وطعام الشام من الخوض في المذاهب ، والانتهــاء في التشيع الى اختلاف كل كاذب . ومنها ما جرى من سيف الاسلام بالحجــاز من ازعاج الحجاج ، وارهاج تلك الفجاج ، والاقدام على مناسك الله وشعائره ، وايقـــاد سعير الفتنة ونوائره ، واحياء السيرة القاسطة واحياء بدع القرامطة ما نفر منه كل طبع ومجـــه كل سمع . فكيف جـــاز لصلاح الدين ان يرخي عنان اخيه فيما يقرّض سوابقـه وأواخيه . ومنها ما قضى الناس منه العجب ، وفورق فيه الحـزم والأدب ، وهو ما اوجب التلقب باللقب الذي استأثر به امير المؤمنين .

ثم قال :

وقد ساوق زمان الدولة العباسية — ثبتها الله — خوارج دوخوا البـلاد ، واسرفوا في العناد ، وجاسوا خلال الديار ، واخـــافوا المسالك واستضاموا الممالك ، واقتحموا من الشقاق أشق المهالك ، فمـــا انتهى احدهم ، فيما احتقب

---

(١) كذا بالأصل والمعنى مضطرب غير مفهوم .

وارتكب الى المشاركة في اللقب ، وفي الحكم الذائعة في وجيز الكلام : الذي يصلح للمولى على العبد حرام . ومنها مكاتبة كل طرف يتاخم اعمال الديوان من مواطن التركمان والاكراد ، ومراسلتهم ومهاداتهم وقرع اسماعهم بما يعود باستزلال اقدامهم وفل عزائمهم ، وهم لا يعرفون الا انهم رعية للعراق وخول للديوان يرثون الطاعة خالفاً عن سالف .

ثم قال في آخر الكتاب :

وهذا كله لا اقوله انكاراً لجلائل مقامات صلاح الدين ومشاهير مواقف جهاده في سبيل المؤمنين ؛ فإنه – ادام الله علوه – رجل وقته ونسيج وحده ، والمربى على من سلف من صنائع الدولة وعلى من يأتي بعده ، وهو الولي المخلص الذي عهد فوفى واستكفى فكفى وطب فشفى ، فكيف يجوز له بسعادته ان يهجن مساعيه الغر المحجلة ويخرج عن مكانته المكرمة المبجلة ويبطل حقوقه الثابتة المسجلة .

ثم قال :

قد علم كل من نظر في التواريخ والآثار ، ونصحته بصيرته في التبصر والاعتبار ان هذا البيت العظيم ما زال يرفع الاقدار الخاملة فينزون عليه بطراً ، فيغار الله له منتصراً ، ويعقبه عليهم اظفاراً وظفراً ، كدأب آل طولون وآل سامان وآل بويه وآل سلجوق وقروناً بين ذلك كثيرة ؛ فمن الذي زلزلوه فثبت ، ومن الذي حصدوه فنبت ، وأي نار اوقدوها فما خبت ؟!

ثم قال في آخره :

اللهم قد بلغت ، وللرأي الصلاحي ما يزيد علوه ان شاء الله تعالى .

كتاب الروضتين لأبي شامة جـ ٢ ، ص ١٢٢ – ١٢٣ .

١٧٢ ـ جواب صلاح الدين على الرسالة السابقة :

تأدب كل الأدب مع الخليفة وارسل يعتذر مما وقع ويقول :

الحرب كانت شغلته عن التروي في كثير من ذلك . واما لقبه بالناصر فهو من ايام الخليفة المستضيء . ومع هـذا فمها لقبني امير المؤمنين فلا اعدل عنه .

البداية والنهاية لابن كثير جـ ١٢ ، ص ٢٨ .

١٧٣ ـ رسالة صلاح الدين الى الخليفة العباسي النـاصر لدين الله يبشره بفتوحه ويعلن له استقبال رسله الذين ارسلهم الخليفة له وطلب منه بواسطتهم ان يخطب في ممالكه بولاية العهد لعدة الدين أبي نصر محمد بن الخليفة الناصر ، والكتاب من انشاء العماد الاصفهاني :

قد تقدمت خدمة الخادم بمـا قدمه من امتثال المثال ، وأداه من فرض الاعظام والاجلال ، وقام به من الأمر الذي قام به أمر الدين والدنيا ، وبادر اليه من استثمار طاعته التي دامت لها من نعمة الدار العزيزة في ازكاء مغارسها السقيا ، وحل حبا الحب لما حل من حبائها ، وعقد خنصر النصر بعزائمه على ما اعتقده من ولائها ، وجمع شمل السعادة الشاملة بما جمع امره من اسعادها ، واستجد عهد الجد المورق الموثق بما جاء ثراه من ثرات عهادهـا ، ونهض من الملك بتقديم مـا قدمه على الملوك الناهضين ، وابرم من عقد عبوديته الكاملة ما تقاصر عنه تطاول الناقصين الناقضين ، ووفق لما وافق المراضي الشريفة ففاز بما حاز من شرف الرضى ، واقتضى دين الدين الثابت وثبت على الوفـاء في استيفائه بما قضى ، وسبق الى ما سبق به جواد صدقه في جواد قصده . وافتتح

فريضة طاعته في حلاوة عبوديته بتلاوة فاتحة حمده . وانتهى الى نهاية النهى ، واطاع ما اطاق فيما امر الله به ونهى . وما وضع الكتاب من يـده حتى رفع بالدعاء يده ، وسأل الله لمولانا وسيدنا امير المؤمنين وافر النصر ومدده ، وان يعضده بولده ولي عهده المطاع بأمر الله عدة الدنيـا والدين ، ويقر به عيون المسلمين؛ فقد فاضت البركات وآضت الحسنات واضاءت الكرامات ، وراضت جماح الاماني المبرات المبرات ، وهاضت جناح الكفر الفتكات المرديات ، وعمت الميامن وتمت المحاسن وغمت ، وغمّت النعم الظواهر والبواطن ، وضمت بسكون الدهماء اهلها المعاهد والمواطن ، وصدحت المنابر وصدقت المفاخر ، وصدعت الأوامر ، وصدفت الفواقر ، وصدمت قلوب اهل النفاق من بواعث الرعب البواعث البوادر ، ونقشت صفحات الدرهم والدينار ، ونعشت عثرات الاخيار الاحرار ، وفرشت مطوفات الأنواء والانوار ، وعرشت اسرة المبار والمسار ، ورفعت رغبات الابرار ، وسمعت دعوات الاسحار .

ونزل النصر وفضل العصر ووجب الشكر وشجب الكفر ورحب الصـدر وأصحب الدهر ، وسحت سمـــاء السماح وصح ارواء الأرواح ، وتضوع نشر الانشراح ، وتوضح صبـــاح الصلاح ، وطال جناح النجاح ، وطاب جنى الأفراح .

وعظم القدر ، ونظم الأمر وحسن الذكر وأمن الذعر ، واهتزت أعطاف الإسلام واعتزت أطراف الشام ، وتبلجت أيامن الأيام ، وتروجت أماني الأيام ، وأرجت أرجاء الرجال ، وثبتت بإسنـاد الأسناد رواية أمالي ري الآمال ، وقرت الأعين وابتهجت بالسعد الطالع ، وأقرت الألسن والتهجت بالحمـــد الجامع ، وقرت الأنفس ، وانتهجت بوسعهـــا سنن العز الواسع ، ونابت هذه الموارد العذبة المشارب ، الصافية المشارع في نقع الأوام ونفـع الانام مناب

المنابع ، وأرخت السير وسيرت التواريخ ، وحلقت ملطفات البشائر ليوجب تفخيمها وتضخيمها التضميخ .

وأشرق المغرب من بشر البشرى ، وأثارت مصر من حسن هذه الحسنى ، وبسمت بسمة الشرف منابر الأقاصي والأداني موافقة لمنبر المسجد الأقصى ، وتطرزت الفتوحات الفاضل عصرها الشامل نصرها بهذا المذهب المذهّب ، وفاحت في مهاب المحاب نفحات هذا الزمن الأطهر الأطيب ، وعاد الزمان الى اعتداله وعاذ العدل بزمانه ، وثاب الدهر من عدوانه وآب الى إحسانه ، ورجع الدين الى سناء سلطانه ، وفجع الكفر بمبدة صلبانه ، وبطش الايمان بإيمانه ، واستخلص من الشرك بلدانه[1] بلدانَه .

وتقاضى الربيع بقروضه ، وضاقت ضيوف فيوضه ، وعتب العزم على ربوضه ، وحضّ الحظ على نهوضه ، وحث الحب على إقامة سنن الجهاد وفروضه ، فقد درت أفاويق الآفاق ، وذرت أشعة الإشراق ، وافترت نضرة الحدائق لنظرة الأحداق ، وراقت أوراق الألوية كالتواء الأوراق ، وأزهرت البيض والسمر كأزهار الرياض ، وأنف غرار الجفون في الاغماد من الاغماض .

وتيقظت الأقدار للأقدار على إيقاظ عيون البيض لأجراء دم الشرك المطلول ، وتنزل البركات في انتجاع المراق من نجيع المارقين لانزال نص النصر على النصل المسلول . وقد آن أن ترعى الحشاشات منهم على رعي الحشيش ، ويطير الى أوكار المقل طير السهم المريش ، وترتع ثعالب العوامل في عشب الكلى ، ويطن ذباب المناصل في لوح الطلى ، وترن رقاق المرهفات في الرقاب

(١) اللدان : هنا معناها السلاح .

رنين الخطب على الأعـواد ، وتذوب علوج الكفر من نار الرعب ذوب الثلوج على رؤوس الأطواد ، وتحمل أشجار القنا بثمر الهام ، ويجيش الفضاء المعشب بزهر الحبيش اللهام ، ويقطف ورد الموت الأحمق من ورق الحديد الأخضر ، ويوقف حـــد الهندي الابيض على قصر بني الاصفر ، ويجري في ورد الوريد جداول البواتر ، وترمى من الحصن العاديات الى حصون العدا جنادل الحوافر ، وتكفل بمـا وعد الله من الظفر الظاهر ، والظهور المضافر ضوامن الضوافر ، وتتلى عقبان رايات الفتح والكسر من عقبـان الجو بالفتح الكواسر ، ويعبق ثوب الدارع من ردع الثواب بسهك الماذي ، وتعلق في ملتقى النقى الغـــات السمهري بلامات السابري . ويظهر الحق بخذلان الباطل ، ويحل بأيدي الأيْد ما بقي مع الفرنج من معاقل المعاقل ، ويغرق بحر المجر الجرار مـا تخلف من ساحات الساحل ، فلم يبق به من المدن المنيعة الا صور وطرابلس . ومعـــالم الكفر بها في هذه السنة المحسنة بعون الله تدرس . واما انطاكية فإنها بالعراء منبوذة ، وعند الاتجاه اليها مأخوذة . على انها بوقم قومها عام اول موقوذة ، وحدود العزائم اليها عند انقضاء هدنتها مشحوذة ، فإنها قد نقصت من اطرافها ودخل عليها من أكنافها ، وجدعت بفتح حصونها عرانينها . وضيق على اسدها وسيدانها المحصورة المحشورة فيها عرينهـا ، فهي نهزة المفترص وطعمة المقتنص وسلعة المسترخص وبلغة لمستفحص .

وقد خرج الخادم ليدخل البلاد ويستأنف بجهده الجهاد ، ويستقبل الربيع بربيع الاقبال ، ويستنزل ملائكة النصر من سماء الرحمة لأوقات النزال ، وهو يرجو ببركة هذه الأيام الزاهرة من الله ان ينجد ارضه بجند سمـــائه ، ويوفق الخادم لتصديق أمله في تطهير الأرض من انجاس اجناس المشركين بدمـــائهم وتحقيق رجائه . فالجحافل حافلة ، وأسراب الكفر بين يديها جافلة ، ومعاطف

الاسلام في لباس البأس رافلة ، ونصرة الله بانجاز عداته في قمع عداته كافلة .

والحمد لله الذي وفق عبد مولانا أمير المؤمنين في طاعته لنصر امره ، واخلاص الولاء له في سره وجهره ، واقتناء كل منقبة حقق بها فضل عصره ، وابتكار كل فضيلة سار بها حسن ذكره ، فما يفتتح مرتجاً الا بتقليدها ، ولا يستنجح مرتجىً الا بتأييدها .

الفتح القسي للعماد الاصفهاني ، ص ٢٨١ – ٢٨٤ .

١٧٤ – رسالة من صلاح الدين الى الخليفة الناصر يطلب منه تقليده حكم مدن سروج والرهاء والرقة :

توفي سيف الدين صاحب الموصل ، وحل محله اخوه عز الدين وانتظمت له الأمور ، وارسل الى صلاح الدين يطلب اليه الاستمرار في منحه حق الاحتفاظ بمدن سروج والرقة والرها وحران . وكان صلاح الدين قد سمح لأخيه (اي لأخي عز الدين سيف الدين) ان يحتفظ بهذه المدن على الرغم من انها لصلاح الدين بتوقيع الخليفة ، وذلك بشفاعة وطلب من الخليفة ، وبشرط ان يقوي صلاح الدين بالعسكر ، ولكن صلاح الدين رفض طلب عز الدين وطالب بالمدن المذكورة وارسل الى الخليفة يطلب منه التفويض بالاستيلاء عليها . والرسالة من انشاء العماد الاصفهاني :

فصل :

قد عرف اختصاصنا من الطاعة والعبودية للدار العزيزة النبوية بما لم يختص به احد ، وامتدت اليد منا في اقامة الدعوة الهادية بمصر واليمن والمغرب بما لم تمتد اليه يد ، وأزلنا من الأقاليم الثلاثة ثلاثة أدعياء وخلفناهم للردى ، حيث دعوا بلسان الغواية خلفاء . ولا خفاء ان مصر اقليم عظيم وبلد كريم بقيت

مائتين وخمسين سنة مضيمة ، وعانت كل هضيمة وعاينت كل عظيمة ، حتى انقذها الله بنا من عبيد بني عبيد ، واطلقها بمطلقات اعنتنا اليها من عناء كل قيد ، وفيها شيعة القوم وهم غير مأموني الشر الى اليوم ، وطوائف اقاليم الروم والفرنج من البر والبحر بها مطيفة ، فمن حقها ان يتوافر عسكرها . فلو حصل — والعياذ بالله — بها فتق لا عضل رتقه ، واتسع على الراتع خرقه ؛ واحتجنا لحفظ بلاد الشام وثغور الاسلام الى استصحاب العسكر المصري اليها . وله مدة خمس سنين في بيكارها[1] ، منتقماً من كفارها ، متحملاً لمشاقها على غلاء اسعارها ، وانما أحوج الى ذلك ان بلاد هذا الثغر قد اقتطعت عنه ، وعساكرها اخذت منه .

مفرج الكروب لابن واصل جـ ٢ ، ص ٩٤ — ٩٥ .

١٧٥ — رسالة من صلاح الدين الى الخليفة يخبره فيها بتوجهه الى الديار المصرية ، ومن ثم بعزمه على التوجه الى الحجاز لأداء فريضة الحج :

قد توجه الخادم الى الديار المصرية لتجديد النظر فيها ، ثم يستخير الله في الحج وأدائه ويعود الى مجاهدة اعدائه .

مفرج الكروب لابن واصل جـ ٢ ، ص ٩٥ .

١٧٦ — رسالة جوابية من الخليفة الناصر الى صلاح الدين :

ارسل صلاح الدين الى الخليفة الناصر رسالة يعدد فيها مآثره وأياديه على الخلافة العباسية وجهوده في خدمتها واقامة الدعوة العباسية في مصر ، فأتاه الجواب من الخليفة الناصر ما يلي :

---

(١) البيكار : كلمة فارسية تعني الحرب بشكل عام .

« يمنون عليك ان اسلموا ، قل لا تمنوا على اسلامكم ، بـل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان ان كنتم صادقين»[1] .

نهاية الأرب للنويري جـ ٧ ، ص ٣٠ .

١٧٧ – رسالة جوابية من صلاح الدين الى الخليفة العباسي الناصر :

ارسل الخليفة الناصر الى صلاح الدين كتابـاً يهول فيه أمر الفرنج فأرسل اليه صلاح الدين يقول :

رب اني لا املك الا نفسي ، وها هي في سبيلك مبذولة ، وأخي ، وقـد هاجر اليك هجرة يرجوها مقبولة .

نهاية الأرب للنويري جـ ٧ ، ص ٣٠ .

ب – علاقة صلاح الدين بأفراد اسرتة :

١٧٨ – رسالة القاضي الفاضل الى صلاح الدين سنة ٥٨٢ هـ يخبره فيها ان أخاه الملك العادل وابن أخيه تقي الدين عمر يطمعان في ملك ، ويطلب اليه ان يحقق رغبتهما :

الملك العادل والملك المظفر المذكوران ما هما أخ وابن أخ بل همـــا ولدان لا يعرفان الا المولى والداً ومنعماً ، وكل واحد منهما له عش كثير الفراخ وبيت كرقعة الشطرنج فيه صغار وكبار كالبيادق والرخاخ ، فلا يقنع كل واحـــد منهما الا طرفٌ يملكه واقليم يتفرد به ، فيدبر مولانا في ذلك بما يقتضيه صدره

---

(١) أورد نفس النص القلقشندي في صبح الاعشى جـ ١ ، ص ١٩٤ . والآية هي الآية ١٧ من سورة الحجرات .

الواسع وجوده الذي ما نظر مثله الناظر ولا سمع السامع ، ولا ينسى قول عمر ابن الخطاب رضي الله عنه :

مروا القرابة ان يتزاوروا ولا يتجاوروا .

وما على مولانا عجلة في تدبير يدبره ولا في امر يبيته (ستبدي لك الأيام ما كنت عارفاً) .

وفي غدٍ ما ليس في اليوم ، ولله اقدار ولها أمد . وقد رزق الله مولانا ذرية تود لو قدمت انفسها بين يديه . ولقد اكتحلت اجفانها بغبار قدميه ما فيها من يُشْكى منه الا التزيد في الطلب؛ وهو من باب الثقة بكرم المنعم، ولهم إولاد. والمولى من الآمال لهم كما قال مولى الأمة : تناكحوا تناسلوا فأني مكاثر بكم الأمم .

طالما قال لهم المولى : لِدوا وعليَّ تجهيز الاناث وغنى الذكور ، وسواء علي افق هذا البيت طلوع الشمس والبدور .

كتاب الروضتين لأبي شامة جـ ٢ ، ص ٧١ .

١ ــ علاقة صلاح الدين بأخيه الملك العادل :

١٧٩ ــ رسالة من صلاح الدين الى اخيه الملك العادل الذي كان نائباً عنه في حكم مصر اثناء غياب صلاح الدين في حروبه في بلاد الشام وقد بلغه حصول بعض الشغب من بعض الأفراد ، وهي من انشاء القاضي الفاضل :

انتهى الينا بالديار المصرية والحضرة العلية أن جماعة من الفقهاء قد اعتضدوا بجماعة من ارباب السيوف وبسطوا ألسنتهم بالمنكر من القول غير المعروف ،

وانشأوا من العصبية ما اطاعوا فيه القوى الغضبية ، واحيوا بها ما اماته الله من أصل حمية الجاهلية . والله سبحانه يقول ، وكفى بقوله حجة على من كان سميعاً مطيعاً : واعتصموا بحبل الله جميعاً[1] . ولم يزل التعصب للمذاهب يملأ القلوب بالشحناء ويشحنها ، وقد نهى الله عن المجادلة لأهل الخلاف فكيف بأهل الوفاق الا ان يقال أحسنها، وما علمنا ان في ذلك نية تنجد، ولا مصلحة توجد ولا هداية تعتقد بدراية تعقد ونار عداوة توقد ، وقلما اثمرت المشاجرة الا خلافاً . فالمجلس – اعزه الله – يوعز بكف الألسنة الخائضة وعقل الأعنة الراكضة، فإن اقنع بلطفه المرضي والا كانت همته الرائضة ومن عاد بعد الزجر أبعد عن مستقره وازعج ، وليس يسع الخلف ما وسع السلف من الأدب ، وليعلم العبد انه يكتب كتاباً الى ربه ، فليفكر فيما كتب والى من كتب .

كتاب الروضتين لأبي شامة جـ ٢ ، ص ١٧٨ .

١٨٠ – رسالة أرسلها القاضي الفاضل ، بأمر صلاح الدين واسمه ، الى الملك العادل جواب رسالة اعتراضية ارسلها العادل الى القاضي الفاضل :

لما ملك صلاح الدين مصر كان يجعل أخاه العادل نائباً عنه في حكمها اثناء غياب السلطان في حروبه في بلاد الشام . وذات مرة تأخر وصول المال من مصر الى السلطان ، فطلب الى العماد الاصفهاني ان يرسل الى اخيه يستحثه على ارسال المال ، فأرسل له رسالة من جملها الجملة التالية :

يسير لنا الحمل من مالنا او ماله ؟

فلما وصلت الرسالة الى العادل شقت عليه هذه الجملة وكتب الى القاضي

(١) سورة آل عمران : الآية ١٠٣ .

الفاضل يشكو من السلطان لأجـــل هذه الجملة ، فكتب القـاضي الفاضل له بمـــا يلي :

وأما ما ذكره المولى من قوله : يسير لنا الحمل من مالنا او ماله ، فتلك لفظة ما المقصود بها من الملك النجعة ، وانما المقصود بها من الكاتب السجعة ، وكم من لفظة فظة وكلمة فيها غلاظة صيرت على الاقلام فسدت خلـل الكلام . وعلى المملوك الضمان في هــذه النكتة وقد مات لسان القلم منهـا اي سكتة ، وكان المملوك حاضراً وقد جرت قوارع الاستحثاث وصرصر البازي ، وقوت نفس العماد قوة نفس البغات ، والسلام .

وفيات الأعيان لابن خلكان جـ ٤ ، ص ١٦٦ – ١٦٧ .

١٨١ – رسالة صلاح الدين الى اخية العـادل بعد فراغه من فتح حمص من انشاء القاضي الفاضل :

قد اجتمع عندنا الى هذه الغاية سبعة آلاف فـارس ، وتـكاثفت الجموع الى الحد الذي يخرج عن العد . وبعد ان نرتب أحوال حمص – حرسها الله تعالى – نتوجه الى حمـاة . والله المعين على مـــا ننويه من الرشاد ، وننظفه من طرق الجهاد .

كتاب الروضتين لأبي شامة جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٦١٢ .

١٨٢ – رسالة من صلاح الدين الى اخيه العادل يخبره بمحاولة اغتيــاله من قبل الحشيشية . وذلك أثناء حصاره حلب ، ونجاته من المحاولة، والرسالة من انشاء القاضي الفاضل :

السلامة شاملة ، والراحــة ، بحمد الله ، للجسم الشريف الناصري حاصلة

لم ينله من الحشيشي الملعون الا خدش قطرت منه قطرات دم خفيفـة انقطعت لوقتها واندملت لساعتها . والركوب على رسمه ، والحصار لاعزاز على حكمه، وليس في الأمر بحمد الله ، ما يضيق صدراً ، ولا ما يشغل سراً .

كتاب الروضتين لأبي شامة جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٦٥٩ .

١٨٣ – مقتطفات من رسالة أرسلها صلاح الدين الى العـــادل يبشره بفتح حلب من أنشاء القاضي القاضل :

قد علم المجلس السامي موضع حلب من البلاد وموقعها من المراد ، وفاتحة النجدة بها من الله في الجهاد وقادحة فتحها في الكفار والاضداد . وكتابنا وقد انعم بها ما شفيت للسيف فيها علة ، ولا أتى فيها بما يشق على اهل الملة ، ولا عَدَوْنا ما يبني للمسلمين العزة ويورث عدوهم الذلة . وعُوضَ عماد الدين عنها من بلاد الجزيرة سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج، فهو صرف بالحقيقة أخذنا فيه الدينار وأعطيناه الدرهم ، ونزلنـــا من السوار وأحرزنا المعصم . وكتابنا هذا وقد تمكنت اعلامنا موفية على قلعتها المنيعة ، وتفرقت نوابنا في مدينتها موفية بمواعد عدلنا الجليلة اللطيفة ، فانتظم الشمل الذي كان نثيراً ، وأصبح المؤمن بأخيه كثيراً، وذهب الكلال وارهف الكليل ونزع الغل وشفى الغليل[١] .

الاغلاق الخطيرة لابن شداد جـ ١ ، ق ١ ، ص ١٧٢ .

١٨٤ – مرسوم اصدره السلطان صلاح الدين سنة٥٧٩هـ بتولية أخيه العادل حلب : قلعتها وأعمالها :

---

(١) ذكر ابن الأثير في الكامل جـ ١١ ، ص ٤٩٧ مقتطفات موجزة كل الإيجـــاز لنصنا أعلاه .

الحمد لله ذي السلطان القاصر والاحسان الظاهر والامتنان الوافر والبرهان الباهر ، نحمده على انعامه المتضاعف المتظاهر ، وافضاله المتوافد المتوافـــر ، حمداً يؤذن بالمزيد للشاكر ، ونسأله ان يصلي على سيدنا نبيه محمد المصطفى ذي الشرع الطاهر والنور الزاهر ، وآله الاكارم الأكابر ذوي المفـــاخر والمآثر ونسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد ، فإن لله عندنا نعماً ، ان نعدها لا نحصيها ، ومنناً قد جمع الله لنا بشمولها الدائم شمل اعمها واخصهـــا ...[1] ، ومواهب واضحة المذاهب في التواصل والتناصر ، ومنائح متظاهرة العوادي والروائح في التوافد والتوافر ، وأيادي ملأت الأيدي والآمال نجاة ونجاحاً، وعوارف عمرت منا ومن أوليائنا الصدور والقلوب انشراحاً وارتياحاً ، ولقد آتانا من الملك ما قامت لنا بالحق حجته ، ووضحت في نهج السعادة بنجح الإرادة محجته ، وأيدنا عليــه بالنصر الماضي النصل ، والعز الجامع الشمل ، حتى أذل لنا رقاب الأعداء ، ومهد لنـــا وبنا أسباب الولاء ، وملكنا قياد العباد ، وكف عنا وبنا عنان ذوي العناد ، وجعل سيوفنا وأقلامنا للأقاليم أقاليد ، وفــــرق جموع الكفر ببأسنا اشتاتاً عناديد ، بالفتوح الأبكار بصوارمنا الذكور افتضاضها واقتضاؤها ، والحتوف نحو الكفار بعزائمنا المصيبة المضارب في ضرب الهام وطعن النحور انتهاضهـــا وانتهاؤها ، وثغور الإسلام عن ثنايا الثناء علينا ضاحكة الثغور ، وأوامرنا في اعلاء أعلام الدين منتظمة الأمور ، والجهاد من جميع جهات ممالكنا براً وبحراً متسق الجموع، والتوحيد لقمع أهل التثليث ثابت الأصول نامي الفروع ، والحمد لله عوداً على بداء على مـــا أولاه من نعمه وأولاه ، وأعاده من منحه بعدما

---

(١) فراغ في الأصل بمقدار كلمة .

أبداه . ربي أوزعني ان أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه[1] .

ومن جملة نعم الله سبحانه وأجملها وقوعاً ، وأجلاهـا في الجلالة طلوعاً ، وأجدرها منا بالإخلاص والحمد ، واشرفها لنا في مطالع السعد وأوجبها لغرض الشكر ، وأحراها بدوام الإشاعة والنشر ، انه سبحانه وتعالى شد أزرنا بأخينا الملك العادل سيف الدين ناصر الاسلام أبي بكر – أدام الله علوه ورفعته وسموه ونعمته ، وبسط يده وأيد بسطته – ذي البـاع الطويل والطول الجزيل والصدر الرحيب والرأي الراجح المصيب ، والجد المنيف المنير ، والاناة والحزم والثبات والقبول ، الذي وفر له في القلوب مواد المودات ؛ والجود الذي ينهل جوده بإسعاف العافين من سماء السماح ، والعاطفة التي تلحق الراجين جنـاح النجاح ، والعارفة الفارعة والمعرفة الصادعة ، والهمة الصادقة والمهابة الرائعة الرائقة ، والسياسة الجامعة المانعة ، والبسالة التي زلزل الكفر بأسها ، وتقوضت بها قواعد البدعة وأساسهـا ، والتدبير الموافق في حفظ الممالك ونظم عقودها ، والنظر الصائب الصادق في ترتيب المصالح وصون حقوقها وحدودها ، والعدل الذي أوضح سنته وأقام بين الرعية فروضه وسننه ، والسيرة التي تحلي التواريخ بأيمن أيامها ، وترد بها الدولة مرامي مرامها ، والاعتقاد الذي انارت آفاقه من التوفيق بأنوار الخلوص ، وتوفر حظه من عموم تأييد الله عز وجـل اياه على الخصوص . فالملك بايالته محكم القواعد مبرم المعاقد ، مستهل المهاد آهل المعاهد. والدولة بإدالته شديدة السواعد سديدة المساعد صافية الموارد صادقة المواعد . والدين بنصرته سامي القدر عالي الأمر نامي النشر . والإسلام منـه بناصره

---

(١) سورة النمل : الآية ١٩ .

زاهٍ ، والشرع بمحافظته على أحكامه وملاحظته أسباب نظامه مفاخر مباهٍ ، فهو الشقيق الشفيق الذي لإيثارنا يؤثر ، ولرضانا يقصد وعلى مرادنا يجري . وهو كما قال الله تعالى عن موسى عليه السلام : واجعل لي وزيراً من أهلي هرون أخي أشدد به أزري وأشركه في أمري[1] .

والحمد لله الذي عضدنا بمساعدته وأسعدنا بمعاهدته وأظهرنا بنجدته ، وأنجدنا بمظاهرته ، وأظفرنا بموافقته ، ووفقنا لمظافرته .

ولما أنعم الله تعالى علينا في هذه السنة بالفتوح المستفاضة والممالك المستضافة ، وحكم لنا في توسيع دائرة المملكة بالزيادة والانافة ، وفتح لنا البلاد ، وملك من كل ما رمناه القياد ، جرينا على أحسن الشيم في إحياء سنة الكرم ، فما فتحنا مقصلاً إلا ويدنا له مالكة واهبة ، والحازم من يكون ذا هبةٍ للدنيا فإنها ذاهبة . وقد جعلنا لأخينا الملك العادل من الممالك التي تملكناها والبلاد التي فتحناها ، والمعاقل التي استضفناها أوفى نصيب ، وأصبح النجح منا لداعي رجائه أسرع مجيب ، ورأيناه أحق من كل بعيد وقريب ، وقلدناه أمور البلاد والمعاقل والثغور ، وفوضنا اليه فيها جميع الامور ، فبيده الحل والعقد ، والبسط والقبض ، واليه الولاية والعزل ، والإبرام والنقض ، وله القول الثابت والأمر النافذ ، والى فضله يرجع العابد ، وبعدله يعوذ العائذ . ونحن نرغب الى الله عز وجل في أن يوفقه ويؤيده ويسدده . وسبيل الامراء والولاة والنواب والاعيان والرعية والاصحاب الانقياد لأمره المطاع ، ومقابلة مراسمه بالامتثال والاتباع ، والرجوع الى بابه ، والجري على حكم ثوابه ، والنهوض الى الغزوات في خدمة ركابه ، والوفود في حالة الضراء الى المربع المزيع والمنبع المنيع من

---

(١) سورة طه : الآيات ٢٩ — ٣٢ .

جنابه ، فإنه فسيح للأولياء بالآلاء ، والأعـداء بالإعداء ، ولديه كشف الغمار بالنعماء . وفي مهاب المحاب منه يضوع أرج الرجاء ، ومن شيمته الاقتداء بسنتنا في بسط العدل والإحسان ، وقبض أيدي الظلم والعدوان ، وإسداء المعروف وإيعاد الملهوف ، واعلاء معالم المعالي ، وتكثير حسنات أيامه لتكفير سيئآت الليالي ، والمجاهدة في سبيـــل الله رابط الجأش لتأليف الإيلاف من جيوش الرباط ، وعمارة البلاد بحسن سيرته التي لم تزل مستقيمة على الحدود في الاسقاط ، ومشايعة الشريعة المطهرة في جميع أحواله اخذاً بالاحتياط ، مؤيداً بالنصر من الله والتأييد والتمكين ، حتى تتسنى في تلك الثغور غزوات سيف الدولة غزوات سيف الدين ، ويحقق لجميع المسلمين قمع المرتدين ويعلي كلمة الإسلام بما يوليه من النصر الظاهر والفتح المبين[1] .

وكتب له في آخر المنشور تفصيل ما انعم عليه به من حلب ومعاقلها .

مضمار الحقائق لمحمد بن تقي الدين عمر ، ص ١٥٨ – ١٦١ .

١٨٥ – مرسوم أصدره صلاح الدين سنة ٥٨٠ هـ باقطاع أخيه العـــادل اقطاعات في مصر والشام والجزيرة وديار بكر .

الحمد لله الذي جعل أيامنا حساناً وأعلى لنا يداً ولساناً ، وأطاب محتدنـا أوراقاً واغصاناً ، ورفع لمجدنا لواءً ولجدنا برهاناً ، وحقق فينا قوله : سنشد

---

(١) لم يرد اسم حلب في المنشور نفسه ، مع أن اسمها ورد مرتين الأولى عندمـا ذكر مؤلف المضمار ان صلاح الدين انعم على أخيه العادل بتولية حلب ، والثانية عندما ذكر بعد الانتهاء من ايراد نص المنشور انه كتب له في آخر المنشور تفصيل ما انعم عليه به من حلب ومعاقلها . فأما أن هناك عدداً من الأسطر فيها ذكر حلب سقطت من صلب المنشور سهواً ، أو ان ذكر حلب ورد في التفصيل الذي لم يذكره المؤلف . وهذا هو الراجح والرأي الأعم الأغلب .

عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً[1] . نحمده على سبوغ نعمته ، ونسأله ان يجعلنا من الداخلين في رحمته .

ثم نصلي على رسوله محمد الذي أيده بحكمته ، وعصمه من الناس بعصمته ، وأخرج به كل قلب من ظلمته ، وعلى آله وأصحابه الذين خلفوه فأحسنوا الخلافة في أمته .

أما بعد : فإن فروع الشجرة يأوي بعضها الى بعض لمكان قربه ، ويؤثر بعضها بعضاً من فضل شربه . ونحن اهل بيت عرف منا وفاق القلوب وداً ، وإيثار الأيدي رفداً ، وذلك وان كان من الحسنات التي يكثر فيها اثبات الأقلام ، فإنه من مصالح الملك التي دلت عليها تجارب الأيام . وكلا هذين الأمرين مشكورة مذاهبه ، محمودة عواقبه ، مرفوعة على رؤوس الاشهاد تعاقبه ؛ وما من أحد من أدانينا الا وقد وسمناه بعوارف يختال في ملابسها ، ويسر في كل حين بزفاف عرائسها . ولم نرضَ في بلّ ارحامهم بمواصلة سلامها دون مواصلة برها وادناء مجالسها ، ولا فوتنا من ذلك أوفر الاقسام ، كما ان لهم منا رحماً هو أقرب الارحام. وقد أمرنا بتجديد العارفة لأخينا الملك العادل الأجل السيد الكبير سيف الدين ناصر الاسلام أبي بكر – أبقاه الله . ولو لم نفعل ذلك قضاءً لحق اخائه الذي ترف عليه حواني الأضالع ، لفعلناه جزاءً لذرائع خدمه التي هي نعم الذرائع ، فهو في لزوم آداب الخدمة بعيدٌ وقف منها على قدم الاجتهاد ، وفي لحمة شوابك النسب قريبٌ وصل حرمة نسبه بحرمة الوداد . وعنده من الغناء ما يحكم لآماله ببسطة الخيار ، ويرفع مكانته عن مكانة الأشباه والأنظار . ويجعله شريكاً في الملك ، والشريك مساوٍ في النقض

---

(١) سورة القصص : الآية ٣٥ .

والإمرار ؛ فكم من موقف وقفه في خدمتنا فجعل وعره سهلاً ، وفــاز فيه بارضائنا بفضيلة التقدم ، فانقلب بالحبَّذَيْن ارضاء وفضلاً . ويكفي من ذلك ما أبلاه من لقــاء العدو الكافر الذي استشرى في هياجه وتمادى في لجــاجه ، ونزل على ساحل البحر فأطل عليه بمثل أمواجه وقال : لا براح بدون استفتاح، الأمر الذي عسُرتْ معــالجة رتاجه . وتلك وقائع استضأنا فيها برأيه الذي ينوب منــاب الكمين في مضمره ، وسيفه الذي ينسب من الاسم الى ابيضه ، ومن اللون الى اخضره . وقد استغنينــا عنها بنصرة لقبه الذي تولت يد الله طبع فضله ، وعُنيتْ يد السيادة برونق صقله ، فهو يفري قلوب الاعداء قبل الأجساد ، ويسري اليهم من غير حامل لمناط النجاد ، ويستقصي في استلابهم حتى ينتزع من عيونهم لذة الرقاد ، وليس للحديد جوهر معدنه المستخرج من زكاء الحسب . واذا استُنجِد قيل له : يا ذا المعــالي كما يقال لسميه : يا ذا الشطب . ولو أخذنا في شرح مناقبه لظل القلم واقفاً على أعواد منبره ، وامتد شأو القول فيه فلم ينته مورده الى مصدره . فمهما خولناه من العطايا فإنه يسيرٌ في جنب غنائه ، ومهما أثنينا عليه فإنه سطر في كتاب ثنائه .

وقد جعلنا له من البلاد ما هو مقتسم من الديار المصرية والشاميــة وبلاد الجزيرة وديار بكر: ليكون له من كل منها حظٌ تفيض يده في أمواله ، ويركب في حشد من رجاله ، ويصبح وهو في كل جانب من جوانب ملكنا كالطليعة في تقدم مكانها ، وكالربيئة في اسهار أجفانها .

فليتسلم ذلك بيد معظِّم قدراً ، ولا يستكثر كثراً ، ويحمل منها رفدها غيثاً أو بحراً . وكذلك فليعدل في الرعية الذين هم عنده ودائع ، وليجاوز بهم درجة العــدل الى احسان الصنائع . فاذا اسند هذا الأمر الى ولاته فليكونوا تقاة لا يجد الهوى عليهم سبيلاً ولا يجد الشيطان عندهم مقيلاً ، واذا حُمّلوا

ثقلاً لا يجدون حمله ثقيلاً .

وقد فشا في هذا الزمن اخذ الرشوة وهي سحت امــر رسول الله ﷺ بنبذه ونهى عن أخذه وعن الرغبــة في تداوله ، وهو كأخذ الربا الذي قرنت اللعنة بمؤكله وآكله .

وأما القضاة الذين هم للشريعة اوتاد ، ولإمضاء احكامها اجنـاد ، ولحفظ علومهـا كنوز لا يتطرق اليها النفاد ، فينبغي ان يعول فيهم على الواحد دون الاثنين ، وان يستعان منهم في الفصل بذي الأيدي ، وفي اليقظة بذي اليدين . ومن رام هذا المنصب سائلاً فليلمه وليغلظ القول في تجريع ملامه ، وليعرف انه ممن رام امراً فأخطأ الطريق في استجلاب مرامه . وامرُ الحكام لا يتولاه من سأله ، وانما يتولاه من غفل عنه وأغفله .

واذا قضينــا حق الله في هذه الوصايا فلنعطفها على ما يكون لها تابعــاً ، ولقواعد الملك رافعاً ؛ وذلك ان البلاد التي اضفناها اليك فيها مدن ذات اعمال واسعة ومعاقلُ ذات حصانة مانعة ، وكلها يفتقر الى استخدام الفكر في تدبيره وتصريف الزمان في تعميره . فولّ وجهك اليها غير وانٍ في تكثير قليلهــا وترويض محيلها ، وبث الأمنة على أوساطها واهداء الغبطة الى افئدة اهلها حتى تسمع باغتباطها ، وعند ذلك يتحدث كل منهم بلسان الشكور ؛ ويتمثل بقوله تعالى : بلدة طيبة ورب غفور[1] .

واعلم انه قد يجاورك في بعضها جيران ذو بلاد وعساكر ، واسرة ومنابر ، وأوائل للمجد وأواخر ، وما منهم الا من يتمسك منا بود سليم وعهـد قديم ،

---

(١) سورة سبأ : الآية ١٥ .

وله مساعدة نعرف له حقها (والحق يعرفه الكريم) فكن لهؤلاء جاراً يودون جواره ويحمدون آثاره ، وان سألوك عهـداً فابذله لهم بذل وفيٍّ وأقف على السنن ، مساوٍ بين السر والعلن ، ولا يكن وفاؤك لخوف تتقي مراصده ولا لرجاء ترقب فوائده ؛ فالله قد أغناك ان تكون الى المعاهدة لاجياً ، وجعلك بنا مخوفاً ومرجواً لا خائفاً ولا راجياً . وقد زدناك فضلة في محلك تكون بها على غيرك مفضلاً ، وقد كنتَ من قبلها اغرَّ فأوفتْ بك اغرَّ محجلاً ، وذاك انا جعلناك على آية الخيل تقودها الى خوض الغمار ، وتصرفها في منازل الأسفار ، وترتب قلوبها واجنحتها على اختلاف مراتب الأطوار ، فنحن لا نلقى عـدواً ولا ننهد الى بلد الا وأنت كوكبنـــا الذي نهتدي بمطلعه ، ومفتاحنـــا الذي نستفتح المغلق بيمن موقعه ، ونوقن بالنصر في ذهابه وبالغنيمة في مرجعـــه . والله يشرح لك صدراً وييسر لك منـــا أمراً ، ويشد ازرنا بك كما شد لموسى بأخيه ازراً ، والسلام .

صبح الأعشى للقلقشندي ج ١٣ ، ص ١٤٤ — ١٤٨ .

٢ — علاقة صلاح الدين بأخيه سيف الاسلام في اليمن :

١٨٦ — رسالة صلاح الدين الى أخيه سيف الاسلام ملك اليمن يبشره بفتح ميافارقين سنة ٥٨١ هـ من انشاء العماد الأصفهاني :

كتابنا ونعم الله تعـــالى منوط بمزيد الشكر عندنا مزيدها ، محوط من السديد توأمها وفريدهـــا ، حالٍ من الاغتباط منها جيدها ، حـــال في محل الارتباط لنا انيسها وشرودها . والنصر ماضٍ نصله ، والخير واضحة سبله ، والملوك قد دانت لنا رقابها ولانت صعابهـــا وذلت لعزتنا اعزتها ، وتوفرتَ للتناهي في العبودية لنا هزتهـــا ، فرسلهم على الأبواب العزيزة للذلة خاضعة ،

عارضة للاستكانة ضارعة . والممالك لمملكتنا خاطبة ، وفي عدلنا راغبة ، ولطلوع سني احساننا بكشف ظلم الظلم عنها طالبة ، والوجوه سافرة والأيدي ظافرة . ولا شك في احاطة علمه بعبورنا الفرات في صفر سنة احدى وثمانين لاصلاح ديار بكر والموصل ، وفوزنا في كل وجهة بالنصر العذب المنهل؛ وانّا اقمنا أشهراً على بلاد الموصل وتصرفنا فيها ، وانعمنا على الأجناد بأعمالها ونواحيها ، فاتفق اختلال أمر ديار بكر لموت ملوكها وتبدد سلوكها ، فقصدناها وقررنا امورها ، وأعدنا الى مطالعها من سياستنا نورها ، وفتحنا ميافارقين ، وهي أم بلادها ومقلد نجادها ومركز محيطها ونقطة بسيطها ، فملكنا بها من ديار بكر رق ملوكها ، وأطلقنا بها شمس المهابة بعد دلوكها . وأخمدنا الفتن وقد وقدت ، ونبهنا السنن وقد رقدت، وأحيينا العدل وقد دثر، وأنعشنا الفضل وقد عثر . ودخل الشتاء فخرجنا من تلك الديار بعد ضم شتاتها ونظم مصالحها وصرف آفاتها ؛ وآذن حيا رحمتنا رفاتها . ولأجل اعتصام الأطراف بنا واستمساكهم بسببنا ، ومنهم صاحب الجزيرة معز الدين سنجر شاه ابن أخي صاحب الموصل ، وزين الدين بن زين الدين علي كوجك صاحب اربل ، رأينا ان نقيم في بلاد الموصل لنشتوا بها الى الربيع ، ونستجد حينئذٍ في فتح البلاد حسن الصنيع . ولما تحقق صاحب الموصل هذا العزم وخشي هذا السهم ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وضاقته الهموم التي وجفت لها القلوب ووجبت ، فألقى سلاحه وطلب بالصلح صلاحه ، وخفض بضراعته جناحه ، وحفظ على أهله فينا نجاحه ، ولم يزل لنا مذعناً ، وكان حلمنا لمأمن روعه لما أتى مؤمناً مؤمّناً . ونزل لنا عن جميع ما وراء الزاب من البلاد والقلاع والحصون والضياع ، وشهزور ومعاقلها وأعمالها وولاية بني قفجاق وولاية القرابلي والبوازيج وعانة . وقررنا عليه الموصل وأعمالها على ان يكون بحكمنا وينفذ عسكره الى خدمتنا ، وتكون الخطبة والسكة بإسمنا وسمتنا ،

وان يطلق المظالم ولا يرتكب فيها المآثم . وقد حصلت لنا من صاحب الموصل ومن جميع مَن بالجزيرة وديار بكر الطاعة والسكة والخطبة . وصارت في كل خطة لدولتنا الخطبة ، وتمت فينا الرغبة ونمت لنا المحبة وعمت الهيبة والرهبة . وما سمت لكل ذي رتبة سامية الا بالانخفاض لأمرنا الرتبة . والدولة ناضرة والحدائق ناظرة الأحداق منيفة الاشراف منيرة الاشراق ، متعالية السناء سنية العلاء ، وبنعمة الأولياء متوالية النعماء سامية الهمة هامية النساء ، نامية الصحة صحيحة الأسماء . والعوارف الى ذوي الشكر منا فوارع ، والصنائع في ذرى الابتهاج بنا نصائع ، والعزائم الى الجهاد في سبيل الله عز وجل نوازع ، وقد زالت العوائق وارتفعت الموانع ، ونجحت الآمال ورجحت ، وتمكن ساعد القدر ، وساعد إمكان القدر .

مضمار الحقائق لمحمد بن تقي الدين عمر ، ص ٢٢٤ – ٢٢٥ .

١٨٧ – رسالة من صلاح الدين الى أخيه شمس الدين سيف الاسلام ملك اليمن لما بلغه حضوره من اليمن الى دمشق ، وهي من انشاء القاضي الفاضل : مقتطفات :

انا يوسف وهذا أخي قد منّ الله علينا[1] .

وقال في آخره :

ولقد أحسن عدنان المبشر اذ طلع علينا طلوع الفجر قبل شمسه ، وغروس في القلوب ما يسرنا ويسره جني غرسه .

كتاب الروضتين لأبي شامة جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٦٦٣ .

---

(١) سورة يوسف : الاية ٩٠ .

٣ ـ علاقة صلاح الدين بابن أخيه تقي الدين عمر المظفر :

١٨٨ – مرسوم صلاح الدين بتولية ابن أخيه تقي الدين الملك المظفر مصر وأعمالها :

الحمد الله المتعالي جلاله ، المتوالي افضاله ، القديم كاله العديم مثاله ، نحمده على احسانه العظيم نواله ، العميم اتصاله ، ونسأله ان يصلي على سيدنا نبيه محمد المصطفى الفصيح مقـــاله ، الفسيح في الشرع مجاله ، الشفيع المقبول في الأمة سؤاله ، وعلى آله وصحبه الذين هم نجوم الهدى وأنصار الحق ورجاله .

أما بعد : فإنا قد استودعنا الله ملك بلاده واسترعانا امر عباده ، ومكن لنا في الأرض وبسط أيدينا بالبسط والقبض ، وأقدرنا في ممالكه على العقد والحل والابرام والنقض ، وملّكنا زمام الزمان بالأمر والنهي ، ونهج لنا وبنا سبل الرشاد ، وعفّى طرق البغي ، وناط الهدى بتوفيقنا . وأماط الضلالة عن ملكنـــا ، فهو للأحكام وهي للوهى . وأعز بنصرنا الاسلام وأداله ، واذل الكفر وازاله ، وثبت الحق ومكنه ونفى الباطل وازاله . نفترض اداء شكر نعمته ، وان كنا معترفين بالقصور عن ادائه ، ونرعى له في بلاده وعباده حق ما خصنـــا به من عموم استرعائه ، فلا يسترعيهـــا من الولاة الا اولاهم برعاية الرعية ، وأكرمهم للتقوى التي تقوى بها المكارم وتوقي المكاره ، وأحكمهم في الرأي الذي يصح ويصح به في الأمور المحكم والمتشابه ، وأقومهم على سنتنـــا على اقامة فروض العدل وسنته ، وأعرفهم بحق انعامنا في تقبل منحــه وتقلد مننه ، وأطولهم في الطول باعاً ، وأفضلهم اتساقاً في المنائح واتساعاً ، واسماهم في بقاع العلى ارتفاعاً ، وأولاهم لأبكار المحامد والمفاخر افتراعــاً ، واجلاهم في مشارق السعادة طلوعاً واجلهم على واجباتها اطلاعاً، وأبذلهم في الجهاد اجتهاداً وأكثرهم في سداد الثغور الاسلامية سداداً ، حتى تعود الولاية بأيالته منتظمة

العقود ، والمملكة ببهجته مبتسمة السعود ، والسياسة بنضرة نظـــره مورقة العود ، والمصالح بصوب صوابه مصوبة المعاهد ، ونصل النصر بمضاء مضاربه مغموداً في مفارق الاعداء مفارقاً للغمود ، وتمحو ايامنا البيض بتوليته سيئات الليالي السود .

ولما كان ولدنا الأجـــل الملك المظفر تقي الدين – أدام الله علوه وضاعف رفعته وسموه – ذا المجد الشامخ والجد الباذخ والرأي الراجح الراسخ ، والعدل المجير المجيب استصراخ الصارخ ، والاصابة التي تقصر عنهـــا خطى الخطوب الخاطية ، والقدرة المتوالية التي لديها العظائم ذوات الاقدار المتواطية ، والشيمة الزكية الذكية التي تضوع نشرها المتأرج ، وتوضح نشرها المتبلج ، وشيم عارض كرمها المتوج ، ورجى بحر سماحها المتموج ، والمناقب التي اشرقت زواهرها في سماء السمو ، والقت ازهارها في رياض النمو ، وتليت آيات مدائحها بلسان العدو ، وجليت عرائس محاسنهـــا في مطالع العلو ، والبسالة التي فرق جموع الاعداء بأسهـــا الشديد ، وثلم حد الكفر حدها الحديد ، واعلى جدّ الاسلام جدُّها الجديد ، وهو ركن المنكر ركنُ عرفهـــا المشيد . وهو مقتدٍ بسنتنا العادلة في احياء سنة العدل ، وتقوية بنية الفضل ، ورفع منار الشرع المنير ، واعلى معـــالم المجد الاثيل الأثير ، وخفض جنـــاح الرحمة للصغير والكبير ، واسعاف العافي واعافة العـــاني واغاثة المستجير ، وقلدناه ولاية الممالك والبلاد والثغور والديار المصرية ، وعذقناها بكفايته واوليناهـــا النظام بولايتـــه ، وحليناها بحلية ايالته ، وعولنا عليه سياسة مملكتها وحماية حوزتها والذب عن بيضتها وفوضنا الى نظره امورها ، وجلونا في آفاق تدبيراته الموافقة الموفقة نورها .

وأمرنا كافة الامـــراء والنواب والعساكر المنصورة المصرية ، على اختلاف

طبقاتهم وتفاوت درجاتهم ، بامتثال أمره والانقيــاد لحكمه ، والتصرف على رسمه ، والحضور اذا طلبهم ، والهبوب اذا بذلهم ، فإنّا عضّدنا به سلطاننا، وأمضينا سيفه — اذا اقتضته حدود الله تعالى — في الآجال ، وأطلقنـا قلمه في الأرزاق التي يجيزها الله تعالى لكافة الأوليــاء والرجال ، وفوضنا اليه هذه البلاد تفويضاً ماضية أحكامه ، متسق نظامه ، موصولة بمشيئة الله تعالى ايامه ، وولبناه اياه توليــة من قد عرف قيامه بحق الولاية ، وانتهــاءه في مصالح الاسلام الى الغاية ؛ وانتظام خلاله الكريمة بشروط الكفاية والكفالة ، واضاءته في قضاء الفضائل بالحسن والحسنى من الحلية والحالة. وتوفره على الجهاد في سبيل الله عز وجل بحراً وبراً بتجهيز اساطيله وكتائبه ، واعتماد كل ما يدل منه على مزيد الشكر في استمداد مزيد مواهبه ، وقيامه بتوفيق الله المعد له ، وكشفه بالرأي الثـاقب مبهات الخطوب المشكلة ، وبسط اليد والقول في العــارفة والعاطفة للأولياء بالنبل واللين ، وانتضاء سيفه وسوطه في السطو على الاعداء لاقتضــاء دَيْن الدين ؛ حتى تعلو كلمة الاسلام وتثبت ، وحتى تنـْبتّ عروق الكفر من أرض الله وتنبت ، وحتى تكتب المذلة على الأعداء فتكبت ، وحتى تجمع القلوب والألسنة على محبته وشكره ، وتتفق الكافة على الائتمار لطاعـة أمره .

ونحن نسأل الله تعالى ان يوفقه ويسدده ، وان يعضدنا به ويعضده، ويؤيدنا بحسن تدبيره ويؤيده . والمستقر له من اقطاعه مـا اثبت في الديوان ذكره ، وبُيِّن في هذا المنشور قدره، وهو ما سبق ذكره. فليتول نعمة الله تعالى بالشكر الذي يرتبطها ، وبسط اليد الذي ينشر عليه ويبسطها ، ونشاط الهمـة الذي يطلقها من عقال التوقف وينشطها ، مستمسكاً من التقوى بأوثق عروة، عاقداً بها من حب بذل الحباء أصدق حبوة، فائزاً من النصر بالنجح في مغازيه ومساعيه

بأوفق خطوة ، سامياً من العز والجلالة والمهابة على أسمى ذروة ، مؤيداً من الله بالتسديد في صرف كل خطب وتصريف كل خطوة .

مضمار الحقائق لمحمد بن تقي الدين عمر ، ص ١٥٥ – ١٥٨ .

١٨٩ – رسالة أرسلها القاضي الفاضل الى الملك المظفر ابن اخي السلطان ونائبه على مصر يخبره فيها بشفاء السلطان من مرض عضال ألم به وارجف المرجفون بموته ثم منَّ الله عليه بالشفاء :

ان العافية الناصرية قد استقامت واستفاضت اخبارها ، وطلعت بعد الظلمة أنوارها ، وظهرت بعد الاختفاء آثارها ، وولت العلة – ولله الحمد والمنة – وطفئت نارها وانجلى غبارها وخمد شرارها. وما كانت الا فلتة وقى الله شرها وشنارها ، وعظيمة كفى الله الاسلام عارها ، وتوبة امتحن الله بها نفوسنا ، فرأى أقل ما عندها صبرنا ، وما كان الله ليضيع الدعاء ، وقد اخلصته القلوب ، ولا تتوقف الاجابة وان سدت طريقها الذنوب ، ولا ليخلف وعد فرج ، وقد أيس الصاحب والمصحوب .

نعى زاد فيه الدهر ميما ... فأصبح بعد بؤساه نعيما

ومـا صدق النذير به لأني ... رأيت الشمس تطلع والنجوما

وقد استقبل مولانا السلطان الملك الناصر غضة جديدة ، والعزمة ماضية جديدة ، والنشاط الى الجهاد ، والتوبة لرب العباد . والجنة مبسوطة البساط ، وقد انقضى الحساب وجزنا الصراط ، وعرضنا نحن على الاهوال التي من خوفها كاد الجمل يلج بسم الخياط .

البداية والنهاية لابن كثير جـ ١٢ ، ص ٣١٦ – ٣١٧ .

١٩٠ – منشور كتبه صلاح الدين بتقليد مظفر الدين اربل وانتزاعها من يد صاحبها الملك المظفر تقي الدين عمر ابن اخي السلطان .

مات صاحب اربل زين الدين ، ولم يكن له ولد ذكر يرثه ، فانتقل الملك الى يد اخيه مظفر الدين . فطلب هذا من السلطان ان يقلده اربل وبلادها وان يضاف اليه ولاية شهزور ، وفي مقابل ذلك يتنازل عن حران والرها وسميساط ويدفع خمسين الف دينار ، فأجابه السلطان الى ذلك ، واستمهله حتى وصل الملك المظفر ابن اخيه عنده . وهناك فاوضه في الأمر فوافق عليه واصدر السلطان المنشور التالي :

لا شك في احاطة العلم بانتقال زين الدين الى جوار الله ومقر رحمته ، مجاهداً في سبيله شاكراً لنعمته ، وهو من السعداء الذين انزل الله فيهم : ومن يخرج من بيته مهاجراً الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع اجره على الله[1] . فما اوجع القلوب بمصابه ، وما أنكى في النفوس افول شبابه ! ولقد كانت الهمة متوفرة على تربيته واعلاء درجته ، ولكن الله استأثر به قبل ظهور حسن الايثار في ايثاره ، وبلى بدره التم بسراره في ضمير البلى من اسراره . وهذه اربل من انعام البيت الكريم الأتابكي على البيت الزيني منذ سبعين عاماً ، لم يحلوا لعقد انعامهم بها نظاماً ، ولم يزيدوا احكامه الا إحكاماً وابراماً . وما رأى ان يخرج هذا الموضع منهم ، وان يصدف به عنهم . والأجل مظفر الدين كبير البيت وحاميه ، والمقدم في الولاية بحكم وصية أبيه . وقد انهض لسد مسد اخيه .

تاريخ ابن الفرات جـ ٤ ، ص ٢٣٦ .

---

(١) سورة النساء : الآية ١٠٠ .

١٩١ - رسالة صلاح الدين الى ابن اخيه الملك المظفر تقي الدين عمر سنة ٥٨٢ هـ الذي غضب لما اقطع عمه ابنه الملك العزيز مصر واقطع اخاه مديرية الشرقية ، ولم يقطعه شيئاً ، فأرسل يطلب الاذن له بالسفر لفتح المغرب او غيره . والرسالة من انشاء القاضي الفاضل :

سبب هذه الخدمة ما اتصل بالمملوك من تردد رسائل مولانا في التماس السفر الى المغرب والدستور اليه .

يكفي الزمان فما لنا نستعجل ؟ !

يا مولانا : ما هذا الواقع الذي وقع ، وما هذا الغريم من الهم الذي ما اندفع ؟! بالأمس ما كان لكم من الدنيا الا البلغة ، واليوم قد وهب الله هذه النعمة ، وقد كان الشمل مجموعاً والهم مقطوعاً ممنوعاً ؛ أفتصبح الآن الدنيا ضيقة علينا وقد وسعت ؟ والأسباب بنا مقطوعة ؟ لا والله ما انقطعت .

يا مولانا : الى اين ؟ ما الغاية ؟ وهل نحن في ضائقة من عيش او في قلة من عدد أو في عدم من بلاد ؟ او في شكوى من عدم ؟

كيف نختار على الله وقد اختار لنا ؟ وكيف ندبر لأنفسنا وهو قد دبر لنا؟ وكيف ننتجع الجدب ونحن في دار الخصب ، وكيف نعدل الى حرب الاسلام المنهى عنها ، ونحن في المدعو اليها من حرب اهل الحرب ؟

معاشر الخدام والجيش وارباب العقول والآراء اليس فيكم رجل رشيد ؟

تعقب الراي وانظر في اواخره   فطالما التهمت قدماً اوائله

لا زال مولانا يمضي الآراء صائبة ، ويلحظها بادية وعاقبة ، ولا خلت منه

دار – ان خلت – فهيهات ان تعمر ، ولا عدمته أيام ان لم تطلع فيهـــا شمس وجهه دخلت في عداد الليالي فلم تذكر .

كتاب الروضتين لأبي شامة جـ ٢ ، ص ٧٠ .

جـ – علاقة صلاح الدين بالاخرين ، باستثناء العلاقات الخارجية –

١٩٢ – رسالة موجهة الى من بمصر مبشراً بقرب فتح دمشق سنة ٥٧٠ هـ من انشاء القاضي الفاضل :

مقتطفات :

يوم وصولنا الى بصرى وقبله وفـــدت وهاجرت ، وتزاحمت وتـكاثرت ، وتوافت الأمراء والأجناد الأتراك والأكراد والعربان ورجــال الأعمال وأعيان الرجال . وورد كتاب من دمشق بعد كتاب ، وكل مخبر وذاكر ، وهو غائب بكتابه حاضر ، يذكر أن البلاد ممكنة القياد ، مذعنة الى المراد . وأما الفرنج – خذلهم الله – فإنـَّا في هــذه السفرة المباركة نزلنا في بلادهم نزول المتحكم ، وأقمنا بها اقامة الحاضر المـُتخيم ، وادلجنا وعيونهم متناومة ، وحـُزْنا وانوفهم راغمة ، ووطئنا ورقابهم صغر ، ومررنا وعيشهم مر . والله يزيدهم ذلاً ، ويجعل عداوة الاسلام في صدورهم غِلاً ، وفي اعناقهم ُغلاً .

كتاب الروضتين لأبي شامة جـ ١ ، ق ٢ ص ٦٠٣ .

١٩٣– رسالة ثانية موجهة منصلاح الدين الى من بمصر مبشراً بفتح دمشق:

وكان رحيلنا من بصرى يوم الاربعاء الرابع والعشرين من ربيع الأول ، وقد توجه صاحبها بين ايدينا قائماً بشروط الخدمة ولوازمها . ثم لقينا الأجل ناصر الدين بن المولى اسد الدين شيركوه– رحمة الله عليه وادام نعمته – والامير

سعد الدين بن أنر في يوم السبت السابع والعشرين ، ونزلنا يوم الأحد بجسر الخشب ، والاجناد الدمشقية الينا متوافية ، والوجوه على أبوابنا مترامية . ولم يتأخر الا من أبقى وجهه وراقب صاحبه ، ومن اعتقد بالقعود انه قد نظر لنفسه في العافية .

ولما كان يوم الاثنين التاسع والعشرين من الشهر ركبنا على خيرة الله تعالى ، وعرض دون الدخول عدد من الرجال فدعستهم عساكرنا المنصورة وصدمتهم ، وعرفتهم كيف يكون اللقاء وعلمتهم ، ودخلنا البلد ، واستقرت بنا دار والدنا – رحمة الله عليه – قريرة عيوننا مستقراً سكون الرعية وسكوننا ، واذعنا في ارجاء البلد النداء بإطابة النفوس وازالة المكوس ، وكانت الولاية فيهم قد ساءت واسرفت ، واليد المتعدية قد امتدت الى احوالهم واجحفت ، فشرعنا في امتثال أمر الشرع برفعها ، واعفاء الأمة منها بوضعها .

كتاب الروضتين لأبي شامة جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٦٠٣ – ٦٠٤ .

١٩٤ – رسالة من صلاح الدين الى الواعظ زين الدين بن نجا في وصف قلعة حمص بعد أخذها وهي من انشاء القاضي الفاضل :

والشيخ الفقيه قد شاهد ما يشهد به من كونها نجماً في سحاب وعقاباً في عقاب ، وهامة لها الغمامة عمامة ، وانملة اذا خضبها الأصيل كان الهلال منها قلامة ، عاقدة حبوة صالحها الدهر على الا يحلها بقرعه ، عاهدة عصمة صافحها الزمن على الا يروعها بخلعه ؛ فاكتنفت بها عقارب منجنيقات لا تطبع طبع حمص في العقارب ، وضربت حجارة بها الحجارة فأظهرت فيها العداوة المعلومة بين الأقارب ، فلم يكن غير ثالثة من الحد الا وقد اثرت فيها جدرياً بضربها ، ولم تصل السابع الا والبحران منذر بنقبها ، واتسع الخرق على الراقع وسقط

سعدها عن الطالع ، الى مولد من هو اليهـا الطالع . وفتحت الابراج فكانت أبواباً ، وسيرت الجبال بها فكانت سراباً ، فهناك بدت نقوب يرى القـائم من دونها ما وراءها ، وحشيت فيها النار فلولا الشعاع من الشعاع اضاءها[1] .

كتاب الروضتين لأبي شامة ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦١٢ .

١٩٥ — رسالة صلاح الدين الى اهـل حلب لما حاصرها للمرة الثـانية ، والكتاب من انشاء القاضي الفاضل وارسل الى اهل حلب اثناء الحصار :

فإذا قضى التسليم حق اللقا ، فاستدعى الاخلاص جهد الدعا ، فليعد وليعد حوادث ما كان حديثاً يفترى[2] ، وجواري امور ، ان قال فيهـا كثيراً ، فأكثر منه ما قد جرى ، ويشرح صدر منها لعله يشرح منها صدراً ، وليوضح الأحوال المستبشرة فإن الله لا يعبد سراً .

ومن العجـائب ان تسير غرائب	في الأرض لم يعلم بهـا المأمول
كالعيس اقتل مايكون لها الصدى	والمـاء فوق ظهورها محمول

فإنا كنا نقتبس النار بأيدينا وغيرنا يستنير ، ونستنبط الماء بأيدينا وسوانا يستمير ، ونلتقي السهام بنحورنا وغيرنا يعتمـد التصوير ، ولا بد ان نسترد بضاعتنا بموقف العدل الذي يرد به المغصوب ، وتظهر طاعتنا فنأخذ بحظ كما اخذ بحظ القلوب . وكان أول امرنا انا كنا في الشام نفتح الفتوح بمباشرتنـا انفسنا ، ونجاهد الكفار متقدمين بعساكرنا ، نحن ووالدنا وعمنا ، فأي مدينة

(١) بيت لقيس بن الخطيم الشاعر الأوسي الجاهلي يقول فيه :

سلكت بها كفي فأنهرت فتقها ... يرى قائم من دونها ما وراءها

(٢) الآية الأخيرة من سورة يوسف .

فتحت ، أو أي معقل للعدو او عسكر او مصاف للاسلام معه ضرب ، فما يجهل احد صنعنا ولا يجحد عدونا انا نصطلي الجمرة ونملك الكرة ونقدم الجماعة ونرتب المقاتلة وندير التعبئة ، الى ان ظهرت في الشام الآثار التي لنا اجرها ، ولا يضرنا ان يكون لغيرنا ذكرها[1] .

البداية والنهاية لابن كثير ج ١٢ ، ص ٢٨٩ – ٢٩٠ .

١٩٦ – رسالة وجهها صلاح الدين الى الامراء والجميع مبشراً بفتح حلب من انشاء العماد الأصفهاني :

صدرت هذه المكاتبة مبشرة بما من الله تعالى به من الفتح العزيز والنصر الوجيز والنجح الحريز ، والنعمة التي جلت الغماء فجلّت ، وحلت في مذاق السكر وحلت ، وعلت بها كلمة الدين فانهلت وانهلت وعلّتْ ، وطالت يدها بالطول وبأيديها اطلت ؛ وذلك فتح حلب الذي در حلبه ونجح طلبه ، وبلغ إمد الفلج غلبه ، ووضح لحب هذه الدولة القاهرة لحبه ، فإنه قد سكنت الدهماء مذ سكنت الشهباء ، وبشرت بها بالأمس اختها السوداء ، كما كانت لنا في فتحها اليد البيضاء ، فاخضرت الغبراء ، وآلتْ الا تغبر بعدها الا في سبيل الله الخضراء . وتلاها فتح حارم التي انجلت به الداهية الحمراء ، وعلت بالعواصم لفتح بني الأصفر رايتنا الصفراء ، واهتزت طرباً الى الجهاد في أيدي شاثميها

---

(١) هذه الرسالة قسم من رسالة وجهها صلاح الدين الى المستضيء بنور الله العباسي يشرح مواقفه كلها في نصرة الدولة والدعوة العباسية وما قام به من أعمال . انظر في كتابنا هذه الوثيقة ذات الرقم ١٥٥ ؛ كذلك أنظر : صبح الأعشى للقلقشندي ج١٣ ، ص ٨١ – ٩٠ وكتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية لأبي شامة ج١ ق٢ ، ٦١٦ – ٦٢٣ . هذا وان محتويات هذه الرسالة ليست محتويات رسالة يوجهها محاضر الى محاضرين . وهذه إحدى اخطاء ابن كثير .

ومشرعيهـــا البيضاء والسمراء . فقد زال الشعب واسفر عن الراحة التعب ، واتحدت كلمة الاسلام وعساكره وصدقت زواجره وربحت بالتنقل في الاسفار متاجره[1] .

الاعلاق الخطيرة لابن شداد جـ ١ ، ق ١ ، ص ١٧٢ – ١٧٣ .

١٩٧ – رسالة من محي الدين محمـــد بن علي قاضي دمشق الى صلاح الدين مهنئاً بفتح حلب :

وعدكم الله مغـــانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدي النـــاس عنكم[2] . وبعد فالحمد لله الذي انجز لمولانـــا فتح الله على يديه مشارق الأرض ومغاربها ، ووطأ له ذرى الممالك وغواربهـــا ، وبلغ نفسه النفيسة من الدنيـــا والآخرة آمالها ومطالبها ، وأنال ملة الاسلام ببقائه اوطارها ومآربها . وأعزّ به معتقدها ومصاحبها ، واذل بسطوته ملحدها ومحاربها ، ولا زالت عزمـــاته مؤيدة منصورة ، وراياته على رؤوس المعاقل مرفوعة منشورة ، واعلامـــه على وهاد الأرض ويفاعها موصوفة مشهورة ، وقلوب المؤمنين بحياته ونصره جذلة مسرورة ، وجموع الكفـــر وصور الصلبان بسيفه مغلولة مكسورة من النصر المتين والفتح المبين والقدرة والانتصار والنصرة والاقتدار والظفر والاستظهار ، ونيل الأمل وبلوغ الأوطار ، من فتح هـــذا المعقل الذي اجمعت العقول على اختياره وتفضيله ، وعجزت الخواطر – لولا ظهوره الى عـــالم الحس – عن تصويره في عالم الخيـــال وتمثيله ، وسار ذكره والعجب به في الاقطار ، وطار بأجنحة التيـــه والترفع عن حصون الأرض كل مطار ، وشمخ بأنف العجب عن

---

(١) أورد محمد بن تقي الدين عمر في مضمار الحقائق نصاً مطابقاً لنصنا أعـلاه ص ١٤٨ – ١٤٩ .

(٢) سورة الفتح : الآية ٢٠ .

عده مع غير السحب بل الشهب . فيا لها من شهباء ليس لهــا سوى السحاب سرج ، والريح لجام ؛ وعذراء لم يفضض لها بغير اختيارهــا ختام ؛ وحسناء حليها الأنجم الزهر وخمارها الغمام ، وذات أباء لا تعطي كفــاً للآمس الا اذا حكم بها الاسلام ؛ وناشز على الخطاب فلا تأذن بعقد الا اذا كان خطيبه الامام ؛ وصعبة على المذللين فلا تؤخذ الا بكف من اجتمعت عليه الكلمة لها زمــام . سافر النقيبة لمحاولة لثمها ، وعليها من الحماية والحمية نقاب ولثـــام . فهي نهد والأرض صدر ، وألِفٌ والبلاد لها سطر ، وطائر والمعاقل عندهــا غواشٍ ، وراكب والحصون بين يديهـــا مواشٍ ، وفارس والمدن رجالاتهـــا ، وعانس والسعادة دلالاتها ، ونجم والأرض سماؤه ، وموج والبحر ماؤه ، وعلم والبلاد حبيشه ، لا بل طود حلم يؤمن على تعاقب الايام وتوالي الاعوام عجلته وطيشه، تفي اذا غدر الزمان، وتصفو اذا تكدر الاخوان، وتحفظ اذا اضاع الاخوان، وتظهر الحب والمقة اذا فركت الحرب العوان ، ترفّع سمعهـــا عند العذل ولا يصل اليها كلام واشٍ ، وتسمو بنظرها عن الخديعة فلا يميل بناظرهـــا ساعٍ ولا ماشٍ ، وتأنف ان تعطي مقاداتها الا لأكرم الأكفــاء ، ولا ترضى ان تستشعر من جهازها الا بشعار الوفاء . فهي بالاضافة الى سائر الحصون المانعة ، كاضافة سميها في جلالة قدره ومنافعه الى سائر المائعات .

الاعلاق الخطيرة لابن شداد جـ ١ ، ق.١ ، ص ١٧٣ – ١٧٤ .

١٩٨ – فصل من رسالة ارسلها صلاح الدين الى خطلبــا والي زبيد مبشراً بفتح حلب من انشاء العماد الاصفهاني :

وأما أحوالنا فقد تناسقت في النصر ، وتناسبت في حمد الله تعالى والشكر. وقد سبقت المكاتبات اليك في شرح ما شاء الله من الفتوح وسبّبه ، وقربه لنا من الأمور وهذبه . فبلاد الجزيرة قد استقرت في خدمتنا عساكرها ، ودانت

لطاعتنا أكابرها ، وأمر فيها أمراؤنا ، وولي فيهـا اولياؤنا ، وأصبح ربضها ارضاء اصحابنا ، وانصرفت نوابها بتصرف نوابنا ، وعنى ذوو عنادها ، وساد ذوو سدادها ، ومجّدنا كرامها ، واكرمنا امجادها ، وروضنا بآلائنا مواحلها، فما ضرها اخلفها الحيا ام جادها ، وديار بكر لما قصر آمد امدها ، وطالت يد ايدنا بالطول في معاهدة تعهدها وفتحت سوداؤها ، واخضرت ببركات أقدامنا في الإقدام غبراؤها، بعدما اغبرت من مثار النقع عند نزولنا عليها خضراؤها ، وسكنت دهماؤها ، وانكشفت غماؤها ، وصحت سماؤها وضحّت اسماؤها ، ووطىء بساط الخدمة ملوكها الصيد واقر بالعبودية لنا احرارهـا الصناديد . وجئنا الى حلب فأسرجت لنا والجمت شهباؤها،وزينت لتزف علينا حسْناؤها، وأقامت بعذر خفرها في تمنعها عذراءها ، ودانت لأرضنا في ارجائها سماؤهـا وتحقق في عرفنا رجاؤها ، وأرَجَتْ بعرفنا ارجاؤها ، وظهر حقها وخفي باطلها ، وتروض ما حلها وتحلى عاطلها وعقل جاهلها وغنم عاقلها ، وانتظمت في سلك الممالك حصونها ومعاقلها ، وانضمت الينا عساكرها واستفاضت بنـا مفاخرها ، واطاعت عواصي عواصمها وامتلأت المغاني بمغانمها ، وظهرت المعالي في معالمها ، ولم يبق الا التوفر في الجهاد من سائر الجهات ، وانجاز غزات الله في النصر على العداة ، والسعي في تملك القدس وافتتاحه وتحصيل مراد الاسلام والنزول على اقتراحه .

١٩٩ – فصل من كتاب آخر أرسله صلاح الدين مبشراً بفتح حلب .

... ولما تسلمنا حلب وتسنمنا قلعتها وفرعنا شهباءها وسكّنا دهماءهـا وباكرناها بالايلاف فألفيناهـا على البكارة ، واجتلينا عروسهـا افقية الانارة روضية النضارة ، وزفت الينا حسناء لم يغلها المهر ، وعقلية ألانها لنـا الدهر ، فقربنا سرير السرور وصفى لأهلها حبير الحبور، وتأصلت فيها اروقة الأمور ،

وتوالت النعم من الله عز وجل في وفود الامور ، وتبلج صبح اليسر ووجه البشر بالأسفار والسفور . وغض الظلم طرفه وكف العسف كفه ، وقبض الجور يده وأوضح العدل جده ، وحطّ الحظ لثامه واخذ الأمر زمامه ، ووجد الشرع احكامه وانجابت الظلماء وطلعت الشموس وانفرجت الغماء وطابت النفوس ، واسقطت المظالم واطلقت المكوس ، واهتزت الاعطاف من سكر الشكر حين طافت من الطاف الله على الأمة الكؤوس .

مضمار الحقائق لمحمد بن تقي الدين عمر ص ١٤٧ – ١٤٨ .

٢٠٠ – فصل من كتاب ارسله صلاح الدين الى أحد الامراء مبشراً بفتح حلب من انشاء القاضي الفاضل :

صدر اليك هذا الكتاب ، والاوامر بحلب نافذة ، والرايات بأطواق قلعتها آخذة ، وجاء اهل المدينة يستبشرون[1] ، وقد بلغوا ما كانوا يؤملون ، وامنوا ما كانوا يحذرون . والحمد لله على هذا المصير وما منّ به من هذا الطول الطويل في الزمان القصير . نحن نستنصر بالله مولانا فنعم المولى ونعم النصير .

٢٠١ – فصل من كتاب آخر أرسله صلاح الدين الى أحد الامراء مبشراً بفتح حلب من إنشاء القاضي الفاضل :

أن الله سبحانه يسوق مقاديره الى مواقيتها ويؤلف من قلوب أهل طاعته على طواغي الكفر وطواغيتها ، ويتم ما سبق في مشيئته من جمع كلمة هذه الملة وتأليف مشيئتها . ومن ذلك ما أنعم الله تعالى به من فتح مدينة حلب سلماً

---

(١) سورة الحجر : الآية ٦٧ .

سفر فيها وجه الاسلام ، ورقى قلعتها سلماً بمشيئة الله تعالى الى دار السلام .

مضمار الحقائق لمحمد بن تقي الدين عمر ص ١٤٩ — ١٥٠ .

٢٠٢ — فصول من رسالة أرسلها صلاح الدين الى احد الامراء مبشراً بفتح آمد .

فصل منه :

صدرت هذه المكاتبة مشعرة بفتح آمد وذلك بقتال أعمل السيف فيه أعمال المستبق ، واستعمل فيه العزم استعمال المترفق . فلما رأى صاحبها غير ما ظنه وسوى ما يعهده لم ير الغنيمة الا نفسه وماله وولده ، فاستام الصلح فأرخصناه ، واستأمن فأمناه مما اخاف وخلصناه ، واغمدنا ما كان مجرداً ، واجرانا الله من نصره على ما لم يزل معوداً ، ورفعنا عنه من القتال يداً ، وأوليناه للاحسان يداً . وكتابنا هذا والمدينة قد فتحت أبوابها وعذقت بدولتنا أسبابها ، وتحكم لسان علمنا في فم قلعتها ، ويسّرها عدل نشرها بخصب نجعتها ، بعد ان لبستها دولتنا وفينا بموعد خلعتها . والحمد لله الذي تتم النعمة بحمده ، ويسبح الأمل بقصده . ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده[1] .

فصل آخر :

وقد رفعت على قلعتها اعلامنا ، ونفذت في مدينتها احكامنا ، ونال صاحبها صلحنا ، وعم أهلها صفحنا ، ووفى فيها وعدنا ، ونجح — ولله الحمد — مقصدنا ، وألان الله صعبتها ، وحطم في ثلاثة أيام صعدتها . ونحن نستعيذ الله من ان يُظن

---

(١) سورة فاطر : الآية ٢ .

ان لنا في هذا الصنع صنعاً ، وان نعتقد انا نملك لأنفسنا ضراً أو نفعاً .

فصل آخر :

ونزلنا عليها ، ولم يكن الا رياضتها ثلاثة أيام ريثما فتح الحصن عن فضله ، واستيقظ صاحبها بجد القتال من هزله، واستأمن فأومن على نفسه وماله واهله . وكتابنا هذا ولواء النصر قد مدّ باعه معانقاً لقلعتها، وخطيب منبرها قائم باسمنا ساعة تسلمها للموافقة لساعة جمعتها. ثم اوصلنا نور الدين الى عقيلة طالما واعدها أبوه وخطبها[1] ، وقبلنا منه مهرها بمعونة في سبيل الله اوجبها .

مضمار الحقائق لمحمد بن تقي الدين عمر ص ١٣٩ – ١٤٠ .

د – السياسة الخـــارجية لصلاح الدين ، باستثناء الحروب الصليبية والصليبيين –

١ – علاقة صلاح الدين بامراء الجزيرة .

٢٠٣ – رسالة من صلاح الدين الى سيف الدين ملك الموصل بعد أن هزمه [اي صلاح الدين هزم سيف الدين] شر هزيمة في احدى المعارك بينهما .

اجتمع المواصلة والحلبيون على حرب صلاح الدين بزعامة سيف الدين ملك الموصل ، والتقى الطرفان سنة ٥٧١ هـ شمالي حماة ، وهناك جرت معركة بين الطرفين انجلت عن هزيمــة المواصلة والحلبيين شر هزيمة واستحوذ السلطان على جميع اثقالهم ومتاعهم ، فوجد في سرادق سيف الدين اقفاصاً فيها طيور جميلة

(١) هذه اشارة الى ان قرا أرسلان بن سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا (وهـــو والد ور الدين المذكور في النص أعلاه) ، حاول مراراً الاستيلاء على آمد فلم يقدر حتى أخذها صلاح لدين وأعطاها لابنه (أي لنور الدين) لقاء معونة وشروط .

من بلابل وقماري وغيرها ، فأرسلها اليه سالمة مع رسول يقول له :

عد الى اللعب بهذه الطيور فإنها ألذ من مقاساة الحروب .

كتاب الروضتين لأبي شامة ج ١ ، ق ٢ ص ٦٥٢ .

٢٠٤ – رسالة صلاح الدين الى الأمير معين الدين بن انر صاحب الراوندان يأمره ان يكون في مساعدة الملك المظفر صاحب حماة من أجل تهيئة حملة لاستخلاص حلب من يد صاحب الموصل الذي اخذها وضمها الى املاكه بعد وفاة الملك الصالح ابن نور الدين الشهيد سنة ٥٧٧ هـ :

صدرت هذه المكاتبة الى حضرة الأمير ، ونعم الله عندنا وارفة الظلال وافرة النوال ، سائغة الزلال سابغة الأذيال فائضة المنال ، رابضة في حمى الاستقامة والاعتدال ، مستزادة منا بالشكر على المزيد ، مستدامة في تأبيدها على التأييد . والحمد لله على ذلك حمداً يؤمن شمل نظامه من التبديد ، ويؤذن لمنهج نهج حدته بالتحديد . وعندنا من الارتياح الى بهجته واجتلاء أنوار عزته ما يشهد به ضميره الكريم . فالله سبحانه هو الشهيد العليم .

فالاجتماع – بحمد الله – قد قرب بعيده ، وقصر متطاول أمده ومديده ، والتداني لكل ما جنته يد التنائي كافٍ ، والشفاء المقدر لكل مختل ومعتل مسدد ؛ وورد الاعتداد به بحمد الله صافٍ ورداء الالتحاف بالاحتفال لمودته صافٍ .

وقد عرف ما تجدد من وفاة صاحب حلب ، وهي ولايتنا التي لا نثني عنها عنان الطلب ، فإنها في تقليدنا من أمير المؤمنين – صلوات الله عليه – وما تركناها للملك الصالح بعد التصرف فيها وحصول حصونها ومعاقلها في ايدينا

إلا رعاية لحقوق ابيه ، ورغبة فيه . ولا مانع الآن عنها من يمين معقودة ، ولا عدة معهودة . وقد وفينا للمتوفى بعهده ، وارجأنا اليوم معه الأمر الى غده . والآن فقد سفر لنا وجه الحق وبان ، ودنا لنا مصعبه واصحب ودان . وولدنا تقي الدين هناك بالقرب ، وعساكرنا جارية على حكمه معذوقة عزائمنا بماضي عزمه ، فلتكن أيديكم متساعدة ستعاضدة ، ونياتكم وعزماتكم على التعاون متعاقدة ، والقلوب واحدة ، والعساكر في استخلاص الحق مترادفة متوافدة . والأمير اولى من توفر برأيه الصائب وعزمه الثاقب على هذا الأمر المهم ، وجرى من مألوف نفقته ومعهود مناصحته على الرسم . ونحن واصلون بعون الله تعالى على أثره بالنصر والظفر والعديد الأوفر والعتـــاد الأكثر ، وقادمون في همة وعساكر جمة ومضاء وعزمة ، لا عائق لما بلغت وجوه اللهاذم ، ولا مانع بحمد الله يحلئ عن وردهـــا ظماء الصوارم . ومعين الدين اوفى معين واندى يمين واروى واعـــذب معين واقرب قرين وأشجع ليث عـرين ، فلينهض بنفسه وعسكره ، ويوثق في هذا المقـــام حسن اثره ، ويعمل عمل المـرء لنفسه ، وينتصف ليومه من امسه .

مضمار الحقائق لمحمد بن تقي الدين عمر ٦٠ – ٦١ .

٢٠٥ – رسالة ارسلها صلاح الدين الى صاحب الموصل مسعود بن مودود ، ويلقب بعز الدين واحياناً بعز الدين ، يشكره فيها لأنه ارسل الى صلاح الدين كمية لا بأس بها من السلاح هدية هي عبارة عن رماح وتراس وغيرها .

... وصل السلاح ، وتم للاسلام من قروح الكفـر الاقتراح ، واستجيدت التراس والرماح ، وفارقت للقائها أجسام الاعداء الارواح ، واتصـل بالنفط الواصل من اهل النار الاحتراق ، وطعنت وضربت منهم النحور والاعناق .

وقد هدأ بما اهداه النصر الى الهدى ، والردى الى العـــدا ؛ واجود الأكارم وأكرم الأجـاود من جاد بما اجدى واهدى مـــا هدى وعاد من المكرمة بما بدا .

لا اخلى الله المجلس من يد يتخذها واياد يسيرها وينفذها، ومحمدة يستخلصها لنفسه ويستنقضها ، وحمية للدين يقمّ بها حماة الشرك ويقذها ، ونجوة للاسلام تمهي حدود الهمم النابية وتشحذها .

وما طلب من العدة ما طلب الا للحاجة الحاقة والضرورة الشاقة ، فإن الحرب المتطاولة المدد اتت على جميع العدد : فالسمر متحطمة والبيض متثلمة، ووجوه الصفاح بلثام النجيع متلثمة ، وعيون النصال عن حواجب القسي الى مقل الاقران رامقة مارقة ، وحُمام الحمام من مريشات السهام بكتب الكبت من حنايا المنايا السائقة سابقة .

وقد افنى المصال النصال ، والنضال النبال ، والرماء الافواق ، واللقـــاء العتاق ، والمصـــاع المناصل ، والقراع الذوابل ، والصيال الصواهل ، وعمل الجهاد الدائم العوامل . فلا ضامر الا وهو ، وان كان غائباً ، لاغب ولا صارم الا وهو في دم العدو الفائض ناضب ، ولا جارح الا وهو مجروح ، ولا قارح الا وهو مقروح ، ولا جامح الا وهـــو مصحب ، ولا باشر الا وهو مقطب .

فبأية عدة من هذه العدد انجد ، غار الحمد والمجد ، وتأسس الشكر لانعامه وتمهد . ومن العجب ان العدة تفنى ولا تفني العُداة ، وتنمو على الحصاد وكأنها النبات ، ويتسارع الى امدادها الموت والهلاك ، ويخلفها في ابدالها الحياة ، فإن البحر يمدهم ، والكفر الى الردى يردهم . وكلما اخلقتهم الأيام فإن الليالي تجدهم،

وما جمعهم القدر الا ليفرقهم، وما حمل اهل النار في الماء الا ليغرقهم في دمائهم وبنار البواتر يحرقهم[1] .

الفتح القسي للعماد الأصفهاني ٣٥٠ – ٣٥١ .

٢٠٦ – رسالة من صلاح الدين الى معز الدين بن سيف الدين صاحب الموصل والجزيرة موبخاً منذراً :

حضر معز الدين ملك الموصل والجزيرة بنفسه وجيشه لنجدة صلاح الدين اثناء حصار عكا ، ولكن طال عليه المقام وضجر كل الضجر من الحرب وطول الحصار ، فاستأذن السلطان صلاح الدين في ان يسمح له بالعودة الى بلاده ولكن صلاح الدين لم يأذن له ، فما كان منه الا ان غادر المعسكر الاسلامي بجيشه دون اذن السلطان . وبلغ السلطان ذهابه فأرسل له مع نجاب الرسالة التالية :

انك انت قصدت الانتماء اليّ ، ابتداءً ، وراجعتني في ذلك مراراً ، واظهرت الحنيفة على نفسك وبلدك من اهلك فقبلتك وآويتك ونصرتك ، فبسطت يدك في اموال الناس ودمائهم ، فنفذت اليك ونهيتك عن ذلك مراراً فلم تنته . فاتفق وقوع هذه الواقعة للاسلام فدعوناك فأتيت بعسكر قد عرفته وعرفه الناس . واقمت هذه المديدة وقلقت هذا القلق ، وتحركت بهذه الحركة وانصرفت عن غير طيب نفس وغير فصل حالٍ مع العدو ، فانظر لنفسك وابصر من تنتمي اليه غيري واحفظ نفسك ممن يقصدك فما بقي لي الى جانبك التفات .

النوادر السلطانية لابن شداد ١٤٥ – ١٤٦ .

---

(١) ذكر ابن الفرات في تاريخه نصاً يكاد يكون مطابقاً للنص المذكور أعلاه ج٤ ص٢٣٨ .

٢٠٧ – رسالة الى صلاح الدين من قليج ارسلان :

زوج قليج ارسلان صاحب ملطية وسيواس ابنته من نور الدين محمد بن قرة ارسلان صاحب حصن كيفا وغيره من الأماكن . ثم هجر الزوج زوجته بعد فترة وتزوج غيرها ، فغضب ابوها لذلك وأراد الانتقام لابنته فأغار على اراضي نور الدين . وكان بين نور الدين وصلاح الدين حلف ، ولذلك استغاث نور الدين بصلاح الدين فأغاثه وحضر بنفسه لبلاده ليرد عادية قليج عنه ، وهناك وافته رسالة من قليج ارسلان هذا مضمونها :

ان هذا الرجل فعل مع ابنتي كذا ، ولا بد من قصد بلاده وتعريفه محل نفسه .

٢٠٨ – جواب صلاح الدين الشفهي لقليج ارسلان على الرسالة السابقة ، وقد غضب كل الغضب .

قال للرسول :

قل لصاحبك : والله الذي لا إله إلا هو لئن لم يرجع لأسيرن الى ملطية ، وبيني وبينها يومان . ولا انزل عن فرسي إلا في البلد ، ثم اقصد جميع بلاده وآخذها منه .

الكامل في التاريخ لابن الاثير جـ ١١ ، ٤٦٤ – ٤٦٥ .

٢ – علاقة صلاح الدين بالموحدين وملكهم السلطان يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن .

٢٠٩ – رسالة صلاح الدين الى ملك الموحدين السلطان يعقوب بن يوسف يستنجده من اجل حرب الفرنج الذين اغاروا على بلاد الشام وبأعداد غفيرة ،

وذلك بعد استرجاع بيت المقدس . ولقد عجز صلاح الدين عن مقاومتهم ، فأرسل الرسالة التالية سنة ٥٨٥ هـ مع الأمير ابن منقذ :

بلاغ الى محل التقوى الطاهر ومستقر حزب الله الظاهر من المغرب ، اعلى الله به كلمة الايمان ورفع به منار البر والاحسان .

بسم الله الرحمن الرحيم . من الفقير الى رحمة ربه يوسف بن ايوب . اما بعد: فالحمد لله الماضي المشيئة الممضي القضية ، البر بالبرية ، الحفي بالحنفية الذي استعمل عليها من استعمر به الأرض، وأغنى من أهلها من سأله القرض، وأجزل أجر من اجرى على يده النافلة والفرض ، وزان سماء الملة بدراري الذراري التي بعضها من بعض . وصلى الله على سيدنا محمد الذي انزل عليه كتاباً فيه الشفاء والتبيان ، وبنى الاسلام بأمته التي شبهها صاحبها بالبنيان ، وعلى آله وصحبه الذين اصطفاهم وطهرهم فنصروه وظاهروا رسوله ﷺ فنصرهم واظهرهم ويسر بهم السبيل ثم السبيل يسرهم ، وان الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم [لا يشكرون][1] ، ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم[2] . وهذه التحية الطيبة الكريمة الصيبة الواجبة الرد الموجبة للقصد ، العذبة الورد ، المتنفسة عن العنبر والود وقادة على دار الملك ومدار النسك وجل الجلالة وأصل الاصالة ورأس الرياسة ونفس النفاسة وحكم الحكم وعلم العلم وقائم الدين وقيمه ، ومقدم الاسلام ومقدمه ، ومقتضي دَيْن الدين ومثبت المتقين على اليقين ، ومعلي الموحدين على الملحدين ، أدام الله له النصرة ، وجهز به تيسير العسرة ، ورد له

---

(١) هذه الجملة [لا يشكرون] ليست في الأصل . تراجع الآية ٦٠ من سورة يونس .
(٢) سورة الحشر: الآية ١٠ .

الكرة ، وبسط له باع القدرة ، واوثق به حبل الألفة ، ومهد له درجات الفرقة ، وعرفه في كل ما يعتزمه صنيعاً جزيلاً جميلاً ولطفاً حفياً جليلاً ، ويسر عليه في سبيله كل ما هو اشد وطأً وأقوم قيلاً . تحية استنير منها الكتاب واستنيب عنها الجواب ، وقد حفز لها حافزان : احدهما شوق قديم كان مطل غريمه ممكناً الى ان تتيسر الأسباب . والآخر مرام عظيم ماكره اذا استفتحت به الابواب وكان وقت المواصلة وموسم المكاتبة هناءه بفتح البيت المقدس وسكون الاسلام منه الى المقيل والمعرس ، وما فتح الله للاسلام من الثغور ، وما شرح لأهله من الصدور ، وما انزله عليهم من النور . ولم يخل المسلمون فيه من دعوات اسرار ذلك الصدر ، وملاحظات أنوار ذلك البدر ، ومطالعات تلك الجهة التي هي ، وان كانت غربية ، فإن الغرب مستودع الأنوار وكنز دينار الشمس ومصب انهار النهار ، ومن جانبه يأتي سكون الليل ومستروح الأسرار ، وعنه يقلب الله الليل والنهار ، ان في ذلك لعبرة لأولي الأبصار[1] .

ولم تتأخر المكاتبة الا ليتم الله ما بدأ من فضله ، وليفتح بقية ما لم ينقطع بتقطع يد الشرك من حبله ، والمفتتح بيد الله من بلاد الشام مدن وامصار وبلاد كبار وصغار وثغور وقلاع كانت للشرك معاقل وللاسلام معاقر ، ولبني الكفر مصانع ولبني الاسلام مصارع . والباقي بيد الكفر منها ثغرا طرابلس وصور ومدينة انطاكية — يسر الله امرها وفك من يد الكفر أسرها — واذا أمّن المؤمن على هذه الدعوة رجا ايجابها ، وما يتأخر من الله سبحانه جوابها. فالدعاء احد السلاحين ، ومع النية يطير الى وكره في السماء بجناحين ، بعد ان

(١) سورة آل عمران : الآية ١٣ .

كسر العدو الكسرة التي لم يجبر بعدها، وألجىء الى حصونه التي للحصر أعدها، وكان يومها كريماً ولطف الله فيهـــا عظيماً قضت كل حاجة في النفس واغنت المسلمين ، فأما العدو فكأن لم يغن بالأمس . وكانت على اثر غزوات قبلهـا ، فما الظن بالمجهزة بعد النكس . ولم يؤخر فتح البلاد بعدها الا ان فزع الكفار بالشام استصرخ باطل الكفار من الغرب فأجابوهم رجـــالاً وفرساناً وشيباً وشباناً وزرافات ووحداناً ، وبراً وبحراً ومركبـاً وظهراً . وركبوا اليهم سهلاً ووعراً ، وبذلوا ما عوناً وذخراً، وما احتاجوا ملوكاً ترتادهم ولا ارساناً تقتادهم ، بل خرج كل يلبي دعوة بطركه ولا يحتاج الى عزمة ملكه، وخرجت لهم عدة ملوك اقفلت العجمة على اسمائهـــا ، وأتت العزيمة ، بحمد الله ، على اشخاصها عند لقائها . ومنهم ملك الالمان خرج في جموع برية ، من الله تعـالى برية ، ملأت الفجاج ، وازدحمت فانقذها العجاج . ومنهم من ركب ثبج البحر فركب الاجاج العجاج ، وامتطى من البحر مشية الرجاج لينصر دينـاً مشيه الزجاج يقبل الكسر ولا يسرع اليه الجبر . وراكب ذلك الدين كراكب البحر بلا ساحل سلامـة والى قاع كفر . وجلب الكفـــار الى المحصورين بالشام كل مجلوب ، وملأوا عليهم ثغريهم من كل مطلوب ، ما بين اقوات واطعمة وآلات واسلحة وشلة وجنة ، وحديد مضروب وزبره ، ونقدي ذهب وفضة ، الى ان شحنوا بلادهم رجالاً مقاتلة ، وذخائر للعـاجلة من حربهم والآجلة . لا تشرق شارقة الا طلعت على العدو من البحر طالعة تعوض من الرجـــال من قتل ، وتخلف من الزاد ما أكل ، فهم في كل يوم في حصول زيادة ووفور مادة . وقد هان عليهم موقع الحصر ، واعطاهم البحر ما منعهم البر . وبطروا لما كثروا ، ونظروا فإنهم لا يستطيعون ان يلقوا ويصحروا ، ويستطيعون ان يحصروا على ان ينحصروا . ونزلوا على عكا بحيث يمدهم البحر بامداده ، ويصل الى المقاتل ما يحتاجه من اسلحته وازواده ؛ ويمن يكثر به من مقاتلته واجناده ، فانقطعت

مادة عكا من البحر ، وحصرنا منازلهم من العدو من جهة جانب البر ، فحدقوا على نفوسهم ، وحثوا التراب على رؤوسهم ، وعقدت عدتهم مائة الف او يزيدون كلما افناهم القتل اخلفتهم النجدة ، فكأنهم قبل الممات يعودون . فأتممنا بعمارة بحرية لقينا عمارتهم فنفذت عمارتنا الى الثغر واوصلت اليه الاقوات التي حمل منها البحر ما لا يحمله الظهر ، والاسلحة التي امضاها الله عز وجل بيد الاسلام في صدور الكفر . وما لقينـــا عمارة العدو بأوفر منها عدة : فعدد مراكبهم كبير ، ولكن لقيناهم بأصدق منها عزمة . والقليـــل مع العزم الصادق كثير . واستمر مقام العدو محـــاصراً للثغر ، محصوراً منا اشد الحصر ، لا يستطيع قتال الثغر لأنـّا من خلفه ، ولا يستطيع الخروج الينا خوفـاً من حتفه ، ولا نستطيع نحن الوصول اليه لأنه قد سور وخندق وحـاجز من وراء الحجزات واغلق . ولما خرج ملك الألمان بحشده وسمعته التي هي منه احشد ، وعـــاد جيشه الملعون على رسم قديم الى الشام فكان العود لأمة محمـــد ﷺ احمد ؛ فقويت به نفوسهم وجمحت به رؤوسهم ، وظنوا انه يزعجنا من مخيمنا ويخرجنا من خيمنا ، فبعثنا اليه من يلقاه بعساكرنا الشمالية ، فسلك ذات الشمال متوعراً فيها محتجزاً عن لقائهـــا مظهراً انه صريع داء وما به غير دائها ، وكان أبوه الطاغية ملك الالمان شيبة اللعن اللعين قائد جيشه الى سجن سجين قد هلك في طريقه غرقاً ، وخاض الماء فخاضه الماء شرقـاً . وبقي له ولد هو الآن المقدم المؤخر وقائد الجمع المكسر ، وربما وصل بهم الى عكا في البحر تهيبـاً ان يسلك البر . ولو سبق اصحابنا الى عساكر الألمان قبل دخولهـا الى انطاكية لأخذوه أخذاً سريعاً ، وسبق بحرسيوفهم الى ان يكون الطاغية فيه لا في النهر صريعاً. ولكن لله المشيئة في البرية ، والطاغية انما يمشي الى البلية ، فإنه لولا احتجـاز مقيمهم بالخنادق ، واجتياز واصلهم بالمضائق لكان لنا ولهم شأن ، وكان ليومنا في النصرة الكبرى ، بحول الله ، ثانٍ لا يثنيه من العدو ثانٍ .

ولما كان حضرة سلطان الاسلام وقـــائد المجاهدين الى دار السلام اولى من توجه اليه الاسلام بشكواه وبثه ، واستعان به على حماية نسله وحرثه ، وكانت مساعيه ومساعي سلفه في الجهاد الغرّ المحجلة ، المؤمرة الكاشفة لكل معضلة ، الكاسفة لكل مشكلة ، والأخبار بذلك سائرة والآثار ظاهرة ، والصحف عنه باسمة والسير به معلمة وعالمة ، وكل بجهاده قد سكن الا السيوف في اغمادها ، وقد أمِن الا كلمة الكفر في بلادها لايزال في سبيل الله غادياً ورائحاً ومواجهاً ومكافحاً وماسياً ومصابحاً ، يجوز لجة البحر بالمجـــاهدين ملوكاً على الاسرة ، وغزاة تصافح وجوهها السيوف فلا يخمد نور الأسرة ، يذود الفرق الكافرة ، ولو ترك سبيلها لملأ قراره كل واد ، وكلما اوقدوا ناراً للحرب اطفأهـا الله[1] ولولاه لأخمد شراره كل زناد ، كان المتوقع من تلك الدولة العـــالية والعزمة الغادية ، مع القدرة الوافية والهمة المهدية الهادية ان يمدّ غربُ الاسلام المسلمين بأكثر مما امد به غرب الكفار الكافرين ، فيملأهـا عليهم جواري كالأعلام ، ومدناً في اللجج سوائر كأنهـــا الليالي مقلعة بالأيام تطلع علينا معشر الاسلام آمالاً ، وتطلع على للكفار آجالاً ، وتردنا اما جملة واما ارسالاً ، مسومة تمدها الملائكة مسومة ومعلمة ، تقدم حيازيمها اقدام حيزوم تحت اصحابه . وانما هي عزمة كانت تعين اصحاب الميمنة على اصحاب المشأمة ، وكلمة كانت تنفخ الروح في الكلمة . ولما استبطئت ُظن انها توقفت على الاستدعاء ، فصرخنـا به في هذه التحية ، فقد تحفل السحاب ولا تمطر الى ان تحركهـا أيدي الرياح ، وقد تترك النصرة فلا تظهر الى ان تفزع اليها السنة الصفاح .

وسير لحضن مجلسه الأطهر ومحله الأنور الامير الأجل المجاهد الأمين الأصيل

---

(١) سورة المائدة : الآية ٦٤ .

شمس الدين نصير الاسلام والمسلمين، سفير الملوك والسلاطين ابو الحزم عبد الرحمن ابن منقذ – كتب الله سلامته واحسن صحابته – ومـا اختير للوفادة الا من هو أهلها ، ولا حمل الوديعة الا من هو محلها ولا بعث لنجح الصلة الا من هو مفتاحها ، ولأداء الامانة الا من هو قفلها . ومهما استوضح منه وسئل عنه فإنه على نفسه بصيرة ، ومن البيان ذو ذخيرة ، وفي العربيـة ذو بيت وعشيرة ، والمشاهدة له اوصف . على ان تلك الجلالة ربما ذعرت البيان فأخلف ، ومـا اجدره بأن يصادف بسطة على بساطه ، ونظراً يأذن له في القول على اختصاره وتوسطه وافراطه ، فكلٌ هو به وافٍ ، وكلٌ هو الفهم الكريم كافٍ . والله تعالى يجعل هذه العزمة منا في استنهاض العزمة منه بالغة مبلغاً يسر اهل دينه ، ويوزعهم بها اقتضاء ديونه من الذين اتخذوا إلهاً من دونه . والسلام الصادر عن القلب السليم والود العميم والعهد الكريم على حضرة الكرم العلية وسدة السيادة الجلية سلام مودة ما وفد الغرب قبلها مثلها ، ورسالة ما خطرت الى ان انفذت وراءها المحبة رسلها ، وليصل السلام رحمة الله وبركاته ورضوانه وتحياته ان شاء الله تعالى . وكتب في شعبان سنة ست وثمانين وخمسمائة . والحمد لله وحده وصلاته على سيدنا محمد نبيه وآله وسلامه[1] .

كتاب الروضتين لأبي شامة ج ٢ ، ص ١٧١ – ١٧٣ .

٢١٠ – نص آخر لرسالة صلاح الدين الايوبي الى سلطان الموحدين المنصور

---

(١) أورد القلقشندي في صبح الأعشى ج ٦ ، ص ٥٢٧ – ٥٣٠ نصاً آخر لهـذه الرسالة المهمة يختلف كل الاختلاف عن نصنا هذا . ويكفي ، أن صلاح الدين ، في نص القلقشندي ، يلقب المنصور الموحدي بلقب أمير المؤمنين ، على حين أن ذلك غير وارد في نصنا أعلاه . وكان ذلك ، أي عدم تلقيب صلاح الدين للمنصور بأمير المؤمنين، من أكبر الأسباب التي جعلت المنصور لا يرد على صلاح الدين ولا ينجده . ونظراً لأهمية هذه الرسالة نثبتها فيما يلي :

يعقوب بن يوسف سنة ٥٨٥ ه :

فتح الله بحضرة سيدنا امير المؤمنين وسيد العالمين وقسيم الدنيا والدين ، ابوابَ الميامن وأسباب المحاسن ، واحله من كفايته في الحرم الآمن ، وانجزه من نصرة الحق ما الله به ضامن ، واصلح به كل رأي عليه الهوى رائن ، ومكن له في هذه البسطة بسطة ، وزاده بالعلم غبطة ، حتى يكون للأنبياء بالعلم ؛ وللأرض بالعزم وارثاً ، وحتى يشيد بحادثٍ قديماً من مجده الذي لا يزال بغضٍّ الحديث حادثاً .

كان من أوائل عزمنا وفواتح رأينا عند ورودنا الديار المصرية مفاتحة دولة سيدنا ، وأن نتيمن بمكاتبتها ، ونتزين بمخاطبتها، وننهض الى اماثل الاصحاب، ونستسقي معرفتها استسقاء السحاب وننتجعها بالخواطر ونجعل الكتب رسلها ، وأيدي الرسل سبيلها ، ونمسك طرفاً من حبل الجهاد يكون بيد حضرة سيدنا العالية طرفه ، ونمسح غرة سبْقٍ وارثها ووارث نورها سلفه ، ونتجاذب أعداء الله من الجانبين ، ولاسيما بعد ان نُبنْا عنه نيابتين في نوبتين : فالأولى تطهير الارضين المصرية واليمنية من ضلالة اغضت عيون الايام على قذاها ، وأنامت عيون الايام بائعة يقظتها بكراها . ونيابة ثانية في تطهير بيت المقدس ممن كان يعارض برجسه تقديسه ، ويزعج ببناء ضلاله تأسيسه ، وما كان الا جنة اسلام فخرج منها المسلمون خروج أبيهم آدم من الجنة ، واعقبهم فيها ابليس الكفر ، وما اجارته مما اعقبه اللعنة ، وما كانت لنا بذلك قوة ، بل لله القوة ، ولا لنا على الخلق المنة ، بل لله المنة .

ولما حُطّتْ لدين الكفر تيجان ، وحطمت لذويه صلبان ، واخرس الناقوسَ الأذانُ ، ونسخ الانجيلَ القرآنُ ، وفكت الصخرة من اسرها، وخف ما كان على قلب الحجر الأسود بخفة ما كان على ظهرها ، وذلك ان يد الكفر

غطتها وغمرتها ، فلله الحمد ان احرمت الصخرة بذلك البنيان المحيط ، وطهرها ماطرٌ من دم الكفر وما كان ليطهرهـــا البحر المحيط . فهنالك غلب الشرك وانقلب صاغراً ، واستجاش كافرٌ من اهله كافراً ، واستغضب انفاره النافرة ، واستصرخ نصرانيته المتناصرة وتظاهروا علينا وان الله مولانا ، وطاروا الينا زرافات ووحداناً ، فلم يبق طاغية من طواغيهم ولا أثفية من اثافيهم الا الجم واسرج واجلب وارهج وخرج واخرج وجـــاد بنفسه او بولده ، وبعَدده وبعُدده ، وبذات صدره وذات يده ، وبكتائبه براً ، وبمراكبه بحـــراً ، وبالاقوات للخيل والرجال ، والاسلحة والجفن لليمين والشمال ، وبالنقدين على اختلاف صنفيها في الجمع ، وائتلاف وصفيها في النقع . وانهض ابطال الباطل من فارس وراجل ورامح ونابل ، وحافٍ وناعل ، ومواقف ومقــاتل . كلٌ خرج متطوعاً واهطع مسرعاً واتى متبرعاً ، ودعا نفسه قبـل ان يُستدعى ، وسعى الى حتفها قبل ان يُستسعى ، حتى ظننا ان في البحر طريقاً يبساً ، وحتى تيقنا أن ما وراء البحر قد خلا وعسا ، وقلنـــا : كيف نترك ، وقد علم انه يُدركَ ، وزادت هذه الحشود المتوافية ، وتجافت عنها الهمم المتجافية ، وكثرت الى ان خرجت من سجن حصرها ومستقر كفرها وبقية ثغرها — وهو صور — فنازلت ثغر عكا في اسطولٍ ملك بحره ، وجمعٍ سلك بره ، فنهضنـــا اليهم وعليه ، فضرب معنا مصاف قتلت فيه فرسانه ، وجدلت شجعــانه وخذلت صلبانه ، وساوى الضرب بين حاسر القوم ودارعهم ، وبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم[1] ، فهنالك لاذوا بالخنادق يحفرونها ، والى الستائر ينصبونها واخلدوا الى الأرض متثاقلين ، وحملوا انفسهم على الموت متحاملين ، وظاهروا بين الخنادق وراوحوا بين المجانق . وكلما يُجنّ القتل من عددهم مائة اوصلها

---

(١) اقتباس من سورة آل عمران : الآية ١٥٤ .

البحر ممن يصل وراءه بألف ، وكلما قلوا في اعيننا في زحف ، كثروا فيما يليه من الزحف . ولو ان درجة عساكرنا في البحر كدربتها في البر لعجل الله منهم في الانتصاف ، واستقل واحدنا بالعشرة ومائتنا بالألف . وقد اشتهر خروج ملوك الكفار في الجمع الجم والعدد الدهم كأنهم الى نصب يوفضون ، وعلى نار يعرضون ، ووصولهم على جبهة القسطنطينية ـ يسر الله فتحها ـ على عزم الائتام الى الشام في منسلخ الشتاء ومستهل الصيف . والعساكر الاسلامية لهم تستقبل والى حربهم تنتقل . فلا يؤمن على ثغور المسلمين ان يتطرق العدو إليهم واليها، ويفرغ لها ويتسلط عليها. والله من ورائهم محيط . واذا قسمت القوة على تلقي القادم وتوقي المقيم فربما اضر بالإسلام انقسامها ، وثلمه ـ والعياذ بالله ـ انثلامها .

ولما مخض النظر زبده ، واعطى الرأي حقيقة ما عنده ، لم نر لمكاثرة البحر الا بحراً من أساطيله المنصورة ، فإن عددها وافٍ وشطرها كافٍ . ويمكنه ـ ادام الله تمكينه ـ ان يسد الشام منه بعدٍّ كثيف وحد رهيف ، ويعهد الى واليه ان يقيم الى ان يرتبع ويصيف ، ويمكنه ان يكف شطراً لاسطول طاغية صقلية ليحصي جناح قلوعه ان تطير ، ويعقل عباب بحره ان يغير ، ويعتقله في جزيرته ، ويجري اليه قبل جريرته ، فيذهب سيدنا وعقبه بشرف ذكر لا تردُّ به المحامد على عقبها ، ويقيم على الكفر قيامة يُطلِع بها شمس النصر من مغربها . فإذا نفذ طريقه وعلم الناس بوفده اوردوا واصدروا في مورده ، وشخص المسلم والكافر : هذا ينتظر بشرى البدار ، وهذا يستطلع لمن تكون عقبى الدار ، وخاف وطأة من يصل من رجال الماء من وصل من رجال النار . ولو برقت عليهم بازقة غربية لأغرقهم طوفانها ، ولو طلعت عليهم جارية بحرية لنعقت فيهم بالشتات غربانها .

وما رأينا اهلاً لهذه العزمة الا حضرة سيدنا – ادام الله صدق محبة الخير فيه – اذ كان منحه عادة في الرضى به ، وقدرة على الاجابة ورغبة في الانابة ، ولايةً لأمر المسلمين ، ورياسة للدنيا والدين ، وقياماً لسلطان التوحيد القـــائم بالموحدين ، وغضباً لله ولدينه ، وبذلاً لمذخوره في الذب عنه دون ما عوده . والآن فقد خلا الاسلام بملائكته لما خلا الكفر بشياطينه. وما اجّلت السوابق الا لاطلاقها ، ولا اثلت الذخائر الا لانفاقها ، وقد استشرف المسلمون طلوعها من جهته المحروسة جاراً من الاساطيل تغشى البحار ، ولبالي من المراكب تركب من البحر والنهار . واذا خفقت قلوعها خفقت للقلاع قلوب ، واذا تجـــافت جنوبها عن الموج تجافت من الملاعين جنوب. فهي بين ثغر كفر تعتقله وتحصره ، وبين ثغر اسلام تفرج عنه وتنصره ، ويكون بهـا مصائب عند المسلمين(؟). ، وتظل قلائد المشركين لغربان بحره قلائد ، ويمضي سيف الله الذي لا يعدم في كل زمان فيعلم معه ان سيف الله خالد . اعز الله الاسلام بما يزيد حضرة سيدنا من عزها ، فيما من عليها من ظلها وبما يسكنه من حرزهـــا ، فيما يبسط على الاعداء بها من بأسها وينزل بهم من جزها وبما يجرده من سيوفها التي تقطع في الكفر قبل سلها وهزها .

وقد اوفدناه على باب حضرة سيدنا ، وهو الداعي المسمع والمبلـــغ المقنع والمجمع المستجمع ، علمناه أمراً يسراً ، وبوأناه الصدر فكان وجهاً ، واودعناه السر فكان صدراً[١] .

صبح الأعشى للقلقشندي ٦ حـ ، ص ٥٢٧ – ٥٣٠ .

---

(١) يذكرنا شرح كتاب صبح الاعشى في أسفل صفحة ٥٢٦ من الجزء السادس انه لم يعثر على هذه الرسالة بين رسائل القاضي الفاضل . وذلك لأن القلقشندي يذكر في الصفحة ٥٢٦ من الجزء السادس ان هذه الرسالة من انشاء القاضي الفاضل .

٢١١ – رسالة ارسلها صلاح الدين الى الأمير ابن منقذ يكلفه بالسفر الى بلاد المغرب لتسليم رسالتـه الى السلطان الموحدي وليكون سفيره لديه في هـــذه المهمة .

الأمير الاجل الاسفهسلار الأصيل العالم المحترم شمس الدين عـــدة الإسلام جمال الأنام تاج الدولة أمين الملة صفوة الملوك والسلاطين ، شرف الأمراء ، مقدم الخواص أدام الله توفيقه ويسر طريقه وأنجع مقصده وأعـذب مورده وحرس مغيبه ومشهده وأسعد يومه وغده ، يستخير الله تعالى ويتوجه كيا يسر الله الى الجهة الإسلامية المغربية – حرس الله جانبها ، ونصر كتائبها ومراكبهـــا ، ويستقرى في الطريق وفي البلاد من أخبار القوم في أحوالهم وآدابهم وأشغالهم وأفعالهم ، وما يحبونه من القول نزره أو جمه ، ومن اللقاء منبسطه أو منقبضه ، ومن القعود بمجالسهم مخففه أو مطوله ، ومن التحيات المتهاداة بينهم ما صيغته وما موقعه ، وهل هي السنن الشرعية أو العوائد الملوكية؟ ولا يلقه إلا بما يحبه ، ولا يخاطبه الا بما يسره . والكتاب قد نفذ اليه ولم يختم ليعلم ما خوطب به . والمقصود أن نقص القصص عليه من أول وصولنا الى مصر ، وما أزلنا من البدع بها وعطلنا من الإلحاد فيها ، ووضعنا من المظالم عنها ، وإقامة الجمعـــة وعقد الجماعة فيها ، وغزواتنا التي تواصلت الى بــلاد الكفار من مصر فكانت مقدمة لملك الشام الاسلامي باجتماع الكلمة علينا ، ومقدمة لملك الشام الفرنجي بانقياد المسلمين لنا ، واتفاق الملوك المجاورين على طاعتنا ، وتفصيل ما جرى لنا مـــع الفرنج من الغزوات المتقدمة التي جسنا فيها خلال ديارهم ، وجعلهـــا الله تعالى مقدمات لما سبق في علمـــه من أسباب دمارهم ، وما أعقبها من كسرتنا لهم الكسرة الكبرى وفتح البيت المقدس . وتلك على الاسلام منـــة الله العظمى ، الى غير ذلك من أخذ الثغور وافتتاح البلاد ، واثخان القتل فيهم والأسر لهم ،

واستنجاد بقيتهم لفرنج المغرب ، وخروج نجداتهم وكثرتها وقوتهـــا ومنعتها وغناها وثروتها ومسارعتها ومبادرتهـــا ، وانه لا يمضي يوم إلا عن قوة تتجدد وميرة تصل ، واموال واسعة تخرج ومعونات كثيرة تحمل ، وان ثغرنا حصره العدو ، وحصرنا نحن العدو ، فما تمكن من قتال الثغر ولا تمكن من قتالنـــا ، وخندق على نفسه عدة خنادق ، فما تمكنا من قتاله ، وقـــدّم الى الثغر أبرجة أحرقها أهـــله ، وخرج مرتين الى عسكرنا ، فكسر العدو أقله ، فانه اغتنم أوقاتاً لم تكن العساكر فيها مجموعة ، وارتاد ساعات لم تكن الأهب فيهـــا مأخوذة ، وأقدم على غرّة استيقظت نصرة الله لنا وخذلانه لهم . فقتـــل الله العدو القتل الذريع ، وأوقع به الفتك الشنيع ، وانجلت إحدى الحركتين عن عشرين ألف قتيل من الكفار ، خرجت أنفسها الى مصارعها ، وهمدت أجسامها في مضاجعها . والعدو ، وان حصر الثغر ، فانه محصور ؛ ولو أبرز صفحتـــه لكان بإذن الله هو المبثور المكسور . وتذكر ما دخل الثغر من أساطيلنا ثلاث مرات ، واحراقها لمراكبهم ، وهي الأكثر ، ودخولها بالميرة بحـــكم السيف الأطهر ؛ وان أمر العدو مع ذلك قد تطاول ، وخطبه قد تمادى ونجدته تتواصل ؛ ومنها ملك الألمان في جموع جماهيرها مجمهرة ، وأموال قناطيرها مقنطرة ، وان عساكرنا لو أدركته لما استدرك ، ولولا سبقه لها بالدخول الى انطاكيـــة لتلف وهلك . وتذكر ان الله قصم طاغية الالمان وأخذه أخذة فرعونية بالاغراق في نهر الدنيا الذي هو طريقه الى الاحراق في نار الآخرة ، وان هذا العدو لو أرسل الله عليه اسطولاً قوياً مستعداً يقطع بحره ويمنع ملكه ، ، لأخذنا العدو ، أمـــا بالجوع او الحصر ، أو برز فأخذناه بيد الله تعالى التي بهـــا النصر . فإن كانت الأساطيل بالجانب المغربي ميسرة ، والعدة منها متوفرة ، والرجال في اللقـــاء فارهة ، وللقاء غير كارهة فالبدار البدار . وأنت ايها الأمير ، اول من استخار الله وسار ، وان كانت دون الاسطول موانع : اما من قلة عدة ، او من شغل

هناك بمهمة او بمباشرة عدو ما تحصن منه العورة ، او قد لاحت منه الفرصة ، فالمعونة ما طريقها واحدة ، ولا سبيلها مسدودة ولا أنواعها محصورة : تكون تارة بالرجال وتارة بالمال . وما رأينـــا اهلاً لخطابنا ولا كفؤاً لانجادنا ، ولا محفوفاً بدعوتنا ولا ملبياً لنصرتنا الا ذلك الجناب ؛ فلم ندعه الا لواجب عليه ، والى ما هو مستقل به ومطيق له ؛ فقد كانت تتوقع منه همة توقـد في الغرب نارها ، ويستطير في الشرق سناها ، وتغرس في العدوة القصوى شجرتها ، فينال من في العدوة الدنيا جناها ؛ فلا ترضى همته ان يعين الكفرُ الكفرَ ، ولا يعـين الاسلامُ الاسلامَ . وما اختص بالاستعانة الا لأن العدو جاره ، والجار أقدر على الجار . وأهلِ الجنة اولى بقتال اهل النار . ولأنه بحر والنجدة بحرية ، ولا غرو أن يجيش البحار البحار . وان سأل عن المملوكين يوزبا وقراقوش وذكر ما فعلا في أطراف المغرب بمن معهما من نفايات الرجال الذين نفتهم مقامات القتال ، فيعلمهم ان المملوكين ومن معهما ليسوا من وجوه المماليك والأمراء ، ولا من المعدودين في الطواشية والأولياء ، وإنما كسدت سوقهما وتبعتهما ألفاف أمثالهما . والعادة جارية ان العساكر اذا طالت ذيولها وكثرت جموعها خرج منها وانضاف اليها ، فلا يظهر مزيدها ولا نقصها ، ولا كان هذان المملوكان ممن اذا غاب أحضر ، ولا ممن اذا فقد افتقد ، ولا يقدر في مثلهما انه ممن يستطيـع نـكاية ، ولا يأتي بما يوجب شكوى من جناية . ومعاذ الله أن نأمر مفسداً بأن يفسد في الأرض ، ان اريد إلا الإصلاح ما استطعت[1] . وان سأل عن النوبة المصرية وما فعـل بجندها فيعلمهم الأمير أن القـــوم راسلوا الكفار وأطمعوهم في تسليم الديار ، فأشفى الاسلام على أمر شديد ، وكاد يقرب على الكفر كل أمر بعيد . فلم يعاقب الجيش بل أعيان المفسدين فقوبلوا بما يجب ، وكانوا دعاة كفر وضلال ومحاربين

---

(١) سورة هود : الآية ٨٨ .

لله بما سعوا في الأرض من فساد . وأما بقية الجيش ، وان كان منهم من هو تبع للمذكورين في الرضـا ، فإنهم اقتصر بهم على أن لا يكونوا جنوداً ، ومنهم من أجريت عليه أرزاق تبلغه ، وشملته أمنة تسكنه :

وأما الهدية المسيرة على يد الأمير فتفصيلها يرد في كتاب الأمير الاجـل الاسفهسار العالم الكبير مجد الدين سيف الدولة – أدام الله عـلوه – مقروناً بالهدية المذكورة . ومع قرب الشتاء فلم يبق الا الاستخارة والتسمية ومبادرة الوقت قبل أن يغلق البحر انفتاح الاشتية . والله سبحانه يوفق الامير ويسهل سبيله ويهدي دليله ويكلأه بعينه ويمده بعونه، ويحمل رحله ويبلغه أهله ويشرح له صدره وييسر له امره ان شاء الله تعالى . وكتب ثامن وعشرين شعبـان سنة ست وثمانين وخمسمائة .

كتاب الروضتين لأبي شامة حـ٢ ، ص ١٧٠ – ١٧١ .

٢١٢ – رسالة ارسلها الى السلطان صلاح الدين القاضي الفاضل وفيها يبدي اعتراضه ومعارضته لارسال رسالة الى المنصور الموحدي وارسال سفير له وطلب النجدة منه ، ولاسيما تلقيبه (اي المنصور) بأمير المؤمنين .

المملوك يقبل الأرض بالمقام العالي المولوي الملكي الناصري ، جعل له الله في الدنيا والآخرة المقام العـالي ، وأبقى دولته التي هي الايام بالحقيقة ، والايام قبلها هي الليالي. وينهي ان الظاهر ان المملوك عند المولى ليس من اهل الاتهام، وان له ، ولله الحمد ، آثاراً في دولته تشهد بهـا الايام ، وآثار السيوف طاحت وبقيت آثار الاقلام .

والرسالة المغربية ليس المملوك مشيراً بتركها ، ولا كارهاً لسفر رسولهـا ، ولا مستبعداً مصلحة قريبة الأمر منها لكن على وجههـا . وقد نجزت الهدية

المغربية على امر به. وكتب الكتاب على ما مثل وفخم الخطاب والوصف فوق العادة ، وبما لا يمكن مخاطبة مخلوق بأكثر منه . وعند وصول الأمير نجم الدين من المخيم المنصور ، فاوضه المملوك في انه لا يمكن الا التعريض لا التصريح . بما وقع له انه لا تنجح الحاجة الا به من لفظ امير المؤمنين ، وان الذين افاضوا في هذا الحديث واشاروا به ما قالوه نقلاً ، ولا أحاطوا به قيـــاساً ، ولا عرفوا مكاتبة المصريين قديماً . وآخر ما كتب في ايام الصالح بن رزيك فخوطب به أكبر اولاد عبد المؤمن وولي عهده بالأمير الاصيل النجار ، الجسيم الفخار ، وعادت الأجوبة الى ابن رزيك ، وهو وزير سلطان مصر الذي ابتاع مولانا السلطان اليــوم مائة مثله ، مترجمة بمعظم امره وملتزم شكره . هذا والصالح يتوقع أن يأخذ ابن عبد المؤمن البلاد من يديه . وما هو الا ان يهرب مملوكان طريدان منا فيستوليان على اطراف بلاده؛ ويصل المشار اليه بالأمر من مراكش الىالقيروان في ستة اشهر فيلقاهم فيكسر مرة ويتماسك اخـــرى . واعلم الأمير نجم الدين بذلك ، فأمسك مقدار عشرة ايام ، ثم انفذ الأمير المذكور اليـــه على يد ابن الجليس بأن الهدية اشير عليه بأن لا يستصحبها ، وان استصحبها تكون هدية برسم من حواليه . وان الكتـــاب لا يأخذه الا بتصريح امير المؤمنين . وان السلطان – عز نصره – رسم له ذلك . وان الملك العادل – دامت قدرته – لا يشير الا به ، وانه اذا لقي القوم خاطبهم بهذه التحية عن السلطان – ابقاه الله – من لسانه. فأجابه المملوك بأن الخطاب يكفي وطريق جحدنا له ممكن، والكتابة حجة تقيد اللسان عن الانكار . ومتى قرئت على منبر من منـــابر المغرب جعلنا خالعين في مكان الاجماع ، مبايعين من لا ينصره الله ولا شوكة فيه ولا يحل اتبـــاعه ، مرخصين الغالي ، منحطين عن العالي ، شاقين عصا المسلمين ، مفرقين كلمة المؤمنين ، مطيعين لمن لا تحل طاعتـــه ، متقلدين لمن لا تصح ولايته ، فيفسد عقود الاسلام ، وينفتح باب يعجــز وارده عن اصدار ،

بل تمضي وتستشف الامور وتكشف الاحوال ، فإن رأيت للقوم شوكة ولنا زبدة يعدهم بهذه المخاطبة واجعل كل ما نأخذه ثمناً للوعد بهـا خاصة . فامتنع وقال : انا اقضي اشغـالي واتوجه الى الاسكندرية وانتظر جواب السلطان – عز نصره – وما يفوت وقت والى ان انجز امر المركب وارتاد الركاب . فسير المملوك النسخة ، وان وافقت فينعم المولى على المملوك بترجمة يلصقها على ما كتبه ويأمر نجم الدين بتسلم الكتـاب . على ان ابن الجليس حدثه عنه انه ممتنع من السفر الا بالمكاتبة بها . فأمـا الذي يترجم به المولى – عز نصره – فيكون مثل الذي يدعى به على المنبر لمولانا وهو : الفقير الى الله تعالى يوسف بن أيوب – أدام الله غنى مولانا بالفقر الى ربه – واذا كتب الصالح بن رزيك اليهم من السيد الأجل الملك الصالح ، قبح ان يكتب اليه مولانا – اتقاه الله – الخادم . وهذا مبلغ رأي المملوك. والمؤمن لا يذل نفسه. وقاسم الأرزاق يوصلها ، وان رغم من جرت على يده . وإن كان مولانا – أعـز الله نصره – يقول انت غافل وغائب وما تعرف ما الاسلام فيه ، فلو حضرت وعرفت مـا شققت الحديث فجواب ما نكتب بعد سنتين ، ما يتخلى الله عنـا ولا تستمر هذه الشدة . ولا تسيء الظن بالله . واذا كانت لنا ان شاء الله اخذت خـالية ممن تطلب الآن مواساته . واذا كان المملوك مستجهـلا وغير مستنصح وللضرورة حكمها والاحوال المملوك غائب عنها ، فالمفهوم من الامر للمملوك ان يتولى من الكتابة ترتيب المقاصد وتحرير الألفاظ وتنضيد الخبر عما اجراه الله تعالى على يد مولاه – عز نصره ، والتالي المطلوب ، فقد قفل هذا كله في النسخة وبقيت اللفظة التي ليست كتابة المملوك لها شرطاً فيها . والمملوك وعقبه مستجيرون بالله تعالى ثم بالسلطان – عز نصره – من تعريضهم لكدر الحياة وتوقع الخوف ومعاداة من لا يخفى عنه جبر ولا تقال به عثرة . ويكفي ان المولى انعم بخطه في كتابه الى المملوك ، وفيها مـا هو بخط حضرة سيدنا الأجل عمـاد الدين

الكاتب الاصفهاني – حرسه الله – لما وصى بأن لا يناظر في الخطاب ما صرح باللفظة ، فهي اما تقية فالملوك اولى بها ، واما استهانة فنفس الملك لا تقاس بنفس المملوك . فإن كان ولا بد فالنسخة بين يديه ، والمقصود فيها من زيادة هذه اللفظة ما يحتاج الى تعليم . والكتاب الذين يستقلون بكتابة النسخة معدومون ، وقد ناب المملوك عنهم . والكتاب الذين يستقلون بالتبييض موجودون فينوبون عن المملوك في التبييض ، والا فكيف يسير رسول بكتاب من مصر بلا خط سلطان وبغير حضرته كتب ؟ ولا بهدية سار ، بمحضر من البغاددة ، والمغاربة يعلمون ان الكتاب كتب بمصر ويشهدون بما لم يروه وما لم يقرأوه من الخطاب . ولو وصل من المولى – ادام الله ايامه – كتاب مختوم وسير ولم يعلم ما فيه لانقطع فضول كثير وخمدت اراجيف شنيعة . ولا يعتقد المولى ان المملوك يعظم القصص، فما للألسنة والأعين شغل الا السلاطين وافعالهم واقوالهم ؛ ولا للخلق خوض الا في اوامرهم واحوالهم . ولو علم المملوك ان هذا الذي استعفى منه يضره بحيث ينفع المولى – ابقاه الله – لهان عليه ؛ ولكنه مضرة بغير منفعة ، وتعرض لما تذم عاقبته او يبقى على الخوف منه ، وذلك مما لا يقتضيه حسن عهد المولى وفضل رأفته. فمقصود المولى –ابقاه الله– تحصيل تبييضها بين يديه ، وربما حصلت استنارة وامنت المكاره فيه وغمضت العيون عنه وسخت الايام عليه . طالع المملوك بذلك .

كتاب الروضتين لأبي شامة جـ ٢ ، ص ١٧٤ – ١٧٦ .

٣ – علاقة صلاح الدين بالروم وبملك قبرص :

٢١٣ – رسالة من ملك الروم الى صلاح الدين حول اجتياز ملك الألمان بلاده :

من ايساكيوس الملك المؤمن بالمسيح الإله ، المتوج من الله المنصور العالي أبداً، اقعقوس المدبر من الله القاهر الذي لا يغلب، ضابط الروم بذاته انكليوس الى النسيب سلطان مصر صلاح الدين :

وفيما يلي ما فسر من الكتاب :

المحبة والمودة ، وقد وصل خط نسبتك الذي انفذت الى ملكي وقرأناه ، وعلمنا منه ان رسولنا توفي ، وحزنا حيث انه توفي في بلد غريب ، وما قدر ان يتم كلما رسم له ملكي . وامره ان يتحدث مع نسبتك ويقول في حضرتك . ولا بد لنسبتك ان تهتم بانفاذ رسول الى ملكي ، ليعرف ملكي ما بعثت اليك مع رسولي المتوفى . واما القماش الذي خلفه ووجد بعد موته ينفذ الى ملكي لنعطيه اولاده وأقاربه . وما اظن انه سمع نسبتك اخباراً ردية ، وانه قد سار في بلادي الألمان ، وما هو عجب ، فإن الاعداء يرجفون بأشياء كذب على قدر اغراضهم ، ولا تشتهي ان تسمع ، فإنهم قد تأذوا وتعبوا أكثر مما آذوا فلاحي بلادي، وقد خسروا كثيراً من المال والدواب والرحل والرجال ومات منهم كثير وقتلوا وتلفوا ، وبالشدة تخلصوا من ايدي اجناد بلادي ، وقد ضعفوا بحيث انهم لا يصلون الى بلادك ، وان وصلوا كانوا ضعافاً بعد شدة كثيرة ، لا يقدرون ينفعون جنسهم ولا يضرون نسبتك . وبعد ذلك كله العجب كيف قد نسيت الذي بيني وبينك ، وكيف ما عرفت لملكي شيئاً من المقاصد والمهمات . ما ربح ملكي من محبتك الا عداوة الفرنج وجنسهم . ولا بد لنسبتك ، كما قد كتبت لملكي في كتابك الذي قد نفذت الينا ، من انفاذ رسول حتى يعرفني جميع ما قد كتبت اليك في القديم من الحديث ، ويكون ذلك بأسرع ما يمكن ، ولا تحمل على قلبك من مجيء الأعداء الذين قد سمعت

بهم ، فإن ادبارهم على قدر نيتهم وآرائهم . وكتب في ايام سنة الف وواحـــد وخمسمائة .

النوادر السلطانية لابن شداد، ص ١٣٢ – ١٣٣ .

٢١٤ – رسالة من القاضي الفاضل الى السلطان صلاح الدين يخبره باتصال ملك قبرص به يطلب مودته ويعلن عداءه لملك انكلترا . كما يتضمن عرضــاً لكتاب ورد من بغداد يتضمن المساعدة على الجهاد .

وصل الى المملوك كتاب يذكر وصول رسل الملك العتيق من قبرص اليــه يخبره بعصيانه على ملك انكلترة ومكاشفته بالعداوة والحرب، وانه قد كاتب السلطان – اعز الله نصره – يبذل له من نفسه العبودية والطاعة والمظاهرة على ملك الانكلترة . والاخبـــار متواترة بأن الملك العتيق احرق مواني قبرص ووعرها ، وقطع الميرة عن الساحل . ولا شبهة ان مولانا يتقبل من المذكور ويقوي نفسه على هذه المباينة ، فإن في تخـاذلهم نصرة للاسلام وشغل بعضهم ببعض ، وافتراق كلمتهم المجموعة وقطعاً للميرة عن الشام وامناً لجانب كثير من جوانب البحر . وهذا الملك العتيق قد صار لمولانا صديقاً ، وما سمي العتيق الا لأنه صار لمولانا عتيقاً. ولا اعتبار بحديثنا مع صاحب القسطنطينية في انا ننجده على قبرص ، فإنا انما وعدناه بالنجدة عليها لما كانت بيد عدونا . ووالله ما افلح ملك الروم قط ولا نفع أن يكون صديقاً ولا حتى ان يكون عدواً . وكذلك صاحب المغرب (والله يعصمك من الناس) .

وقف المملوك على كتاب بغداد والمقصود الذي ندب لأجله الرسول مــا لم يذكره في الكتاب ، وهي المعونة على الجهاد ، وعرف استدعاء المساعـدة على تكريت . ولو كان لنا فراغ لما كان النظر الصحيح يقتضيها ، لانها مهما بقيت في

يد من هو الآن بها لكانت في يد المولى ، ابقاه الله تعالى ، ومهما خرجت عنه خرجت عنها . ولا نقول انه ليس لنا تطلع الى مثلها ، لاسيا وهي طريق الى غيرها . وقد فتح الله للمولى ببلاد هي ، مع سعتها ، ضيقة عن ربوتها . فللمولى اولاد كثر الله منهم ، وما منهم الا من هو متطلع الى طرف ، وله اهل ما منهم الا من هو متطلع الى مملكة ، وامراء مـــا منهم الا من هو متوقع زيادة ، ومماليك ما منهم الا من يريد ان يوفي الحق عليه في الخدمة . ومن سيره المولى لهذا الأمر عدم من اصحابه منفعة فيا هو اهم مما سار فيه ، وما يليق ان يسير الا من يريهم ما يعجزون عنه ، ويكون عنوانـاً لما لعلهم في شك منه من قوة المولى على ما يريد، وامساكه مع القدرة. ويرى المملوك ان مطلبهم نقد ومطلبنا منهم وعد ، وان كان ولا بد من تسيير فلا يسير الا من يقضي الشغل ويستزيد الجعل . وما تضمنه الكتاب البغدادي من عزم الخليفة على الحج في هذه السنة المملوك يستبعده بالاضافة الى الوقت والى عادة اهله وآخرهم حج الرشيد رحمه الله ، ويستفر به بالاضافة الى خلقه ، وان سار صلح ان يهتم بمـا أشار اليه ابن الشهرزوري . ولا شك انه انسى الرسالة التي توجه فيها ، فإنا بعثناه يلتمس لنا نفقة فالتمسها منا .

كتاب الروضتين لأبي شامة جـ ٢ ، ص ١٧٨ .

هـ – شؤون ادارية :

٢١٥ – فصول من مرسوم اصدره صلاح الدين سنة ٥٨٠ هـ بتولية زين الدين ابن علي كوجك اربل ونواحيها :

... ان الله لما مكن لنا في الأرض ، ووفقنا في اعزاز الحق واظهاره لأداء الفرض ، رأينـــا أن نقدم فرض الجهاد في سبيل الله فنوضح سبيله ونقبل على

اعلاء الدين وننصر قبيله ، وندعو اولياء الله من بلاد الاسلام الى غزو اعدائه ، ونجمع كلمتهم في رفع كلمته العليا في ارضه على استنزال نصره من سمائه ، فمن ساعدنا على اداء هذه الفريضة ، واقتناء هذه الفضيلة يحظى من عوارفنا الجزيلة بحسن الصنيعة ونجح الوسيلة ، ومن اخلد الى الأرض واتبع هواه واعـرض عن دينه بالاقبال على باطل دنياه ، فإن تاب ورجع قبلناه ، وان أصر على غوايته ازلنا يده وعزلناه .

مفرج الكروب لابن واصل جـ ٢ ، ص ١٦٣ – ١٦٤ .

٢١٦ – رسالة من القاضي الفـاضل الى صلاح الدين يتشفع لديه في ان يعين خطيب عيذاب الذي ترك بلده ولجأ الى صلاح الدين خطيباً في الكرك :

أدام الله السلطان الملك الناصر وثبته ، وتقبل عمله بقبول صالح واثبته ، وأخذ عدوه قائلاً أو بيَّته ، وارغم انفه بسيفه او كبته . خدمة المملوك هذه واردة على يد خطيب عيذاب ؛ ولما نبا به المنزل عنها ، وقل عليه المرفق فيها ، وسمع هذه الفتوحات التي طبق الأرض ذكرها ووجب على اهلها شكرهـا ، هاجر من هجير عيذاب وملحها ، سارياً في ليلة أمل كلها نهار ، فلا يسأل عن صبحها . وقد رغب في خطابة الكرك ، وهو خطيب ، وتوسل بالمملوك في هذا الملتمس وهو قريب ، ونزع من مصر الى الشام ، ومن عيذاب الى الكرك وهذا عجيب . والفقر سائق عنيف . والمذكور عـائل ضعيف ، ولطف الله بالخلق بوجود مولانا لطيف ، والسلام .

وفيات الاعيان لابن خلكان جـ ٢ ، ص ٣٣٤ .

٢١٧ – مرسوم اصدره صلاح الدين بمنع الخوض في الحـرف والصوت من انشاء القاضي الفاضل :

لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينَّك بهم ثم لا يجاورونك فيها الا قليلا[1] . خرج امرنا الى كل قائم في صف ، او قاعد في امام او خلف ، الا يتكلم في الحرف بصوت ولا في الصوت بحرف . ومن تكلم بعدها كان الجدير بالتكليم . فليحذر الذين يخالفون عن امره ان تصيبهم فتنة او يصيبهم عذاب أليم[2] . ويسأل النواب القبض على مخالفي هذا الخطاب وبسط العذاب ، ولا يسمع لمتفقه في ذلك تحرير جواب ، ولا يقبل على هذا الذنب متاب ؛ ومن رجع الى هـــذا الايراد بعد الاعلان ، وليس الخبر كالعيان ، رجع اخسر من صفقة ابي غبشان[3] . وليعلن بقراءة هذا الأمر على المنابر ، وليعلم به الحاضر والبادي ليستوي فيه البادي والحـاضر . والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

حسن المحاضرة للسيوطي جـ ٢ ، ص ١٩ .

٢١٨ – رسالة من القاضي الفاضل الى صلاح الدين مهنئاً بسلامة اولاده :

...وهم بحمد الله بهجة الحياة وزينتها، وريحانة القلوب والأرواح وزهرتها، ان فؤاداً وسع فراقهم لواسع ، وان قلباً قنع بأخبارهم لقانع ، وان طرفاً نام عن البعد عنهم لهاجع ، وان ملكاً ملك صبره عنهم لحازم . وان نعمة الله بهم لنعمة بها العيش ناعم . اما يشتاق جيد المولى ان تطوق بدررهم ؟ اما تظمأ عينه

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٦٠ . لم يذكر في الاصل الا قسم من الآية من أولها حتى : في قلوبهم مرض ، فأكملناها .

(١) سورة النور : الآية ٦٣ .

(٣) صفقة أبي غبشان يضرب بها المثل في الخسران. وكان أبو غبشان هذا والي أمر خزاعة، وكانت خزاعة سدنة الكعبة المشرفة قبـــل قريش . ولأبي غبشان وصفقته خبر في المضاف والمنسوب ص ١٣٥. نقلاً عن محقق كتاب حسن المحاضرة جـ٢، ص ١٩ الهامش أسفل الصفحة .

ان تروى بنظرهم ؟ اما يحن قلبه للقيهم ؟ امـــا يلتقط هذا الطائر بفتيلهم ؟
وللمولى ابقاه الله ان يقول :

وما مثل هذا الشوق يحمل بعضه ولكن قلبي في الهـوى يتقلب

البداية والنهاية لابن كثير جـ ١٢، ص ٢٩٩ .

٢١٩ – رسالة القاضي الفـــاضل الى السلطان صلاح الدين يثبطه عن اداء فريضة الحج ، وقـد سمع انه قد عـزم على ادائهـــا بعد توقيـع الصلح مع الصليبين :

ان الفرنج لم يخرجـــوا بعد من الشام ، ولا سلوا عن القدس ، ولا وثق بعهدهم في الصلح ، فلا يؤمن مع بقاء الفرنج على حالهم وافتراق عسكرنا وسفر سلاطيننا سفراً مقدراً معلوماً مدة الغيبة فيه ان يسروا ليلة فيصبحوا القدس على غفلة فيدخلوا اليه ، والعيـاذ بالله ، ويفرط من يد الاسلام ، ويصبح الحج كبيرة من الكبائر التي لا تغتفر ومن العثرات التي لا تقال .

ثم قال :

وحاج العراق وخراسان ، أليس هم مائتي الف وثلثائة الف او اكثر ؟ هل يؤمن ان يقال قد سار السلطان لطلب ثأر وسفك دم وتشويش موسم؛ فاقعدوا والا فيكون تاريخ سوء ، اعوذ بالله منه . ما هذه الشناعـة ممتنعة الوقوع ولا مستبعدة عن العقول السخيفة ، فينعم المولى بتأمل ما انهـاه المملوك مستوراً ، فإنه يسأل مولانا الا يشارك احداً فيما يكتبه لأمر مهم ولا غير مهم . يا مولانا: مظالم الخلق كشفها اهم من كل ما يتقرب به الى الله ، وما هي بواحدة في اعمال دمشق من المظـــالم من الفلاحين ما يستغرب معه وقوع القطـر ، ومن تسلط

المقطعين على المتقطعين مـــا لا ينادي وليده . وفي وادي بردى والزبداني من الفتنة القائمة والسيف الذي يقطر دمـــاً ما لا زاجر له . وللمسلمين ثغور تريد التحصين والذخيرة ، ومن المهات اقامة وجوه الدخل وتقدير الخرج بحسبها . فمن المستحيل نفقة من غير حاصل وفرع من غير اصل . وهذا امر قد تقدم فيه حديث كثير وعرضت للمولى شواغل دونه ومشت الاحوال مشياً على ظلع . فلما خلت النوب – اعاذ الله من عودها – كان خلو بيت المال اشد ما في الشدة . وليس المملوك مطالباً بذخيرة تحصل انما يطلب تمشية من حيث يستقر .

كتاب الروضتين لأبي شامة ج ٢ ، ص ٢٠٥ .

٢٢٠ – فصول من رسائل وجهها القاضي الفاضل الى صلاح الدين تتضمن اموراً ادارية :

فصل :

اما سور القاهرة فعلى ما امر به المولى ، شرع فيه وظهر العمل وطلع البنا وسُلِكتْ به الطريق المؤدية الى الساحل بالقسم . والله يعمر المولى الى ان يراه نطاقاً مستديراً على البلدين ، وسوراً بل سواراً يكون به الاسلام محلى اليدين ، مجلي الضدين . والأمير بهاء الدين قراقوش ملازم الاستحثاث بنفسه ورجاله ، لازم لما يعنيه بخلاف امثاله ، قليل التثقيل مع حمله لاعباء التدبير واثقاله .

فصل : في معنى نقل القضاء عن شرف الدين بن ابي عصرون لما ذهب بصره الى ولده محيي الدين :

لا يخلو الأمر عن قسمين ، والله يختار للمولى خيرة الاقسام ، ولا ينسى له هذا التخرج الذي لا يبلغه ملك من ملوك الاسلام : إما ابقاء الامر باسم الوالد بحيث يبقى رأيه ومشورته وفتياه وبركته ، ويتولى ولده النيـــابة ، ويشترط

عليه المجـــازاة لأول زلة وترك الاقالة لأقل عثرة ، فطالما بعث حب المنافسة الراجحة على اكتساب الاخلاف الصالحة . وإمـــا ان يفوض الأمر الى الامام قطب الدين فهو بقية المشايخ وصدر الأصحاب ، ولا يجوز ان يتقدم عليــه في بلد الا من هو ارفع طبقة في العلم منه .

فصل : في اقامة عذر التأخر عن الجهاد .

واما تأسف المولى على اوقات تنقضي عاطلة عن الفريضة التي خرج من بيته لأجلها ، وتجدد العوائق التي لا يوصل الى آخر حبلهـــا ، فللمولى نية رشده ، أوليس الله بعالم بعبده ؟! وهو سبحانه لا يسأل الفاعل عن تمام فعله لأنه غير مقدور له ، وتكن عن النية لأنها محل تكليف الطاعة ، وعن مقدور صاحبها من الفعل بحسب الاستطاعة . واذا كان المولى آخذاً في اسباب الجهاد وتنظيف الطرق الى الجهاد ، وهو في طاعة قد من الله عليه بطول امدها ، وهو منه على امل في نجح موعدها ، والثواب على قدر مشيئته ، وانما عظم الحج لأجل جهده وبعد مشقته . ولو ان المولى فتح الفتوح العظام في اول الايام وفصل القضية بين اهل الشرك واهل الاسلام لكانت تكاليف الجهاد قد قضيت ، وصحائف البر المكتسبة بالمرابطة والانتظار قد طويت .

مفرج الكروب لابن واصل جـ ٢ ، ص ٦٧ – ٦٨ .

٢٢١ – نص اليمين التي حلف بها رؤساء العسكر للملك الافضل بن صلاح الدين لما اشتد مرض السلطان وهو المرض الذي مات فيه :

انني من وقتي هذا قد اصفيت نيتي واخلصت طويتي للملك النـــاصر مدة حياته ، وانني لا ازال باذلاً جهدي في الذب عن دولته بنفسي ومالي وسيفي ورجالي ممتثلاً امره واقفاً عند مراضيه ، ثم من بعده لولده الملك الافضل علي :

ووالله انني لفي طاعته وأذب عن دولته وبلاده بنفسي ومالي وسيفي ورجالي وامتثل امره ونهيه ، وباطني وظاهري في ذلك سواء ، والله على ما اقول وكيل .

النوادر السلطانية لابن شداد ، ص ٢٤٥ .

و – شؤون الخراج :

٢٢٢ – مرسوم اصدره صلاح الدين بتصحيح زمن الخراج وتحويل السنة القبطية في مصر من انشاء القاضي الفاضل .

خرجت الأوامر الصلاحية بكتب هذا المنشوروتلاوة مودعِه بحيث يستمر، ونسخه في الدواوين بحيث يستقر ، ومضمونه :

ان نظرنا لم تزل تتجلى له الجلائل والدقائق ، ويتوخى من الحسنات ما تسير به الحقائب والحقائق ، ويخلّد من الاخبار المشروعة كل عذب الطرائق رائق ، ويجدد من الآثار المتبوعة ما هو بثناء الخلائق لائق ، ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة من الخير الا جهدنا ان نكتسبها ، ولا يثوب بنا الداعي الى مثوبة الا رأينا ان نحتسبها ، لاسيا ما يكون للسبعين الماضية ممضياً ، والى القضايا العادلة مفضياً ، ولمحاسن الشريعة مجلياً ، ولعوارض الشبه رافعاً ، ولتناقض الخبر دافعاً ، ولأبواب المعاملات حافظاً، ولأسباب المعاملات لافظاً، وللخواطر من امراض الشكوك مصححاً ، وعن حقائق اليقين مفصحاً ، وللاسماع من طيف الاختلاف معفياً ، ولغاية الاشكال من طرق الافهام معفّياً .

ولما استهلت سنة كذا الهلالية ، وقد تباعد ما بينها وبين السنة الخراجية

الى ان صارت غلاتها منسوبة الى ما قبلها ، وفي ذلك ما فيه : من اخذ الدرهم المنقود عن غير الوقت المفقود ، وتسمية بيت المال ممطلاً وقد انجز ، ووصف الحق المتلف بأنه دَيْن وقد اعجز ، واكل رزق اليوم وتسميته منسوباً الى امسه ، واخراج المعتد لسنة هلاله الى حساب المعتد الى سنة شمسه .

وكان الله تعالى قد اجرى امر هذه الأمة على تاريخ منزّه عن اللبس ، موقّر عن الكيس ، وصرّح كتابه العزيز بتحريمه ، وذكر ما فيه من تأخير وقت النسيء وتقديمه ، والأمة المحمدية لا ينبغي ان يدركها الكسر ، كما ان الشمس لا ينبغي ان تدرك القمر ؛ وسننها بين الحق والباطل فارقة ، وسنتُها ابداً سابقة ، والسنون بعدها لاحقة ، يتعاورها الكسر الذي يزحزح اوقات العبادات عن مواضعها ، ولا يدرك عملها الا من دق نظره ، واستفرغت في الحساب فكره . والسنة العربية تقطع بخناجر اهلتها الاشتباه ، وترد شهورها حالية بعقودها موسومة الجباه ، واذا تقاعست السنة الشمسية عن ان تطأ اعقابها ، وتواطي حسابها ، اجتذبت قِراها قسراً ، واوجبت لحقها ذكراً وتزوجت سنة الشمس سنة الهلال ، وكان الهلال بينهما مهراً . فسنتهم المؤنثة وسنتنا المذكرة ، وآية الهلال هنا دون آية الليل هي المبصرة . وفي السنة العربية الى ما فيها من عربية الافصاح وراحة الايضاح ، الزيادة التي تظهر في كل ثلاث وثلاثين سنة توفي على عدد الامم قطعاً . وقد اشار الله اليها بقوله : ولبثوا في كهفهم ثلثمائة سنين وازدادوا تسعاً[1]. وفي هذه السنة الزائدة زيادة. ومن لطائف السعادة ووظائف العبادة ، لأن اهل ملة الاسلام يمتازون على كل ملة بسنة في نظير تلك المدة قصدوا صلاتها وأدوا زكاتها وحجوا فيها البيت العتيق الكريم ، وصاموا فيها الشهر العظيم ، واستوجبوا فيها الاجور الجليلة ،

(١) سورة الكهف : الآية ٢٥ .

وأنسئت فيها اسماعهم بالاعمار الطويلة ، ومخالفوهم فيها قد عطلت صحائفهم في عدوانهم ، وان كانت عاطلة ، وخلت مواقفهم في اديانهم ، وان لم تكن قط آهلة .

وقد رأينا ، باستخارة الله سبحانه ، والتيمن باتباع العوائد التي سلكها السلف ، ولم تسلك فيها السرف ، ان ينسخوا اسماءها من الخراج ؛ ويذهب ما بين السنين من الاضطراب والاعوجاج ؛ لاسيا والشهور الخراجية قد وافقت في هذه الشهور الشهور الهلالية . وألقى الله في ايامنا الوفاق بين الأيام ، كما ألقى ، باعتلائنا ، الوفاق بين الانام ، واسكن بنظرنا ما في الاوقات من اضطراب ، وفي القلوب من اضطرام .

فليستأنف التاريخ في الدواوين المعمورة لاستقبال السنة المذكورة ، بأن توسم بالهلالية الخراجية لازالة الالتباس ولازالة القسطاس ، وايضاحاً لمن امره عليه غمة بين الناس . وعلى هذا التقرير تكتب سجلات التحضير ، وتنتظم الحسابات المرفوعة والمشارع الموضوعة ، وتطرد القوانين المشروعة ، وتثبت المكافات المقطوعة ، ولو لم يكن بين دواعي نقلها ، وعوارض زللها وزوالها ، الا ان الاجناد اذا قبضوا واجباتهم عن منشور الى سنة خمس في اواخر سنة سبع وسقط ساقطهم بالوفاة ؛ وجرى بحكم السمع لا بالشرع الى ان يرث وارثه دون بيت المال مستغل السنة الخراجية التي يلتقي فيها تاريخ وفاته من السنة الهلالية ، وفي ذلك ما فيه مما يباين الانصاف وينافيه لكفى .

واذا كان العدل وضع الاشياء في مواضعها فلسنا نحرم ايامنا المحرمة بذمامنا ، ما رزقته ابناؤها من عدل احكامنا ، بل نخلع عن جديدها المس كل المس ، ونمنع تبعة الضلال ان تسند مهادنته الى نور الشمس ، ولا تجعل ايامنا معمورة

بالاسقاط التي تجمعها ، بل معمورة بالاقساط التي تنفعها ، فليبْنَ التـاريخ على بنيانه ، وليحسم الخلف الواقع في السنين بهـذا الحق الصادع المبين ، ولينسخ المشهود به في جميع الدواوين ، وليكاتب بحكمه من الخراج الى من يمكنه من المستخدمين ، ومنها ان المستجد من الاجنـاد لو حُمِل على السنة الخراجية في استغلاله ، وعلى الهلالية في استقباله ، لكان مُحالاً على ما يكون مَجالاً ، وكان يتعَجل استقبـالاً ويباطن استعلالاً ، وفي ذلك مـا ينافر اوصاف الانصاف ويصون الفلاح ، ان شاء الله تعالى[1] .

صبح الاعشى للقلقشندي جـ ١٣ ، ص٧١ – ٧٤ .

(١) أورد المقريزي في الخطط نصاً لهذا المنشور أقل تفصيلاً من نصنا أعلاه جـ٢ ، ص٣٥ .

اولاد صلاح الدين الايوبي

أ – الملك الافضل – توفي سنة ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م

١ – علاقته بالخليفة العباسي الناصر لدين الله –

٢٢٣ – رسالة ارسلها الملك الافضل الى الخليفة الناصر يخبره فيها بوفاة والده صلاح الدين وحلوله محله من انشاء العماد الاصفهاني :

اصدر العبد هذه الخدمة ، وصدره مشروح بالولاء وقلبه معمور بالصفاء ، ويده مرفوعة الى السماء للابتهال بالدعاء ، ولسانه ناطق بشكر النعماء ، وجنانه ثابت من المهابة والمحبة عن الخوف والرجاء ، وطرفه مغض من الحياء ، ووجهه مقبل نحو قبلة الاستجداء ، وهمته في العبودية فارعة ذروة العلاء . وهو للأرض مقبل ، وللفرض متقبل ، وبالطاعة مائل ، وللاستطاعة باذل . وللجهد والاخلاص عارض ضارع ، وفجر فخره من الصحة والمناصحة صادق صادع . وهو يمت بما قدمه من الموات واسلفه من الخدمات ، وذخره ذخر الاقوات لهذه الاوقات ، واتخذه عصمة من النائبات وعوذة من الطارئات وعدة عند الملمات ، وعمدة لدى الخطوب الكارثات ، ومصرفاً لصروف الحادثات ، ومؤلفاً للشمل عند شمول الشتات ، وعروة للاعتصام بها في ازمن الازمات ، وسلوة من الأسى ، وأسوأ لجراح المصيبات .

ولاخفاء بما اخافه ، وفاض له من بحر البرح وضافه ، واغـــاض نطافه ، وعاق أوان رجاء جني النجاح قطافه ، لولا ان الله تداركه بفضله واولاه ألطافه ، فإنه دهمه مـــا هدمه ، وفجأة فأفجعه ، وبغته من الرزء مـا صد عنه العيش وصدعه ، ونابه ما رابه وجرعه مصابه صابه ، ووافاه من وفاة والده ، رحمه الله ، ما كدر صفو الحياة ، ومحا عن صفحة حجة آية الإياه[1] ، وألم بألم الأمل ، واحال الحلى الى العطل ، وحلاً عن النهل والعلل ، واذهب بهجة الايام وأشمت الكفر بالاسلام ، وسر الشرك منه ما ساء التوحيد ، وقرب من اشفاق القلوب واشفاء الكروب البعيد ، وعطل الجهاد واراح الحديد ، وشب حقود العداة ؛ على انها ما شبت الا لتخمد . وشام[2] حدود العتاة على انها ما شيمت الا لتغمد. وهذا الحادث ارجف المرجفون بحديثه واثاروا كوامن الثأر ، وحركوا سواكن الاوتار بتأثيره وتأريثه ، واخرج اهل النفاق رؤوسهم من كل نفق ، وعـــاد ثبات ثباتهم الى نفار وقلق . ومن كان مستمسكاً من ولاء الدار العزيزة بالعروة الوثقى ، مستلئماً من عدد ايامها ومدد انعامها بالدرع الاقوى الاوقى ، فإنه لا يحتفل بحقول اخلاق اهل الخلاف ، ولا يتحلحل طود حجـاه الراسي وحصاه الراسخ لعواصف ذوي الإجحاف .

وقد احاطت العلوم الشريفة – مجدها الله – بأن الوالد السعيد ، الشديد السديد ، المبير للشرك المبيد ، لم يزل ايام حياته ، والى ساعة وفاته مستقيماً على جدد الجد ، مستنيماً في صون فريضة الجهاد الى بذل الجهد ، مستنفذاً في كل مـــا يحوز به المراضي الشريفة وسعه ، مستفرغـاً طاقته في الشغل الديني الذي يهدي بصره وسمعه ، فكم قبض يداً بسطتها بالفتنة الفئة العادية ، وكم فرض

---

(١) الاياه للشمس نورها وحسنها .

(٢) شام : تطلع ببصره وشام السيف سله .

سنة اعلت سناها للمجتلين واحلت جناهــا للمجتهدين الدعوة الهادية . ولكم اخرس دعاة الادعياء وحرس ولايات الاولياء ، وكانت بكتائبه وكتبه سيوفه واقلامه للأقاليم اقـــاليد . ولم تزل جنود الشيطان وجموع الطغيان في الممالك بمماليك الدار العزيزة وعبيدها عباديد . وامطر بلاد الكفر من دماء اهلهـــا شآبيب ، واقام بها منار الاسلام ومنابره لما اناب عن اغوادها انابيب ، واسعرها من كماة الوغى وحماة الورى بمساعير وانجدها بضوامره ضوامر الظفر بضامير .

وهذه فتوحــه تفوح بنشر النصر وتضوع ، وعقوده تروق في سلك الملك وتروع ، ومصر بل الامصار باجتهاده في الجهاد شاهدة . والانجاد والاغوار في نظر عزمه واحدة . والبيت المقدس من فتوحـــاته ، والملك العقيم من نتائج عزماته ، وتوفره على العبودية لمالك رقه سيدنا امير المؤمنين أوفـــر حسناته ، وكل ذلك في طاعته ومناصحته وبركاته .

وما زال ظاهراً على العدا ، ناصراً للهدى ، معلياً معالم العلى ، محيياً مواسم التقى ، مسيناً سنن الشرع وفروضه ، مديماً بأعباء الطاعة بقدر الطاقة نهوضه . وهو الذي ملك ملوك الشرك وغل اعناقهـــا ، واسر طواغيت الكفر وشد وثاقها ، وقمع عبدة الصلبان وقصم اصلابها ، وجمع كلمة الايمان وعصم جنابهـــا ونظم اسبابها ، وسد الثغور وسدد الامور ، واذل للدار العزيزة كل عـــدو ، واخذ لها على يد كل ذي عتو ، واستمرت على الايام مساعيه في الخدمة ناجحة ، ومعـــانيه على موازين الموازين راجحـة ، وسيرته حسنة وحسناته سائرة ، ومحاسنه ظاهرة وسريرته طاهرة .

وختم الله د بالسعادة ، وتوفاه على الوفاء بالعبودية والعبادة ، وقضى وقد قضى من آرائه ارابه ، وقدم بين يديه اعماله الصالحة ووفاه حسابه ، وقُبض وعد له مبسوط وامره محوط ووزره محطوط ، وعمله بالصلاح منوط ، وامله

بالنجاح مشروط ، وملكه بحفظ الله وكلاءته مضبوط ، والمذاهب مهذبة والمراتب مرتبة، والاسباب محكمة والاحكام مسببة ، والاحوال حالية والاعمال راضية والمصالح مصونة والمناجح مضمونة ، والرعية مرعية والعوائد مرضية ، والقواعد متأثلة والمقاصد متحصلة ، والثغور مسدودة والخطوب مصدودة ، واصول الدولة ثابتة ، وفروع الدولة نابتة ، وما ترك أمراً بعده غير مستقيم ، ولا نهجاً غير قويم ، ولا خلف لمن خلفه ما يحتاج الى تقريبه وتقريره ، ولا ابقى لمن بقي له ما يفتقر الى ترتيبه وتدبيره ، وما خرج من الدنيا الا وهو في حكم الطاعة الامامية داخل ، وبمتجرها الرابح الى دار المقامة راحل .

ولم تكن له وصية الا بالاستمرار على جادتها والاستكثار من مادتها ، والاستسعاد بسعادتها ، والاستعداد لعبادتها والاستجارة بظلالها ، والاستنارة بجلالها والاستعاذة بفضلها ، والاستزادة من افضالها . وما بنيت القواعد الا على اساس وصاياه ، ولا امضيت العوائد الا على قياس سجاياه . ولا ابرم الا ما عقده ، ولا احكم الا ما أكده ، واقتفيت آثاره واجتليت انواره واتبع ايثاره ، وائمرت في ائتمار الاوامر الشريفة اوامره ، ومن كان في نصرة الدولة الامامية الناصرية فإن الله ناصره .

وما يفتخر العبد الا بما ورثه في ولائها من الفخار ، ولا يتسم بالملك الا من يتسامى بأنه لها مملوك، ولا يوصل الى السعادة الأبدية الا مسلك رضاها سلوك، ولئن مضى الوالد على طاعة امامه ، فالمماليك اولاده واخوه في مقامه. والأمر في كل مكان بالأمن والسكون جاد على نظامه ، والكفر مغلول الغرب ، مخذول الحزب ، مجبول على الرعب ، مغلول بقيد السلم عن الحرب ، فإن الله اجرى المشركين مع كثرتهم ، على حكم القلة ، وخصهم لابقاء عزة الثغور الاسلامية بالذلة .

وقد استمرت الحال الى الآن على الهدنة ، وهم لا يؤمنون اذا احسوا بالمكنة ، فإن الغدر في طباعهم مركوز ، والسوء في غرائزهم مغروز . والعبد آخذ بالحزم ، عائذ بتأييد الله في العزم ، ومتيقظ لخوف غدرهم ، متحفظ من مكر مكرهم ، مستعد بكل امكان ، مستجد كل ما يفتقر اليه من نجدة وقوة بكل مكان ، مستظهر بما تأكد له من مظاهرة المواقف المقدسة في اموره ، مستبشر وجه وجاهته منها بسفوره ، ظاهر بقوته من أيدها واياديها قوى بظهوره ، مدل بما له من الموات الاكيدة والسوابق الحميدة والشوافع المقبولة والذرائع الموصولة ، موقن ان الرعاية تدركه وان العناية تملكه ، وان اختصاصه بفضيلة المائة القديمة يجد له فضل الاختصاص ، وان فاتحة الحمد منه والاخلاص تفتح له باب الإحماد والاستخلاص .

ولما قصر رجاءه على طوله بذلك الطول ، وان يزداد بما يزدان به من الاصطفاء والاصطناع حسن الحلية وقوة النصرة والحول ، عول على القاضي ضياء الدين في المثول بالخدمة الشريفة وانهاء حاله ، والانتهاء الى مناجح آماله ، والسفارة فيما يسفر عن صبح المراشد ونجح المقاصد ، ونصح العقائد وشرح الاحوال في الصادر والوارد ، وان بلاغته وفية بالإبلاغ ، ملية باشباع القول في اعتفاء الطول الملي بالاسباغ . وقد فاوضه فيما فوضه اليه واعتمد في استنجازه واستنجاحه عليه . لا زالت ايادي الدار العزيزة دارة عزيزة ، سارة اوليائها ، وباحياء موات مواتها جديرة ، ان شاء الله تعالى[1] .

الفتح القسي للعماد الاصفهاني ، ص ٦٥١ — ٦٥٥ .

(١) ذكر ابو شامة في كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ٢٢٥ وابن واصل في مفرج الكروب جـ٣ ، ص٥ ـ ٦ نصاً مشابهاً للنص أعلاه ، ولكن النص المذكور أعلاه أكمل وأوسع بكثير مما ذكراه .

٢٢٤ ـ رسالة ثانية من الافضل الى الخليفة العباسي الناصر لدين الله من انشاء العماد الاصفهاني :

اصدر العبد هذه الخدمة ومطالع عبوديته مشرقة الانوار ، ومشارع موالاته صافية عن الاكدار ، ويد ابتهاله بالضراعة مبسوطة ، وهمة اتصاله بالطاعة منوطة ، وعين استكانته لمهابة تلك الجلالة مطرقة ، وقدم مناصحته من صحته في نهج النجح متطرقة ، وبصيرة هدايته على الثبات قوية ، وسريرة ولايته من ورد الميراث روية ، وزناد رويته بسناء المخالصة والمصافاة ورية .

قد سبقت مطالعة العبد بالحادثة التي فجأت وفجعت ، والنابية التي راعت وصدعت ، من انتقال والده مملوك الدار العزيزة الى جوار رحمة الله ورضوان رضوانه وجنات جنانه وغرفات غفرانه . ولقد اسعده الله لما توفاه على طاعة امير المؤمنين ، وقد عرفت مقاماته مدة حياته في احياء فروض الجهاد وسننه ، والجري في اعلاء منار الدولة القاهرة على جدد الجد وسننه ، ولولا اعتصام العبد بطاعة الدار العزيزة لكادت مطالعه تظلم ومطالبه لا تلتئم ، وعقود مناجحه لا تنتظم ، لكن بركة استمساكه بالعبودية شملت ، ومقاصده بسبب الاعتزاز ونسب الاعتزاء اليها كملت ، والكلمة على الطاعة اتحدت ، والمظافرة من الجماعة تمهدت . وانتظر المملوك ما يصله من الامثلة الشريفة المشرفة ، والاجابة المسعدة المسعفة فطال انتظاره ، وابطأ عليه من ليل امله عن صبح النجاح اسفاره ، فتراجمت به ظنونه وتزاحمت عليه شجونه ، ولا شك ان مهام الديوان العزيز كثيرة ، وان آمال رجاء الرجال بظل فضله مستجيرة ، ولكنه رجاء من عوارف الباب الشريف الذي ليس بمرتج لمرتج ، وأمل من مذاهب مواهبه التي منهج جدتها وحدها غير منهج ، انه اذا ازدحمت الآمال على الديوان وتنافست

في تلقي نفائس الاحسان ، قُدِّم امر العبد ، وعجل نقع اوامه من اوامـره بالورد العد .

مفرج الكروب لابن واصل جـ ٣ ، ص ٦ – ٧ .

٢٢٥ – رسالة من الملك الافضل الى الخليفة الناصر يشرح له ما جرى بعد وفـاة والده من صراع بينه وبين ملوك الجزيرة وكيف تغلب عليهم بمساعدة اخوته وعمه العادل :

لا شك في احاطة العلم الاشرف بحال الذين حالوا عن الاتصاف بالانصاف ، ومردوا ومروا اخلاف الخلاف ، وعـادوا عن خلق التلافي الى الائتلاف ، وبددوا بالانتظام في سلك الغدر شمل الائتلاف ، ونكثوا بعد ايمانهم حتى قيل كفروا بعد ايمانهم وباءوا في بغيهم بغيهم ، وابدوا قوتهم في وهيهم ، وزعموا انهم اذا عزموا نالوا فرصة ، ووجدوا اذا جدوا في العزيمة رخصة ، وجاءوا الى البلاد التي للخدم من انعام امير المؤمنين – صلوات الله عليه – ليتملكوهـا ، واستهلوا سبل الضلالة بعد الهدى فسلكوهـا ، واغتروا باعتزازهم واعتزوا باغترارهم ، واصيبوا ، اذ لم يصيبوا ، ببصائرهم وابصارهم ، ودخلوا في دائرة السوء ، وخرجوا من ديارهم .

واحتج صاحب الموصل واخوه صاحب سنجار وصاحب ماردين وحسدوا وحشدوا ، وما الظن بشر الحاسدين الحاشدين ! ووعدهم الشيطان واحزابـه فصدقوا كذب الواعدين . وكان العم الملك العـادل سيف الدين قد توجه الى تلك البلاد لابقاء امورها على السداد ، واثقاً منهم بالمواثيق ، محتفلا بالوفـاق الحافل بالافـاويق ، وهو في خواصه وذوي استخلاصه لم ينتظم عسكره ولم ينضم اليـه معشره ، ولم يصف لدفـع الشوائب وردع النوائب مـورده ومصدره .

فلما عرف فكرهم ، وعلم في مكرهم مكرهم ، توافت اليه الجموع ، وحنت على قلبه الضلوع ، وحنّتْ الى أصله الفروع ، وتوافد اليه بنو اخيه في الجنود، وتوافوا نجدة ساعدت بالسعود ، وامدّ الأخ الملك الظاهر من حلب بالامداد المتظاهرة والانصار المتناصرة ، وندب الخادم اخاه الظافر وخضراً وانهضه وسار معه عسكره الذي بدمشق عرضه .

وسمع الأخ الملك العزيز خبر القوم ، وانهم من حول ورد الردى على حوم ، فأخرج المضارب وابرزها ، وانفق في العساكر وجهزها ، وذكر عدة النجدة فأنجزها واهتبل فرصة الفريضة وانتهزها ، واقبل على ذخيرة الفضيلة فأحرزها، وتحركت السواكن وثارت الكوامن ، وهاجت الاقطار وماجت البحار ، وشابت الاكدار واصابت الاقدار . واظهر الله قبل الاجتماع معجز آياته في اهل الشمات ، وخص جمعهم بالشتات وحبلهم بالبتات ، وقص من تلك البُثات اجنحة الثبات ، وشغل كلاً منهم بوباله وباله ، وحطه من يفاع اعتلائه الى حضيض اعتلاله . واعادهم على اعقابهم ناكصين ، وبعُقابهم ناكسين ، وفي آرائهم وآرابهم ناقصين ، واظهر الله في كل واحد من اعداء الاعداء آية للعادة خارقة ، وقدرة لإقدار الاولياء للسعادة خالقة ، وقتلهم وما قاتلوا ، وغادر الغادرين عبرة للمعتبرين وعظة للمتفكرين .

وعلم صاحب ماردين انه اخطأ وما اصاب، فأبان عن ندمه واناب، وتعرض للعفو عنه وتضرع ، وتشفع بالامراء في امره وتذرع ، فأبديت له صفحة الصفح ، وعادت له بعد عادية الخسر عادة الربح ، وأجرِيَ على القاعدة المستقرة له في عهد الوالد رحمة الله عليه ، فرضوا بما فرضوه من الطاعة وثابوا اليه .

وكان الأخ الملك الظافر خضر قد وصل الى الفرات حين حكم الله لجموع

اولئــك بالشتات ، فعبر الى سروج يوم السبت ثامن رجب ، وقلب العدو من الفتح الذي وجب وجب وفتحها يوم الأحد ضحوة ، وجاءت هذه المنحة من الله حظوة ، ورحل الملك العـــادل بالعساكر الى الرقة لاسترجاع وديعتهـــا المستحقة .

وهذه بركات استمرار العبيـد على طاعة المواقف المقدسة ، وبيمن الائتمار بأوامرها ، وسفور الوجوه لمواجهة سوافرها . ومـــا السعادة الا لمن شملتــه سعودها ، وما الجد الا لمن وصله جودها ، وما الكرامة الا لمن كرمت عنده بالوفاء عهودها ، وما العصمة الا لمن لزمت في حمده النعماء حدودها .

الفتح القسي لعماد الدين الاصفهاني ، ص٦٤١ — ٦٤٣ .

٢٢٦ — رسالة من الملك الأفضل الى الخليفة الناصر يذكر اتفاق اخيه الملك العزيز عثمان وعمه الملك العـــادل ابي بكر ضده وما فعلاه به من اخراجه من ملكه وغصبه ميراث أبيه :

مولاي ان أبا بكر وصاحبه   عثمان قدأخذا بالسيف ارث علي
فانظر الىحظ هذاالاسم كيف لقى   من الأواخر ما لاقى من الاول

٢٢٧ — جواب الخليفة الناصر على الرسالة السابقة :

وافى كتابك يا ابن يوسف معلناً   بالصدق يخبر ان اصلك طاهر
غصبوا علياً حقــه اذ لم يكن   بعـــد النبي له بيثرب ناصر
فاصبر فإن غداً عليه حسابهم   وأبشر فناصرك الامام الناصر

مفرج الكروب لابن واصل ج ٣ ، ص — ٦٩ .

٢ — علاقة الافضل باخوته وعمه الملك العادل :

٢٢٨ — رسالة من الملك الظاهر غازي صاحب حلب الى اخيه الافضل ملك دمشق حول عمهما الملك العادل :

احس الملك الظاهر ان عمه العادل يحاول الاستيلاء على ميراث اخيه صلاح الدين ، وساءه ان اخاه الاكبر الملك الأفضل يثق بعمه كل الثقة ، فأرسل اليه يحذره منه ويقول :

اخرج عمنا من بيننا فإنه لا يجيء علينا منه خير ، ونحن ندخل لك تحت كل ما تريد . وانا اعرف به منك واقرب اليه ، فإنه عمي مثل ما هو عمك وانا زوج ابنته . ولو علمت انه يريد لنا خيراً لكنت اولى به منك .

٢٢٩ — جواب الملك الافضل على الرسالة السابقة :

انت سيء الظن في كل احد ، اي مصلحة لعمنا في أن يؤذينا . ونحن اذا اجتمعت كلمتنا وسيرنا معه العساكر من عندنا كلنا ، ملك من البلاد اكثر من بلادنا ونربح سوء الذكر .

الكامل في التاريخ لابن الاثير ج ١٢ ، ص ١٢٢ .

٢٣٠ — رسالة الملك العزيز ملك مصر الى عمه الملك العادل :

وقع الخلف بين اولاد صلاح الدين بعد موته ، وانضم الملك العادل الى الملك الافضل ضد الملك العزيز ملك مصر ، وحاصرته عساكرهما حتى اوشك على الانهزام ، فأرسل العزيز الى عمه العادل سراً يقول له :

قد عرفت خطئي أولاً وآخراً ، وما بقي لي والله وجه انظر به اليكم .

واولادي وحريمي امانة عندكم يا عمي . وانا فقد عزمت على ركوب البحر الى المغرب وأخلي لكم البلاد .

٢٣١ – جواب الملك العادل على الرسالة السابقة :

طيب قلبك ولا تفعل شيئاً ، وسير القاضي الفاضل الينا .

تاريخ ابن الفرات جـ ٤ ، ق ٢ ، ص ١٢٥ .

٢٣٢ – رسالة سرية من الملك العزيز الى اخيه الملك الافضل :

وقعت الحرب من جديد بين اولاد صلاح الدين واساء الملك الافضل السيرة في دمشق فتحالف ضده الملك العزيز والملك العادل واتفقا على حربه واخذ دمشق منه واعطائها للعزيز وجعلها مقراً له ، وان يستلم العادل حكم مصر نيابة عن ابن اخيه الملك العزيز . غير ان الملك العزيز ادرك مطامع عمه وندم على الاتفاق معه واراد نقض هذا الاتفاق فأرسل الى اخيه الافضل ، بعد ان انتصرا عليه ، الرسالة التالية بشكل سري وطلب اليه ان لا يذيعها لأي انسان ، ولكن الأفضل اذاعها مما ادى الى غضب الملك العزيز على اخيه الأفضل واخراجه من دمشق الى صرخد .

اذا طالبناك فاثبت على الاقتناع ، ولا تبذل الرضى لنا الا باقامة الخطبة والسكة ولا تنزل عن رتبتك ، فإني اقصد لك الرضا وافعل ما تريد ، ويكون امتناعك عذراً عند عمي .

مفرج الكروب لابن واصل جـ ٣ ، ص ٦٦ .

٢٣٣ – رسالة الظاهر الى الافضل من اجل دمشق :

نشبت الحرب بين العادل من جهة وبين الظاهر والافضل من جهة ثانية .

وكان العادل قد تمكن سابقاً من احتلال كل من مصر ودمشق . وقد تغلب الاخوان على العادل وحاصراه في دمشق ، حتى اوشكت على السقوط في ايديهما . وكان الاخوان اتفقا على ان يأخذ الافضل دمشق ، ومتى فتحت مصر يأخذ الأفضل مصر ويعطي دمشق للظاهر . ولكن الظاهر شرهت نفسه الى دمشق وطالب بها فوراً وارسل الى اخيه يقول :

اذا فتحت دمشق تسلمتها انا وسيرت العساكر معك الى الديار المصرية ليفتحوها لك .

٢٣٤ – جواب الافضل على الرسالة السابقة الى الملك الظاهر :

قد علمت ان والدتي واهلي ، وهم اهلك أيضاً ، على الأرض . وليس لهم موضع يأوون اليه . فاحتسب هذا البلد لك تعيرني اياه اياماً ليسكنه اهلي هذه المدة الى ان نملك مصر .

ولكن الملك الظاهر رفض ذلك ولجّ في طلبه. كما ان العادل استعمل الدهاء وتمكن من الايقاع بين الاخوين ، وارسل الى كل منهما الرسالة التالية مما كان السبب في خذلان الحصار ونجاته منهما . ان اخاك لا يريد البلد الا لنفسه ، وان العسكر متفقون معه في الباطن على ذلك[١] .

تاريخ ابن الفرات جـ ٤ ، ق ٢ ، ص ٢٠٤ .

٢٣٥ – رسالة الملك العادل الى الملك المنصور صاحب حماة حول الملك الافضل :

---

(١) وردت نصوص هذه الرسائل في كل من الكامل لابن الأثير جـ١٢، ص ١٦٣ وابن واصل مفرج الكروب جـ ٣ ، ص ١٢٥ – ١٢٦ ، ولكن نصنا أكمل .

هُزم الأفضل واعطي جزءاً صغيراً من الاملاك في بلاد الشام ليعيش فيها ، ولكنه ما لبث ان بدأ يخامر ويسعى لاسترداد املاكه من عمه العادل مما ادى بالعادل الى ان يحرمه من جميع ما ابقاه له، ولم يبق له الا حكم بليدة صغيرة هي سميساط . وقد ارسل الملك المنصور ملك حماة رسالة مع قاضي حمص زين الدين يتشفع لدى عمه العادل في الملك الافضل واعادته الى ما كان عليه ، فأرسل العادل الى المنصور ما يلي :

وكان ورود الكتاب الكريم على يد القاضي فلان وعرف ما ذكره من امر المجلس العالي الملكي الافضلي – ابقاهُ الله – وما ابداه بسببه ، وسمع خادمه الرسالة ووعاها واصغى الى اشارتها ومعناها . وقد اعاد القاضي زين الدين المذكور بعد ان شافهه بما يعيده على المجلس من الاحوال ويورده لديه من الاقوال. والمجلس يجري على عادته الجميلة في الاصغاء اليه والاعتماد عليه .

٢٣٦ – مضمون الرسالة الشفهية التي حملها القاضي زين الدين من العادل الى المنصور حول الملك الافضل :

ان الأفضل ظهرت منه افعال وبدرت منه اقوال لا يجب اهمالها ، فأوجب ذلك تغيرنا عليه[١] .

تاريخ ابن الفرات جـ ٤ ، ق ٢ ، ص ٢٥٨ .

٣ – شؤون ادارية :

٢٣٧ – عهد الملك الأفضل بتقليد قضاء مصر الى زين الدين بن بندار من انشاء ضياء الدين ابن الاثير :

---

(١) أورد ابن واصل في مفرج الكروب جـ ٣ ، ص ١٥١ نص الرسالة التحريرية رقم ٢٣٥ فقط دون رقم ٢٣٦ .

رب اوزعني ان اشكر نعمتك التي انعمت عليّ وعلى والديّ ، وان اعمل صالحاً ترضاه وادخلني برحمتك في عبادك الصالحين[1] .

من السنة ان تفتتح صدور التقليدات بدعاء يعم فضله ، ويكون وزاناً للنعمة الشاملة من قبله . وخير الأدعية ما اجراه الله على لسان نبي من انبيائه او رسول من رسله . وكذلك جعلنا من هذا التقليد الذي امضى الله قلمنا في كتابه ، وصرف امرنا في اختيار اربابه ، ثم صلينا على رسوله محمد الصادع بخطابه ، الساطع بشهابه ، الذي جعلت الملائكة من احزابه ، وضرب له المثل بقاب قوسين في اقترابه ، وعلى آله وصحبه ، الذين منهم من خلفه في محرابه ، ومنهم من كملت به عدة الاربعين من اصحابه ، ومنهم من جعل اثواب الحياء من اثوابه ، ومنهم من بشر انه من احباب الله واحبائه ، وبعد : فإن منصب القضاء في المناصب بمنزلة المصباح الذي به يستضاء ، او بمنزلة العين التي عليها تعتمد الاعضاء ، وهو خير ما رقمت به الدول مسطور كتابها ، واجزلت به مذخور ثوابها ، وجعلته بعد الاعقاب كلمة باقية في اعقابها . وقد جعله الله ثاني النبوة حكماً ووارثها علماً ، والقائم بتنفيذ شرعها ما دام الاسلام يسمى ، لا يستصلح له الا الواحد الذي يعد محفلاً في محفله . واذا جاءت الدنيا بأسرها خفت على انمله . وقد اجلنا النظر مجتهدين ، وعولنا على توفيق الله تعالى معتضدين ، وقدمنا قبل ذلك صلاة الاستخارة ، وهي سنة متبوعة ، وبركة في الاعمال موضوعة ، لا جرم انا ارشدنا في إثرها الى من صرح الرشد فيه بآثاره . وقال الناس : هذا هو الذي جاء على فترة من وجود انتظاره ، وهو انت ايها القاضي ، فلان ، مهد الله لجنبك وجعل التوفيق من صحبك ، وانزل الحكمة على يدك ولسانك وقلبك. وقد قلدناك هذا المنصب بمدينة مصر واعمالها ، وهي

---

(١) سورة النمل : الآية ١٩ .

مصر من الامصار تجمع وجوهاً واعياناً ، وقد رسم بأنه كرسي مملكته عـزاً وتبياناً ، وعظمت سلطاناً ، ولما قلدناك هو علمنا انه سيعود ، وهو بك غصن طري ، وان ولايته نيطت منك بكفء ، فهي بك حرية وانت بهـا حري . فمن طلبها من الناس فإنها لم تكن عندك مطلوبة ، ومن انتسب في وجـاهته اليها فليست وجاهتك اليها منسوبة ، وما اردت بها شيئاً سوى تحمل الاثقال وبيع الراحة بالتعب في الاشغـال ، وتعريض النفس لمضاضة الضيم والحيف ، والوقوف على الصراط الذي هو ادق من الشعرة وأحدّ من السيف . ولكنك في خلال ذلك تشتري الجنة بساعة من ساعاتك ، واذا رعيت مقام ربك فقد ارصدته لمراعاتك ، وليس في الاعمال الصالحة اقوم من احيـــاء حق وضع في لحده ، او رد حق مطلت الايام برده .

فاستخر الله تعالى وتولّ ما وليناك بعزيمة لأنك بها شامة ، ولا تأخذها في الله ملامة . وهذا زمـــان قد تلاشت فيه العلوم وعفت رسومها الشريفة حتى صارت كالرسوم ، ومشت الامة المطيطي[1] ، وخلفها ابنـا فارس والروم ، واذا نظر الى دين الله وجد وقد خلط امره خلطاً ، وتخطى رقاب الناس من هو جدير بأن يتخطى،وآذنت الساعة بالاقتراب حتى ان يستوي ما بين السبابة والوسطى ، والمتصدي لحفظه يعد ثقله بثقلين ، وفضله بفضلين ، ويؤتيه الله من رحمته كفلين ، وحق له ان يتقدم على السلف الصالح الذي كان كثيراً رشده ، حسناً هديه وقصده ، وكان قريباً من رسول الله ﷺ ، فإن أولئك لم يؤتوا من جهالة ، ولا حرموا من مقالة، ولا حدث في زمانهم بدعة ، وكل بدعة ضلالة. ونحن نرجوا ان تكون ذلك الرجل الذي وزن بالنـاس فرجح وزنه ، وسبق

---

(١) مشية التبختر والتيه .

القرون الاولى وان تأخر قرنه . ولقد ألبسنا الله بك لبـــاساً يبقى جديداً ، ويسَّرنا للعمل الذي يكون محضراً ، لا للعمل الذي نود لو أن بيننا وبينه امداً بعيداً . واياك ثم اياك ان تقف معنـا موقف الاعتذار ، ومـا نخشى عليك الا الشيطان الناقل للطباع في تقاليب الاطوار . ولطالما اقام عابراً من مصلاه ، وغره باستمساك حبله ودلاه . ولمكانتك عندنا أضربنا عن وصيتك صفحاً ، وتوسمنا ان صدرك قد شرحه الله فلم نزده شرحاً . والذي تضمنه تقليد غيرك من الوصايا لم يسفر الا عن نقاب خطأ الاقلام ، وقصر اقوالهـا عن المماثلة من مراتب اولي التعليم وبين العلماء الاعلام . ولا تفتقر الى ذلك الا من ثقل منصب القضاء على كاهله ، وقضى بتحريه عليه ، وفرق بين عالم امرٍ وجاهله .

واما انت فإن علم القضاء بعض مناقبك، وهو من اوانسك لا من غرائبك. لكن عندنا اربع من الوصايا لا بد من الوقوف فيها على سنن التوقيف وابرازها الى الاسماع في لبـــاس التحذير والتخويف . فالاولى منهن ، وهي المهم الذي زاغت عنه الابصار ، وهلك من هلك فيه من الابرار ، ولربما سمعت هذا القول فظننته مما تجوز في مثله القائلون ، وليس كذلك ، بل هو نبـــأ عظيم ، انتم [عنه] غافلون . وسنقصه عليك كما فوضناه اليك . وذلك هو التسوية في الحكم بين اقوالك وافعالك ، والاخذ من صديقك لعدوك ، ومن يمينك لشمالك ، وقد علمت انه لم تخـل دولة من الدول من قوم يعرفون بطيش الحلوم ، ويغترون بقرب السلطان وهو ظل عليهم لا يدوم . واذا دعوا لمجلس الحكم حملهم البطر والاشر على الامتناع من مساواة الخصوم ، ولا يفرق بين هؤلاء وبين ضعيف لا يرفع يداً ولا طرفـاً ، ولا يملك عدلاً ولا صرفاً . ونحن نبرأ من مخـــالفة الدرجات في حكم العزيز الحكيم . ولعن الله اليهود الذين نسخوا آية الرحيم بمـا احدثوه من التجبية والتحميم . وقد بسطنا يدك بسطاً ليس له انقبـاض ، ولا

عليه اعتراض . وانت القاضي الذي لا يكون اسمك منقوصاً فيقـال فيه انك قاضٍ ، واذا استقللت بهذه الوصية فانظر فيما يليهـا من امر الوكلاء القائمين بمجلس الحكم الذين لا َترَ واحـداً منهم الا خلياً لوياً ، أو خادماً خلوياً . واذا اعتبرت احوالهـم ُوجدوا عذاباً على النـاس مصبوباً ، ولا يتم لهم الا في ستر القضايا ونعيمها ، ولا ينحون في شيء منها الا في نحو امالتها وترخيمها ، فأرح الناس من هذه الطائفة المعروفة بنصب الحبالة التي تأكل الرشاء وتخرجهـا في مخرج الجعالة ، وطهر منهـا مجلسك الذي ليس بمجلس ظلم وزور ، وانما هو مجلس عدل وعدالة . ومن العدل ان يخلى بين الخصوم حتى يكافح بعضهم بعضاً، والمهل في مثل هذا المقام لرعي الرعاية لما يقضى ، وان كان احدهم ألحن بحجته فكله الى عالم الاسرار ، واذا حكمت له بشيء من حق اخيه فلا تبالِ ان تقطع له قطعة من النار .

وكذلك انظر في الوصية المختصة بالشهداء ، فإنهـم قد تكاثرت اعدادهم واهمل انتقـادهم ، وصار منصب الشهادة ُيسأله ، وسؤاله من الحـرام لا من الحلال ، وأصبح، وهو يورث عن الآباء والأولاد، والوراثة تكون في الاموال. والشاهد دليل يمشي القضاء على منهاجه ويستقيم باستقامته ويعوج باعوجاجه . فانفِ كل من شانتك منه سائنة ، او رابتك منه رائبة ، وعليك منهـم بمن تخلق بخلق الحياء والورع ، واخذ بالقول الذي : على مثلها فاشهد أو فدع .

وأما الوصية الرابعة فإنهـا مقصورة على كاتب الحكم الذي اليه الايراد والاصدار ، وهو المهيمن على النقض والامـرار ، وينبغي ان يكون عارفـاً بالحلي والوسوم والحدود والرسوم ، وان يكون فقيهاً في البيوع والمعاملات ، والدعاوى والبينات . ومن اولى صفاته ان يكون قلمه سائحاً وخطه واضحاً ، واذا استكمل ذلك فلا يستصلح حتى يكون العفاف شعاره ، والامانة عياره ،

والحفظ والعلم سوره وسواره . وهذا الرجل ، ان خلوت به ، فامض يده فيما يقول ويفعل ، واستنم اليه استنامة الواثق الذي لا يخجل ، والله يختار لنا ذلك فيما بينـــاه من المراشد ، ويجعل اقوالنـــا ثماراً يانعة اذا كانت الاقوال من الحصائد .

وبعد أن بوأناك هذه المكانة وحملناك هذه الامانة ، فقد رأينا ان نجمع لك من تنفيذ الاحكام وضبط اصولها ، والا نخليك من النظر في دليلها ومدلولهـا ، فإن الترك يوحن العلوم من معهود اماكنها، ويذهب بها من تحت اقفال خزائنها. ومنصب التدريس كمنصب القضاء اخ يشد من عضده ويكثر من عدده ، فتول المدرسة الفلانية عالمـاً انك قد جمعت بين سيفين في قـراب وسلكت بابين الى تحصيل الثواب ، وركبت اعـــز مكان ، وهو تنفيذ الحكم ، وجالست خير جليس وهو الكتاب .

ونحن نوصيك بطلبة العلم وصيتين ؛ احداهما اعظم من الأخرى ، وكلتاهما ينبغي ان تصرف اليها من اهتمامك شطراً . فالأولى : ان تتخولهم[1] في اوقات الاشتغال ، وتكون لهم كالرائض الذي لا يبسط لهم بساط الراحة ولا يكلفهم مشقة الكلال . والثانية : ان تدر عليهم ارزاقهم ادرار المسامح ، وتنزلهم فيها على قدر الافهـــام والقرائح ، وعند ذلك لا تعدم منهم منبعـاً في كل حين ، ويسرك في حالتيه من دنيا ودين . والله يتولاك فيما تنويه صالحة ؛ ويوفقك للعمل بها لا لأن يكون في قلبك سانحة . وقد فرضنا لك في بيت المـــال قسماً طيباً مكسبه ، هنيئاً مأكله ومشربه ، لا تُعاقَبُ غداً على كثيره ، وان حوسبت على فتيله ونقيره . والمفروض في هذا المال ينبغي ان يكون على قدر الكفاف

---

(١) تخول : تعهد ورعى .

لا على نسبة الاقدار ، ورب متخوض فيما شان نفسه من مال الله ومال رسوله ليس له في الآخرة الا النار . والدنيا حلوة خضرة تلعب بذوي الألباب ، وعلاقاتها بتجدد الايام فلا تنتهي الآراب منها الا الى آراب . ومن أراد الله به خيراً لم يسلك اليها ، وان سلك كان كمن استظل بظل شجرة ثم راح وتركها . ونحن نخلص الضراعة والمسألة في السلامة من تبعاتها ، وان نوفق لرعي ولاية العدل والاحسان اذ جعلنا من رعاتها .

وهذا التقليد يجب ان يقرأ في المسجد الجامع بعد ان يجمع له الناس على اختلاف المراتب، ما بين الاباعد والاقارب، والعراقيب والذوائب ، والاشائب وغير الأشائب . ولتكن قراءته بلسان الخطيب وعلى منبره ، وليقل : هذا يوم رسم بجميل صيته واعتضاض محضره ، ثم بعد ذلك فأنت مأخوذ بتصفح مطلوبه على الايام ، وايثاقه في قلبك بالعلم الذي لا يمحى سطره اذا محيت سطور الاقلام .

واعلم أنّا غداً واياك بين يدي الحكم العدل الذي تكفُّ لديه الألسنة عن خطابها ، وتستنطق الجوارح بالشهادة على اربابها ، ولا ينجو منه حينئذٍ الا من اتى الله بقلب سليم ، واشفق من قول نبيه : لا تأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم .

والله يأخذ بناصية كل منا اليه ، ويخرجه من هذه الدنيا كفافاً لا له ولا عليه ، والسلام .

حسن المحاضرة للسيوطي ج ٢ ، ص ١٥٤ — ١٥٩ .

ب — الملك الظاهر ٥٨٩ — ٦١٣ هـ/١١٩٣ — ١٢١٦ م :

٢٣٨ — رسالة الى الملك الظاهر من القاضي الفاضل يخبره بوفاة والده صلاح الدين ويعزيه به :

لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ، ان زلزلة الساعة شيء عظيم .

كتبت الى مولانا السلطان الملك الظاهر ، أحسن الله عزاه ، وجبر مصابه وجعل فيه الخلف في الساعة المذكورة وقد زلزل المسلمون زلزالاً شديداً ، وقد حفرت الدموع المحاجر وبلغت القلوب الحناجر . وقد ودعت اباك ومخدومي وداعاً لا تِلاقي بعده ، وقد قبلت وجهه عني وعنك ، واسلمته الى الله تعالى مغلوب الحيلة ضعيف القوة راضياً عن الله تعالى ، ولا حول ولا قوة الا بالله . وبالباب من الجنود المجندة والأسلحة المعمدة ما لا يدفع البلاء ولا يملك رد القضاء ، ويدمع العين ويخشع القلب ، ولا نقول الا ما يرضي الرب ، وانا عليك يا يوسف لمحزونون . واما الوصايا فما يحتاج اليها ، والآراء فقد شغلني المصاب عنها . واما لايح الأمر ، فإنه ان وقع اتفاق فما عدمتم الا شخصه الكريم . وان كان غيره فالمصائب المستقبلة اهونها موته وهو الهول العظيم ، والسلام[1] .

مرآة الجنان لليافعي جـ ٣ ، ص ٤٦٢ .

٢٣٩ – رسالة ثانية الى الملك الظاهر من القاضي الفاضل :

ارسل الملك الظاهر رسالة الى القاضي الفاضل في شأن من الشؤون ، وذلك بعد وفاة والده ، فأجابه القاضي الفاضل بما يلي :

متى رأى المملوك خط مولانا طالعاً في كتاب وطليعة على خطاب تمثل ذلك الشخص الكريم وذلك السلطان العظيم وذلك الخلق الكريم وذلك العهد القديم ،

---

(١) ورد نص مطابق لنصنا أعلاه في كل من وفيات الاعيان لابن خلكان جـ ٦ ، ص ٢٠٤ والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي جـ ٦ ، ص ٥٣ .

فحي بعد موته وسبح من يحيي العظام وهي رميم ، ورفع يده بمـــا الله رافعه ودعا بصالح الله سامعه .

كتاب الروضتين لأبي شامة جـ ٢ ، ص ٢٢٦ .

٢٤٠ – رسالة الملك الظاهر الى ابن عمه الملك المنصور صاحب حماة يطلب منه الانضمام اليه في حربه للعادل :

استاء فارس الدين من العـــادل فكاتب الجميع والتف معهم حول الملك الأفضل وحرضوه على أخذ مصر من العادل ، وارسل الملك الظـاهر صاحب حلب الى ابن عمه الملك المنصور صاحب حماة يحرضه ويعده ويمنيه ويطلب منه النجدة ويقول :

انك تعلم محبتي لك وشفقتي عليك واعتمادي عليك ، وتعلم سوء باطن الملك العادل لنا ، وان مقصوده ان تكون البلاد كلها له . ولو قدر علينا ما أبقى منا أحداً . وقد علمت ما فعله بأولاد اخيه السلطان الملك الناصر ، مع انه هو الذي ملكه واظهره الى الوجود بعدما كان لا يؤبه له .

وكيف تثق وقد اخذ منك منبج وقلعة نجم واعطاهما لابن المقدم واختاره عليك ؟ وانت متى وافقتني عليه رددت عليك منبج وقلعة نجم ، مضافــة الى كفرطاب وافامية والبارة ومفردات المعرة ، واحلف لك على هذا كله[1] .

ولكن المنصور اعتذر له .

مفرج الكروب لابن واصل جـ ٢ ، ص ١٢١ .

---

(١) ذكر ابن الفرات في تاريخه جـ ٤ ، ق ٣ ، ص ١٩٩ نصاً مطابقاً للنص الذي ذكره ابن واصل .

٢٤١ – رسالة من ابن لاون ملك الأرمن للملك الظاهر سنة ٦١٣ ﻫ :

طلب صاحب بلاد الروم السلجوقي الملك الغالب عز الدين كيكاوس من الملك الظاهر التحالف معه ضد ابن لاون ملك الأرمن ، ومال الملك الظاهر الى ذلك . وبلغ ذلك ابن لاون فخاف من عاقبة ذلك ، وارسل الى الملك الظاهر يذكر اخلاصه في خدمته وولاءه له ويقول :

انني مملوك السلطان وغرس نعمته ، وقد دخلت عليه دخول العرب ، واطلب منه انقاذي من هذه الورطة وأكون مملوكه ما عشت . وقد حفظت بلاد السلطان غير مرة وخدمته ، منها : ان السلطان لما حاصر دمشق المرة الاولى وبقيت البلاد شاغرة من العساكر ما شغلت قلبه ، ولا آذيت بلده ، بل ساعدته وعاونته بمالي ورجالي . وكذلك لما حاصر دمشق المرة الثانية وقد بذلت لي الأموال لأشغل قلبه ويفتر عن الحصار فلم افعل . وان كان البرنس قد خدم السلطان فخدمتي اكثر من خدمته ، وسوف يبصر السلطان خدمتي وملازمتي بابه الشريف . وقد اوصيت ابن اخي الذي نصبته بانطاكية بملازمته وخدمته[١] .

تاريخ ابن الفرات ج ٥ ، ص ١٩٢ .

٢٤٢ – وصية الملك الظاهر عند موته :

ان الملك يكون بعد الملك الظاهر لولده الملك العزيز محمد ، وبعده للملك الصالح صلاح الدين احمد بن الملك الظاهر ، وبعدهما لابن عمهما الملك المنصور محمد ابن الملك العزيز عثمان .

---

(١) ذكر ابن واصل في مفرج الكروب ج ٣ ، ص ٢٣٥ نصاً مطابقاً للنص الذي ذكره ابن الفرات .

وان الأمير شهاب الدين طُغْرِيل الخادم يكون مرتباً بالقلعة ، والأمير سيف الدين علي بن علم الدين سليمان بن حيدر يكون اتابك العسكر .

وحلف الأمراء على ذلك .

مفرج الكروب لابن واصل ج ٣ ، ص ٢٣٨ .

الملك العادل اخو صلاح الدين ٥٩٦ – ٦١٥ ه/١١٩٩ – ١٢١٨ م

٢٤٣ – رسالة للسلطان الملك العادل من القاضي الفاضل يخبره بوفاة الملك العزيز ملك مصر سنة ٥٩٥ ه ويعزيه بوفاته :

ادام الله سلطان مولانا الملك العادل ، وبارك في عمره واعلى امره بأمره ، وأعز نصر الاسلام بنصره ، وفدته الأنفس الكريمة ، واصغر الله العظائم بنعمته فيه العظيمة ، واحياه الله حياة طيبة يقف هو فيها والاسلام في مواقف الفتوح الجسيمة ، وينقلب عنها بالأمور المسلمة والعواقب السليمة ، ولا نقص له رجالاً ولا عدداً ، ولا اعدمه نفساً ولا ولداً ، ولا قصر له ذيلاً ولا يداً ، ولا أسخن له قلباً ولا كبداً ، ولا كدر له خاطراً ولا مورداً .

ولما قدر الله ما قدر في الملك العزيز – رحمة الله عليه وتحياته مكررة اليه – من انقضاء مهله وحضور أجله ، كانت بديهة المصاب عظيمة ، وطالعة المكروه أليمة . فرحم الله ذلك الوجه ونضره ، ثم السبيل الى الجنة يسّره .

واذا محاسن أوجه بليت فعفا الثرى عن وجهه الحسن

فاعزز على المملوك وعلى الأولياء ، بل على قلب مولانا – لا سلبه الله ثوب العز – بسرعة مصرعه وانقلابه الى مضجعه ، ولباسه ثوب البلى قبل ان يبلى

ثوب الشباب وزفه الى التراب ، وسريره محفوف باللدات والاتراب . وكانت مدة المرض بعد العود من الفيوم اسبوعين ، وكانت في الساعة السابعة من ليلة الأحد العشرين من المحرم . والمملوك في حال تسطيرها مجموع له بين مرض قلب وجسد ، ووجع اطراف وغليل كبد . وقد فجع بهذا المولى ، والعهد بوالده – رحمه الله – غير بعيد ، والأسى في كل يوم عليه جديد[1] .

كتاب الروضتين لأبي شامة جـ ٢ ، ص ٢٣٤ .

٢٤٤ – رسالة فارس الدين ميمون القصري صاحب نابلس الى السلطان الملك العادل لما خلع الملكُ العادلُ الملكَ المنصورَ بن الملك العزيز وجعل نفسه سلطاناً على مصر مكانه سنة ٥٩٦ هـ :

توفي الملك العزيز بن صلاح الدين ملك مصر وخلف طفلاً صغيراً لقب بالملك المنصور وأصبح الملك العادل اتابكه ووصياً عليه ، ولكن العادل تمكن بعد حدود سنة ان يعزل الملك المنصور عن السلطنة وان ينصب نفسه سلطاناً على مصر ، فاستاء الأسدية [انصار اسد الدين شيركوه] من ذلك ، وتزعمهم فارس الدين ميمون القصري صاحب نابلس ، وارسل الى العادل رسالة يقول فيها :

انما دخلنا في طاعتك ووافقناك مراعاة للملك العزيز ابن استاذنا خوفاً أن يتطرق الى ملكه ضرر . والواجب انك تعيده الى ملكه ، والا حصل الفساد في قلوب الجند ودخل الوهن على الدولة .

---

(١) ورد نص هذه الرسالة ، مع بعض الاختلافات ، في كل من وفيات الأعيان لابن خلكان جـ ٢ ، ص ٤١٦ – ٤١٧ والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي جـ ٦ ، ص ١٢٨ وفي تاريخ ابن الفرات جـ ٤ ، ق ٢ ، ص ١٤٨ – ١٤٩ .

٢٤٥ – رسالة ثانية من فارس الدين ميمون القصري الى السلطـان الملك العادل ، الذي استاء من فارس الدين لرسالته السابقة فأجابه جواباً عنيفاً قاسياً غليظاً ، فأرسل اليه يقول :

انك ان استمريت على القاعدة التي اتفقنا عليها ، فنحن على طاعتك ، وان لم تفعل فاعطنـــا دستوراً لنذهب حيث شئنــا ، ويقوم عند الله عذرنا وعند الناس .

٢٤٦ – رسالة جوابية من الملك العادل الى فارس الدين ميمون القصري عن الرسالة السابقة :

اني لم ادخل في هذا الامر حتى علمت مـا يلزم من الضرر على الدولة ان لم ادخل فيه . والجماعة راضون بي . فإذا كرهت مجاورتي، فصر الى ارزن الروم وتزوج بصاحبتها ماما خاتون ، فإنها طلبت مني رجلاً كبيراً تتزوج به ويقوم بتدبير ملكها .

٢٤٧ – رسالة جوابية من الفئة الصلاحية الى فارس الدين ميمون القصري الذي استاء من تصرف العـــادل فكاتب الصلاحية ليقوموا معه ضد العــادل فأجابوه بما يلي :

انا قد افتضحنا بين الناس بأنا نقيم كل يوم ملكاً ونعزل ملكاً . ثم الى من نسلم الأمر ؟ الملك الأفضل ما فيه رجاء . وباقي اخوانه غير الظاهر ليست لهم في النفس عظمة . والظاهر فما يمكنه ان يخلي بلاده ويصير الينا[1] .

تاريخ ابن الفرات جـ ٤ ، ق ٢ ، ص ١٩٤ – ١٩٥ .

---

(١) يورد ابن واصل في مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ١١٧ – ١١٨ نصوص هذه الرسائل، ما عدا الأخيرة ، بشكل أكثر اختصاراً .

٢٤٨ – رسالة للسلطان الملك العادل من القاضي الفاضل :

ادام الله ذلك الاسم تاجاً على مفارق المنابر والطروس ، وحياة للدنيا ومـا فيهـا من الاجساد والنفوس . وعرف المملوك ما عرفه من الأمـر الذي اقتضته المشاهدة وحرست به العاقبة في بيروت ، ولا مزيد على تشبيه الحال بقوله :

ألم تر ان الملك تدوي يمينه فيقطعها عمـداً ليسلم سائره

ولو كان فيهـا تدبير لكان مولانا قد سبق اليه ، ومن قلم من الاصبع ظفراً فقد جلب الى الجسد بقلعه نفعاً ودفع عنه ضراً :

وتجشم المكروه ليس بضائر مـا خلته سبباً الى المحمود

وآخر كل شقوة اول كل غزوة ، فلا يسأم مولانا نية الرباط وفعلها وتجشم الكلف وحملها ، فهو اذا صرف وجهه الى وجه واحد وهو وجه الله صرف الله اليه الوجوه كلهـا . والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنـا ، وان الله لمع المحسنين[1] .

٢٤٩ – مقتطفات من رسالة اخرى وجههـا الى الملك العـادل القاضي الفاضل :

هذه الأوقات التي انتم فيها عرائس الاعمار . وهذه النفقات التي تجري على ايديكم مهور الحور في دار القرار ، وما اسعد من اودع يد الله مـا في يديه ، فتلك نعم الله عليه وتوفيقه الذي كل من طلبه وصل اليه . وسواد العجـاج في هذه المواقف بياض ما سودته الذنوب من الصحائف ، فما اسعد تلك الوقعات ، وما اعود بالطمأنينة تلك الرجفات .

كتاب الروضتين لأبي شامة جـ ٢ ، ص ٢٣٣ .

---

(١) سورة العنكبوت : الآية ٦٩ .

٢٥٠ — رسالة الى الملك العادل من نائبه جواباً على رسالة كان العادل ارسلها له يخبره فيها بفتحه مدينة خلاط .

أدام الله سلطان مولانا الملك العادل ، وزاده من فضله ، ومد على خلقه وارف ظله ، واظهر به دينه على الدين كله ، واوضح الى مرضاته ما يسلكه من سبله ، ولا عدمت يـد الاسلام والمسلمين التعلق بوثيق حبله . وفرج به الخطط المطبقة وفتح به البلاد المستغلقة ، واخضع لطاعته الاعناق ، وعم بفتوحه الآفاق ، ودمر الكفر بعقـامه ، وطوى ايامهم بما ينشره ويديمه من ايامه ، وانزل النصر في مواقف النزال بما ترفعه راياته من اعلامه .

وقف المملوك على ما أنعم به مولانا من كتاب البشارة التي وصلت الى كل قلب وسمع ، وأمَّلَ بها كل مسلم كل خير ونفع ، وعلم ما وراءها من جمع شمل كان عزيز الجمع ، وعلم ما يتبعها من عواطف مولانا التي عودها منه اكرم طبع ، وتحقق ان الله سبحانه قد قلد الدين منه سيفاً خلقه للوصل ، وخلق السيوف للقطع .

وبالجملة ان الله سبحانه نظر الى هذه الملة بنظر مولانا لها ، وكفالته لأهلها، وسياستهم بشرف السجية وعدلها ، وان كل ما اختلس الملك الناصر ، رحمه الله ، فإن الله يتمه على يديه ، ويجير به ، تارة بصفحه وتارة بحدبه ، ويهب له عمراً نوحياً الى ان لا يذر على الأرض من الكافرين دياراً ، والى ان يورث الاسلام بسيفه منهم ارضاً ومالاً ودياراً . وهذه مخايل لا يخلف الله بارقتها ، بل يرد الى جهة الكفر صاعقتها ، فما يحسب المملوك ان جانباً يتلوى على طاعة مولانا ولا ينحرف ، ولا ان كلمة عليه بعد اليوم تختلف ، ولا ان ممتنعاً بالأمس يكون معه اليوم الا ان يرضى عنه مولانا وعليه ينعطف .

وعلى هذا فالشام الفرنجي متأخذ بجناح الى الأخذ ، وبقية عمر المؤمن ، كما

قال ﷺ ، لا ثمن لها . والفرص تمر مر السحاب ، والمستعاذ بالله من حسرات الفوت بعد الإمكان . ولينصرن الله من ينصره[1] . ومـا يشخص لخطاب الله تعالى بالجهـــاد الا مولانا : النية خالصة ، والبصيرة ثاقبة والعزيـمة ماضية ، والشجاعة منحة من الله له موهوبة ، والسماحة خليقة من خلائقه الكريمـــة موجودة . والرجال تطأ عقبيه ، والملوك تطيع امره ، والشجعان تبذل انفسهم بين يديه . والعدو يعرف منه خصماً طالمـــا خاطبه بلسان السيف منه اليه . وليس كل من قدر عليه اراده ، وعكا اقرب من خلاط وانفع للمسلمين فتحـاً واعظم في الكفار قدحاً؛ فوالله لئن انغلق باب الشام في وجه الكفر ، لتنقطعن آمال اهل البحر والبر ، وما دام في الشام بقية من الكفر فهو يقبل الزيادة ، وينتظر النجدة ويؤمل الاستعادة . وما كرر المملوك هذا الحديث جهلاً بمـــا يجب في خدمة الملوك من الادب في ان لا يتكلم في القضية الا من استشير فيها ، ولا يجترىء على الكلام الا اذا كان مجيباً بما يؤمر بالاجابة عنه ؛ ولكن المملوك غلب على الصحبة ، وانقطع عن الخدمة ، وعلم انه لو كان حاضراً لكان مولانا يبسطه ولا يقبضه ، ويستشف ما عنده ويستعرضه ، ويشفع قلبه في لسانه اذا هفا ، ويحمله على ضعفاء ضميره فيما يقوله فلا يقابل بالتكدير من صفا . فقد علم الله ان المملوك يتمنى للمسلمين ان يرد عليهم حقهم ، وترجع اليهم بلادهم ، وان تكون هذه الامنية جارية على يد مولانـــا ومستفادة من عزيمته ومكتوبة في صحيفته ، ومغتنمة فيما يمده الله في حياته ، فإن الامور فيما بعد ملموحة ولكن ابواب قدرة الله مفتوحة ، فالله يجعل منها ان يفتح على مولانا فيه بلاد الساحل ، وان يأخذ للاسلام به أهبـة المقيم ، وللمقيم أهبة الراحل ، ومـا يخلط المملوك هذا المهم بغيره . طالع به ولمولانا علو الرأي .

صبح الأعشى للقلقشندي جـ ٧ ، ص ٨٨ — ٨٩ .

---

(١) سورة الحج : الآية ٤٠ .

السلطان الملك الكامل بن الملك العادل

٦١٥ – ٦٣٥ هـ / ١٢١٨ – ١٢٣٧ م .

٢٥١ – نص التقليد الذي منحه الخليفة المستنصر بالله العباسي الى الملك الكامل لما اصبح ذاك خليفة وارسل له الكامل يهنئه ويطلب منه التقليد . وهو من انشاء وزير الخليفة المستنصر بالله ابي الأزهر احمد بن الناقد[1] .

الحمد لله الذي اطمأنت القلوب بذكره ، ووجب على الخلائق جزيل حمده وشكره ، ووسعت كل شيء رحمته ، وظهرت في كل أمر حكمته ، ودل على وحدانيته بعجائب ما احكم صنعاً وتدبيراً ، وخلق كل شيء فقدره تقديراً[2] ، فمد الشاكرين بنعمائه التي لا تحصى عدداً ، وعالم الغيب الذي لا يطلع على غيبه احداً ، لا معقب لحكمه في الابرام والنقض ، ولا يؤوده حفظ السموات والأرض ، تعالى أن يحيط به الضمير ، وجل ان يبلغ وصفه البيان والتفسير ، ليس كمثله شيء وهو اللطيف الخبير .

واحمد الله الذي ارسل محمداً ﷺ بالحق بشيراً ونذيراً ، وداعياً الى الله بإذنه وسراجاً منيراً[3] وابتعثه هادياً للخلق ، واوضح به مناهج الرشد وسبل

---

(١) يذكر القلقشندي في كتابه صبح الأعشى جـ ١٠ ، ص ٩٩ ان الخليفة العباسي المستنصر بالله منح هذا التقليد الى السلطان العادل اخي صلاح الدين ، وهذا وهم من القلقشندي ، ذلك ان العادل توفي سنة ٦١٥ هـ. على حين ان الخليفة المستنصر ولي الخلافة اما سنة ٦٢١ هـ. او سنة ٦٢٣ هـ. على خلاف في تاريخ الخلافة واستمر خليفة حتى سنة وفاته سنة ٦٤٠ هـ. ولذلك فمن المعقول ومن الصواب انه منح التقليد للسلطان الكامل بن العادل الذي ظل حاكماً لمصر من سنة ٦١٥ هـ. الى سنة ٦٣٥ هـ. أي انه أمضى فترة طويلة من حكمه وهو معاصر للخليفة المستنصر .

(٢) سورة الفرقان : الآية ٢ .

(٣) سورة الأحزاب : الآية ٤٦ .

الحق ، واصطفـــاه من اشرف الانساب واعز القبائل ، وجعله اعظم الشفعاء واقرب الوسائل . فقذف ﷺ بالحق على الباطل ، وحمل الناس بشريعته على المحجة البيضاء والسنن العـــادل ، حتى استقام اعوجاج كل زائغ ، ورجع الى الحق كل حائد عنه ومائل،وسجد لله كل شيء تتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل[1] صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الكرام الأفـاضل ،صلاة مستمرة بالغدوات والاصائل ، خصوصاً على عمه وصنو أبيه العباس بن عبد المطلب الذي اشتهرت مناقبه في المجامع والمحافل ، ودرت ببركة استسقائه احلاف السحب الهوامل ، وفـــاز من تنصيص الرسول ﷺ في الخلافـة المعظمة بمـا لم يفز به احد من الاوائل .

والحمد لله ألذي حاز مواريث النبوة والامامة ، ووفر من جزيـل الاقسام من الفضل والكرامة لعبده وخليفته ووارث نبيه ومحيي شريعته وسنته .

ولما وفق الله نصير الدين محمد بن سيف الدين ابي بكر بن أيوب من الطاعة المشهورة والخدم المشكورة ، انعم عليه بتقليد شريف امامي، فقلده على خيرة الله الرعاية والصلاة ، واعمـــال الحرب والمعاون والاحداث والخراج والضياع والصدقـــات والجوالي وسائر وجوه الجبايات ، والفرض والعطـاء والنفقة في الاوليـــاء ، والمظالم والحسبة ، في بلاده وما يفتتحه ويستولي عليه من بلاد الفرنج الملاعين ، وبلاد من تبرز اليه الاوامر الشريفة بقصده من المـارقين عن الاجماع المنعقد بين علماء المسلمين .

ومنه امره بتقوى الله تعالى التي هي الجنة الواقية والنعمة الباقية ، والملجأ المنيع والعماد الرفيع والذخيرة النافعة في السر والنجوى ، والجذوة المقتبسة من

---

(١) سورة النحل : الآية ٤٨ ، وهي في الآية يتفيأ .

قوله تعالى : وتزودوا فإن خير الزاد التقوى[1] ، وان يدرع شعارها في جميع الاقوال ، ويهتدى بأنوارها من مشكلات الامور والأحوال ، وان يعمل بها سراً وجهراً ، ويشرح للقيام بحدودها الواجبة صدراً ، قال الله تعالى : ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً[2] .

وأمره بتلاوة كتاب الله تعالى متدبراً غوامض عجائبه، سالكاً سبل الرشاد والهداية في العمل به ، وان يجعله مثالاً يتبعه ويقتفيه ، ودليلاً يهتدى براشده الواضحة في اوامره ونواهيه ، فإنه النفل الاعظم وسبب الله المحكم والدليل الذي يهدي للتي هي اقوم . ضرب الله فيه لعباده جوامع الامثال ، وبين لهم بهداه مسالك الرشد والضلال ، وفرق بدلائله الواضحة ، ونواهيه الصادقة بين الحرام والحلال ، فقال عز من قائل : هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين[3] . وقال تعالى : كتاب انزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر اولو الألباب[4] .

وامره بالمحافظة على مفروض الصلوات والدخول فيها على اكمل هيئة من قوانين الخشوع والاخبات ، وان يكون نظره في موضع نجواه من الأرض ، وان يمثل لنفسه في ذلك موقفه بين يدي الله تعالى يوم العرض . قال تعالى : والذين هم في صلاتهم خاشعون[5]. وقال سبحانه : ان الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً[6] . والا يشغل بشاغل عن أداء فروضها الواجبة ، ولا يلهو

(١) سورة البقرة : الآية ١٩٧ .
(٢) سورة الطلاق : الآية ٥ .
(٣) سورة آل عمران : الآية ١٣٨ .
(٤) سورة ص : الآية ٢٩ .
(٥) سورة المؤمنون : الآية ٢ .
(٦) سورة النساء : الآية ١٠٣ .

بسبب عن اقامة سنتها الراتبة ، فإنها عماد الدين التي سمت اعاليه ، ومهاد الشرع الذي رست قواعده ومبانيه . قال تعالى: حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين[1] .

وقال تعالى : ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر[2] .

وامره ان يسعى الى صلاة الجمع والاعياد، ويقوم في ذلك بما فرضه الله عليه وعلى العباد ، وان يتوجه الى المساجد والجوامع متواضعاً ، ويبرز الى المصليات الضاحية في الاعياد خاشعاً ، وان يحافظ في تشييد قواعد الاسلام على الواجب والمندوب ، ويعظم باعتماده ذلك شعائر الله التي هي من تقوى القلوب .

وان يشمل بوافر اهتمامه واعتنائة وكمال نظره وارعائه ، بيوت الله التي هي محال البركات وموطن العبادات ، والمساجد التي تأكد في تعظيمها واجلالها حكمه ، والبيوت التي اذن الله ان تُرفع ويذكر فيها اسمه ، وان يرتب لها من الخدم من يتبتل لازالة ادناسها ويتصدى لاذكاء مصابيحها في الظلام وايناسها ، ويقوم لها بما يحتاج اليه من اسباب الصلاح والعمارات ، ويحضر اليها ما يليق من الدهن والكسوات .

وامره باتباع سنة رسوله ﷺ التي اوضح جددها ، وثقف عليه السلام اوْدَها ، وان يعتمد فيها على الأسانيد التي نقلتها الثقات ، والأحاديث التي صحت بالطرق السليمة والروايات ، وان يقتدي بما جاءت به من مكارم الاخلاق التي ندب ﷺ الى التمسك بسببها ، ورغب امته في الأخذ بها والعمل

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٣٨ .

(٢) سورة العنكبوت : الآية ٤٥ .

بأدبها . قال الله تعالى : وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا[1] .
وقال سبحانه وتعالى : من يطع الرسول فقد اطاع الله[2] .

وامره بمجالسة اهل العلم والدين ، وأولي الاخلاص في طاعة الله واليقين ، والاستشارة بهم في عوارض الشك والالتبـــاس ، والعمل بآرائهم في التمثيل والقياس ، فإن في الاستشارة بهم عين الهداية ، وأمنـــاً من الضلال والغواية ، والا يلقح عقم الافهام والألباب ، ويقتدح زناد الرشد والصواب . قـــال الله تعـــالى في الارشاد الى فضلهـــا والأمر في التمسك بحبلهـــا : وشاورهم في الأمر [3] .

وامره بمراعاة احوال الجند والعسكر في ثغوره ، وان يشملهم بحسن نظره وجميل تدبيره ، مستصلحاً شأنهم بإدامة التلطف والتعهد ، مستوضحاً احوالهم بمواصلة التفحص عنها والتفقد ، وان يسوسهم بسياسة تبعثهم على سلوك المنهج السليم ، ويهديهم في انتظامها واتساقها الى الصراط المستقيم ، ويحملهم على القيام بشرائط الخدم والتمسك منهـــا بأقوى الأسباب وأمتن العصم ، ويدعوهم الى مصلحة التواصل والائتلاف ، ويصدهم عن موجبات التخـاذل والاختلاف ، وان يعتمد فيهم شرائط الحزم في الاعطاء والمنع ، وما تقتضيه مصلحة احوالهم من اسباب الخفض والرفع ، وان يثيب المحسن منهم على احسانه ، ويسبل على المسيء ما وسعه العفو واحتمل الامر ذيل صفحه وامتنانه ، وان يأخذ برأي ذوي التجارب منهم والحنكة ، ويجتني بمشاركتهم ثمر البركة ، اذ في ذلك امنٌ من خطأ الانفراد ، وتزحزح عن مقام الزيغ والاستبداد .

---

(١) سورة الحشر : الآية ٧ .
(٢) سورة النساء : الآية ٨٠ .
(٣) سورة آل عمران : الآية ١٥٩ .

وأمره بالتبتل لمـا يليه من البلاد ، ويتصل بنواحيه من ثغور اولي الشرك والعناد ، وان يصرف مجامع الالتفات اليها ، ويخصها بوفور الاهتمام بها والتطلع اليها ، وان يشمل ما ببلاده من الحصون والمعاقل بالاحكام والاتقان ، وينتهي في اسباب مصالحها الى غاية الوسع والامكان، وأن يشحنها بالميرة الكثيرة والذخائر، ويمدها من الاسلحة والآلات بالعدد المستصلح الوافر ، وان يتخير لحراستها من الامناء والثقات ويسدها بمن ينتخبه من الشجعان الكماة ، وان يؤكد عليهم في استعمال اسباب الحيطة والاستظهار ، ويوقظهم الى الاحتراس من غوائل الغفلة والاغترار ، وان يكون المشار اليهم ممن تربوا في ممارسة الحروب على مكافحة الشدائد ، وتدربوا في نصب الحبائل للمشركين ، والأخذ عليهم بالمراصد، وان يعتمد هـــذا القبيل بمواصلة المدد وكثرة العدد ، والتوسعة في النفقة والعطاء ، والعمل معهم بما يقتضيه حالهم وتفاوتهم في التقصير والعناء ؛ اذ في ذلك حسم لمادة الاطماع في بلاد الاسلام ، ورد لكيد المعاندين من عبدة الاصنام . فمعلوم ان هذا الغرض اولى ما وجهت اليه العنايات وصُرِفَت ، واحق ما قصرت عليه الهمم ووقفت ، فإن الله تعالى جعله من اهم الفروض التي لزم القيام فيهـا بحقه ؛ واكبر الواجبات التي كتب العمل بها على خلقه ، فقال سبحانه وتعالى هادياً في ذلك الى سبيل الرشاد ، ومحرضاً لعباده على قيامهم له بفرض الجهاد: ذلك انهم لا يصيبهم ظمأ [ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطئون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدوٍ نيلاً الا كتب لهم به عمل صالح ان الله لا يضيع اجر المحسنين ، ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً الا كتب لهم] الى قوله تعالى : ليجزيهم الله احسن ما كانوا يعملون[1] . وقـال تعالى :

---

(١) سورة التوبة : الآيتان ١٢٠ – ١٢١ ، لم يورد في الأصـــل نص الآيتين فأكملناهما ووضعناهما بين حاصرتين [ ] ذلك أنه اختصر الآيتين فوقف بالأولى عند لا يصيبهم ظمأ ثم قال الى قوله تعالى ليجزيهم ...

واقتلوهم حيث ثقفتموهم[1]. وقال النبي ﷺ: من نزل منزلاً يخيف منه المشركين ويخيفونه كان له كأجر ساجد لا يرفع رأسه الى يوم القيامة ، وأجر قائم لا يقعد الى يوم القيامة ، وأجر صائم لا يفطر . وقال ﷺ : غدوة في سبيل الله او روحة خير مما طلعت عليه الشمس . هذا قوله ﷺ في حق من سمع هذه المقالة فوقف لديها ، فكيف بمن كان [كما] قال عليه السلام : الا اخبركم بخير الناس ؟ ممسك بعنان فرسه في سبيل الله ، كلما سمع هيعة طار اليها .

وامره باقتفاء اوامر الله تعالى في رعاياه ، والاهتداء الى رعاية العدل والانصاف والاحسان بمراشده الواضحة ووصاياه ، وان يسلك في السياسة بهم سبيل الصلاح ويشملهم بلين الكنف ، وخفض الجناح ، ويمد ظل رعايتهم على مسلمهم ومعاهدهم ، ويزحزح الاقذاء والشوائب عن مناهلهم في العدل ومواردهم ، وينظر في مصالحهم نظراً يساوي فيه بين الضعيف والقوي ، ويقوم بأودهم قياماً تهتدي به ويهديهم الى الصراط السوي . قال الله تعالى : ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ، يعظكم لعلكم تذكّرون[2] .

وامره باعتماد اسباب الاستظهار على قضاء تفث حجاج بيت الله الحرام وزوار نبيّه عليه افضل الصلاة والسلام ، وان يمدهم بالاعانة في ذلك على تحقيق الرجاء وبلوغ المرام ، ويحرسهم من التخطف والأذى في حالتي الظعن والمقام ، فإن الحج احد اركان الدين المشتدة وفروضه الواجبة المذكورة . قال تعالى : ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا[3] .

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٩١ .
(٢) سورة النحل : الآية ٩٠ ، لم يورد في الأصل الا الجزء الاول من الاية فأكملناها .
(٣) سورة آل عمران : الآية ٩٧ .

وامره بتقوية ايدي العاملين بحكم الشرع في الرعايا ، وتنفيذ ما يصدر عنهم من الاحكام والقضايا ، والعمل بأقوالهم فيما يثبت لذوي الاستحقاق ، والشد على ايديهم فيما يرونه من المنع والاطلاق، وانه متى تأخر احد الخصمين من اجابة داعي الحكم ، او تقاعس في ذلك لما يلزم من الاداء والعزم ، جذبه بعنان القسر الى مجلس الشرع ، واضطره بقوة الانصار الى الاداء بعد المنع ، وان يتوخى عمال الوقوف التي تقرب المتقربون بها واستمسكوا في ظل ثواب الله بمتين سببها، وان يمدهم بجميل المعاونة والمساعدة وحسن المؤازرة والمعاضدة ، في الاسباب التي تؤذن بالعمارة والاستنماء ، ويعود عليها بالمصلحة والاستخلاص والاستيفاء ، قال تعالى : وتعاونوا على البر والتقوى[1] .

وامره ان يتخير من اولي الكفاية والنزاهة من يستخلصه للخدم والاعمال ، والقيام بالواجب من اداء الامانة والحراسة والتمييز لبيت المال ، وان يكونوا من ذوي الاطلاع بشرائط الخدم المعنية وامورها ، والمهتدين الى مسالك صلاحها .

حسن المحاضرة للسيوطي ج ٢ ، ص ٢٥ — ٣٢ .

٢٥٢ — رسالة جوابية من الكامل الى الملك الأشرف :

تقدم الملك الكامل باتجاه القدس فظن صاحب القدس ابن الملك المعظم ان الكامل يقصده ، فأرسل الى عمه الملك الأشرف يستنجده ، فحضر الأشرف بنفسه عنده . ثم خاف الأشرف ان يقصده الكامل فأرسل اليه يقول انه ما أتى دمشق الا طاعة له وموافقة لاغراضه والاتفاق معه على منع الفرنج ،

---

(١) سورة المائدة : الآية ٢ .

فأجابه الكامل بما يلي :

اني ما جئت الى هذه البلاد الا بسبب الفرنج ، فإنهم لم يكن في البلاد من يمنعهم عما يريدونه، وقد عمروا صيدا وبعض قيسارية ولم يمنعوا ، وانت تعلم ان عمنا السلطان صلاح الدين فتح البيت المقدس فصار لنا بذلك الذكر الجميل على تقضي الاعمار ومر الأيام ، فإن اخذه الفرنج حصل لنا من سوء الذكر وقبح الاحدوثة ما يناقض ذلك الذكر الجميل الذي ادخره عمنا ، وأي وجه يبقى لنا عند الناس وعند الله تعالى ؟

الكامل في التاريخ لابن الاثير ج ١٢ ، ص ٤٨٠ .

٢٥٣ – رسالة الكامل الى الأشرف :

اتفق الكامل مع الأشرف على اخذ دمشق من الملك الناصر بن الملك عيسى المعظم وتعويضه عنها بلداناً في شمال شرقي سورية ، وعلى اعطاء دمشق الى الملك الاشرف ، واعطاء الشوبك والكرك للكامل . ولكن الناصر رفض الخضوع ، وارسل الأشرف الى الكامل يستعجله الحملة لانجاز الاتفاق ، فأجابه الكامل بما يلي :

ان البلاد التي قد عينت لي حصون ومعاقل مثل الكرك والشوبك والصلت، وربما تعذر اخذها عليّ لحصانتها ، وتحصل انت على دمشق .

مفرج الكروب لابن واصل ج ٤ ص ٢٥٢ .

٢٥٤ – رسالة الكامل الى ابنه مسعود في اليمن :

ارسل العادل الى ابنه الكامل ان يبعث العساكر الى اليمن ، فأرسلها مع ابنه مسعود يوسف فاحتلها وضبطها ، وطال زمانه وقوي امره حتى انه قدم

اعلامه على اعلام الخليفة العباسي الناصر لدين الله . فأرسل الخليفة الى والده يشكوه وكان ذلك سنة ٦١٩ هـ فأرسل اليه والده يقول :

برئت من العادل يا أخس ان لم اقطع يمينك، فقد نبذت وراء ظهرك دنياك ودينك ، ولا حول ولا قوة الا بالله .

فاستعتب الى ابيه فاعتبه .

كتاب العبر لابن خلدون جـ ٥ ، ص ٧٤٧ .

– الملك المعظم عيسى ٦١٥ – ٦٢٤ هـ/١٢١٨ – ١٢٢٦ م

٢٥٥ – رسالة سرية من الملك المعظم الى اخيه الملك الكامل :

وقعت وحشة بين السلطان الكامل وبين اخيه الملك المعظم . ذلك ان الملك المعظم قطع خطبة اخيه في دمشق وخطب لجلال الدين الخوارزمي . فسار الكامل نحوه في جيشه ، فأرسل له المعظم هذه الرسالة السرية :

اني نذرت لله تعالى ان كل مرحلة ترحلها لقصدي اتصدق بألف دينار ، فإن جميع عسكرك معي وكتبهم عندي وانا آخذك بعسكرك .

٢٥٦ – رسالة علنية من المعظم الى الكامل في نفس المناسبة . ذلك ان المعظم ارسل الى اخيه رسالتين احداهما سرية ، وهي التي ذكرت اعلاه ، والثانية علنية ، وهي التالية :

اني مملوكك وما خرجت عن محبتك وطاعتك ، وحاشاك ان تخرج وتقابلني وانا اول من انجدك وحضر الى خدمتك من جميع ملوك الشام والشرق .

كتاب السلوك للمقريزي جـ ١ ، ق ١ ، ص ٢٢٢ .

٢٥٧ – رسالة الملك المعظم الى الملك الناصر صاحب حماة :

توفي المنصور صاحب حماة ، واوصى بالملك من بعده لابنه المظفر ، ولكن المظفر كان مع الكامل في مصر اثناء معركة دمياط، فاستلم مكانه اخوه الناصر واستبد بالأمور . ولما انتهت معركة المنصورة حاول المظفر الرجوع الى بلده وساعده الملك المعظم عيسى . وصدف ان احد مماليك الملك الكامل واسمه مجاهد الدين اقبال هرب منه الى سورية ، فزحف الملك المعظم عيسى نحو حماة طلباً لذلك المملوك ، واحس بذلك الملك الناصر فتحصن بالبلدة فأرسل اليه المعظم يقول :

اني لم اقصد قتالاً ، وانما اتيت لطلب مجاهد الدين اقبال ، فحيث سلكت طريق المحاربة والقتال فنحن نسلكه ايضاً مثلك .

مفرج الكروب لابن واصل ج ٤ ، ص ١١٨ .

٢٥٨ – رسالة جلال الدين بن خوارزمشاه الى الملك عيسى المعظم :

زحف جلال الدين على بغداد يريد احتلالها وطرد الخليفة الناصر منها ، واراد مساعدة فكتب الى الملك المعظم يستمده ويقول :

تحضر انت ومن عاهدني فنتفق حتى نقصد الخليفة ، فإنه كان السبب في هلاك المسلمين وفي هلاك ابي وفي مجيء الكفار الى البلاد ، ووجدنا كتبه الى الخطا وتواقيعه لهم بالبلاد والخلع والخيل .

٢٥٩ – جواب الملك عيسى المعظم لجلال الدين على الرسالة السابقة :

انا معك على كل احد الا على الخليفة فإنه امام المسلمين .

النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج ٦ ، ص ٢٦٠ – ٢٦١ .

بقية الملوك الايوبيين

٢٦٠ – رسالة الملك الأشرف الى الأتابك شهاب الدين مربي الملك العزيز بن الملك الظاهر صاحب حلب سنة ٦١٨ هـ .

تنازل مربي الملك العزيز عن الجبول وبزاعا وسرمين الى الملك الأشرف ، وبعد فترة ارسل الأشرف الى الاتابك يقول :

لما وقع الاتفاق في الابتداء وعرض عليّ الجبول وبزاعا وسرمين احببت ان آخذ ذلك ليعلم المخالف والعدو ان البلاد قد صارت واحدة ، والكلمة متفقة . والآن فقد تحقق النـــاس كلهم ذلك ، وأوثر الآن التقدم الى نواب المولى الملك العزيز في قبضها واجرائها على العادة وصرفها في مصالح بلاده .

مفرج الكروب لابن واصل جـ ٤ ، ص ١٠٦ .

٢٦١ – رسالة من الملك الناصر صاحب الكرك الى ابن عمه العادل الثاني ، وذلك جواباً لرسالة ارسلها له العادل تتعلق بأخيه الملك الصالح :

توفي الكامل وحل محله ابنه العادل الثاني ، فحـــاول ابنه الأكبر الملك الصالح ، وكان حاكمـاً على حصن كيفا ، الزحف على مصر وانتزاع الملك من اخيه العادل . غير ان العادل تحالف مع ابن عمه الملك النـاصر صاحب حصن الكرك وحاربا الملك الناصر وهزماه، ووقع الملك الصالح في اسر الملك الناصر وسجنه عنده في الكرك . فأرسل العـادل الى الناصر يطلب منه ان يرسل له اخاه في قفص من حديد ، وبذل له في مقـابل ذلك ٤٠٠ الف دينار ، وان ينتزع له دمشق من ملكها ويسلمها له ، فأجابه الناصر بما يلي :

وصل كتاب السلطان وهو يطلب اخاه الى عنده في قفص حديد ، وانك

تعطيني اربعمائة الف دينار مصرية وتأخذ دمشق ممن هي بيده وتعطيني اياها . فأما الذهب فهو عندك كثير ، واما دمشق فإذا اخذتها ممن هي معه وسلمتها الي ، سلمت اخاك اليك ، وهذا جوابي والسلام .

كتاب السلوك للمقريزي ج ١ ، ق ٢ ، ص ٢٩٠ .

٢٦٢ – رسالة شعرية ارسلها الناصر الى الملك الصالح لما سجنه عنده في الكرك بعد المعركة السالفة :

واذا مسك الزمان بضر عظمت عنده الخطوب وجلت

وتوالت منه نوائب اخرى سئمت عندها النفوس وملت

فاصطبر وانتظر بلوغ الأماني فالرزايا اذا توالت تولت

٢٦٣ – جواب الملك الصالح على الرسالة السابقة ، والشعر لشمس المعالي قابوس بن وشمكير :

قل للذي بصروف الدهر عيرنا هل حارب الدهر الا من له خطر

اما ترى البحر تطفو فوقه جيف ويستقر بأقصى قعره الدرر

وان يكن عبثت ايدي الزمان بنا وما لنا من تمادي بؤسه ضرر

ففي السماء نجوم لا عداد لها وليس يكسف الا الشمس والقمر

كتاب السلوك للمقريزي ج ١ ، ق ٢ ، ص ٢٩١ .

٢٦٤ – رسالة الملك الصالح نجم الدين الى قاضي قضاة القاهرة شرف الدين :

اخرج الملك الصالح اسماعيل ملك دمشق من دمشق الشيخ عز الدين بن عبد السلام وذلك بسبب موقفه منه وقطعه الخطبة باسمه لما بلغه تحالفه مع الفرنج ، فلجأ الى مصر فأكرمه صاحبها الملك الصالح نجم الدين وقلده قضاء مصر والوجه القبلي عوضاً عن قاضي القضاة شرف الدين بن يمن الدولة ، وارسل الملك الصالح نجم الدين الى شرف الدين الرسالة التالية :

ان القاهرة لما كانت دار المملكة ، وامراء الدولة واجنادها مقيمون فيها ، وحاكمها مختص بحضور دار العدل ، تقدمنا الى ان يتوفر القاضي على القاهرة وعملها لا غير .

كتاب السلوك للمقريزي ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٠٨ - ٣٠٩ .

٢٦٥ - رسالة ارسلها رئيس الحج الحموي الى الملك المنصور صاحب حماة يذكر له مصرع حاكم اليمن الأيوبي وتفرق كلمة اليمن :

ورث الملك المعز اسماعيل بن سيف الاسلام طغتكين بن ايوب حكم اليمن عن ابيه . ولكنه اساء السيرة فثار ضده اتباعه وقتلوه ، ووصلت الاخبار بذلك الى المشرف على الحج الحموي اثناء موسم الحج فأرسل الى الملك المنصور يقول :

واما اخبار اليمن ، فإن ابن سيف الاسلام قتله جماعة من الاكراد وتشوشت البلاد ، وكل استقل بما تحت يده . والبلاد سايبة تريد رجلاً يحفظها . وسرية ابن سيف الاسلام عصت في قلعة منيعة هي احصن القلاع وامنعها ، وعندها من الاموال ما لا يحصى عدده .

مفرج الكروب لابن واصل ج ٣ ، ص ١٣٦ .

٢٦٦ – رسالة السلطان قطز الى الملك الناصر الايوبي في دمشق :

استاء بقايا الايوبيين في سورية من انقضاء حكمهم في مصر واستلام المماليك الحكم فيها ، ووقعت وحشة بين الطرفين ، وخاف السلطان قطز ، ان يخامر الملك الناصر ضده مع هولاكو ، ولاسيما وانه وردته انباء تقول بوصول نجدة من هولاكو الى الناصر ، فأرسل قطز الى الناصر رسالة رقيقة يعتذر فيها ويقول :

... وان اخترتني خدمتك ، وان اخترتَ قدمتُ ومن معي من العسكر نجدة لك على القادم عليك ، فإن كنت لا تأمن حضوري سيرت اليك العساكر صحبة من تختاره .

كتاب السلوك للمقريزي ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤١٨ .

فهرس الوثائق

(١) يدل الرقم الموضوع امام الوثيقة على رقم الوثيقة لا الصفحة .

١٤ – توقيع المعز الى خازن بيت المال بشراء حاجياته وحاجيات اولاده بسعر باقي الناس
١٥ – رسالة حسان بن الجراح امير العرب الى المعز
١٦ – « المعز الى الحسن الاعصم زعيم القرامطة
١٧ – « الحسن الاعصم الجوابية الى المعز
١٨ – « « « الى جعفر بن فلاح قبل نشوب القتال بينهما
١٩ – « لؤلؤ حاكم حلب الى منجوتكين قائد العزيز
٢٠ – « والي دمشق الى العزيز حول ناصر الدولة الحمداني
٢١ – « منير قائد العزيز الى بكجور غلام سيف الدولة
٢٢ – « العزيز الشفوية لبكجور
٢٣ – رسالة افتكين التركي الى جوهر قائد العزيز .
٢٤ – « ثانية من افتكين الى جوهر .
٢٥ – « شفوية من العزيز الى افتكين .
٢٦ – « العزيز الى نائبه في مصر يبشره بالنصر على القرامطة وافتكين .
٢٧ – « خازن بيت المال الى العزيز حول اقراض بعض الموظفين .
٢٨ – جواب العزيز الى خازن بيت المال .
٢٩ – رسالة الحكم المستنصر بالله الاموي الجوابية الى العزيز .
٣٠ – « موجهة من مجهول الى العزيز .
٣١ – « ثانية من مجهول الى العزيز حول تذمر المصريين من تحكم اهل الذمة .
٣٢ – خطبة قرواش بن المقلد حاكم الموصل للحاكم بأمر الله الفاطمي .
٣٣ – منشور اصدره الحاكم باعفاء اهل حلب من الخراج .
٣٤ – رسالة الحاكم الى قواده لما قتل وزيره برجوان
٣٥ – مرسوم الحاكم بتولية الحسين بن علي بن النعمان القضاء .

٣٦ – رسالة الحاكم الى قاضيه الحسين بن علي لما كثر النزاع بينه وبين عبد العزيز ابن النعمان .
٣٧ – امان الحاكم لاهل الاسواق خاصة .
٣٨ – مطلع رسالة الحاكم الى واليه على صقلية لما قتل وزيره .
٣٩ – رسالة الحاكم الى خازن بيت المال .
٤٠ – مرسوم الحاكم بمنع ذبح البقر الصالح للحرث .
٤١ – رسالة قائد جيش الحاكم له يبشره بالنصر على ابي ركوة .
٤٢ – « ابي ركوة من السجن الى الحاكم يلتمس العفو .
٤٣ – « الحاكم الى والي الرملة بالقبض على والي دمشق .
٤٤ – « الجند الاتراك والمغاربة للحاكم لما نشب القتال بينهم وبين السودان .
٤٥ – جواب الحاكم للجند الاتراك .
٤٦ – رسالة سرية منه للسودان .
٤٧ – « من الجند الاتراك للحاكم لما علموا بأمر الرسالة السرية .
٤٨ – « اخت الحاكم الى ابن دواس .
٤٩ – مرسوم اصدره الظاهر بتولية الجرجرائي الوزارة .
٥٠ – « « « يمنع ذبح البقر الصالح للحرث .
٥١ – بيان اذاعه المستنصر الفاطمي لما شق انوشتكين عصا الطاعة .
٥٢ – رسالة المستنصر لانوشتكين بعد هذا البيان .
٥٣ – « انوشتكين الجوابية للخليفة .
٥٤ – « جوابية من صاحب حلب الى المستنصر .
٥٥ – « المستنصر الى المعز بن باديس لما قطع خطبته .
٥٦ – جواب المعز للمستنصر .
٥٧ – رسالة اليازوري الى المعز لما ارسل له العربان .
٥٨ – « « الى طغرلبك السلجوقي .

٥٩ – فقرات من رسالة طغرلبك الى ملك الروم حول رسول ارسله المعز بن باديس الى المستنصر مع هدايا .
٦٠ – منشور اصدره المستنصر بمدح وزيره اليازوري .
٦١ – رسالة المستنصر الى وزيره لما ألح عليه الاتراك بطلب المال .
٦٢ – « في تبرير حق المستعلي بالخلافة .
٦٣ – اعلان وفاة المستعلي وخلافة الآمر .
٦٤ – اعلام ولاة الاقاليم بوفاة المستعلي وخلافة الآمر .
٦٥ – اعلان الآمر لمقتل وزيره الافضل مع الثناء عليه .
٦٦ – مرسوم اصدره الآمر بترك الامور كما كانت عليه قبل مصرع الافضل .
٦٧ – « « « بتعيين المأمون البطائحي وزيراً .
٦٨ – « « « بتثبيت والٍ في ولايته .
٦٩ – « « الافضل وزير الآمر بتصحيح الخراج .
٧٠ – « « المأمون البطائحي باعفاء الفلاحين من بقايا الخراج .
٧١ – « « « « بعدم قبول الزيادة على الضامن .
٧٢ – « « « « باعفاء عدد من دافعي الخراج من الخراج .
٧٣ – « « « « بتنظيم المواريث الحشرية .
٧٤ – « « « « باعفاء مستأجري عقارات الدولة من اجرة شهر رمضان .
٧٥ – مرسوم اصدره الآمر بتخصيص دار وكسوة لمدرس طب .
٧٦ – رسالة الافضل الى طغتكين حاكم دمشق .
٧٧ – اعلان خلافة الحافظ .
٧٨ – مرسوم الحافظ بجعل ولده ولياً للعهد .
٧٩ – « « بالمبايعة بولاية العهد ويظن انه الظافر بن الحافظ .
٨٠ – اقرار الحافظ نعوت وزيره رضوان .

٨١ — رسالة جوابية من الحافظ الى الارمني بهرام .

٨٢ — « الحافظ الى قاضي بيسان .

٨٣ — « جوابية من الحافظ الى والي بعلبك .

٨٤ — « الحافظ الى ملك صقلية .

٨٥ — مرسوم الفائز بتقليد طلائع بن رزيك الوزارة .

٨٦ — « العاضد بجعل ابن شاور نائباً عن ابيه في الوزارة .

٨٧ — « « بتولية شاور الوزارة مرة ثانية .

٨٨ — « « بتولية اسد الدين شيركوه الوزارة .

٨٩ — « « « صلاح الدين الايوبي « .

٩٠ — رسالة العاضد الى نور الدين يستنجده ضد الفرنج .

٩١ — « شيركوه الى شاور يستنجزه الوعد .

٩٢ — جواب شاور .

٩٣ — « شيركوه .

٩٤ — « شاور .

٩٥ — « شيركوه .

٩٦ — رسالة عماد الدين الى اهل نصيبين على لسان حاكمها .

٩٧ — « « « « السلطان السلجوقي حول ابن عماد الدين .

٩٨ — « حاكم دمشق الى عماد الدين .

٩٩ — « المسترشد الخليفة العباسي الى عماد الدين حول دمشق وحاكمها .

١٠٠ — « عماد الدين الى ملك الروم .

١٠١ — « وزير عماد الدين الى قائد جيشه لما قتل عماد الدين .

١٠٢ — « لنور الدين من احد الصلحاء حول لعب الكرة .

١٠٣ — جواب نور الدين .

١٠٤ — رسالة الملا عمر لنور الدين حول العصاة في الموصل .

١٠٥ – جواب نور الدين .

١٠٦ – وصية نور الدين لأجناده لما اشتد مرضه ذات مرة وخاف الموت .

١٠٧ – رسالة جوابيـة من شاور الى نور الدين لأنه امر شيركوه بالرجوع الى الشام .

١٠٨ – مقتطفات من رسالة نور الدين الى العاضد يعرض بحاجته الى اسد الدين.

١٠٩ – وصية اسد الدين قبل موته لقراقوش .

١١٠ – رسالة نور الدين الى صلاح الدين يحثه على الغاء الخلافة الفاطمية .

١١١ – « صلاح الدين الى وزير الخليفة العباسي يخبره بالغاء الخلافة الفاطمية .

١١٢ – مقتطفات من رسالة ارسلها صلاح الدين الى المستضيء العباسي يبشره بالغاء الخلافة الفاطمية .

١١٣ – اشعار ارسلها نور الدين الى المستضيء يبشره بالغاء الخلافة الفاطمية .

١١٤ – بشارة نور الدين الى جميع المسلمين بالغاء الخلافة الفاطمية .

١١٥ – رسالة صلاح الدين الى نور الدين يخبره بمؤامرة اعادة الخلافة الفاطمية في مصر واكتشافها .

١١٦ – رسالة نور الدين الى المستنجد العباسي يخبره بالزلازل في بلاد الشام .

١١٧ – « « « « المستضيء « يخبره بفتوحه في شمالي بلاد الشام.

١١٨ – محاورة صلاح الدين مع ابيه واجنـــاده من اجـل تحديد موقفه من نور الدين .

١١٩ – رسالة صلاح الدين الى من بدمشق مستفسراً عن صحة نور الدين وقد بلغته اشاعات تنذر بموته .

١٢٠ – رسالة صلاح الدين الى نور الدين حول العربان وترحيلهم .

١٢١ – « نور الدين الى وزير اخيه قطب الدين .

١٢٢ – « « « لاهل دمشق .

١٢٣ – جواب حاكم دمشق على الرسالة السابقة .

١٤٧ — رسالة من ابن المقدم الى صلاح الدين من اجل الملك الصالح .

١٤٨ — جواب صلاح الدين لابن المقدم عن الرسالة سالفة الذكر .

١٤٩ — رسالة شمس الدين ابن الداية الى الامراء الملتفين حول الملك الصالح .

١٥٠ — « الامراء الملتفين حول الملك الصالح الى صلاح الدين .

١٥١ — « الخادم كمشتكين الى صلاح الدين .

١٥٢ — « « « « الملك الصالح والامراء حوله .

١٥٣ — خطبة الملك الصالح في اهل حلب يحرضهم على مساعدته ضد صلاح الدين .

١٥٤ — رسالة صلاح الدين الى المستضيء بالله يشرح احواله .

١٥٥ — « في صورة تذكرة ارسلها صلاح الدين الى المستضيء يشرح بها احواله وما انجزه .

١٥٦ — فصل من رسالة ثانية ارسلها صلاح الدين الى المستضيء يشرح بها احواله وما انجزه .

١٥٧ — مقتطفات من رسالة ثالثة ارسلها صلاح الدين الى المستضيء يشرح بها احواله وما انجزه .

١٥٨ — مقتطفات من رسالة رابعة ارسلها صلاح الدين الى المستضيء يشرح بها احواله وما انجزه .

١٥٩ — مقتطفات من رسالة خامسة ارسلها صلاح الدين الى المستضيء يشرح بها احواله وما انجزه .

١٦٠ — فصل من رسالة صلاح الدين الى المستضيء لما توفي الملك الصالح .

١٦١ — عهد الخليفة المستضيء الى صلاح الدين بتوليته مصر واليمن وما يفتتحه من البلاد .

١٦٢ — رسالة الخليفة المستضيء الى صلاح الدين بعد وفاة نور الدين واثناء صراعه مع الامراء حول الملك الصالح .

١٦٣ – رسالة من صلاح الدين الى المستضيء يتوسط للعفو عن عز الدين اقبوري.

١٦٤ – مقتطفات من رسالة صلاح الدين الى الخليفة العباسي الناصر يشكره لارساله الخلعة والتقليد له .

١٦٥ – رسالة الى الناصر من صلاح الدين يشرح موقفه من المواصلة والحلبيين.

١٦٦ – « من صلاح الدين الى استاذ الدار الامامية يشكو اعمال المواصلة.

١٦٧ – « « « « « « « « « « «
وجهاده .

١٦٨ – رسالة من صلاح الدين الى الديوان العزيز يشكو اعمال المواصلة وجهاده وغدرهم .

١٦٩ – فصل من رسالة ارسلها صلاح الدين الى الناصر يخبره بفتح آمد .

١٧٠ – رسالة صلاح الدين الى الناصر يخبره بفتح بلد من بلدان النوبة .

١٧١ – رسالة عتابية من استاذ الدار الامامية الى صلاح الدين يعاتبه باسم الخليفة عن امور بلغته .

١٧٢ – جواب صلاح الدين عن الرسالة السالفة .

١٧٣ – رسالة صلاح الدين الى الناصر يشرح فتوحه ويعلن استقبال رسله .

١٧٤ – « « « « « يطلب منه تقليده مدن سروج والرها والرقة .

١٧٥ – رسالة صلاح الدين الى الناصر يذكر له توجهه الى الديار المصرية .

١٧٦ – رسالة جوابية من الناصر الى صلاح الدين .

١٧٧ – « « من صلاح الدين الى الناصر .

١٧٨ – « القاضي الفاضل الى صلاح الدين يطلب اليه ان يقلد الكامل والمظفر بعض الاعمال .

١٧٩ – رسالة صلاح الدين الى اخيه العادل نائبه في مصر عن اعمال شغب وقعت .

١٩٩ – فصل من رسالة اخرى ارسلها صلاح الدين مبشراً بفتح حلب.

٢٠٠ – » » » » » » » » » لأحد الأمراء .

٢٠١ – فصل من رسالة اخرى ارسلها صلاح الدين مبشراً بفتح حلب لأحد الأمراء .

٢٠٢ – فصول من رسالة اخرى ارسلها صلاح الدين مبشراً بفتح آمد لأحد الأمراء .

٢٠٣ – رسالة صلاح الدين الى سيف الدين ملك الموصل لما هزمه ذات مرة .

٢٠٤ – » » » » معين الدين بن انر ليساعد الملك المظفر صاحب اربل .

٢٠٥ – رسالة صلاح الدين لصاحب الموصل يشكره لارساله عدة حربية له .

٢٠٦ – » » » » » معز الدين موبخاً منذراً .

٢٠٧ – » من قليج أرسلان الى صلاح الدين

٢٠٨ – جواب صلاح الدين الى قليج أرسلان عن الرسالة السابقة

٢٠٩ – رسالة صلاح الدين الى ملك الموحدين المنصور

٢١٠ – نص آخر لرسالة صلاح الدين الى ملك الموحدين المنصور

٢١١ – رسالة صلاح الدين الى ابن منقذ يكلفه أن يكون سفيره لدى المنصور الموحدي .

٢١٢ – رسالة القاضي الفاضل الى صلاح الدين يبدي اعتراضه على الرسالة الى المنصور الموحدي .

٢١٣ – رسالة ملك الروم الى صلاح الدين حول اجتياز ملك الالمان بلاده .

٢١٤ – » القاضي الفاضل الى صلاح الدين حول اتصال ملك قبرص به

٢١٥ – فصول من مرسوم أصدره صلاح الدين بتولية زيد الدين إربل .

٢١٦ – رسالة القاضي الفاضل الى صلاح الدين لتعيين خطيب في الكرك .

٢١٧ – مرسوم أصدره صلاح الدين بمنع الخوض في الصوت والحرف .
٢١٨ – رسالة القاضي الفاضل الى صلاح الدين مهنئاً بسلامة أولاده .
٢١٩ – » » » » » » » يثبطه عن اداء فريضة الحج .
٢٢٠ – فصول من رسائل وجهها القاضي الفاضل الى صلاح الدين تتضمن أموراً اداربة .
٢٢١ – نص اليمين التي حلف بها رؤساء العسكر للملك الأفضل لما اشتد مرض والده صلاح الدين .
٢٢٢ – مرسوم اصدره صلاح الدين بتصحيح زمن الخراج .
٢٢٣ – رسالة الملك الافضل الى الخليفة الناصر يخبره بوفاة والده واستلامه السلطة .
٢٢٤ – رسالة الملك الأفضل الثانية الى الخليفة الناصر .
٢٢٥ – » » » الى الخليفة الناصر يشرح له ما جرى من الأمور بعد وفاة والده .
٢٢٦ – رسالة الملك الأفضل الى الخليفة الناصر يذكر اتفاق اخيه وعمه ضده .
٢٢٧ – جواب الناصر للأفضل .
٢٢٨ – رسالة الملك الظاهر الى اخيه الافضل حول عمهما الملك العادل .
٢٢٩ – جواب الافضل .
٢٣٠ – رسالة الملك العزيز الى عمه العادل .
٢٣١ – جواب الملك العادل .
٢٣٢ – رسالة سرية من الملك العزيز الى الافضل .
٢٣٣ – رسالة الظاهر الى الافضل من اجل دمشق .
٢٣٤ – جواب الافضل على الرسالة السابقة .
٢٣٥ – رسالة الملك العادل الى الملك المنصور صاحب حماة من اجل الافضل .

٢٣٦ – مضمون الرسالة الشفهية التي ارسلها العـــادل الى المنصور من اجل الافضل .

٢٣٧ – عهد الافضل بتقليد قضاء مصر الى زين الدين بن بندار .

٢٣٨ – رسالة القاضي الفاضل الى الملك الظاهر يخبره بوفاة والده صلاح الدين .

٢٣٩ – « ثانية من القاضي الفاضل الى الظاهر .

٢٤٠ – « الظاهر الى ابن عمه الملك المنصور صاحب حماة لحرب العادل .

٢٤١ – « ابن لاون الى الظاهر .

٢٤٢ – وصية الملك الظاهر عند موته .

٢٤٣ – رسالة القاضي الفاضل الى العادل يخبره بوفاة الملك العزيز ملك مصر .

٢٤٤ – رسالة ميمون القصري للعادل لما خلع المنصور بن العزيز عن حكم مصر وحل هو محله .

٢٤٥ – رسالة ميمون القصري الثانية للعادل حول نفس الموضوع .

٢٤٦ – « جوابية من العادل الى ميمون القصري .

٢٤٧ – « « من الصلاحية الى ميمون القصري عن طلبه منهم ان يساعدوه لخلع العادل .

٢٤٨ – رسالة القاضي الفاضل للعادل .

٢٤٩ – مقتطفات من رسالة اخرى وجهها القاضي الفاضل للعادل .

٢٥٠ – رسالة نائب العادل له عن رسالة ارسلها له يخبره بفتح مدينة خلاط .

٢٥١ – تقليد المستنصر بالله العباسي للسلطان الكامل .

٢٥٢ – رسالة جوابية من الكامل للأشرف .

٢٥٣ – رسالة الكامل للأشرف .

٢٥٤ – « « « لابنه مسعود في اليمن .

٢٥٥ – « سرية من الملك المعظم الى اخيه الكامل .

٢٥٦ – « علنية « « « « « « « .

مصادر البحث

١ - ابن الآبار . الحلة السيراء . تحقيق حسين مؤنس . القاهرة ، ١٩٦٣ م . ج ٢ .

٢ - ابن الاثير ، عز الدين . التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية . تحقيق عبد القادر احمد طليمات . القاهرة ، دار الكتب الحديثة ، ١٩٦٣ م .

٣ - الكامل في التاريخ . تحقيق عبد الوهاب نجار . القاهرة ، ادارة الطباعة المنيرية ، ١٣٤٨ هـ . ج ١٢ .

٤ - ابن تغري بردي . النجوم الزاهرة في اخبار ملوك مصر والقاهرة . القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٢٩ م ج ١٢ .

٥ - ابن الجوزي ، علي بن عبد الرحمن . المنتظم في تاريخ الملوك والأمم . حيدر آباد الدكن ، دائرة المعارف العثمانية ، ١٣٥٩ هـ .

٦ - ابن خلدون ، عبد الرحمن . كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر . . . بيروت ، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ، ١٩٧١ م . ج ٦ .

٧ - ابن خلكان ، ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد . وفيات الأعيان وانباء انباء الزمان ... تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٨ م . ج ٦ .

٨ - ابن شاكر الكتبي ، محمد بن احمد . فوات الوفيات . تحقيق محمد محيي

الدين عبد الحميد . القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥١ م جـ ٢ .

٩ – ابن شداد ، ابو عبد الله محمد بن علي . **الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة.** تحقيق سامي الدهان. دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات الشرقية . جـ ٣ .

١٠ – **كتاب سيرة صلاح الدين الايوبي المسماة النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية .** تحقيق جمال الدين الشيال . القاهرة .

١١ – ابن العديم ، كمال الدين عمر بن احمد . **زبدة الحلب من تاريخ حلب .** تحقيق سامي الدهان . دمشق ، المعهد الفرنسي للدراسات الشرقية ، ١٩٥١ – ١٩٦٨ م . جـ٣ .

١٢ – ابن العماد الحنبلي . ابو الفلاح عبد الحي . **شذرات الذهب في اخبار من ذهب .** القاهرة ، مكتبة القدسي ، ١٣٥١ هـ . جـ ٨ .

١٣ – ابن الفرات ، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم . **تاريخ ابن الفرات .** تحقيق حسن محمد الشماع . البصرة ، مطبعة حداد ، ١٩٦٧ م . الجزءان الرابع والخامس .

١٤ – ابن قاضي شهبة ، بدر الدين . **الكواكب الدرية في السيرة النورية .** تحقيق محمود زايد . بيروت ، دار الكتاب الجديد ، ١٩٧١ م .

١٥ – ابن القلانسي ، ابو يعلى حمزة . **ذيل تاريخ دمشق .** تحقيق امدروز . بيروت ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، ١٩٠٨ م . اعادت مكتبة المتنى طبعه بالاوفست .

١٦ – ابن كثير ، اسماعيل . **البداية والنهاية في التاريخ .** القاهرة ، المطبعة السلفية ، ١٩٣٢ م . جـ ١٤ .

١٧ ــ ابن منجب الصيرفي ، ابو القاسم علي : **الاشارة الى من نال الوزارة .** تحقيق عبد الله مخلص . المعهد الفرنسي . اعادت مكتبة المثنى ببغداد طبعه بالاوفست .

١٨ ــ ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم . **مفرج الكروب في اخبار بني ايوب .** تحقيق جمال الدين الشيال ومحمد حلمي محمد احمد . القاهرة ، وزارة الثقافة والارشاد القومي . جـ ٤ .

١٩ ــ ابو شامة ، شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل . **كتاب الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية.** تحقيق محمد حلمي محمد احمد. القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٦ . جـ ١ .

٢٠ ــ **كتاب الروضتين ...** القاهرة ، مطبعة وادي النيل ، ١٢٨٧ هـ . جـ ٢.

٢١ ــ ابو الفداء ، عماد الدين اسماعيل . **المختصر في اخبار البشر .** القسطنطينية ، ١٢٨٦ هـ . جـ ٤ .

٢٢ ــ ثابت بن سنان . **تاريخ اخبار القرامطة .** تأليف ثابت بن سنان وابن العديم . تحقيق سهيل زكار . بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٧١ م .

٢٣ ــ السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن . تاريخ الخلفاء ... تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . الطبعة الرابعة . القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى ، ١٩٦٩ م .

٢٤ ــ **حسن المحاضرة في اخبار ملوك مصر والقاهرة.** تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم . القاهرة ، دار احياء الكتب العربية ، ١٩٦٨ م . جـ ٢ .

٢٥ ــ الشيال ، جمال الدين . **مجموعة الوثائق الفاطمية ...** القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٥ م .

٢٦ – العماد الاصفهاني ، محمد بن محمـــد . **الفتح القسي في الفتح القدسي .** تحقيق محمد محمود صبيح . [القاهرة] ، الدار القومية للطباعة والنشر .

٢٧ – عنان، محمد عبد الله. **عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس.** القاهرة ، لجنة التأليف . والترجمة والنشر ، ١٩٦٤ م . ج ٢ .

٢٨ – القلقشندي ، ابو العباس احمد. **صبح الاعشى في صناعة الانشا.** القاهرة، دار الكتب المصرية ، ١٩١٣ م . ج ١٤ .

٢٩ – محمد بن تقي الدين عمر شاهنشاه الايوبي . **مضمار الحقائق وسر الخلائق.** تحقيق حسن حبشي . القاهرة ، دار الكتب ، ١٩٦٥ م .

٣٠ – المراكشي ، عبد الواحد . **المعجب في تلخيص اخبار المغرب** . تحقيق محمد سعيد العريان . القاهرة ، لجنة احياء التراث الاسلامي ، ١٩٦٣ م.

٣١ – المقريزي، تقي الدين احمد بن علي . **اتعاظ الحنفا باخبار الأئمة الفاطميين الخلفا.** تحقيق جمال الدين الشيال. القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٤٨م. الجزء الأول .

٣٢ – **اتعاظ الحنفا ...** تحقيق جمال الدين الشيال ومحمد حلمي محمد احمـــد . القاهرة ، لجنة احياء التراث الاسلامي ، ١٩٦٧ . ج ٤ .

٣٣ – **الخطط المقريزية .** الشياح ، لبنان ، مكتبة احياء العلوم . ج ٣ .

٣٤ – **كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك.** تحقيق محمد مصطفى زيادة. القاهره، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٤ . ج ٣ .

٣٥ – النويري ، شهاب الدين احمد . **نهاية الارب في فنون الادب** . الطبعـة الثانية . القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٢٩ م .

٣٦ – اليافعي ، ابو محمد عبد الله. **مرآة الجنان وعبرة اليقظان.** الطبعة الثانية، بيروت ، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ، ١٩٧٠ م ج ٤ .

كشف هجائي عام

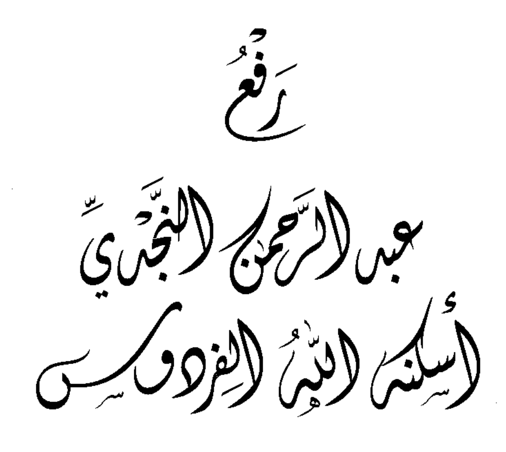
— أ —

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس

المحتويات



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

تطلب جميع منشوراتنا من
الشركة المتحدة للتوزيع
بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٣١٩٠٣٩ - ص.ب: ٧٤٦٠ - برقياً: بيوشران